أسوار بغداد وتحصيناتها الدفاعية
بغداد المدورة / دار السلام

الكتاب الأول

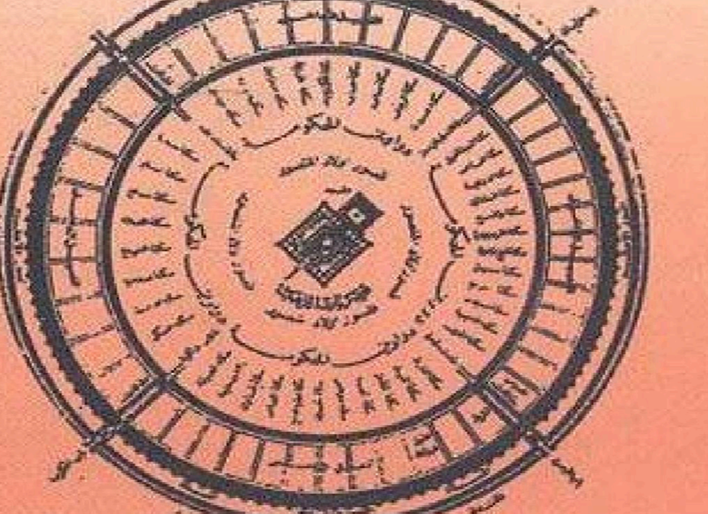
من ١٤٣ هـ تاريخ الاستطلاع لتحديد موقع المدينة وتصاميمها لغاية ٢١٨ هـ
انتقال الخلافة إلى سامراء وتهدم الأسوار
بسبب الفيضانات السنوية لدجلة والفرات

اللواء الركن / هندسة عسكرية

إحسان أكرم زينل



محراب جامع المنصور ذو القبّة الخضراء



تصميم المدينة المدوّرة / دار السّلام



دار دجلة
www.dardjlah.com

أســـوار بـــغـــداد وتحصيناتها الدفاعية

أســـوار بـــغــداد
وتحصيـنـاتـهـا الــدفـاعية
الكتاب الأول

بغداد المدورة ـ دار السلام

149 هـ - 766م

من بداية تصميمها في 143 هجرية لغاية تهدمها في فيضانات

الركن إحسان أكرم

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2010/12/4702)

956.3

زينل ، إحسان أكرم .

اسوار بغداد وتحصيناتها الدفاعية / إحسان أكرم زينل . عمان: دار دجلة 2011.

(380) ص

ر.ا: (2010/12/4702).

الواصفات:/ بغداد // تاريخ العراق /

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة

دار دجلة
ناشرون و موزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

جمهورية العراق

بغداد- شارع السعدون- عمارة فاطمة

تلفاكس:0096418170792

خلوي: 009647705855603

E-mail: dardjlah@yahoo.com

www.dardjlah.com

978-9957-71-202-0: ISBN

المحتويات

المقدمة

اسم مدينة بغداد اسم لامع ليس في تاريخ السياسة والدبلوماسية والاقتصاد والاجتماع والعسكرية وليس عبر التاريخ فحسب بل هو اسم له تميزه الكبير لارتباطه ببلاد وادي الرافدين لوقوع المدينة وسطها وفي منطقة اقتراب الرافدين من بعضهما وارتباطه باسم العراق (O-RA-CO) الاسم الموغل في القدم والذي أثرى الدنيا بحضاراته المتعددة والمتعاقبة حيث ولد أول حرف في الكتابة وأول قانون نظم العلاقة بين النّاس ومجموعاتهم الحضرية وأول فأس وأول محراث لعزق الأرض الزراعية وأول ناعور لرفع المياه من النهرين إلى الأراضي الزراعية لسقيها وريها وأول معبد يقيم فيه البشر طقوسهم ويهيمون في رحابه مع عوالم الغيب ويفكرون في ما بعد الحياة وأول أسطورة تاريخية وأول مسرح وما في كل ذلك من توسع في الفكر والثقافة الإنسانية وروحانياتها مما يرفع من المستوى الإنساني لبني البشر.

ولا عجب في كل ذلك.

فالراجح في الأثريات الموغلة في قدم خلق الإنسان أن الحياة البشرية بدأت في هذه البقعة من العالم أو حولها حيث شجرة آدم التاريخية في القرنة جنوب العراق وعند ملتقى النهرين العظيمين وحيث تروي الأساطير أن نزول آدم وحواء إلى الأرض كان عند هذه البقعة.

كما أن روايات الطوفان بمجملها تشير إلى أن الطوفان حدث في الجزء الشمالي منها وبعد انحساره انحدر السكان من البشر والحيوان إلى الجنوب حيث الخصب والنماء والمياه الوفيرة وأجواء الزراعة والعيش الرغيدة الخصبة خاصة بعد أن بدأت أراضي

شمال الوادي تضيق بساكنيها وتتحدد الموارد الغذائية لبني البشر وحيواناتهم فيها مما دفعهم إلى الهجرة بموجبات متعاقبة إلى الجنوب فكانت الهجرات السامية الأولى لأبناء نوح من نسل سام إليها وانقسامهم إلى حضر بنوا المدن والأمصار وأنشئوا الحضارات، وبدو رحل جابوا الديار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بحثاً عن الكلأ والمراعي والمياه.

وفي كل هذه الحقب الموغلة في القدم بقى الأريون من نسل حام في شمال الوادي وكانت هجراتهم المعروفة إلى الشرق والشمال منه حيث نشأت حضارات أخرى في مناطق متعددة من شبه جزيرة الأناضول والقوقاس والأفغان والهند والصين وبلاد فارس، وهكذا كان مما شاء اللـه لهذه الخليقة أن تنمو وتزدهر وتستمر في بقاع الأرض ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلِ لِتَعَارَفُوا**﴾.

أما الساميون فنزلوا وسط وجنوب الوادي وشمال شبه جزيرة العرب ورحل نفر منهم إلى الغرب حيث استوطنوا مناطق أخرى في الشمال الأفريقي.

ونعود إلى بلاد ما بين النهرين حيث تركزت الحضارات السومرية والأكدية والبابلية والعيلامية والآشورية والميدية والحضرية النبطية ثم الفارسية ثم العربية الإسلامية.

ورغم أن كل هذه الحضارات قامت في أماكن متفرقة من الوادي وحوله إلاّ أن أغلبها اختار وسط الوادي وفي منطقة اقتراب النهرين موطناً لعواصمها وحيث ظهر اسم (**بغداد**). وصحيح أن الوضع الصعب الذي تخلقه الطبيعة الجغرافية لمنطقة وسط الوادي المنخفضة والمعرضة سنوياً للفيضانات العارمة المهلكة للزرع والضرع ومن كلا النهرين دجلة والفرات وكذا فهي مخربة ومهدمة لمبانيها الطينية ومشردة لسكانها مما يؤدي إلى عدم استقرارهم , إلاّ أن الميزات الأخرى للمنطقة تطغى في كثير من

الأحيان وبشكل واضح على هذه الصعاب حيث توجد مجموعة كبرى من الميزات الاقتصادية والتجارية لتوسط المنطقة مما زاد من قدراتها الإنتاجية الزراعية، المورد الأساس لحياة البشر إضافة إلى عوامل أخرى من خصوبة الأرض (**لكونها أصلاً رسوبية**) ووفرة المياه في النهرين وروافدهما وفروعهما واعتدال المناخ مما ساعد على نمو الصناعات الحرفية وأهم من كل ذلك وجود الحماية العسكرية بسبب من وقوع المنطقة بين مجموعة كبيرة من الأنهار الملاحية وقنوات الري الاصطناعية.

إن المتتبع لتاريخ بغداد المنطقة والاسم ومن خلال البحوث الجارية عن أصلها وتاريخ إنشاءها قبل أوبيس وسلوقية وطيسفون ودار السلام المدورة يعود حتماً إلى العهود البابلية والكيشية والأكدية ويبدو ذلك واضحاً للدارسين في يومناهذا من خلال الشواهد التاريخية التي مازالت قائمة في زقورة عاقروقوفا (**دور كاريكالزو**) الكيشية وكما يسميه المؤرخون العرب وأهل العراق (**عقرقوف**) وآثار سلوقية في منطقة الدورة جنوب غرب بغداد أو آثار إيوان كسرى القائمة جنوب شرق بغداد في منطقة (**سلمان باك**) الأثرية. لم ترد أمور واضحة في التواريخ المثبتة عن أصل مدينة بغداد بالضبط ومن كتب عنها فقد خامرته الشكوك بسبب من عدم الوضوح هذا، حيث ركز البعض بحثه على الأدوار العباسية وبدايات أبو جعفر المنصور فيها، ولكنها دار السلام المدورة مدينة أبو جعفر المنصور وليست بغداد التاريخ حيث أرخ هذا البعض لتأسيس بغداد عام 145 هجرية وهو تاريخ البدء ببناء المدورة دار السلام في الجانب الغربي من دجلة ورغم إشارات هؤلاء المؤرخين إلى أن المنصور، (**وخلال جولته الاستطلاعية الشهيرة للقرار على المكان المناسب والموقع المفضل الذي يؤمن المتطلبات المطلوبة في عاصمة الملك العباسي**) سأل دهقان (بغداد)، (**مما يدل دلالة قاطعة على وجودها قبل المنصور**) عن مواصفات المكان وقد يكون هذا الوجود لآلاف من السنين خلت قبل ولادة المنصور ووصول الإسلام إلى إقليم العراق بفتحه على يد القائد خالد بن الوليد

والقائد سعد بن أبي وقاص والقضاء على النفوذ الفارسي فيه، بغداد القرية كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتها وهي قرية (**تقع في الجانب الغربي من دجلة**) قديمة جداً وجدت فيها آثار بابلية عند انحسار الماء عن دجلة في العام (1848م) يشير إليها (السير هنري روبنسن) وهي بقايا مسناة حجرية على ساحل نهر دجلة يعود تاريخها إلى (2500) عام وعليها قطع منحوتة لشعارات ورسوم بابلية تعود إلى زمن نبوخذنصر الثاني وفيها اسمه وتاريخ الإنشاء (605-558 ق.م) وكان هذا المنشأ يعرف عند العامة...

في بغداد باسم السن والذي يشبه المسناة على حافة دجلة ويرتبط بمنشآت أخرى خارج حافة النهر باتجاه الغرب مما يدل على أن هناك منشآت أخرى كثيرة تحت التراب تعود إلى العهد البابلي وتقع في جانب الكرخ جنوب محلة الكريمات وحتى منطقة جسر الأحرار وأخرى تقع قرب جسر باب المعظم مقابل وزارة الدفاع قد ظهرت بشكل واضح عند إنشاء الدكات الساحلية للجسر من جانب النهر الغربي عام (1982م) عند إنشاءه من قبل شركة يابانية وأحاطت مديرية الآثار المكان بسياج لحفظه وحمايته. وأن ذلك يؤشر لنا وبما لا يقبل الشك أن هذه القرية كما سميت أيام المنصور هي في الواقع آثاراً لمدينة بابلية قديمة وكبيرة تسكنها أقوام عراقية منذ عهود قديمة سبقت إنشاء سلوقية وطيسفون ولأكثر من ألفين وخمسمائة عام قبلهم.

وكان أحد ولاة بغداد العثمانيون وهو (ناظم باشا) قد سعى في العام (1911م) إلى هدم هذا الأثر والذي يبدو أنه كان بارزاً وقتها واستخدم في ذلك مجموعة عمل لم تفلح في الهدم بعد طول عناء عدا لجزء قليل منه وكان القرار بحجة إعاقة أجزاء من الأثر لحركة السفن في نهر دجلة والذي غير مجراه بشكل واضح خلال العهود الطويلة.

يقول الدكتور أن مصطفى جواد وأحمد سوسة في كتابهما (**دليل خارطة بغداد - قديماً وحديثاً**) أنه في أوائل ربيع سنة (1914م) وكان العمل وقتها جارياً في إنشاء سكة

حديد (**بغداد - برلين**) عندما اعترض مسار الخط جزءٌ من هذه الآثار فنسفت بالديناميت وكان المعتقد يومها أنها قصر من قصور البرامكة والحقيقة أنه لا صلة لهذا الأثر بالتاريخ الإسلامي بل هو بابلي الأصل حيث وجدت الرسوم والكتابات البابلية على حجراته وجدرانه، وكان موقعه في التل المسمى (تل نصرة باشا) ولا أثر له اليوم ويقع شرق مدينة المنصور الحالية قرب نهر الخر وعلى الطريق المسمى شارع دمشق حالياً وواضح أن هذا القصر أو الأثر هو من... المنشآت القديمة جداً وهو بابلي بالغالب لأن الثابت من دراسات العصر العباسي أن العمارة لم تصل إلى هذا الموقع.

أشارت تنقيبات وأبحاث أوبرت الجارية في عام 1853م وكذا يوتيون وهاير في عام 1889 إلى وجود قطع من الآجر الكلداني على الرصيف والمسناة على ساحل دجلة الغربي.إن أبحاثاً كثيرة أشارت إلى قرى في المنطقة الغربية من بغداد الغربية يرجع تاريخها إلى عهد الفرثيين ومع شديد الأسف إن الأبحاث والحفريات والتنقيبات الجارية لم تأخذ شكلاً منهجياً شاملاً بل جرت بأشكال مستقلة بمواقع مفردة وحسب تخصص واهتمام الباحثين والأثاريين مما يضع حملاً ثقيلاً على كاهل الآثار العامة العراقية لإنجاز مثل هذه البحوث.وفي كل الأحوال فإن هذه الدلالات إن دلت على شيء فإنما تدل على أن بغداد بأي شكل نتصورها فيه هي مدينة قديمة جداً يعود تاريخها إلى أكثر من ثلاث آلاف عام. وأنها كانت موقعاً مدنياً وحضرياً مهماً منذ ذلك الوقت يسكنه سكان الحضارات المختلفة في الوادي حيث تجد لأغلب هذه الحضارات آثاراً مهمة فيه لا تتركز في أي مكان آخر من الوادي بهذا التنوع الحضاري فهي فرثية كيشية بابلية آشورية إغريقية سلوقية فارسية عربية إسلامية.

واللافت للنظر أن تحصينات عسكرية هامة تركت بصماتها على الموقع مما يدلل على أهمية الموقع التجارية والحضرية السكانية منذ تلك العصور وليست بغداد الغربية فقط بل الشرقية أيضاً حيث عثر في منطقة الزوية الحالية وعلى الطريق

بين بغداد والمدائن وبعد قرية كلواذا القريبة من الباب الجنوبي المعروف باسمها (**باب كلواذا**) وفي منطقة تلول الزوية المعروفة باسم (**آشن حاج عبد**) أي تلول الحاج عبد على أثار أبنية بابلية من العهد البابلي الحديث وعلى آجرها أختام وكتابات باسم الملك نبوخذنصر, وإن هناك آثاراً أخرى يعود تأريخها إلى آلاف السنين في منطقة بغداد الجديدة عند تل محمد وعلى طريق القناة الحالي ولا مجال لي بهذا البحث للتفصيل فيها ومهما يكن الأمر فقد كتبت عن بغداد الموقع والمدينة مؤلفات وبحوث كثيرة تناولت في معظمها أصول الحكم وسير الحكام والملوك والقواد والولاة والشعراء والكتاب والحفاظ والمحدثين والفقهاء وكذا فقد تناولت كتابات وبحوث أخرى أخبار مدارسها ومساجدها وعمائرها وقصورها وأنهارها وجسورها وحتى حماماتها وربطها وتكياتها ودياراتها وحدائقها.وكان ممن كتب وبحث من غير المؤرخين باحثين متخصصين في الأدب والشعر والطب والهندسة والحرف الأخرى العامة والمتخصصة , ومعروف أن التاريخ العام هو تدوين لحقائق ولأحداث قامت سابقاً بتسلسلاتها الزمنية ومن العسير جداً ومع عدم تيسر المصادر والمراجع الكتابة عنها.

ولكن التخصص الممزوج بالتاريخ هو المطلوب لبحث أمور ذات صفات مهنية حدثت في الماضي وتحتاج اليوم إلى تفسير وتعليل بأمانة وموضوعية مهنية تجلي غبار العقود بل والقرون من الزمان عن أحداث مازالت تلفت نظر الدارس والقارئ غير المتخصص ومنها بحوث تفاصيل المعارك ومواصفات الأسلحة والمعدات والتحصينات الدفاعية وهي كلها من الأمور الأساسية التي حركت سياسات دول ذلك الزمان وأدت إلى نتائج حسنة وأخرى سيئة.

إن أسوار المدورة دار السلام وبغداد الشرقية وتصاميم إنشاءها وتطورها التاريخي العسكري لزمان زاد على الألف عام سابقة رأيت إن دراستها وتحليلها واجبة وفق المتيسر من المصادر وتبعاً لمعطيات علوم زمانها الهندسية ومنها العسكرية لإغناء

وتعزيز دراسات تلك المرحلة بدراسات متخصصة لمثل هذه المنشآت المدنية العريقة , ومع شديد الأسف فإن الألف عام الماضية لم تشهد مثل هذه الدراسات ولم يكن هناك أصلاً على ما يبدو من يقيم هذه الآثار بحق قدرها إضافة إلى يد الهدم البشرية تناولتها قبل الطبيعة فلم يبق منها ما يساعد على ذلك سوى بعض الأجزاء القائمة إلى يومنا هذا مع مجموعة من الصور الفوتوغرافية أو المرسومة باليد من قبل بعض الرحالة وهي مع قلتها لا تغني عن فكرة واضحة للمتخصص في هذه العلوم مما حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع للبحث في موضوع (**أسوار بغداد من مراحل إنشاءها الأولى حول بغداد المدورة - دار السلام ثم أسوار بغداد الشرقية في زمن المستعين والغربية وتطورها التاريخي العسكري حتّى تهدمها أو هدمها في بدايات القرن العشرين من قبل مؤسسات أمانة العاصمة آنذاك**) موضوعاً لرسالتي عندما كنت طالباً في مرحلة الدكتوراه في معهد التاريخ العربي التابع لجامعة الدول العربية الذي لم أوفق إلى مناقشة رسالتي فيه بسبب إلغاء القسم العسكري في المعهد المذكور ولكني ارتأيت إتمام البحث ونشره على شكل مؤلف وتحت نفس الاسم والعنوان وأسأل اللـه أن يكون مغنياً للمكتبة العربية في هذا الجانب المهم لدى الدارسين المتخصصين والقراء محبي التاريخ وبالذات تاريخ مدينتنا العظيمة بغداد الأزل وهو ضمن تخصصي كمهندس عسكري مارست التخصص لمدة تزيد على الثلاثين عاماً وضمن معارك وحروب مشهوداً لي فيها فنياً.

إن من أهم الأمور التي لفتت نظري في المتبقي من أسوار بغداد الشرقية في باب الظفرية (**الباب الوسطاني**) وهو قائم إلى يومنا الحاضر وفي الجزء المجاور لجامع الأزبك وبينه وبين قاعة الشعب (**قاعة الملك فيصل سابقاً**) في منطقة الباب المعظم هي دقة تنظيم مزاغل الرمي على أبراج السور من وجهة نظر قواعد التعبئة الصغرى في السيطرة على ساحات الرمي وتساند المواضع مع بعضها ورمي النار

الجانبية المؤثرة وتغطيه المانع المائي المنشأ كخندق حول السور مما يدل على فكر عسكري متقدم في زمانه بدرجة كبيرة جداً وكما سنرى تفصيلاً في المتن. هذا من الناحية العسكرية الدفاعية.

أما من الناحية الهندسية فإن هذه الآثار تلفت نظر المتخصص حقاً في ناحية دقة التصميم ورصانة تنفيذ الأسس ، فالمعروف عن مدينة بغداد أنها تقع ضمن منطقة ترب خفيفة حيث لا يتحمل المتر المربع الواحد فيها أكثر من نصف طن من الأحمال إضافة إلى المنسوب العالي للمياه الجوفية وانتشار المياه السطحية في منطقة بغداد حيث يقترب النهرين العظيمين دجلة والفرات من بعضيهما وحيث توجد مجموعة كبيرة جداً من أنهار الري والبزل في المنطقة وخاصة أيام إنشاء هذه الأسوار وإلى يومنا هذا. ذلك وأن هناك الكثير من المنشآت الكبيرة والعمائر الأخرى مثل الخانات والمدارس والمساجد ذات المنائر داخل المدينة ما ينطبق عليه ما سقناه حول دقة وعلمية التصاميم أولاً وكفاءة الإنشاء والتنفيذ لمثل هذه المنشآت الضخمة مما يستحق التأمل والإعجاب والدراسة في زمن كان العالم فيه نائماً تحت مظلة الجهل والسطحية والتخلف.

إن أساليب التصميم المشار إليها تدل على مستوى هندسي متقدم حقاً كما إن التنفيذ ورصانته تدل على حرفية عالية وهندسة إشراف متقدمة مما لم أكن أتصوره تماماً في مثل تلك العصور التي سبقت العصور الوسطى وما عرف عن تخلفها في القارة الأوربية وبلدانها.

إن من الأمور الأخرى المتعلقة بنفس الموضوع والتي أرى بحثها بل وضرورة دراستها هي تراجم هؤلاء المهندسين والحرفيين والعسكريين حيث لم أجد في التراجم المتيسرة ما يغني الموضوع أو ما يبحث في أصل مدارس لهذه العلوم وإن كانت خاصة

حيث من المعلوم أن هذه المهن كانت متوارثة في عوائل معينة يجري فيها التعلم والممارسة من قبل الأب لأبنائه والأسطة المهني لتلاميذه ومعاونيه من الكسبة والعمال وهي مدارس لا يعتد بها لمحدوديتها وعدم تيسر المدونات حولها.

إن التاريخ كان وما زال علم نقد وتحقيق. المتخصص فيه يجب أن يكون نزيهاً متجرداً وليس متحيزاً إلى أمة أو فئة من النّاس أو دين من الأديان وهو ليس علم رواية وقصة. ولأن هذا التاريخ لقدم الزمان فيه ومروره سابقاً بفترات من الجهل والأمية وكان التدوين فيه معجزة كبرى. وخاصة في بلاد ما بين النهرين حيث الحضارات القديمة وأوائل المكتشفات والمخترعات والكتابات الأولى في التاريخ حيث بدأ التدوين على الرقم الطيني ومنحوتات الحجر أحياناً ولكون هذه الحضارات وآثارها وعمائرها طينية بسبب من طبيعة أرض الوادي وجيولوجيتها فقد اندرست أغلب الآثار بسبب فيضانات النهرين الطاغية دوماً والمدمرة لهذه المعالم إضافة إلى ما فرضته سياسات شعوب ودول ذلك الزمان من صراعات وحروب هي الأخرى مدمرة لهذه الآثار بحيث إن ما وصلنا منها نزر قليل وغيض من فيض من الكم الهائل لأحداث آلاف السنين رغم نزول الأديان المساوية التوحيدية الثلاثة على هذه الأرض أو حولها ونزول الكتب المقدسة التي جمعت ما لا بأس به من قصص الأولين وعلى قدر تعلق الأمر بأسباب نزولها.

وشديد الأسف للأوضاع اللاحضارية التي سادت المنطقة في أزمان سالفة والتي أدت إلى ضياع هذه الآثار وتدميرها وفقدان الكثير منها.

وللحقيقة والتاريخ أجدني مضطراً لأن أقف احتراماً لأولئك الباحثين الذين جاءوا المشرق كمستشرقين مسيطر عليهم وممولين من جهات سياسية لأغراض معينة ولكنهم اندفعوا كأناس متحضرين شرفاء باتجاه المهنية ونقبوا هذه الآثار واكتشفوا

وكتبوا ما لم يتمكن منه أبناء البلد أنفسهم أو لنقل أنه لم يحظ باهتمامهم فهناك من أبناء البلد ولو قلة ولكنهم كانوا شموع هذا الجهد فيه أمثال الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة والمرحوم طه باقر وأساتذة آخرين قدموا الكثير ولكن جهدهم المبدع المشكور غير كافي ففي البلد مئات المواقع الأثرية وقد تزيد وفيه قامت عشرات الحضارات واندرست عشرات المدن مما يتطلب جهد المئات بل الآلاف من المتخصصين والغريب أن الدولة العراقية بعد أحداث تموز (1958م) وإلى يومنا الحاضر لم تول هذا الأمر ما يستحقه ولا حتّى ما لا يستحقه من الاهتمام والجهد والإنفاق بحيث تجلوا الغبار المتراكم فوق هذه الآثار لمثل تلك الحضارات الرائدة وبما يؤدي إلى الكشف عن أسرارها وبما يخدم مستقبل كيان الأمة وسمعتها بتاريخ بلدانها العريقة وبما يقدمه هذا الجهد من مردودات مالية مع فتح السياحة الآثارية فيه، وهو جهد إن حصل فسيكون موضع الاهتمام العالمي.

ولا أفهم لماذا عقدنا هذه، هل هي بسبب كثرة أعدائنا في الخارج أم هي بسبب أمور أخرى تتمثل في مصالح حاكمينا وخوفهم من انفتاح آفاق شعوبنا وبسبب من حب السيطرة والدكتاتوريات القائمة، محدودة الأفق والتي تقف حجر عثرة أمام تقدم شعوبنا ورقيها، أم أنها بسبب من طبيعتنا في التمرد على الأشياء وحب الفتنة والذي يقوقعنا ويجعل تافه الأمور يطفوا على السطح حاجباً كل سمين ونافع عن الأنظار........ لا أدري.

صادف وأن كنت في العام (1971م) آمراً لإحدى الوحدات العسكرية التي شاءت الظروف أن نعسكر في منطقة الشرقاط وتحديداً على هضبة الجرناف وكنت وبسبب من حبي للآثار والتاريخ التي قرأت عنها الكثير في مكتبة المرحوم والدي الذي كان محباً للقراءة موسوعياً بها مما علمني مرافقة الكتاب بكل أشكاله وأنواعه ومنذ حداثتي، وبسبب من حبي هذا ولكون الموقع آثارياً حيث أطلال مدينة (**آشور**)

القديمة وبالقرب منها وعلى بعد عشرات الكيلومترات كانت مدينة الحضر التاريخية وكنت أزورهما كلما سنحت لي الفرصة وأسأل وأسمع إجابات غريبة تماماً وبعيدة كل البعد وفي أغلب الحالات عن علم الآثار وقواعده وأصوله فلم يكن هناك أدلاء من حملة الثقافة الآثارية من تستعين به بل أن الأدهى والأمر أن بلده آشور وهي عاصمة حضارة كبيرة معروفة لمئات السنين لم أجد فيها سوى حارس لا يجيد حتّى القراءة والكتابة ليس له من الفهم والحس الآثاري شيئاً ولا توجد أي مرافق حضرية في المنطقة تغري السائح ولا حتّى المواطن العراقي الراغب في الدراسة والفهم والاطلاع إلى درجة أن هذا الحارس الأمي الذي لا يفهم من الأمر سوى ما يتعلق منه بالماديات وأن هناك كنوزاً بقيم مادية عالية من الذهب والفضة والنفائس ولا يوجد من يتابعه من موظفي دائرة الآثار فقد أخبرني بأنهم لا يحضرون إلى هذا الموقع إلاّ بعد كذا من الشهور وسمعته يتحدث ببلاهة عن وجود الجن والأرواح في الموقع ولا أدري هل أنه وجدها طريقة جيدة لإبعادنا عن الموقع حيث كان لا يستطيع صرفنا عنه بسبب البزات العسكرية التي كنا نرتديها ويا لشديد الأسف على هذا البلد وثقافاته المهدورة والمطمورة تحت الأتربة والركام المكدس لعشرات بل مئات وآلاف السنين.

وذات يوم - **وكان هذا الموقع قرب نهر دجلة مباشرةً** - كنت التف حول المدينة فلاحظت حافاتها الشرقية الملاصقة لنهر دجلة قد تأثرت بمياه الفيضان وتآكلت وأصبحت قطوعاً كالقطوع الجبلية - المدينة أعلى من مستوى النهر بعشرات الأمتار - ورأيت أن المدينة هي ليست مدينة واحدة وإنما هي أربعة مدن فوق بعضها جرد الماء في موسم الفيضان حافات أبنيتها وبين كل مدينة والأخرى حوالي سمك المتر... والنصف أو المترين من الأتربة. ولا أدري ما هي الوثائق والسجلات المحفوظة في مديرية الآثار حولها وما هو نهج المديرية في أسلوب التنقيب فيها مستقبلاً فالله أعلم إذا كان هناك من له اهتمام به أم لا وهو من السعة ما يحتاج إلى جهود كبيرة لإنجازه.

حادث آخر هزَّني في حياتي حول الآثار والتاريخ فقد قمت بزيارة للمتحف الحربي عندما كان موقعه بناية باب الظفرية (**الباب الوسطاني**) في منطقة تربة الشيخ عمر السهروردي والبناية جزء من سور بغداد الشرقية والقائم إلى يومنا هذا وكنت إضافة إلى زيارة المتحف أرغب في الاطلاع على تفاصيل التصاميم لأسوار بغداد ومدى مطابقتها مع قواعد التعبئة في ذلك الزمان فقرأت على أحد المدافع الصغيرة المعروضة وبالعربية أن المدفع (**صنع من قبل الأسطة رجب**) فعجبت لهذا الأسطة ولم تكن لدي وقتها أي معلومة عن مثل هذه الصناعة في بلدنا وقيل حوالي ثلاثمائة عام من زماننا، فما كان مني إلاّ واتصلت بأحد أساتذة التاريخ الحديث وسألته عمن يكون هذا الأسطة الذي يتمكن من صناعة مثل هذا المدفع وعلى بساطته فهو يتطلب قدراً غير قليل من المعلومات عن فيزياء المقذوفات وعن السبائك التي تتحمل ضغوط الانفجار داخلها وهو أمر معلوم للقارئ حتماً فأخبرني الأستاذ بأن هذا الرجل هو كردي من مدينة راوندوز وأنه كان خبيراً بالسباكة والسبائك وأنه كان يعدِّن الخارصين والنحاس والزنك ويصدرها إلى أوربا عن طريق بلاد الشام وأنه صنع العديد من هذه المدافع وبقياسات مختلفة ويوجد العديد منها في قلعة (**كور باشا**) بالقرب من مدينة راوندوز وفي أماكن أخرى من القطر وأنه أوفد إلى الهند من قبل الوالي المملوكي حسن باشا للدراسة ولشراء معمل لصنع البنادق هولندي المنشأ وأنه شحن إلى العراق فعلاً ونصب في القلعة (**موضع وزارة الدفاع الحالية**) وأنتج بندقية عراقية سميت وقتها (**الشيشخانة العراقية**) وعلى غرار ما كان معروفاً عن إنتاج إيراني (**الشيشخانة الإيرانية**) وأسمع لأول مرة من أستاذي المذكور أن نهر راوندوز كان يسمى في تلك الفترة (**نهر الذهب**) وأن الأسطة المذكور كان متخصصاً ... بتعدين الذهب منه إضافة إلى المعادن الأخرى. أليس غريباً أن يكون هذا تاريخنا ولا نعرف عنه شيئاً، ولعل ما يثير الاستغراب أكثر هو تخلفنا في هذه الأعوام الثلاثمائة وإلى

يومنا الراهن وفي كل المجالات المعروفة، فإذا كنا قبل عصر النهضة في أوربا بهذا المستوى فلماذا لم تستمر المسيرة في التقدم العلمي والنهوض الفكري وله كل هذه الإمكانات والمؤهلات؟؟؟

ولعلها حكمة اللـه في خلقه أن تتداول الأمم الحضارات ولم يجعلها محصورة في أمة معينة ولكل أجره وعلى قدر سعيه وجده واجتهاده.

وعلى أي حال فإن الموضوع يحتاج إلى قدر كبير من الاهتمام وإعداد الكوادر وبناء المنشآت في هذه المناطق الأثرية وإعادة النظر في تنظيم الآثار العامة وإيجاد الصيغ المناسبة للانفتاح على علماء الآثار في العالم وهم كما هو معلوم من الكثرة ولديهم كل الاستعداد لإسناد الموضوع ولا عجب فهو التراث الإنساني وليس ملكاً لأحد أو لأمة وعموماً فسيكون هذا من صالح هذه الأمة وهذا الشعب أدبياً ومادياً.

وهي دعوة مخلصة مني بهذه المناسبة إلى جمعية الآثاريين العراقية ومديرية الآثار العامة إلى الالتفات لهذا الموضوع بجدية وإجراء الدراسة لوضع أسلوب معقول ومناسب لإدارة موضوع الآثار العراقية بشكل يتناسب مع حجمها أولاً ومع مكانتها العالمية والإنسانية والعلمية ثانياً وفي الحالين فإن هذه الآثار العراقية إذا ما أبرزت فستكون قيمة كبرى لهذا الشعب بين شعوب الأرض وستدر عليه موارد ضخمة من زائريها وروادها مما يعزز الأوضاع الاقتصادية فيه ويدفعه إلى الرقي والتقدم بمخالطة شعوب المعمورة.

ورغم أن الغاية الأساس من البحث هي عسكرية / هندسية إلاّ أنه لا يمكن أن يكون بحثاً متكاملاً بدون الرجوع إلى المعلومات والحقائق التاريخية المنقولة إلينا عن طريق مراجعنا ومصادرنا وبيان الأوضاع السياسية والإدارية والتنظيمية والفكرية في تلك الحقب التاريخية وبما له العلاقة الوثيقة مع أهداف البحث.

إن من الصعب جداً مواكبة هذه الأهداف العسكرية والهندسية في تلك الفترات التي مضى عليها أكثر من ألف عام وتصور العوامل المؤثرة والفاعلة فيها بدون الفهم الكامل من قبل الباحث والقارئ على حد سواء لمعطيات وظروف ومفاهيم ذلك الزمان وطريقة تفكير أهله والأجيال التي عاشت فيه حيث أن بينها وبين أجيالنا بون واسع وهوة كبرى في طريقة التفكير والمفاهيم السائدة، ومسألة فهم طريقة تفكير وظروف أهل ذلك العصر قضية أساسية لفهم تاريخنا واستيعاب مفاصله وباتجاه كونه أساساً لمبادئ ومفاهيم حضارة هذه الأمة وتحقيقاً لتواصل حاضرها بماضيها وعدم تقطيع خيوط وصلها.

وبعد كل هذا وبعد الجهد المظني في التفتيش في بطون المراجع والمصادر المتيسرة والاستنارة بآراء الأساتذة المؤرخين (**وأخص بالذكر أستاذي الدكتور حسين أمين... الأستاذ المشرف على رسالتي المشار إليها**) والأساتذة المهندسين والقادة العسكريين المتخصصين وباتجاه إيضاح كل العوامل السياسية والإدارية والتنظيمية والاقتصادية والفكرية وخاصة بعد انتشار الإسلام لتفسير وتعليل كل الظواهر الشاهدة في الآثار التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا رأيت ونظراً لسعة الموضوع وصعوبة الإلمام بجوانبه بمطبوع واحد أن أقسمه إلى كتابين يقتصر البحث في أولهما على منشآت دار السلام المدورة مع كل ما يستوجب التمهيد لهذا البحث المتخصص هندسياً وعسكرياً من العودة إلى الأسس والأصول العلمية فيه استكمالاً للفائدة ولتنوير القارئ غير المتخصص بأصول وأساسيات هذه المناحي وأرجو أن لا يبدو خروجاً عن الموضوع ويشمل البحث في الثاني منه خروج منشآت العاصمة العباسية عن أسوار دار السلام إلى بغداد الغربية وعبورها إلى بغداد الشرقية بكرخها ورصافتها وإقامة تحصينات وأسوار جديدة في الأزمنة اللاحقة ابتداءً من سور الخليفة المستعين وحتى آخر العصور العثمانية وزمان الحكم الوطني مضمناً البحث عصر ظهور البارود وما طرأ على هذه المنشآت من تطور وتحوير استوجبته قدرات ومديات الأسلحة الجديدة

وكذلك أهم المعارك التي دارت حول هذه الأسوار أو عليها وبما له من توضيح لأهميتها العسكرية ولأهمية التحصينات عموماً.

أركز هنا على مباحث الكتاب الأول هذا فأقول بأنني سأبحثه في مقدمة وستة فصول وخاتمة وقد يبدو في بعض هذه الفصول أو في عناوينها الفرعية خروجاً عن الموضوع ولكن تخصص العناوين وخاصة العسكرية والهندسية أوجبت هذا التوسع بما يفيد القارئ وحسب تقديري **وكما يلي**:

لقد أوضحت في المقدمة أموراً لها مساس بالوضع الآثاري والتاريخي المهمل إلى حد كبير في العراق وتقصدت في الفصل الأول الدخول في أسس وتأريخ موضوع التحصين عند بني البشر اعتباراً من الإنسان البدائي وحتى إنسان القرن العشرين وركزت فيه على مستوى فكر التحصين عند المسلمين الأوائل وعند العرب قبلهم بما يوضح صورة حضارية مغمورة عندهم وتطرقت إلى الصفات التكوينية لبلاد ما بين النهرين أساس موضوع البحث والمؤثر جداً فيه.

وفي الفصل الثاني ركزت على الوضع السياسي المؤدي إلى بناء العاصمة الجديدة اعتباراً من ثورة بني العباس في خراسان وانتقالها إلى الكوفة وإقامة دولة بني العباس ومشاكلها بعد العودة من دمشق ومساوئ موقعي هاشمية الأنبار وهاشمية الكوفة المؤدية إلى قرار تبديل العاصمة.

وركزت في الفصل الثالث على صفات الموقع الجديد المطلوبة واستطلاع الخليفة المنصور الشخصي وآراء أهل الخبرة وقراره النهائي.

أما في الفصل الرابع فقد ركزت على مستوى العلوم الهندسية والعسكرية الدفاعية في بداية العصر العباسي وتيسر المواد الأولية في الموقع والموارد المالية.

وفي الفصل الخامس ركزت على فن اختيار المدن وخططها عند العرب قبل الإسلام وبعده وبما له من علاقة بالهندسة والتخطيط والدفاع والتحصين وعن أفكار أهل القرار حول شكل المدينة الجديدة ثم شيئاً مفصلاً عن تصميمها وما يقدمه من فوائد هندسية ودفاعية حمايوية مع الإشارة والتركيز على إمكانات توسعها وحساباته

المسبقة بما أفاد فعلاً مستقبل دولة بني العباس، وكان الفصل السادس موضحاً للتحصينات والأسوار تصميماً وتنفيذاً بما يؤدي إلى وظائف عسكرية مستهدفة ضمن هاجس حمايوي وشروحاً للأبواب الأربعة والأنهار، حول المدينة والتي أعطتها المناعة المطلوبة وأخيراً وصلنا إلى خطة الدفاع لدى القيادة العباسية عن هذه العاصمة.

ولقد أبدلت العنوان الطويل لموضوع الرسالة إلى عنوان يتناسب مع شكل المؤلف وهو بغداد / بناءها / أسوارها / تحصيناتها / دراسة تحليلية هندسية / عسكرية / تاريخية / الكتاب الأول / دار السلام وأعتقد بأني اقتربت من توصيف مناسب لما أريد شرحه وأراه سباقاً في مجاله.

وسأتناول في الكتاب الثاني انتقال العاصمة ومقرات الحكم إلى خارج المدورة في كرخ بغداد ورصافتها والحاجة إلى تحصينات جديدة في العصر العباسي الأوسط في زمان المستعين وحتى نهاية الحكم العثماني وانتهاء دور هذه التحصينات وسأركز على تطورات عهد ظهور البارود والمعارك الدائرة على أسوار المدينة وحولها وقد درجت في بحثي على تجنب التوصيف العام جهد الإمكان بما درج عليه مؤرخينا من غير المتخصصين الذين شبهوا الفرق بين تعداد جيشي المسلمين والروم في معركة اليرموك (**بالشامة السوداء على البعير الأبيض**).

أسأل اللـه أن يكون جهدي هذا مفيداً وافياً لأغراضه مغنياً للمكتبة العربية في اتجاه بحث تاريخ التطورات العسكرية والهندسية في العهد الإسلامي.

منه تعالى التوفيق وإليه الشكر.

لواء ركن متقاعد / هندسة عسكرية

إحسان أكرم زينل

الفصل الأول

* شروح عامة لفكرة التحصين واستخدام التحصينات في الدفاع عبر التاريخ بطريقة الحفر والبناء.

* تطور فكرة التحصين من العصر الإسلامي الأول والدفاع عن المدن والأمصار بإقامة الدفاعات والتحصينات حولها مع أمثلة لنماذج مدن عربية قديمة.

* الصفات التكوينية لأراضي وادي الرافدين / المنطقة الوسطى / وإنشاء الأسوار والخنادق المائية حول المدينة / دار السلام / وعلى أراضيها الطينية الرخوة وذات المنسوب العالي للمياه الجوفية.

* فكرة إنشاء الأسوار والخنادق المائية حول المدن في بلاد وادي الرافدين مع نماذج قديمة وحديثة للتحصينات.

شروح عامة

لفكرة التحصين واستخدام التحصينات

في الدفاع عبر التاريخ بطريقة الحفر والبناء

دلت البحوث الآثارية ومنذ عهود قديمة وخاصة تلك المتعلقة منها بحياة الإنسان البدائية وسيرته في فعاليات حياته اليومية إلى أن هاجسه الأول والأهم كان هو حماية نفسه أولاً ولا عجب فنفسه وحياته هي الأساس في كينونته في الحياة ثم تطورت بتطور حياته الاجتماعية وظهور العائلة ككيان قائم وأساسي لهذا الإنسان فيما تلا ذلك من العصور إلى إيلاء عائلته الأولوية في الحماية حفظاً لنفسه ولكيانه الاجتماعي، هذه الحياة التي كانت تتعرض دوماً إلى جملة من التحديات الخطرة التي تنذر بإنهائها والقضاء عليها وتهديم كل ما بناه هذا الإنسان والأهم والأكبر هو تهديم أحلامه كمخلوق ذو طبيعة خاصة له مشاعره وأحاسيسه كرمه اللـه بعقل ولب هو الأكبر على وجه الخليقة، وكان أول هذه التحديات والأخطار هو خطر ظروف الطقس والأجواء الفصلية المتقلبة والمناخية القاسية من برد وحر ورياح. ثم كان هناك عدوان الوحوش والكواسر في حياة بدائية بربرية الغلبة فيها للأذكى والأقوى تلك الحياة التي كانت سائدة يومها وليس لها من بديل.

وأخيراً وليس آخراً كان هناك خطر الإنسان الآخر حيث ساد في وقتها ما سمي بشريعة الغاب والتي مازالت سائدة بين أبناء البشر لا على مستوى الفرد بل على

مستوى الجماعة والدولة وليس باستخدام العضلات فقط بل باستخدام الأسلحة الفتاكة واستخدام المال والقوة الاقتصادية.

وبذا بدأ الإنسان القديم باستخدام الكهف الطبيعي الموجود في المناطق الجبلية ثم بدأ هو بحفر وإعداد كهوف لسكنه، ثم بدأ يغلق مدخل الكهف بالصخور مما هداه إلى إمكانية بناء منشآت خاصة لسكنه بالمواد المتيسرة محلياً أولاً ثم بتشذيب الصخور وقطع الحجر وقص اللبن بعد تخمير الطين وتقويته بالتبن ثم شيه لإنتاج الآجر والطابوق وكانت مواد الإنشاء ابتداءً تؤخذ من المتيسر في المكان من الصخور والأحجار أو الأخشاب المقطوعة من الشجر والتي تفنن الإنسان في تقطيعها وتنظيمها بالأشكال المناسبة لأبنيته البسيطة في تلك العهود. ثم اهتدى البشر إلى قص الطين على شكل قوالب منتظمة تساعده على قص كتل طينية منتظمة بعد عجنها وتخميرها واستعمال مواد ماسكة من التبن والمواد الأخرى وتجفيفها قبل الاستخدام وتحت أشعة الشمس. ولما لاحظ تماسكها عند تعرضها للحرارة أخذ يهيئ أفران بسيطة على شكل حفر يشعل فيها النار لفخر هذه الأجزاء الطينية وتحويلها إلى أنواع من الآجر والطابوق الصالح للبناء والحماية من المخاطر المحيطة به في بيئته البدائية تلك وبكل أشكال المخاطر المعروفة.

واستخدم كذلك الخشب في تغطية السقوف والأغصان الشجرية وحزم البردي وكل ما يتيسر حوله من المواد الطبيعية البكر مع بعض التنظيم والتوضيب والتحسين.

وبرزت في هذه المرحلة للإنسان البدائي مشكلة لصق أجزاء مواد البناء ببعضها وهنا اكتشف القار الموجود في الطبيعة والذي يسيل بحرارة الشمس أولاً لتأمين التماسك وهكذا استمر في سلسلة تطور مبدعة وكان الإنسان العراقي من أوائل البشر

تطوراً وكما كان في كل المجالات مما جعل أجزاء من مدنه ومعابده وعمائره ومنشآته الأخرى تبقى قائمة لآلاف السنين وإلى يومنا هذا.

وفي شمال القطر وحيث الطبيعة الصخرية للأرض والجبل بدأ بنحت هذه الصخور لجعلها أحجاراً منتظمة مهيأة للبناء واكتشف النورة والجص بأنواعهما للاستخدام في تماسك البناء وللصق وتثبيت هذه القطع ببعضها. وشواهدها قائمة إلى اليوم في آشور ونينوى وبقية آثار الشمال العراقي وتوسع باستخدام الصخر لأغراض تعبيد الطرق برصف قطعه على الأرض وملئ الفراغات فيها بأي من المواد الإنشائية اللاصقة، بل وتطور إلى أكثر من ذلك فأخذ ينشأ السدود الصغيرة وقنوات الري لتنظيم حركة المياه وحسب حاجته لإرواء مناطق زروعه ومدنه وكذا لإنشاء معابره وجسوره، لكن بروز المجتمعات المدنية للتجمع السكاني الحضري وبروز القرية والمدينة الصغيرة تتطلب الحماية لهذه المجتمعات البشرية..

فكانت فكرة إحاطة المدن بأسوار تقيها ابتداءً هجمات الحيوانات المفترسة والمدن الأخرى من الجوار والتي كانت المشاكل تحدث بينها دوماً لسبب أو لآخر.

وحينئذٍ بدأ بتطوير هذا السور بتزويده بأبراج ومزاغل تتناسب مواصفاتها مع قدرات الأسلحة البدائية المتيسرة لديه ولدى عدوه المهاجم أو المحتمل الاحتكاك به وكذلك بأبواب تغلق وتفتح حسب حاجة القرية والمدينة.

وترافق مع هذه التطورات في التفكير البشري في موضوع الدفاع تطور أساليب اختيار الأرض المناسبة التي تقدم تسهيلات طبيعية لهذا الإنسان فاستفاد أولاً من الأنهار ومجاري المياه الطبيعية في الدفاع حول هذه المدن والتجمعات السكانية، ثم أخذ هو يحفر هذه الموانع على شكل خنادق حول الأسوار ويملأها بالماء إن لم يتيسر بشكل طبيعي أو يقوم بتطوير وتحسين الطبيعي البسيط المتيسر منها.

ولم يكن التهديد المعادي من قبل الإنسان والحيوان هو التهديد الوحيد للمدن في بلاد وادي الرافدين وخاصة في وسط الوادي وجنوبه وإنما كان هناك عدو آخر يلاحظه الدارس لهذه الأرض وتاريخها الطويل مع مسيرة الحضارة ألا وهو خطر مياه الفيضان فقد عرف عن أنهار الوادي انحدار كميات كبيرة من المياه من المناطق الجبلية المرتفعة إلى مناطق الوسط والجنوب منه بسبب هطول الأمطار الغزيرة في موسم الربيع أو بسبب ذوبان الثلوج في الربيع عند ارتفاع درجات الحرارة وانحسار البرد عن هذه المناطق.

وكان ذلك دوماً سبباً في تعرض المنشآت الحضرية في المدن والمنشأة أصلاً وبشكل أساسي من الطين إلى التدمير والهدم أو التخلخل والوهن على الأقل بسبب هذه الفيضانات. وكان إنشاء الأسوار حول المدن بمواصفات معينة أحد أسباب إنشاء الأسوار للحماية من مياه الفيضانات وطغيانها المدمر لهذه العمائر والمدن ومرافقها السكنية والإدارية فكانت قواعد تلك الأسوار تقوى إما بسداد ترابية تتلقى صدمة المياه وتأثيراتها أو ببناء مسناة حجرية كما سنرى في أسوار بغداد ودار السلام موضوع البحث.

ثم برزت لهذا الإنسان خلال قيامه بالبحث والتقصي والتجربة وخلال تعامله مع موضوع الحماية، ضرورة إنشاء قلاع دفاعية قد تكون ضمن المدينة نفسها أو خارجها أو على طرق المواصلات المؤدية إليها والتي تربط مناطق التحشد المعادية بالأهداف، ووضع هذا الإنسان المبدع تصاميم عديدة لهذه القلاع والحصون وحسب وظائفها سواء في ما يتعلق بطرق القتال على أسوارها أو فيما يتعلق بمزاغلها وانسجام هذه المزاغل مع مواصفات وخواص الأسلحة المتداولة في زمانها، أو بطريقة حياة المقاتلين في داخلها وأماكن خزن مواد إعاشتهم واحتياجاتهم الأخرى وقبول احتمالات الحصار القصير أو الطويل فيها وبموجب الخطط الموضوعة ووفق قابليات وقدرات جيوشها وحشوده.

تطور فكرة التحصين

في العصر الإسلامي الأول والدفاع عن المدن والأمصار بإقامة الدفاعات والتحصينات حولها

كان العصر الإسلامي الأول عصر تطور كبير في كثير من مناحي واتجاهات الحياة الجديدة حيث نقل أمم المنطقة التي دخلت الإسلام من مراحل البداوة والتخلف إلى حياة جديدة بمفاهيمها الحضرية المتقدمة في المفاهيم العامة من حرية المجتمع وحرية الفكر وقبول مبادئ المساواة بين الطبقات الاجتماعية والأجناس العرقية والقومية وبروز حرية المرأة وحقوقها الاجتماعية وعتق الرقيق وإطلاق مؤسسات التعليم بدأً بتعلم القراءة والكتابة ثم بعلوم الدين وانتهاءً بالعلوم العامة الأخرى بحيث أصبح البحث والاكتشاف سمة بارزة من سمات المجتمع الجديد إضافة إلى التفاعل مع المجتمعات المتحضرة الأخرى كان للمنشآت الدفاعية نصيب وافر من هذه الأبحاث في العصر الإسلامي الأول فبدأت في البداية المفاهيم الشرعية في دفع الموضوع إلى الأمام حيث اعتبر الفقهاء بناء الأسوار وإنشاء التحصينات حول المدن من الضرورات التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض والكيان السياسي الإسلامي الجديد وكلها من أهداف المسلم الشرعية الأساسية وصنفها بعض الفقهاء بمصاف البناء الواجب وأفتوا بالصرف عليها والصرف على إدامتها وترميمها من الأحباس والأوقاف كما أفتى البعض بشرعية المحافظة عليها وعدم إزالتها حتّى وإن انتفت الحاجة لها آنياً فقد يتغير الموقف وتعود الحاجة إليها وظهرت أحكام أخرى تتعلق بالأسوار سواء كانت

مستقلة أو هي ناتجة لمجموعة أسوار البيوت في المدينة من جهة وجوب الاهتمام بها تحقيقاً لهدفها الأساسي وكذا لتنظيم علاقات المجموع مع بعضه وبما يكفل ويضمن حماية المجتمع المسلم والحماية هذه ليست مطلقة حيث استعملت كلمة (المانع والموانع) مجازاً فهو ليس مانعاً ولا هي موانع بالمعنى اللغوي للكلمة وإنما هي معرقلات تؤخر وتعيق حركة المهاجم مما يعطي فرصاً مختلفة في الوقت أو في تسهيلات لحرية حركة المدافع أو لمساعدته على الاستخدام الأمثل لأسلحتهِ بما يؤمن له إيقاع أكبر نسبة من الخسائر في صفوف الخصم وباتجاه ... تحقيق النصر وكسب المعركة ولم يكن العرب في الجزيرة قبل الإسلام على دراية كافية وخبرة مناسبة بموضوع التحصين والتحكيم واستخدام الموانع والمعرقلات لسببين أساسيين:-

السبب الأول:

إن قبائل العرب وأحياناً دولهم الصغيرة في اليمن والجنوب لم تكن تملك جيوشاً كبرى بقياسات زمانها كتلك التي تملكها دول الفرس والروم والأحباش حولها ولذلك فلم تكن أساليب القتال وفنونه والحروب ومتطلباتها في صفحات القتال المختلفة العميقة رصينة عند أمة العرب وجيوشها.

إن كل غزواتها وحروبها كانت في الغالب مقتصرة على الهجمات الحرة المباشرة السريعة باستخدام الخيول واعتماد المباغتة، وتنتهي هذه المعارك عادة بسرعة كبيرة لا يتمكن فيها المدافع من تهيئة مواضعها وتحصينها بالحفر أو البناء أو بإعداد موضع طبيعي محسن حيث كانت كل الهجمات خلال المعارك الدائرة بين القبائل معارك صغيرة ومحدودة وموضعية تبعاً لسرعة حركة الخيول وقدرتها على المناورة ضمن موقع محدد وهي المادة الأساسية للقتال وحتى وإن طال أمد هذه المعارك لسبب أو لآخر فإنها ليست مستمرة استمرار معارك الأزمنة اللاحقة فهي تتوقف عند مغيب

الشمس وتسـتأنف في الصباح التالي وتتوقف عند الشتاء والبرد وتستأنف عند حلول الربيع وتحسن الجو وحسب أخلاقيات وأعراف ذلك الزمن.

السبب الثاني:

إن العرب كانت في غالبيتها تعيش حياة البداوة عدا في بعض مناطق الجنوب حيث وعورة الجبل في اليمن وعمان وعسير وحياة البداوة ليس فيها ثبات في أرض معينة دوماً وإنما هي الحل والترحال دوماً سعياً وراء العشب والمرعى في المناطق الأوفر حظاً، ولا تستقر القبيلة في مكان حتّى تتركه إلى مكان آخر ومنازلها خفيفة من خيام الشعر وليس لها منشآت أو أبنية ثابتة أو كبيرة ولا تعرف البناء والإنشاء أصلاًوليس لها أماكن أومناطق ثابتة ولذا فلم يفكر القوم أصلاً في.. الدفاع عن موقع معين حتّى جاء الإسلام واتخذت المدن والأمصار والمواقع الثابتة كمعسكرات للجيوش أو فساطيط لأربطة الخيل تستوجب بطبيعتها الالتزام بمواقع ثابتة.

ولما فتح العراق والشام وإيران ومصر برزت أمام الحياة الإسلامية آفاقاً جديدة في طرق السكن والمعايش والتعامل مع المجتمع المدني كثيف السكان...معركة الخندق وما سبقها من بداية وتهيئة بحفر الخندق بمشورة الصحابي الجليل سلمان الفارسي ودخول هذا الفكر إلى طرق الدفاع بتأهيل الأرض وحفر المانع وما صحبها من أفكار ومناقشات عن أبعاد وعرض الخندق وعمقه بحيث لا يستطيع الفارس عبوره والأهم القرار على مساره عبر الأجزاء الواهنة من جوار المدينة وعبر المحاور وطرق التقدم المحتملة، كانت هي البداية الحقيقية في صدر الإسلام لدخول الفكر الخاص بالتحصين والدفاع عن المدن في المجتمع الإسلامي العربي، جرت بعده عدة تطويرات أساسية للخنادق والأسوار حول المدن العربية كما كانت عاملاً مؤثراً في اختيار مكان المدينة في المدن الجديدة وكما حدث في البصرة والكوفة والقاهرة والقيروان والفسطاط من المدن

التي مصرت بعد فتوح البلدان. وجاءت معركة نهاوند (**فتح الفتوح**) وهي أول معركة يواجه فيها المسلمون العرب مدينة حولها أسوار وخنادق وموانع من الحسك[1] والمعرقلات واستخدم الفرس حولها كل براعتهم وقوتهم في هذا المجال. خاصة وإنها تأتي بعد أن أنهك الجبل والأرض الوعرة النّاس الفاتحين الغزاة وكانت تجربة فريدة للعرب المسلمين برع في إيجاد الحلول المناسبة لاقتحام هذه الموانع فيها القائد العربي المسلم القعقاع بن عمرو بابتكار أساليب في المناورة تعتمد أساليب الكر والفر ونجح في إخراج القسم الأعظم من جيش حامية المدينة وحتى تمكن فيها من إغراء الجيش الفارسي بملاحقته إلى خارج الأسوار والموانع، ثم كر عليهم في نهاية النهار فوصلوا إلى مواقعهم ودفاعاتهم عند غروب الشمس ولم يهتدوا إلى الفتحات المتروكة ضمن الموانع مما أوقعهم في موانعهم وخنادقهم تزامناً مع وطأة هجوم الجيش الإسلامي وكانت حاسمة في فتح بلاد فارس ودخولها الإسلام والقضاء على القوات الفارسية الرئيسية وإنهاء الحكم المجوسي فيها[2].

ولقد شهدت كل مواقع المدن المنشأة حديثاً سواء في عهد الخلافة الراشدة أو أيام دولة الأمويين في الشام أو الأندلس أو عند العباسيين بعد تأسيس دولتهم في العراق وانتشار سيطرتها على كل البلدان المفتوحة فيها عدا شبه الجزيرة الأيبيرية في الجنوب الغربي الأوربي (**الأندلس**).

إن دخول الجيوش الإسلامية في معارك ذات طبيعة جديدة لدى العرب جعل القيادات وعلى مختلف المستويات تفكر ملياً في الأمر وتتجه إلى استحداث أساليب جديدة في القتال وابتكار وتصنيع تجهيزات عسكرية جديدة إما بالبحث والاختراع أو

---

[1] - الحسك هو نوع من الأشواك القاسية استخدمت بمثابة استخدام الأسلاك الشائكة في عصرنا الحالي.

[2] - شاكر محمود رامز - لواء ركن - حروب فجر الإسلام - سلسلة الثقافة العسكرية - نهاوند - فتح فارس - الطبعة الأولى - تموز - 1985 - تاريخ حرب.

بالاستفادة من تجارب الآخرين حيث كانت جيوش الفرس والروم والأحباش وهي جيوش كبيرة ذات تاريخ ممتد إلى مئات السنين قبل الإسلام ولها ليس في الفكر والأساليب القتالية فحسب وإنما في تصنيع واستخدام تجهيزات لم يكن العرب المسلمون يعرفونها ولعل العامل المساعد الأكبر كان دخول الكثير من أبناء القوميات الأخرى في الإسلام وبسبب من أهمية هذا الدين الجديد وعدم تفضيل البعض على البعض الآخر بسبب اللون أو العرق وإنما هي أفضلية التقوى[1] والعمل الصالح مما ساعد كثيراً على نقل هذه الخبرات والتجارب إلى كيان العسكر الإسلامي بسرعة فائقة بحيث استفاد منها هذا الكيان خلال جهود الفتح الأولى ليس بالتفاعل مع الشعوب الأخرى وعلومها بنقل أسس هذه العلوم إلى الفكر الإسلامي العسكري وفتح آفاق جديدة للدراسات العسكرية ومناقشتها وتطويرها فحسب. بل باستيعاب عناصر متميزة ذات خبرات معروفة ومطلوبة لدى هذه الشعوب وإلى مستوى القيادات[2] الكبرى في تاريخ الفتوح الإسلامية مما يدلل ويؤشر الكثير من الأمور في التطور السريع جداً لفكر الأمة الإسلامية الناشئة في المناحي العسكرية فحسب بل وفي كل العلوم أو الفنون المعروفة وقتها مما أدى إلى تطورها السريع الهائل وبشكل متميز عن الحضارات الأخرى ولذا فإن تطورالفكرالعربي الإسلامي والمبتدئ من الصفر تقريباً كان تطوراً سريعاً حيث

---

[1] - ورد في الحديث الشريف (النّاس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى والعمل الصالح). وفي الحديث الآخر (اسمعوا وأطيعوا ولو أمرت عليكم عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة).

[2] - لقد برز الكثير من القادة المسلمين من غير العرب في بدايات الدعوة الإسلامية وعند تقدم الفتوح وتناميها وكما هو معروف فإن القائد طارق بن زياد وهو من أصل بربري (أمازيري) ولم يمضي على دخوله الإسلام إلاّ بحدود العام الواحد عند قيادته لجيوش المسلمين عبر مضيق جبل طارق والذي عرف عبر التاريخ باسمه إلى يومنا هذا وبالمناسبة فإن بعض المستشرقين يشككون بصحة خطبته الشهيرة المنسوبة إليه ومنها (البحر من ورائكم والعدو أمامكم) ويقولون بأنه لا يمكن أن يكون قد أتقن اللغة العربية بهذه الرصانه ليخطب مثل تلك الخطبه البليغه ولعلها بلغته الامازيريه وترجمت الى العربيه أو أن إيمانه بدين الإسلام دفعه إلى تعلم العربية بسرعة عبر دراسته للقرآن الكريم وعلى كل حال فإن ما يهمنا هو أن قائداً أمازيرياً بارعاً قاد جيوش المسلمين في حملة كبرى عبر المضيق بنجاح تام ودخل بإمرته كل عرب الحملة إضافة إلى نجاحه في إدخال الألوف المؤلفة من الأسبان في الإسلام حيث ابتدأ بستة آلاف مقاتل عند عبورهِ ووصل النهر الكبير بثمانية عشر ألف مقاتل دون مدد خارجي.

أخذت الجيوش المنظمة جيداً والمسندة إسناداً رصيناً أدى إلى ربح كل المعارك التي خاضتها هذه الجيوش الإسلامية مع جيوش عريقة ومجربة كالدولة الرومانية والفارسية. ونتيجة للممارسات المستمرة في الحفر والبناء فقد تهيأت خبرات محلية لا يستهان بها في كل المدن والأمصار الإسلامية وعند كل شعوبهم ونرى اليوم آثارهم الواضحة التي استندت إلى معرفة عالية مكنها من الصمود لعاديات الدهر وتأثيرات الظروف الجوية كل هذه المئات من السنين. فأنت اليوم ترى طرزاً معمارية مختلفة زاهرة بمختلف الفنون والأذواق العربية والفارسية والمغولية والتركية والمصرية والمغربية والأندلسية والشامية. وقد كان لهذا التطور المتنوع لكل الشعوب الإسلامية أثره الكبير على أفكار الدفاع والتحصينات في الحرب وكذا كان بالنسبة لأسلحة الدفاع، حيث تطورت أنواع عديدة من أسلحة الرمي عبر الموانع والأسوار وتطورات أخرى لأغراض مهاجمة هذه الموانع وبهدف تدميرها.

أمثلة لدفاعات المدن الإسلامية المنشأة بداية الفتوح:

لم تكن أسوار دار السلام المدورة وتحصيناتها الرصينة هي السابقة الأولى في تواريخ ما بعد فتوح الإسلام في الشرق والغرب حيث كان تطور الفكر الدفاعي واضحاً في أمثلة عديدة من المدن المنشأة من قبل الفاتحين.

ولقد برز الأمان كقيمة حضرية متقدمة للمجتمع الجديد ولحاجته إلى الاستقرار حيث تنمو كل قيم الحضارة والتقدم وكما ورد على لسان سيدنا إبراهيم في الآية الكريمة ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾وهو توجيه قرآني رباني دعا فيه المسلمون إلى ترسيخ هذا المبدأ واتخاذ كل السبل الممكنة لتحقيقه وقد كان ذلك فعلاً حيث أصبحت مراعاة هذا الموضوع مبدأ معماري عند إنشاء المدن الجديدة.

وقد تركز المبدأ من خلال الفكر الشرعي حيث اعتبر الإسلام بناء الأسوار وإقامة التحصينات حول المدن من الواجبات التي تؤمن حفظ المال والنفس والعرض عند المسلم وهي من الواجبات الشرعية[1] وقد صنفت المنشآت الدفاعية عند بعض الفقهاء بمنزلة البناء الواجب ودعوا إلى وجوب المحافظة عليها وعدم إزالتها حتّى ولو زال السبب آنياً لاحتمال عودته إليها والحاجة لها في أزمنة أخرى.

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد اشترط حسن اختيار الموقع من وجهة النظر الدفاعية لتأمين أكبر جدوى وتسهيلات ممكنة للدفاع عنها ولإنشاء تحصينات رصينة حولها لمعاونة الشرائط الأخرى عند الانتخاب.

إن هذه المبادئ لم تكن جديدة تماماً في عهد الفتح الإسلامي فقد كانت معروفة بشكل أو بآخر في المدن العربية القديمة ومدن المشرق الإسلامي إلاّ أنها ترسخت وتطورت أكثر فأكثر بسبب الاهتمام الشرعي بها واعتبارها فريضة واجبة وموجبة للالتزام والأخذ بنظر الاعتبار من قبل عموم المسلمين.

وسأسوق هنا عدة نماذج لتحصينات وأسوار مدن عربية وإسلامية مختلفة اختطها المسلمون في عهد الفتح الإسلامي.

مدينة البصرة

تعتبر مدينة البصرة من أول المدن الإسلامية المنشأة حديثاً بالقرب من الأبلة وهي الميناء الرئيس في جنوب العراق خلال عهود السيطرة الفارسية للتجارة مع الهند والمشرق الآسيوي عبر الخليج وبحار المياه الدافئة.

---

(1) - القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد – دار صادر – بيروت (بدون تاريخ).

وقد كان الهدف الأساس من أوامر الفاروق عمر بإنشاء هذه المدينة هو عسكري بحت بسبب من طول خطوط المواصلات بين الحجاز والعراق والحاجة إلى

قاعدةأساسيةمحميةتؤمن وضع جيوش العراق وفارس وتسند ظهرها إضافة إلى أنها تقطع خطوط الإمداد الفارسي لجيوشه بين الجنوب والوسط والمشرق. ودليل ذلك أن الطبري أورد بأن الفاروق قال لعتبة بن غزوان[1]: (**قد فتح اللـه جل وعز على إخوانكم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها، ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس فإني أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل الحيرة من إمداد إخوانهم على إخوانكم وتقاتلهم لعل اللـه يفتح عليكم**) كما ورد عن ياقوت الحموي رواية أخرى بصدد نفس الهدف في توجيه أمر لعتبة[2] حيث قال برواية مقاربة لرواية الطبري: (**إن الحيرة قد فتحت فأت أنت من ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل فارس والأهواز وميسان عن إمداد إخوانهم**).

ورغم الاختلافات الواردة عبر المؤرخين عن تاريخ تمصير مدينة البصرة بين الأعوام 14، 15، 16 هجرية إلاّ أن الغالبية تؤيد أن تاريخ التمصير كان في العام 14 هجرية. وكان الخليفة الفاروق حريصاً دوماً على الاتصال المباشر بقادته وولاتهِ رغم وجود المرجع الأعلى والذي كان يزود هو الآخر بهذه الأوامر حرصاً منه على دقة النقل وتجنب ضياع بعض التفاصيل المهمة بين القدمات المختلفة من سلالم القيادة والأمصرة في الجيوش والهياكل الإدارية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الفاروق كان حريصاً على وصول هذه الأوامر وتنفيذها بالسرعة المطلوبة لطول المسافات وبدائية نقل الرسائل والأوامر ووصولها إلى مستلميها من المعنيين في الوقت المناسب.

---

[1] - الطبري – الجزء الثالث – الصفحة 29 إلى 30.

[2] - ياقوت الحموي – المعجم – الجزء الأول – الصفحة 431.

ويظهر جلياً من دراسة الوقائع أن الخليفة عمر كان له تقديره للموقف في العراق فهو وإن كان يصدر أوامره إلى سعد بن أبي وقاص القائد العام لقوات المسلمين في العراق إلاّ أنه كان يوجه دوماً القادة المرتبطين به مباشرة حيث وجه شريح ابن عامر إلى البصرة أيضاً وقال له: (**كن رداء للمسلمين بهذه الجيزة**) ثم مضى منها إلى دارس والأهواز وقاتل واستشهد فيها وكانت مسلحة الخريبة قرب البصرة هدفاً لعدة غارات لجيوش المسلمين ومنذ جاءها خالد بن الوليد قبل فتحه الحيرة عند قدومه من اليمامة بعد حروب الردة وبخلافة الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي وجهه بأن يتحرك من اليمامة إلى الكاظمة ثم الأبله ثم المذار ثم اليس ثم الحيرة وقد كان كل ذلك يبين لنا الأهمية الاستراتيجية لمنطقة البصرة في فكر الخلافة الراشدة في المدينة أيام أبو بكر وعمر وقد اتخذت مسلحة الخريبة فعلاً قاعدة بعد احتلالها من قبل قوات المسلمين في العراق وبلاد فارس وهي فعلاً أول موقع له أهمية خاصة باعتباره أول موطئ قدم في جنوب العراق إضافة إلى كونها الميناء الرئيس للاتصال بتجارة الهند عبر الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي.

أما بخصوص موقع مدينة البصرة التي بناها عتبة بن غزوان وأين هي من مدينة البصرة الحالية أو الأبلة الميناء البحري فهو موضع بحث وتنقيب من قبل مديرية الآثار العامة والتي ابتدأت في التلال القريبة من المدينة من عام 1943 والتي توقفت لفترات ثم استأنفت عام 1964 ثم قامت جامعة الموصل بمتابعة البحث في الأعوام (1971 حتّى 1973) ثم عادت المؤسسة العامة للآثار إلى البحث ولم تحدد إلى يومنا هذا أطراً واضحة كنتائج نهائية لكل هذه البحوث. وأن هذا التأخير في تنقيبات مدينة البصرة وعدم العثور على آثار بينة لعمائرها ومنشآتها وأسوارها حاله كحالة أسوار وآثار دار السلام المدورة مدينة المنصور ظل معتمداً على وصف المؤرخين الأوائل وخاصة مؤرخي العصر العباسي. والبصرة من ناحية الموقع شأنها شأن بغداد فهي موقع قديم

حيث أشار (**رولتسون**) أن مدينة (**طريدون**) أو (**ديريدويتس**) بأنها بنيت من قبل نبوخذنصر على مساحة قريبة من مصب نهر الفرات[1] ولو أن تحديد موقعها بالضبط من وجهة نظر (**تافرينيه – الرحالة الفرنسي**) يعد من الصعوبة بمكان بسبب التغييرات الجغرافية الكبيرة على سواحل الخليج الشمالية ومجاري الفرات ودجلة.

إلاّ أن الرحالة الفرنسي (**جسني**) يحبذ أن يكون موقع طريدون في منطقة جبل سنام جنوب غرب البصرة الحالية[2].

وعلى أي الأحوال وأياً كان موضع المدينة التي بناها عتبة بن غزوان فالمهم في بحثنا هذا هو ما ورد عن تخطيطها وتحصيناتها. ومما يروى أن الخليفة عمر الذي لم يحبذ المواقع المقترحة لبناء مدن يمكن الاستقرار بها شرق دجلة حيث حبذ واستحسن رأي أحد رجال (**سدوس**) واسمه (**ثابت**) قال له: (**يا أمير المؤمنين**) إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر ومسالح للعجم يقال له الخريبة ويسمى أيضاً البصيرة، بينه وبين دجلة أربع فراسخ، له خليج بحري فيه الماء إلى أجمة قصب، فأعجب ذلك عمر[3] ولم تعرف للبصرة أسواراً في أول بنائها حيث بنيت بالقصب والبردي بعد تخطيطها على شكل مجموعات قبلية وبشكل بسيط جداً فيه روح البساطة لبدو الصحراء إلاّ أنها احترقت حين شب حريق كبير في القصب والبردي الجاف مما دعى الخليفة عمر إلى الأمر بإعادة بنائها باللبن وتخطيط شوارع عريضة لها وعندما تم بنائها أحيطت

---

[1] - طاهر مظفر العميد – تخطيط المدن العربية الإسلامية – الباب الثالث – الصفحة 206.

[2] - طاهر مظفر – نفس المصدر – الصفحة 207.

[3] - ياقوت الحموي – المعجم – 432/1.

وهذا يوضح أن الهدف الأساس من تمصير هذه المدينة هو هدف عسكري بحت وفيه من الإبداع الشيء الكثير حيث تعتبر هذه المنطقة في رأس الخليج وجنوب بلاد وادي الرافدين مهمة وأساسية لتأمين وجود قاعدة تنطلق منها القوات القادمة من الجزيرة.

بسور بسيط من اللبن من الجهات الغربية والجنوبية حيث كانت في جهاتها الشمالية والشرقية أنها تمثل موانع مائية. وقد كانت القوات الفارسية تتجمع فعلاً في الجهة الشرقية من شط العرب ودجلة مما دفع الخليفة عمر إلى دفع المزيد من الإمدادات إليها حيث أقيمت لهم في المنطقة سبع دساكر من لبن منها في الخريبة فيها اثنان وواحد في الزابوقة واثنتان في بني تميم واثنتان في الأزد تمثل درجة محدودة من الحماية المؤقتة حيث كان الخليفة وقتها يخطط لغزو بلاد فارس ولا يريد استقرار المقاتلين في هذه المواقع لفترات طويلة، تشابه فكرة هذه الدفاعات المحدودة ما تتطلبه أسس التعبئة الحديثة في أيامنا من قدر محدود من التحكيمات في مناطق التحشد والوثوب قبل الهجوم.

مدينة واسط

كان السبب الرئيسي في بناء مدينة الواسط سبباً عسكرياً محضاً حيث احتاجت جيوش الفتح وعسكره إلى موقع بين النهرين ولكنه غرب دجلة وليس شرقها لتأمين قدر من الحماية والإنذار إن فكر الفرس في معاودة مهاجمة التخوم الإسلامية. لقد بنيت المدينة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ومن قبل واليه في العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الذي واجهت ولايته في العراق لأهم وأكبر أقاليم الدولة لمجموعة من الثورات وحركات التمرد في منطقة جنوب العراق حيث ثار (**بنو عبد القيس**) عند قرار الحجاج بإنقاص رواتبهم في البصرة وكان زعيمهم (**عبد الله بن جارود**) مؤيداً من قبل وجوه أهل البصرة وكبرائها وكانت الثورة كبيرة حيث أسر الثوار فيها من نساء الحجاج وأهل بيته عدداً وفي وقت مقارب ثار الزنج وتبعهم الخوارج في الحويزة بقيادة (**شبيب بن يزيد الشيباني**) ثم قام والي الحجاج على المدائن (**مطرف بن المغيرة بن شعبة**) بتمرد آخر على الحجاج ثم تلاه (**عبد الرحمن**

بن محمد بن قيس بن الأشعث الكندي) أحد قواد الحجاج بتمرد آخر هزم الأول على أثره في عام (**80 هجرية**) في موقعه (**دير الجماجم**) وقد تزامنت كل هذه الثورات في فترة لا تتجاوز الثماني سنوات بين الأعوام 75 إلى 83 هجرية ولولا حزم الحجاج وشدته لتهددت كيانات الدولة الأموية ووجودها بالأخطار الكبرى ويبدو أن أكبر العوامل التي دفعت الحجاج إلى التفكير ببناء حصن منيع جديد في موقع ملائم هو ما حدث عند ثورة الخوارج عام (**76 هجرية**) من محاصرة دار إمارة الحجاج وأسر عدد من أهله مما هيج عنده نوازع شخصية كبرى قرر على أثرها بناء المدينة في منطقة وسطية بين البصرة والكوفة وفي منطقة غرب نهر دجلة أن الموضع ليس مستوياً استواء تام حيث توجد فيه بعض المرتفعات المحدودة والمناسبة بمقاييس الزمان لأن تعتبر ذات مميزات عسكرية دفاعية وهي بين هذا وذاك بين مجموعة من الأنهار[1] ويذكر المؤرخين أسماء ومواضع لعدة أنهار غير معروفة في أيامنا هذه ويبدو أن البعض منها اندرس بفعل الزمان والفيضانات في المنطقة وبعضها الآخر هو غير موجود أصلاً وأنهم أوردوه نقلاً عن روايات غير محققة على الأرض[2] وفي كل الأحوال فهناك العديد من الأنهار الصغيرة في موقع المدينة وحوله مما يجعله منطقة موانع ومعرقلات عسكرية كانت سبباً في اختياره لبناء المدينة إلاّ أن الموقع بشكل عام معرض لمياه الفيضانات وقد تكون هذه الصفة سبباً آخر من أسباب مناعتها حيث أن هناك أسلوباً

---

[1] - د. صالح أحمد العلي - منطقة واسط - دراسة طوبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية - سومر (26) الصفحات (237 إلى 238).

[2] - يروي (الطبري - 455/1) و(البلاذري - فتوح البلدان، الصفحة 355) (أن في الجهة الجنوبية لمدينة واسط نهراً يسمى الزاب أو الزابي يأخذ مياهه من الضفة اليمنى للزاب الأسفل ويجري نحو الجنوب الشرقي ويصب في الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى جنوب مدينة واسط وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى نهر الزاب الأسفل وقد قام الحجاج بحفره بعد تأسيس مدينة واسط) يبدو أن جغرافيي ذلك الزمان يحددون أيمن النهر وأيسره بالوقوف متجهين نحو مصدر الماء وأعلى التيار وليس المصب وأن المسافة بين نهر الزاب الأسفل ومدينة واسط هي كبيرة جداً وبحدود السبعمائة كيلومتر وتعترضها عوارض طبيعية كبيرة مثل نهر العظيم وديالى وسلسلة حمرين وهي من الأمور التي تحتاج تحقيقاً وتدقيقاً لا مجال له في بحثنا هذا.

دفاعياً معروفاً وهو أسلوب إغمار الأرض بالمياه لتشكيل موانع مائية يصعب على الجيوش اجتيازها وخاصة الخيالة عنصر الهجوم الرئيس في ذلك الزمان.

وأحاط الحجاج المدينة بسورين وخندق[1] ولو أن المصادر المتيسرة لم تصف لنا هذين السورين وصفاً فنياً دقيقاً إلاّ أنهما على الأرجح بنيا بالبن المقطع من تربة المنطقة لعدم تيسر الصخور فيها وبالتأكيد فهناك مسافات (**ساحات قتال**) بين السورين وكذا فلم يوصف الخندق في هذه المراجع والمصادر ومع ذلك فإن هذا الوضع القتالي يعطي مدينة واسط صفة ذات أهمية دفاعية عسكرية كبرى حيث بصمودها في حالة هجمات الشرق والجنوب لفترة مناسبة تتمكن ولاية العراق من حشد جيوشها وإمكاناتها لملاقاة الغزاة والاشتباك مع المهاجمين في المناطق المنتخبة والمحددة سلفاً وعدم السماح لهم أصلاً بالتوغل إلى عمق الولاية والاقتراب من مقرات حكمها وقياداتها ومن المرجح أن يكون لهذا السور أو السورين أبراج للقتال مزودة بمزاغل للرماة والمقاتلين وأن هذه التحصينات كانت طينية ولم تعش لفترة طويلة والغالب أنها تهدمت في بداية العصر العباسي حيث دخلها الزنج بسهولة واحتلوها وهرب واليها العباس[2] وكما أن تحقيق الدكتور عبد القادر المعاضيدي لم يوصل إلى معلومات دقيقة عن السورين والخندق[3].

هذا وقد عزز الحجاج من قوة دفاعات المدينة بأن جعل لمداخلها أبواباً حديدية وقد ورد في الأخبار أن للمدينة كانت هناك ستة أبواب هي باب المضمار وباب الزاب وباب القورج وباب الخلالين وباب البصرة وباب الفيل.

---

[1] - ياقوت الحموي – معجم البلدان – 884.

[2] - الطبري – 539/9.

[3] - عبد القادر المعاضيدي – واسط في العصر الأموي – صفحة 119.

وجدير بالذكر في هذا المقام ذكر تفصيل مناسب عن مناعة هذه الأبواب والتي تعطي الفكرة الواضحة عن الفكر الدفاعي لإنشاء المدينة وحصونها حيث يقول اليعقوبي والخطيب إن أبواب السور الأعظم لمدينة دار السلام المدورة قد جلبها المنصور من مدينة واسط ويصف الخطيب هذه الأبواب عند حديثة: (**على كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان**)[1] ويبدو أن متانة هذه الأبواب المنقولة من واسط إلى بغداد كانت متميزة لبحوث وتعليقات المؤرخين حيث يقول اليعقوبي عنها أنه (**لا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه إلاّ جماعة الرجال**)[2] وقد جاء في رواية للطبري أن الخليفة أبا جعفر المنصور لما احتاج إلى أبواب لمدينته المدورة دار السلام جلب خمسة أبواب من مدينة قرب واسط يقال لها (**الزندورد**) لا يمكن للناس عمل مثلها أيام المنصور (**وهي مدينة خربت عند بناء مدينة واسط مما يدل على أنها على الأرجح مدينة فارسية حربية على شكل قلعة لحماية الثغور الغربية والمعلوم أن الاستراتيجية الفارسية كانت تتوخى الغرب حيث الدولة الرومانية عدوها الأول في سوريا والأردن ولذا فقد كان هناك اهتمام خاص بهذه التخوم**) ولكن الأرجح أن المنصور لم يجلبها من هذه المدينة الفارسية إذ يتفق أغلب المؤرخين على أن الحجاج قد هدمها عند بناء واسط وأخذ المواد المفيدة منها لبناء مدينته الحصينة في واسط وخاصة الأجزاء النادرة مثل الأبواب المذكورة ولما قامت الدولة العباسية كانت واسط قد فقدت أهميتها التي كانت عليها أيام الأمويين مما حدا بأبي جعفر إلى هدمها والاستفادة من موادها وكما حاول مع المدائن وآثار طيسفون.

---

[1] - الخطيب – 75/1.

[2] - اليعقوبي – البلدان – صفحة 239.

وخلاصة القول هنا إن إنشاء مدينة واسط بموقعها المتميز وعمارتها الحصينة بسورين وخندق وأبواب محكمة تدلل بوضوح على الفكر الدفاعي العسكري البارز في المدن الإسلامية حديثة الإنشاء وكذا في تحصين المدن القائمة قديمة الإنشاء حيث تعتمد الاستراتيجيات المعروفة في العصر الإسلامي الأول على إقامة المعسكرات وربط للخيل في مواقع منتخبة تحصن تحصيناً دفاعياً لاستخدامها كمناطق تحشد ومناطق دفاعية توجب على المهاجمين احتلالها وعدم تركها ورائهم حيث الخطر الجسيم من خروج مقاتليها ومهاجمتهم من الخلف ومدينة واسط نموذج واضح لتنفيذ هذه الاستراتيجيات في العصر الأموي وبالطبع فإن إنشاء هذه المواقع يحتاج إلى تأمين السكن ليس للمقاتلين فحسب وإنما لعوائلهم أيضاً وما يتبعه من إنشاء أسواق ومرافق إدارية لتأمين حاجاتهم ولم يكن بالإمكان في كل الحالات ومنها حالة مدينة واسط تأمين هذه المتطلبات في وقت واحد لكبر المساحات المطلوبة وما يتبعه من ضخامة في الأسوار والقلاع وبالتالي الإنفاق العالي والصعب المنال في حالات متعددة.

الصفات التكوينية لأراضي وادي الرافدين / المنطقة الوسطى/ وإنشاء الأسوار والخنادق المائية حول المدينة / دار السلام / وعلى أراضيها الطينية الرخوة وذات المنسوب العالي للمياه الجوفية

ليس لدارس عسكري أو مهندس يعنى بتاريخ المنشآت والعمائر أن يبحث في أمر أرض معينة أو موقع منشآت كمنشآت بغداد الشرقية والغربية ودار السلام المدورة مدينة المنصور أن يكون معنياً لبحثه ملماً بجوانبه المختلفة إلاّ ويستطلع الصفات الجغرافية والجيولوجية التكوينية لأرض الموقع وما حولها.

وبحثنا كله يدور وبكل جوانبه العسكرية والهندسية في أراضي وادي الرافدين تلك الأرض التي نشأت فيها أقدم الحضارات بسبب أساس من تكويناتها الجغرافية ومن طبيعة البشر الساكن فيها والتي تأثرت وأثرت في هذه الطبيعة التي وفرت لهذا الإنسان كل عوامل الحياة واستمرارها وعوامل النهوض والرقي بها إلى مدارج متقدمة في أساليب العيش والاجتماع والتحضر والفكر والأدب والفن تمتد أراضي وادي الرافدين من منابع دجلة والفرات في القسم الشرقي الأوسط من شبه جزيرة الأناضول حيث منابع هذين النهرين العظيمين ومساراتهما باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي بشكل عام وتشمل أيضاً أحواض روافدهما النابعة من الشرق في مناطقه الجبلية الوعرة متجهة نحو الغرب حيث تصب في أي من النهرين العظيمين وكذلك حوض نهر الكارون والكرخة في جنوب شرق الوادي وحتى مصب مياهه في نهاية شط العرب وفي رأس الخليج الشمالي.

وتمتد هذه الأراضي في مناطق واسعة تتميز بتربتها الخصبة وهي تحاذي الأراضي الصحراوية لجزيرة العرب من الغرب وتحاذي سلاسل جبال زاكروس من الشرق الإيراني وحيث امتدادات الهضبة والصحارى الإيرانية وتنحدر هذه الأراضي انخفاضاً كلما نزلنا إلى الجنوب حيث تشكل مجموعة كبيرة من الأهوار والبرك المائية المتكونة من المياه المنحدرة طبيعياً وكذلك من المياه الفائضة أوقات الفيضانات التي تغمر أراضي الوادي وبموجات مدمرة غاضبة سنوياً لا يمكن السيطرة عليها بإمكانات ووسائل وعلوم إنسان عصر فجر السلالات وما بعده كما أن أغلب الدراسات الخاصة بالصفات التكوينية لأراضي الوادي تشير إلى أن البحر كان في أزمان سحيقة ممتد نحو الشمال وتدعي بعض الروايات أن نصف مساحة الوادي الجنوبية كانت في هذه العصور مغمورة بالمياه التي انحسرت تدريجياً نحو الجنوب بفعل الطمى والغرين النازل إليها مع مياه تلك الأنهار مما يؤكد حقيقة كون أراضي الوادي هي أراضي رسوبية ذات تكوينات طينية تشكلت لقرون عديدة من الزمان السحيق.

وبنفس السياق فإن أسطورة الطوفان (**كما تذكرها الكتب السماوية وكذلك أدبيات المخطوطات السومرية والأكدية والبابلية على الرقم الطيني**) تشير إلى أن الطوفان شمل كل أراضي الوادي وعندما بدأ انحسار الماء كان من الشمال حيث الأرض المرتفعة وباتجاه الجنوب وكل تلك الروايات والدراسات الجيولوجية التكوينية لأرض الوادي تشير أنها أراضي طينية رسوبية وللتعرف عن قرب على هذه الصفات أرى مفيداً أن أتبع مياه ومسار النهرين العظيمين دجلة والفرات المكونان الأساسيان لأرض الوادي والراعيان المهمان لإنسانه والمؤثران الحقيقيان في كل الحضارات الناشئة على أراضيه شمالاً ووسطاً وجنوباً.

نهر دجلة

ينحدر نهر دجلة من وسط جبال الأناضول الشرقية وبحيراتها ويمر عبر مناطق جبلية وعرة جداً ويلتقي خلال مساره الطويل بمجموعة كبيرة من الأنهار الصغيرة والمتوسطة حيث يبرز منها الزابان الكبير والصغير ونهر العظيم وديالى[1] ويمر نهر دجلة خلال مساره بعدد لا يستهان به من مدن الوادي القديمة قدم تاريخه الطويل مثل (**نينوى**) و(**كالح**) و(**آشور**)، وهي العواصم الآشورية المهمة الثلاث والتي كانت عواصم لثلاث إمبراطوريات آشورية متعاقبة.

ثم ينحدر باتجاه الجنوب الشرقي حيث يمر جنوب سامراء بالعواصم الوسطى في الوادي حيث تقع (**سلوقية**) الإغريقية غربه وكذا (**دور - كاريكالزو**) الكيشية و(**دار السلام**) العربية العباسية وكذلك تقع (**طيسفون**) (**المدائن**) عاصمة الساسانيين الشهيرة شرقه في منطقة اقترابه من نهر الفرات إلى أضيق مسافة وسط الوادي إلى أن يلتقي بنهر الفرات في الجنوب ليشكلا شط العرب (**بالقرب من مدينة القرنة الشهيرة حيث شجرة آدم**) والذي يستمر في مساره جنوباً حتّى مصبه في الخليج.

نهر الفرات

أما نهر الفرات فيسير مساراً مختلفاً عن مسار نهر دجلة حيث يتجه إلى الجنوب الغربي حيث يقترب كثيراً من سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية بمسافة لا تزيد عن تسعين ميلاً فقط حيث يعدل مساره باتجاه الجنوب ثم الجنوب الشرقي ويصب فيه رافدان مهمان هما (**البالخ**) و(**الخابور**) في ضفته اليسرى ويستمر حتّى يصل منطقة السهل الرسوبي في منطقة (**هيت**) وأسفلها جنوباً.

---

[1] - كان اسم نهر ديالى التاريخي باللغة الأكدية (تورنات Turnat وهو نهر مهم في تاريخ الوادي حيث نشأت عليه تجمعات سكانية كبيرة على مدى التاريخ) كما يورد الأستاذ (ليواوبنهايم) في مؤلفه بلاد ما بين النهرين - 1981م - الصفحة 52.

ويشكل الفرات بينه وبين دجلة في هذه المنطقة ما يطلق عليه اسم (**الجزيرة الفراتية**)[1] ويتميز الفرات بانحدار بسيط وتيار معتدل السرعة إلى أن يصل مناطق الأهوار في جنوب الوادي حيث يلتقي بنهر دجلة في القرنة تاركاً الكثير من مياهه يصب في أهوار المنطقة الجنوبية حيث يعتبر المغذي الأساس لها.

ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن جهات عديدة وفقاً لتحليل مسار الفرات هذا كانت تخطط لجعله طريقاً ملاحياً يربط السواحل الشرقية للمتوسط مع خليج العرب خاصة وأنه كما أسلفنا بطيء التيار وما يدرينا لو أن هذا المشروع الحلم كان قد تحقق لانقلبت موازين سياسية وسكانية واقتصادية واستراتيجية في أهمية مناطق العراق والشام ولأثرت سلباً على مجرى قناة السويس ومصر.

إن من الملاحظات المهمة حول مجرى الفرات والمتعلقة بالصفات التكوينية للأراضي المحيطة به وجيولوجيتها ذات العلاقة بموضوع البحث هي أن فيضاناته تصل ذروتها في شهري نيسان ومايس متأخراً عن دجلة بحدود شهر إلى شهرين وحيث يبدأ موسم الحرارة العالية حيث تتبخر المياه في الحوض بسرعة عالية وتؤدي إلى زيادة نسبة الملوحة فيه.

ولكن الملاحظ أن فيضانات النهرين تحدث قبل مواسم الحصاد مما يؤدي غالباً إلى تلف المزروعات وجدب المواسم مما يؤشر الأهمية الكبرى لمشاريع الري على هذه المجاري بهدف السيطرة على فيضاناتها وحماية منتوجاتها ومدنها ومناطقها السكانية الحضرية ولقد كان للعراقيين القدماء باعاً طويلاً في العصور القديمة البابلية والسومرية والأكدية. وتبقى وبسبب من تطور الزمان وإنسانه ووسائله مشاريع الري العباسية هي الأبرز في تاريخ أراضي الوادي كما يقول الأستاذ الدكتور

---

[1] - جاكوبن – مياه أور – مجلة العراق – العدد 22 – 1960.

أحمد سوسة في مؤلفيه (**فيضانات بغداد، ري سامراء**) الشهيرين والتي كانت لها كل الآثار الإيجابية على حياة سكان الوادي في تلك الحقبة من التاريخ ولا يفوتني هنا الإشارة وبما له علاقة بموضوع البحث أن هذه الشبكة الكبرى من الأنهار الطبيعية والأنهار الاصطناعية في قنوات الري والبزل كان لها أكبر الأثر في الفكر الهندسي لبناء المدن وعمائر الوادي وعلى الفكر العسكري لمقتحمي أراضي الوادي من غزاة الشرق والغرب ولأبنائه المدافعين عنه وعن حضاراته ومدنه وفعالياته المعروفة على مر العصور.

إن كل هذه الصفات التكوينية لأراضي الوادي وتربته مما رأيت لزوم شرحها وتفصيلها لعلاقتها الوثيقة بالفكر الهندسي والمؤثر على تصاميمه سلباً إضافة إلى عامل مستوى المياه الجوفية العالي جداً في أرض الوادي[1] وإيجاباً من ناحية طبيعتها الرسوبية الغرينية النقية من الأملاح والتي يمكن إنتاج المواد الإنشائية منها بدرجة عالية من الكفاءة وكما ترينا العمائر والآثار المتبقية في مختلف مناطق الوادي الوسطى والجنوبية إلى يومنا الراهن إضافة إلى ما تقدمه المناطق الجبلية من مكونات صخرية وجيرية وكلسية كمواد أولية إنشائية للبناة والمهندسين وعلى مر عصور ودهور حضارات الوادي وفعاليات ساكنيه الحضرية المتقدمة. ويمكن لأراضي الوادي إنتاج عدة أنواع من المواد الإنشائية التي تهيئ مواد أولية لازمة لعمليات الإنشاء والبناء سواء على مستوى الأبنية السكنية لتجمعاته البشرية أو على مستوى منشآت الخدمات العامة كالمرافق الدولية المهمة ليس في العاصمة وحدها بل وحتى في القرى الصغيرة أو لقصور القادة والملوك أو للمعابد والمساجد ودور العبادة الأخرى أو

---

[1] - لمعرفة تفصيل أكثر عن مشكلة المياه الجوفية في أراضي بلاد وادي الرافدين المنخفضة نسبياً عما حولها راجع (جي. أيم. ليز) و(أين. أيل. فالكون) – التاريخ الجغرافي لسهول البحر الأبيض المتوسط – المجلة الجغرافية – 1952 – الصفحات (24-39).

للمدارس والمعاهد العلمية مما يؤمن نسيجاً مطلوباً بل وضرورياً لتحضر الدولة وتقدمها وعلى كافة الأصعدة وكذا بالنسبة لقلاعها وحصونها حيث يتمكن المجتمع من تأمين الحماية الكافية المطلوبة لدرء أخطار الغزو والغزاة عن مدنه وفعالياته الحياتية المطلوبة لاستمرار مسيرته الحضرية المتقدمة.

ويمكن الإشارة هنا إلى أنواع عديدة من هذه المواد الإنشائية وكما يلي:

الصخور

وهي موجودة بكثرة في المناطق الشمالية من الوادي والغربية كذلك دأب العراقيين في مراحل متعددة من التاريخ القديم والحديث على استخراجها كقطع كبيرة غير منتظمة الأشكال تعود النّاس من اختصاصات معينة يطلق عليها اسم (**النقارين**) على تشذيبها واستخراج أوجه منتظمة منها بهدف تسهيل عملية استخدامها في البناء أولاً ثم بهدف الاقتصاد بالمواد اللاصقة بين طبقاتها أو بهدف الاقتصاد في إملاء الفتحات الداخلية بينها ولجعلها منشآت ذات جدران صقيلة صالحة للسكن وللفعاليات الحياتية الأخرى.

ولوجودها في المناطق الشمالية كما أسلفنا فالملاحظ أن منشآت الحضارات الآشورية بعمومها مبنيةمن هذه الصخور سواءعلى مستوى المباني المختلفة أو على مستوى الحصون والأسوار حول المدن مما جعلها حصينة عصية على الغزاة وعاشت لمئات بل ولآلاف السنين والبعض منها قائم إلى يومنا الحاضر.

اللبن

وهو مادة طينية أصلها ترابي يمزج بالماء ويعامل بالعجن والتخمير بعد مزجه بمواد تساعد على تماسكه كالتبن والقصب والبردي وأنواع أخرى من النباتات الجافة ثم يوضع ضمن قوالب تقطعه على أشكال منتظمة تساعد على استخدامه في البناء

بكفاءة تؤمن الاستقامة والعمودية للجدران والتوازن في توزيع الأثقال وبما هو ضروري جداً لإدامة عمر المنشآت وعدم تعرضها للتشقق ثم الانهيار وبعد ذلك تجفف تحت حرارة الشمس لتتحول إلى قطع تتمتع بقدر معين من الصلابة وإمكانية التداول والنقل والبناء ويستخدم مع هذا اللبن الطين كمادة لاصقة بين طبقات البناء وكذلك باللبخ من الداخل والخارج للجدران مما يعطيها خطوطاً منتظمة خالية من الشقوق وفي هذا فائدةٍ ليست جمالية فحسب وإنما لمنع الحشرات والحيوانات الصغيرة من الاحتماء بها داخل وخارج المنشآت وبما يقلل من صلاحيتها للسكن المتحضر وهي مستخدمة إلى يومنا الحاضر في الكثير من المنشآت والدور في القرى والمدن الصغيرة بصورة خاصة ومن أبرز مميزات هذه المادة الإنشائية هو كونها عازلة جيدة للحرارة وبما يتلاءم وبشكل كبير مع أجواء قاسية الحرارة في وسط وجنوب الوادي في فصل الصيف الذي يعتبر من أطول فصول السنة في الوادي.

الطابوق والصاروج

إن الطابوق والصاروج هو من نفس مصادر اللبن مارة الذكر بعد شيها وفخرها بالحرارة الاصطناعية حيث تفرش القطع على مساحات مسقفة على شاكلة الأفران وتشعل تحتها النار لمدة معينة مما يؤدي إلى فخرها وتحويلها إلى قطع صلبة تماماً تؤمن بشكل كفوء كافة الأغراض الإنشائية سالفة الذكر ويتكون الصاروج في الطبقات السفلى القريبة من مصادر النار مما يعرضها إلى حرارة أكثر تنتج عنها صلابة أكثر وتستخدم اعتيادياً في بناء أسس المنشآت أو في الأجزاء المعرضة للمياه بكثرة كمنشآت السدود النهرية والقنوات المتفرعة منها أو في الأجزاء السفلى من أسوار المدن المحاطة بخنادق مائية وفي بعض سفوح هذه الخنادق كما سنرى في بحث أسوار المدورة دار السلام أو أسوار بغداد الشرقية ويلاحظ وجود هذه المهارة في صناعة هذه المادة الإنشائية المهمة والأساس في بناء المنشآت والعمائر والأسوار والأبراج والتحصينات

وقبل العصور العباسية بمئات السنين في عمائر قائمة إلى الآن مما بني في الطابوق في مدينة طيسفون وطاق كسرى وفي آثار بابلية وأكدية وسومرية لا زالت شاهداً على التقدم الكبير لحضارات الوادي ومنذ العصور الموغلة في القدم ومما ساعد الإنسان فيه على بلوغ مراحل متقدمة من التطور والرقي.

الأخشاب

تمتاز بعض المناطق الشمالية من الوادي بوجود غابات كثيرة فيها أنواع جيدة من الأخشاب المستخدمة لأغراض الإنشاء حيث تعتمد السقوف بشكل رئيس على هذه الأخشاب بتجسير الأبوان بين جدرانها مما يساعد ليس فقط على التسقيف وإنما تساعد البناء بطرق متعددة ويستخدم الخشب (**المادة الإنشائية المهمة الأساسية**) في صنع الأبواب والشبابيك اللازمة بل والضرورية لوقاية داخل المنشآت من ظروف الأجواء الخارجية وبهدف تحقيق أمنها وسلامتها. وقد تفنن العراقيين القدماء في تطوير هذه المادة وحمايتها من التآكل بفعل الزمن أو بفعل الحشرات الضارة التي تنخر بها كالأرضة (**دودة الأرض**) أو النمل والأنواع الأخرى من الحشرات وذلك بتنقيع الخشب في أحواض على شكل حفر في الأرض تملأ بمادة النفط الأسود المعروف في الوادي منذ أزمان طويلة حيث وجد هو والقار في الزقورات السومرية والأكدية وكذا في المنشآت التي يعود تاريخها إلى العصر البابلي في مدينة بابل وغيرها.

البردي والقصب

وهي أنواع من النباتات تشكل جذوعها مواد قوية يمكن عمل حزم منها تربط بالمواد المتيسرة مع بعضها لتشكل إطاراً جيداً لهياكل بعض أنواع المنشآت البسيطة ويمكن عمل منشآت جميلة جداً وبسيطة منها وتكثر هذه النباتات في مناطق الأهوار

جنوب الوادي حيث نشاهد مدناً وقرىً كاملة منشأة بهذا الأسلوب ولكن سلبياتها أنها خطرة في حالات الحرائق ولا تدوم لفترات طويلة.

المواد اللاصقة

إن أغلب المواد الإنشائية تحتاج في بنائها إلى مواد لاصقة سواء ضمن صفوف اللبن أو الطابوق أو لتغطية الأوجه الداخلية والخارجية للمنشآت وهذه المواد موجودة في الطبيعة وفي مناطق الوادي المختلفة خاصة في شماله ووسطه حيث اكتشفت مناطق القار والنفط الأسود منذ عصور سحيقة ودليلي على ذلك أن زقورة (**دور - كاريكالزو**) الكيشية تحوي في طبقات بنائها على حصران مع القار لتأمين التماسك ويعود تاريخها إلى حدود ألفي عام قبل الميلاد كما أن أغلب طرق مدينة بابل وأرضيات معابدها تحوي هذه المادة.

وهناك نمط آخر من المواد اللاصقة في مناطق الوادي وهو مادة الجص والكلس حيث أن أغلب طبقات الأرض في مناطق شمال الوسط وغربه من أرض الوادي تتكون من صخور كلسية يستخرج منها مادة الجص بالطحن والتنعيم بحيث تتحول إلى مادة طحينية مسحوقة وعند مزجها بالماء بنسب وكيفية معينة تتحول إلى عجينة تستعمل لتماسك طبقات الطابوق وكذا للبخ الجدران الداخلية من المنشآت بصورة خاصة وبنفس الكيفية التي تحدثنا عنها عند استعمال الطين سابقاً.

وهناك أنواع من الكلس عالي الجودة يتحول عند مزجه بالماء ومرور أوقات معينة عليه إلى مادة صلبة جداً ونظراً لوجود السليكات في بعض مناطق القطر الممتزجة مع الكلس فإن هذه المادة وبعد تصلبها تصبح شبيهة بمادة المرمر اللامع والمتعدد الألوان صقيل السطح وتشاهد هذه المادة مستخدمة في قلعتي كركوك وأربيل التاريخيتين وكذلك في بعض المنشآت التاريخية في مدينة الموصل ونينوى والنمرود الآثارية وقد

اشتهرت هذه المواد في عمليات الزخرفة والجصيات في العراق القديم لوسط وجنوب الوادي حيث تتميز كل الآثار للأبنية والعمائر التراثية والآثارية بهذه الزخارف والمقرنصات والمنحوتات وخاصة في المعابد المتبقية آثارها من العصور البابلية والساسانية مما يدل دلالة قاطعة على معرفة سكان الوادي القدماء بهذه المادة وبتميزهم بإجادة استخدامها في تجميل هذه الأبنية والعمائر مما أكسبها وضعاً عالمياً خاصة بين آثار الحضارات القديمة في المشرق والمغرب ومن نافلة القول أن نذكر بأن الذوق الرفيع في مثل هذه الأمور هو دليل تحضر وتقدم إضافي لسكان الوادي القدماء.وإن صناعة السيراميك هي الأخرى من محدوثات حضارات وادي الرافدين وهي من القدم بحيث لم نتمكن من تحديد تواريخ محددة لها لشحة المصادر.

صناعة الزجاج

إن صناعة الزجاج هي الأخرى من صناعات المواد الإنشائية المهمة وهي التي تكمل جهود البنائين والنجارين والحدادين في عزل المنشأ عن البيئة الخارجية له بدون حجب للرؤيا وللمناظر خارجهُ.وهي الأخرى صناعة قديمة في بلاد وادي الرافدين تمتد إلى أكثر من ألفي عام قبل الميلاد وقد اشتهرت في المناطق الغربية من أرض الوادي حيث تكثر الرمال الحاوية على نسبة عالية من السيليكات والمهم في الأمر أن العلوم القديمة قد توصلت إلى مستوى لا بأس به من هذه الصناعات وعلى مستوى المهارات اليدوية.وقد وصلت مستوى تكوين الزجاج بألوان جميلة مختلفة لاستخدامات متعددة أهمها هي الاستخدامات لأغراض إنشائية.

صناعة الحصير

وهي صناعة خاصة بإنتاج حصران من (**خوص**) سعف النخيل بهدف استخدامهِ إنشائياً في تغطية السقوف بعد تقليل عرض الإيوان فيها باستخدام الخشب أو أي من

مواد التسقيف الأخرى حيث عرف سكان الوادي القدماء التسقيف بجذوع النخيل الذي تكثر زراعته ومنذ العهود السومرية والأكدية في منطقة جنوب ووسط العراق حيث يغطى السقف بمجموعة من هذه الجذوع وبتباعد مناسب فيما بينه ثم تفرش عليها عرضياً مجموعة من مواد التقوية كالأغصان أو حزم القصب ثم تفرش الحصران فوقها وتغطى بطبقة من الطين المعامل مع التبن بهدف حجب مياه الأمطار.

فكرة إنشاء الأسوار والخنادق المائية
حول المدن في بلاد وادي الرافدين

إن أفكار إحاطة المدن بالأسوار والخنادق المائية من الأفكار القديمة المعتمدة في مدن حضارات وادي الرافدين القديمة جداً والموغلة في عمق التاريخ حيث كان إنسان هذا الوادي الذي سبق وأن تحدثنا في بداية الفصل عن تطويره لأساليب الحماية والدفاع عند استخدامه الكهوف في بدايات حياته على أرض شمال الوادي قبل عصر الطوفان مستمراً في تطوير أساليب حياته بشكل مبدع خلاق خاصة عند تطويره لأساليب الحياة الاجتماعية وعيشه على شكل مجموعات عائلية في تجمعاته السكانية الجديدة بعد عصر المدينة الذي أخذ ينمي حياتها بكل ما هو مبدع في كل مناحي الحياة ومنها قضية الحماية من المخاطر والتي تشمل ليس فقط مخاطر الوحوش الضارية والإنسان الآخر وإنما تتعداها إلى مخاطر أكبر في هجمات كبيرة منظمة لتجمعات سكانية أخرى مجاورة بهدف الغزو والسلب والنهب ومما هدته إليه أفكاره أن يحيط هذه التجمعات السكانية الحضرية بأسوار مشتركة يتعاون فيها الجميع لحماية الجميع حيث كانت الأفكار الأولى لإنشاء الدول في عصر دويلات المدن.

وقد تزامن هذا الوعي السياسي مع الوعي العسكري حيث بدأت مبادئ الحماية والدفاع تأخذ أشكالاً جماعية منظمة حين بدأت تظهر مبادئ تكوين الجيوش وخاصة في الإمبراطوريات القديمة في بلاد وادي الرافدين حيث تجمعت عدة دويلات من دويلات المدن لتشكل تحالفات أكبر تديرها وتدير شؤونها إدارات أكبر وصلت مستوى الإمبراطوريات البابلية والآشورية في جنوب وشمال الوادي حيث تشكلت لها

جيوشها التي بدأت ووفق تجاربها الذاتية تطور علومها العسكرية ضمن مدارس محترفة لقيادات مدربة وذات أفكار ناضجة لأفضل أساليب القتال المعروفة جماعياً في تلك الحقبة ومنها تطوير أساليب الدفاع عن المدن والتجمعات بهدف حماية مواطنيها.

ولقد كانت بدايات تلك الأسوار هي بإنشاء تعليات ترابية يحتمي بها المقاتلون من نبال وسهام ورماح أعدائهم المهاجمين وهي بنفس الوقت تمكن المدافعين من استخدام أسلحتهم بكفاءة أعلى ضد العدو المكشوف في العراء ثم تطورت إلى أسوار أعلى بالبناء بالحجر في الشمال واللبن والطابوق في الجنوب وجرى تزويدها بأبراج لها فتحات لتنظيم الرمي أطلق عليها مصطلح (**المزاغل**) والهدف من الارتفاع هو تجنب زخم هجوم الخيالة حيث بدأ الإنسان باستخدام هذه الحيوانات في القتال وهي ذات ميزات هجومية عالية توقفها وتقلل من سرعتها هذه الأسوار العالية مما يمكن المدافعين من إصابتها إصابات توقع بها بالتأكيد خسائر مهمة وتوقف هجومها.

ثم تطور الأسلوب إلى مضاعفة عدد الأسوار فبدأت الأسوار المزدوجة تظهر ويقال أن في بعض المدن والمرافق القيادية المهمة كانت تنشأ عدة أسوار ولم يكتفي الفكر الدفاعي بذلك بل تطور إلى أفكار جديدة بإنشاء خنادق حول هذه الأسوار غالباً ما كانت تملأ بالماء مما يجعل أمر عبورها صعباً ومكلفاً للخسائر حيث يكون العابرون بأوهن حالاتهم وهم على سطح الماء.

المهم هنا هو أن نؤكد أن المدينة لم تعد مكشوفة كما بدأت وخاصة عندما تكون الأرض المنشأة عليها مفتوحة حيث تقدم ميزات متساوية من كل جوانب المدينة ولكن الأسوار والخنادق أخذت بتعويض هذه النواقص في دفاعات هذه المدن وسكانها ومرافقها العامة والخاصة.وهي أفكار نبعت بالتأكيد من تجارب طويلة وفترات قتالية

لأناس اشتركوا بحروب أزهقت فيها الأرواح وأريق فيها الدم البشري مما جعل أثمان هذه الخبرات عالية جداً والمهم أن الدول بدأت باتخاذ مثل هذه التدابير والإجراءات تحسباً لمثل هذه المواقف مما حمى كياناتها وجعل المعتدي يفكر أكثر من مرة قبل الاعتداء.ولي أن أضرب أمثالاً تعينني على التواصل مع القارئ في تتبع ملامح تطور التفكير الدفاعي الحمايوي وخاصة في عصر ظهور الإمبراطوريات ذات الجيوش الكبيرة كالبابلية والآشورية وظهور قيادات خاصة لجيوش دارسة مجربة وذات الخبرات الحربية بعد أن كان الملك يقودها بنفسه في البداية.

مدينة نينوى الآشورية

من الأمثلة البارزة والمتبقية آثارها بشكل واضح من بين حضارات وادي الرافدين المهمة وبقدر تعلق الأمر بموضوع إنشاء الأسوار حول المدن في العهود القديمة مدينة نينوى التاريخية في جانب دجلة الشرقي قبالة مدينة الموصل والمدينة محاطة بأسوار ضخمة مبنية من الحجر الكبير وقد اتخذها الملوك الآشوريين عاصمة لهم في العام (**1080 قبل الميلاد**) وكانت في أوج عظمتها في عهد الملك (**سنحاريب**) (**705-681 قبل الميلاد**) عندما قام بتوسيعها وبناية المعابد والقصور فيها وهو الذي بنى سورها الشهير الذي كان عنواناً للفكر العسكري الدفاعي في مدن الوادي.

ويبلغ طول هذا السور خمسة كيلومترات وفيه خمسة عشر بابا ستة منها في الجزء الشرقي من السور وهي أبواب (**خيلزي وشمس وتذليل ومشلال وشبانبا وخلافي**) ويواجه باب خليزي الشمال وهي أبواب (**أدد ونركال وسن**) ويبلغ طول هذا الجزء من السور كيلومترين وفي القسم الغربي من المدينة سور طوله (4) كيلومتر ومائة متر وفيه خمسة أبواب هي (**ماشكر وكاري ومادياري وايكا لمشارتي وحتزوري**) وفي الجزء الجنوبي سور طوله ثمانمائة متر وفيه باب واحد هو باب آشور الشهير وكان نهر

الخوصر يشطر المدينة إلى جزأين حيث يخترقها وحتى مصبه في دجلة[1] وقد كانت أبواب المدينة من العظم والرقي المعماري كما يقول المهندس الفرنسي **(فكتور بالاس)** الذي أجرى تحريات وتنقيبات دقيقة في أسوار المدينة وأبوابها في العام **(1852م)** واسم المدينة كما يروي لنا بعض الآثاريين **(نينوى)** مشتق من اسم الملك **(نينس)** وهو زوج الملكة **(سميراميس)** الشهيرة الأسطورية ومن ملوك آشور البارزين الأقوياء.

مدينة بابل

وهي العاصمة العظيمة للدولة الكلدانية في الأعوام **(626 قبل الميلاد)** بعد تحريرها من الاحتلال الآشوري على يد ملكها **(نبوبلاصر)** وهو والد الملك الشهير **(نبوخذنصر)** الذي بلغه نبأ وفاة أبيه وهو يخوض معركة **(كركميش)** مع المصريين فعاد إلى بابل وتوج ملكاً عليها في العام **(605 ق.م)** وهو الذي حدث في عصره عصيان ودسائس مملكة **(يهودا)** مما جعله يجهز حمله عليها فيقتحمها ويأسر ملكها **(يهوباقين)** مع عشرة آلاف يهودي وهذا هو السبي البابلي الأول وبعد عشر سنوات ثارت مملكة يهودا مما حمله على تجهيز حملة ثانية أدت إلى السبي الثاني الذي أسر فيه أربعين ألف وقد أعاد عمارة المدينة وبنى لها سورين الخارجي منهما طوله **(18-20 كم)** وقد بناه بالآجر واللبن وأطلق عليه اسم (نمتي - إنليل) أما السور الداخلي فقد أطلق عليه اسم **(أمكر - إنليل)** وهو الآخر مبني بالآجر واللبن وعرضه ستة أمتار ونصف وفي السور الداخلي ثمانية أبواب ويحيط بها خندق مائي والمسافة بين السورين حوالي الكيلومترين[2] ولو أن اللبن كان المادة الأساسية للبناء في أسوار مدينة بابل وعمائرها إلاّ أن الآجر مستخدم هو الآخر وبكثرة في الأسوار والأبنية الأخرى وحتى في تبليط الطرق وقد أبدع البابليين في صنع أنواع مختلفة من اللبن وحسب أنواع الترب

[1] - المهندس شريف يوسف - تاريخ فن العمارة العراقية - دار الرشيد - 1983 - الصفحة 143.

[2] - نفس المصدر - الصفحة 173.

المستخدمة ونسب الأملاح فيها أما المفخور منه والذي يصبح آجراً بعد شيه كما أسلفنا فقد استعمل في مدينة بابل بكثرة أحياناً في إكساء الجدران وأحيان أخرى في بنائها وكذا في بناء الأقواس والقناطر والأبواب الكبيرة وفي السقوف وكان من عادة ملوك بابل تخليد أسماءهم بتدوينها على هذا الآجر...

إن من المهم الإشارة إلى أن فكرة بناء الأسوار حول المدن وإحاطتها بالخنادق المائية هي فكرة أساسها الحماية كما أسلفنا وبهدف إيقاف المهاجم في مناطق قريبة من هذه الأسوار بحيث يصبح ضمن مدى الأسلحة المحدود في تلك العصور ولإيقاع أكبر الخسائر والتأثير في معنوياته كمرحلة من مراحل القضاء عليه ولكن الأهم من ذلك في الفكر العسكري لبناء الأسوار هو مبدأ تساوي الأفضليات والميزات الحربية في المناطق المفتوحة حيث يواجه المدافع مشكلة كبرى في تحديد اتجاهات الهجوم بغية توجيه قطعاته إلى هذه الاتجاهات لإيقافها وصدها ولذا فقد فكر القادة بأسلوب الأسوار والخنادق والجسور عليها لكي يضطر المهاجم في الأرض المكشوفة المتساوية القيمة العسكرية إلى اتخاذ محاور تؤدي إلى المعابر على الخنادق والأبواب في الأسوار مما يعطي القيادات المدافعة أفضليات في إجبار المهاجم على الدخول إلى أرض القتل التي اختارها المدافع وعبأ أسلحته عليها...

ومهم جداً أن نشير إلى أن الأسوار لم تكن للمدن الواقعة في الأراضي السهلة فقط وإنما كانت تحيط المدن الآشورية الشمالية كما أسلفنا وفي بعض هذه الحالات يبنى في جوانب معينة من المدينة والتي تمثل التهديد الأخطر حيث تتمتع الجوانب الأخرى بالحمايات الطبيعية وخاصة في المقاطع الجبلية حيث القطوع الصخرية التي تعيق الحركة وتزيد من صعوبات تسلقها وتمنع المتسلقين من استخدام أسلحتهم بالكفاءة المطلوبة.

وقد عمد الآشوريين في بعض الحالات إلى تقطيع وتشذيب هذه القطوع وتحسينها بما يؤمن لها الاستخدام الكفوء وهذا الإجراء هو أساس فكر التحصين في الحفر أصلاً فإن تعذر لأي سبب يأتي دور البناء.

ولذا فإن هذه القطوع الوعرة تعتبر أسواراً طبيعية للمدينة.

وأراه مفيداً للبحث أن أشير هنا إلى أنه من المعروف أن الكثير من قبائل العرب في اليمن قد هاجرت إلى الشمال بعد انهيار سد مأرب وأن المعروف أن قسم منها مثل بني تغلب هاجرت إلى العراق واستوطنت فيه ومعروف أيضاً أن هذه البيئة بيئة اليمن ومدنها كانت على دراية ومعرفة بأسوار المدن وفوائدها ومن المحتمل جداً بأنها نقلت معها مفاهيم الأسوار حول المدن هذه تعزيزاً للخبرات القائمة.

وهذه الهجرات لا يمكن أن تكون المصدر الأساسي لهذا الفكر في بلاد وادي الرافدين حيث أن التواريخ والسياق الزمني يشير إلى أن سكان الوادي القدماء قد عرفوا هذه المعرفة وتبنوها في مدنها قبل تاريخ انهيار سد مأرب إلى أنه عزز هذه المعرفة في البلاد بتجارب الآخرين وشذبها وطورها في المدن المنشأة حديثاً.

نماذج قديمة في الدفاع عن المدن والأمصار
بإقامة الأسوار حولها عند الشعوب

سور الصين العظيم

إن من أبرز الأمثلة في التاريخ القديم للشعوب هو هذا السور الشهير سور الصين العظيم الذي أعتبر أحد عجائب الدنيا السبعة والذي اشتهر بطوله وضخامته إلى درجة أنه المعلم الوحيد على سطح الأرض الذي يمكن رصده من أجواء الفضاء الخارجي كما يروي رواد الفضاء ممن شاهدوه بأعينهم ولو أن رائد الفضاء الصيني أكد أنه لم يره بعد عدة دورات حول الأرض إلاّ أن من غير المعقول أن تكون كل تلك الروايات غير حقيقية وهي متعددة وقد تكون زوايا خاصة للرؤيا أو أجواء معينة هي التي حالت دون رؤية هذا الرائد لهذا المعلم الضخم في الفضاء الخارجي.

وفي كل الأحوال فإن هذا السور عرفته البشرية كجهد ضخم لأمة حية أنفقت عليه دم أبنائها وكلفها المال الكثير والسنين الطوال من عمر البشر مما حدا بالدارسين إلى تعريفه كأحد العجائب السبعة وهو من أضخم ما عرفته البشرية من المنشآت وأعظمها.

عانت بلاد الصين من ويلات هجمات القبائل الهمجية التي تسكن حول البلاد وجنوبها على الخصوص وكانت تلك الهجمات مدمرة للبشر وحضاراتهم ومدنهم وزروعهم في بلاد الصين ذات الحضارة العريقة إلى درجة أنها أصبحت الهاجس الأكبر الذي يشغل أباطرة الصين وحكامها والذي لم يكن أمامهم من خيارات لتفادي خطر هجمات هذه القبائل **وتجنيب شعبهم ويلاتها سوى أربع خيارات هي:**

- شن هجمات كبيرة لطرد هذه القبائل من مناطق الجوار (**وهو خيار مكلف جداً**).
- إنشاء حاميات دفاعية عسكرية على طول خطوط الحدود.
- إقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية معها (**والقبائل لم تكن مؤهلة لذلك**).
- بناء جدار على طول خط الحدود يصدهم عن البلاد (**مع مراقبتهِ المستمرة ووجود الحاميات**).

ومعلوم أن القيادات الصينية المتعاقبة في حقب التاريخ المختلفة قد جربت تلك الخيارات بشكل أو بآخر إلاّ أن تجاربها المستمرة مع هذه القبائل بينت لها أن إقامة الحاميات على طول الحدود إضافة إلى كلفته المادية والبشرية فهو غير عملي لأنها لا تمتلك القدرة على الحركة السريعة مما يحدد هذه الحاميات في حالات تعرضها إلى الهجمات المدبرة وبحشود كبيرة تجعل أمر صمودها صعباً بل ومستحيلاً في بعض الحالات أما الخيار الثالث لإقامة العلاقات الدبلوماسية الاقتصادية مع هذه القبائل الهمجية فقد تنجح في بعض الحالات إلاّ أن التبدلات الغير معقولة في سلوك هذه القبائل كان يؤدي دوماً إلى فشل هذه التحالفات إضافة إلى أن عنجهية أهل الصين واعتزازهم بأنفسهم مما أطلق عليه المؤرخين تعبير (**عقد المملكة الوسيطة**) وكانوا وفق معتقداتهم يعتقدون أن أفراد هذه القبائل الهمجية غير المتحضرة (**يحملون قلوب حيوانات**) ويعيشون هامش الحياة وعلى حافة الدنيا المعروفة ولا يمكن اعتبارهم من بين البشر المساوي اجتماعياً لأهل الحضارة في الصين.

وبعد المناقشات المستفيضة وخاصة عند أهل الحكم من الأباطرة ومعاونيهم ووزرائهم توصل المتحاورون إلى أن بناء السور هو الاختيار الأمثل لعزل هؤلاء الأوباش عن الصين ومدنها وأهليها وحضارتها ولتجنب شرورهم وأذاهم.

وتروي الحكايات الصينية القديمة أن (**شين هوانج**) هو من بدأ بتشييد السور من الأباطرة وخاصة بعد أن تمكن في تحويل البلاد تحت حكمهِ وبسط سيطرته الكاملة عليها، وكان هاجسه الأكبر هو إبعاد قبائل الهون عن بلاده بهدف تحقيق استقرارها واستقرار أبناء سلالتهِ التي كان يعتقد بأنه سيكون الإمبراطور الثاني والثالث وهكذا وحتى نهاية الكون شأنه شأن كل الجبابرة المتسلطين على مقاليد الشعوب والأمم الذين أغرتهم السلطة والقوة وامتلاك الثروة على التسلط على بني البشر.

الطريف في الأمر أن الجهد العظيم الذي بذلته الإمبراطورية والوقت الطويل للإنشاء والكلف العالية والتجنيد القسري للناس هي التي قادت الصين إلى تمرد أطاح بإمبراطوريته بعد مماتهِ مباشرة.

ولم تسلم أسرة (**مان**) التي أعقبت حكم (**شين هوانج**) من هجمات القبائل الهمجية (**الهون**) وهذه الأسرة تعتبر أكثر الأسر الحاكمة الصينية نفوذاً في تاريخ الصين بعد أن رفض حكام الصين من هذه الأسرة جهود زعماء قبائل الهون لإعادة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية باعتباره من (**الأمور المخجلة**) حيث دخلت الأطراف في صراعات مسلحة دامت سنوات طوال مما أوقع الإمبراطورية في أزمات مالية حادة لم تتمكن من تجاوزها وتجنب آثارها الاقتصادية المدمرة.

عندها قرر (**مان**) إعادة ترميم السور وإضافة أجزاء جديدة له تنسجم مع توسع إمبراطوريته نحو الغرب في صحراء جوبي وهذه المرة كان الغرض الأساس من السور هو حماية طريق الحرير التاريخي الشهير مع الغرب.

امتد هذا السور مئات الكيلومترات متعرجاً مع التضاريس الأرضية التي يمر منها وأصبح بعد إنجازه (**يشق بلاد الصين مثل حيوان الدراجون النائم**) كما يرى من الجو.

شهدت فترة حكم الإمبراطور (**مينج**) (**1368-1644**)جهداً مهماً في عملية إكمال بناء الأجزاء المتبقية من السور تجنباً لهجمات جديدة للبرابرة المغول وإعادة حكمهم وسيطرتهم على البلاد بعد أن دحرهم في العام (**1368م**) وكان هذا الإمبراطور حساساً من الغرباء لا يثق بهم مما دفعه إلى منع المواطنين وأجهزة الدولة من التعاملات التجارية معهم مما أضر كثيراً بالوضع الاقتصادي للبلاد إضافة إلى نشوب توترات عديدة مع الشمال المنشوري وبعد هروب أحد ضباط حرس الحدود الكبار شن المنشوريون هجوماً كاسحاً لم يتمكن (**مينج**) من صده.

ورغم كل ما كان لهذا السور من دور بارز في تاريخ الصين إلاّ أن هناك تضارباً في الآراء وفي وجهات النظر حول جدواه وحول توازن مساوئه مع محاسنه، فوائده ومضاره، إلاّ أن من شيده من الأباطرة كان ينظر إليه بشديد الفخر على عكس وجهة النظر المغولية التي كانت ترى في السور تهديداً لمصالحهم ووجودهم ولكن واقع الأمر أن السور هو الذي أجبر المغول على التوسع نحو الغرب مما يعتبره بعض المؤرخين وما رافقه من أحداث سبباً لسقوط الإمبراطورية الرومانية في أقصى الغرب وسقوط الدولة الإسلامية في العراق وسقوط الدولة الخوارزمشاهية في بلاد آسيا الوسطى وما وراء النهر.

كان هذا السور فيما عدا ما سبق رمزاً لعزلة الصين من وجهة نظر الأوربيين ولكنه يبقى ورغم كل شيء نموذجاً رائعاً لعظمة الإنسان وقدراته الخلاقة.

ورغم كل وجهات النظر العالمية حول هذا السور فهو بحق رمزاً بارزاً لعظمة الشعب الصيني الذي نظر إليه في مرحلة من المراحل نظرة سلبية حيث اعتبره سبباً للهزيمة أمام المنشوريين.

وفي الوقت الحاضر تحول السور من وجهة نظر أهله إلى رمز وطني غير رسمي لبلاد الصين وشعبها وهو عدا ذلك مرفق سياحي يجلب الملايين من السياح الذين ينعشون اقتصاد الصين ورمز مفاخر لشعبها أمامهم.

لقد قال حكماء الصين عبارتهم الشهيرة المأثورة (**لا يوجد إنسان طيب لم يصعد إلى سور الصين العظيم**).

لقد رأيته لزاماً علي أن أسرد هذا التفصيل عن هذا المنشأ العالمي الهام ليس فقط من وجهة نظر البحث عن الأسوار والتحصينات الدفاعية وتطورها العالمي فحسب وإنما وجدت في هذه المعلومات الطريفة ما يفيد القارئ الكريم ويغني معلوماته ووجهات نظره عن فكر بني البشر الخلاق في أمور الحماية الموضوع الأساس في إدامة حياته ومعاشه وفعالياته الإنسانية.

إن التواريخ التي بني فيها سور الصين هي ليست من التواريخ الموغلة في القدم بتاريخ الإنسانية ولكني رأيت التفصيل فيه توخياً للفائدة والمتعة حيث أنه منشأ ليس له نظير لدى شعوب المعمورة في تاريخها الطويل فلم يحدث أن فكر أي من الأمم ببناء سور يحيط دولة لا قبل أهل الصين ولا بعدهم حيث انفردوا بهذا النمط المتميز.

أما النماذج القديمة ولها قبل الميلاد من تاريخ لأسوار المدن فيكاد يكون محصوراً في منطقة الشرق الأدنى حيث الحضارة الفارسية الفرثية والميدية والحيثية والساسانية

وحضارات بلاد وادي الرافدين السومرية والأكدية والبابلية والآشورية والنبطية وحضارة الإغريق والحضارة الرومانية.

المتميز في هذه الحضارات وخلافاً للحضارة الصينية كانت على شكل نوعين من تحصينات المدن والأمصار هما:

النوع الأول:

تنظيم الدفاعات لمساحة المدينة كاملة كما في المدن الآشورية والبابلية والعربية الصحراوية والعربية اليمنية.

وتؤسس فكرة الدفاع هذه على إنشاء تحصينات على شكل أسوار متعددة مزودة بأبراج قتال مسيطرة إما على البيئة المحيطة كلياً كما في حصن الإخيضر أو مسيطرة على ساحات معينة منتخبة بين الأسوار أو بينها وبين الخنادق المائية وحولها وهي أساليب دفاعية جماعية عن كيانات كبيرة لهذه المدن لا تتمكن من إدارتها وإدامتها إلاّ جيوش كبيرة إمبراطورية في الغالب.

وقبل ذلك مدن الحضر وتدمر والبتراء ومدن اليمن في مأرب وصنعاء ومدن بلاد وادي الرافدين ومنها مدينتنا موضوع بحثنا دار السلام المدورة وبغداد الشرقية والغربية ومدن واسط والكوفة والبصرة ومدن بلاد الشام دمشق وحلب وأنطاكية والقدس ونابلس ومدن الشمال الأفريقي في الفسطاط والقيروان والمدن الساحلية والمغربية والمدن الأندلسية في غرناطة وأشبيلية وطليطلة وقرطبة وكلها مدن شملت أسوارها وتحصيناتها كامل مساحة المدينة وغيرها كثير في التاريخ لا مجال للتفصيل والشمول فيه في بحثنا المحدد الأهداف بمدينة بغداد.

النوع الثاني

تنظيم الدفاعات خارج المدن وعلى المحاور المؤدية لها مما يجبر المهاجم على حصر نشاطه أولاً في مهاجمة هذه الأبراج والقلاع لعدم تمكنه من تركها وراءه لاحتمال قيامها بضربه من المؤخرة وهي حالة خطيرة في الفكر العسكري إن هذه القلاع سادت وعمت أراضي البلدان الأوربية وروسيا حيث مثلت مقرات للحكومات الصغيرة (**الدوقيات**) وكما في عصر دويلات المدن وهي حالة لا تتمكن فيها الكيانات الصغيرة من تأمين جيوش كبرى وتنفق نفقات هائلة للدفاع عن المدن إضافة إلى نمط معين من الفكر العسكري محدد الأهداف انتهى في العصر النابليوني بعد الثورة الفرنسية حيث أسست جيوشاً إمبراطورية واعتمدت على معطيات عصر النهضة الصناعية من أسلحة متحركة مرنة الاستخدام بعيدة المدى شديدة التدمير وقد كان لهذا الفكر الجديد تأثير كبير حتّى على المدن التي بقيت محتفظة بأسوارها كمدينة بغداد مما اضطر القائمين عليها إلى تحويرها لتتلاءم مع الأسلحة الجديدة وهو ما سمي بعصر ظهور البارود كما سنرى تفصيلاً في فصل لاحق من هذا المؤلف.

نماذج من العصر الحديث للتحصين
وبظل المفاهيم العسكرية الجديدة

كان لعصر ظهور واختراع الماكنة وإنتاج مركبات وعجلات متحركة ذاتياً وخاصة بعد عصر ظهور البارود واختراع الأسلحة ذات المديات الطويلة كالبندقية والمدفع وذات التأثيرات المدمرة أثره البعيد على تطور فكرة التحصين والدفاع ضمن منشآت معدة سلفاً لغرض مقاومة الهجوم حيث سادت أفكار حرب الحركة المعروفة على مدى حياة الإنسان وحضارته بعد تبديل الحصان بالعجلة والرمح والسهم والسيف بالبندقية والمنجنيق والعرادات بالمدفع بأشكال مختلفة.

إن هذا التطور أدى إلى تبدل الستراتيجيات خلال الحرب العالمية الأولى وما قبلها وما بعدها إلى فكر جديد للدفاع يعتمد على إنشاء مجموعات من الدشم[1] والمواضع الصغيرة لعدد محدود من الأفراد منتشرة على مساحات من الأرض رسم لها المخطط أسلوباً لإدارة معركته الدفاعية عليها يعتمد فيها على مجموعة من المواضع المرتبة بطرق خاصة تؤمن ما يتطلبه للدفاع من عمق ودفاع لجميع الجهات وقوة نارية أو يعتمد في ذلك ليس على المواقع فقط وإنما على مجموعة الخنادق وحقول الألغام والموانع السلكية الشائكة وما شاكل مما يمكنه بالتشبث بالأرض مع الاحتفاظ بالهدف الأساس في سحق جيش الخصم والقضاء عليه في هذه الساحة المنتخبة والمهيأة.

---

(1) - الدشم – جمع دشمة – وهو مصطلح تستخدمه بعض الجيوش العربية يعني الموضع والموضع قد يكون موضعاً للسلاح الخفيف وجندي المشاة وقد يكون موضعاً للمدافع على مختلف أشكالها واستخداماتها من ثقيل إلى خفيف إلى قوس إلى هاون إلى ضد دبابات أو ضد الجو.

وقد كانت دروس الحرب العالمية الأولى غنية في هذا النمط من الخطوط الدفاعية قامت الجيوش المختلفة بتطويرها في الحرب العالمية الثانية وما قبلها وتبعاً لتطور الوسائل والإمكانات الفنية وخاصة تطور معدات الحفر إلى مستوى الحفر بالمتفجرات.

لقد تحدث الكثير من الكتاب والمفكرين عن أن خطي ماجينو وبارليف نسفا نظرية الجدران الدفاعية وإني كمتخصص في هذا النوع من القتال لا أرى هذا صحيحاً حيث أن الخطأ في التعبير وليس في أسلوب التخطيط والتفكير لكون التعبير المستخدم هو المانع وليس المعرقل[1] ومهما يكن من أمر فلنرى ما هي هذه الخطوط الحديثة اعتباراً من الأقدم فالأحدث وحسب تواريخ إنشائها.

أولاً: خط ماجينو الفرنسي

بني الخط على طول الحدود الشمالية لفرنسا والشمالية الشرقية وطوله مائة وأربعون كيلومتر وجرى التركيز فيه على الحدود الألمانية الفرنسية حيث تكثر احتمالات الاجتياح الألماني وكما حدث في التخطيط للحرب العالمية الأولى وقد قوبل المشروع في البداية بحملة رافضة كبيرة وعلى مختلف مستويات الدولة الفرنسية ولكن جرت الموافقة عليه فيما بعد يأخذ الخط الدفاعي اسمه من اسم (**أندريه ماجينو**) الذي شغل منصب وزير الحربية الفرنسية في الأعوام (**1928م إلى 1932م**) ولم يأخذ الخط اسم وزير الحربية الذي طرح الفكرة وهو (**بانليف**) ولا اسم الجنرال (**بيتان**) الذي كان أول من فكر في إقامة هذا الخط وذلك بسبب كون (**ماجينو**) الرجل الذي

---

[1] - إن استخدام مصطلح المانع يعطي السامع انطباعاً بالمناعة ومنها المناعة المطلقة والصحيح هو أن هذه التشكيلات الدفاعية هي معرقلات حيث نصت كافة كراريس وأدبيات التعبئة شرقيها وغربيها على أن هدف أي من طرفي القتال في مثل هذه الفعاليات هو تأمين حرية حركة كافية وليست مطلقة للقطعات الصديقة وعرقلة حركة القطعات المعادية بهدف التأخير أو التدمير وبنسب مخطط لها أو لحرف الاتجاه إلى أرض القتل المرسومة ضمن الخطط الدفاعية والأهداف الثلاث تحققها المعرقلات إذ صممت ووزعت وفق خطة المدافع المنسجمة وبهدف إسناد خطة تعبوية وبالتعاون مع الأسلحة الأخرى ولا توجد موانع مطلقة.

ساهمت طروحه القوية والمقنعة وعباراته الواضحة في إقناع البرلمان الفرنسي حكومة ومعارضة باعتماد التخصيصات المالية الكبيرة المطلوبة لإنجاز المشروع وقد بدأ العمل بمشروع الخط بعد إنجاز تصاميمه في العام (**1929**) وانتهى العمل به بعد اكتمال إنشاءه في العام (**1940**) وهو كما أسلفنا يحوي مجموعة كبرى من مواضع الأسلحة التي تغطي كافة نواحي الجبهة بالنيران المصوبة والمواضع المحصنة تحصيناً عالياً باستخدام الكونكريت المسلح ولها ملاحق لخزن الأعتدة للتعويض خلال المعركة وملاجئ لإيواء الجند وتأمين متطلباتهم لفترات طويلة كما يحوي الخط على مسالك تؤمن للقطعات العسكرية قدرة على حركة سريعة وانتقال من موقع إلى آخر ضمن الجبهة وحسب خطوط هجوم وتقرب العدو القادم من الشمال كما أنه يؤمن لقطعات الجيش الفرنسي أماكن اختفاء ولا تؤثر على الحياة العادية وبقدر ما تؤمن شعوراً بالأمان للمواطنين وقد امتد هذا الخط على مدى الـ(**140كم**) من بداية الحدود مع (**سويسرا**) إلى (**الأردينز**) شمالاً ومن جبال الألب إلى البحر الأبيض المتوسط جنوباً.

وقد اعتبر الخط من أعظم الإنجازات الفرنسية في تلك الحقبة التاريخية وكان فسيحاً وحديثاً ولم يكن الخط مرتفعاً عن الأرض بل كانت معظم تفاصيله تحت الأرض حيث تمتد شبكات عديدة من الأنفاق المحصنة ولعشرات الكيلومترات ويعيش داخله مئات الآلاف من رجال القوات المسلحة الفرنسية على اختلاف صنوفهم وحيث كانت تجري تدريبات مستمرة لهم وعلى مختلف الاحتمالات ولكل الحالات ترقباً للحرب المقبلة ورغم كل ما قيل عن فشل هذا الخط وخذلانه لفرنسا الدولة والشعب ولكن الحقيقة أن الخط ليس مسؤولاً عن هذا الخذلان بل أن خطط (**ماجينو**) في إسقاط الاحتمالات من إحاطات واسعة من داخل الحدود البلجيكية هي التي أسقطت فعالية هذا الخط تماماً.

لم يجري الهجوم الألماني باتجاه الخط بهدف اقتحامه وإحداث الثغرات فيه للنفوذ خلفه ولكن قطعات (**بانزر**) الألمانية بقيادة الجنرال رومل السريعة الحركة داهمت الحدود البلجيكية منتهكة حيادها ودخلت من الأجزاء الخالية في الحدود الفرنسية البلجيكية واندفعت بعد سقوط باريس إلى مناطق ما خلف خط ماجينو. إن الصراع بين جهة أمنت بالدفاع عن نفسها وعلى أراضيها الوطنية وجهة خططت للعدوان بكل أشكالهِ الخارجة عن كل المعاهدات والمواثيق الدولية مما جعل الأولى تستهدف الاستقرار في مواضعها للدفاع والثانية تستهدف الحركة السريعة للإحاطة ولذا فيمكن القول وبكل ثقة كمجرب في هذا المجال وصاحب خبرة إن الذي خذل فرنسا هو عقلية ماجينو وطريقة تفكيره وليس الخط الشهير ولو كانت الخطط الفرنسية في الدفاع تعتمد العمق وهو مبدأ أساس وكما طرح الجنرال (**بيتان**) أمام البرلمان أو الاعتماد على التعزيز بالقوى المتحرّكة من الدبابات والطائرات وكما طرح (**روج بول رينولد وشارل ديكول**) لما آلت الأمور إلى ما آلت إليه في بداية الحرب.

ثانياً: خط بارليف الإسرائيلي

جاءت فكرة إنشاء هذا الخط بعد حرب حزيران (1967م) حيث احتل الإسرائيليون صحراء سيناء المصرية بحركات سريعة لقطعات مدرعة أمن لها تفوق جوي كامل بعد ضرب القوة الجوية المصرية على الأرض وكانت الفرق المصرية الخمسة منهكة متعبة ضعيفة المعنويات بسبب حربها الطويلة في اليمن وجيء بالقسم منها إلى صحراء سيناء من السفن مباشرة ولم تكن للمصريين خطط نفير تهيئ بدائل من هذا الشعب الكبير في عدد نفوسهِ. وقد جاءت الفكرة خلال حرب الاستنزاف حيث تزايد الخطر في عبور القوات المصرية للقناة واقتحام الخط لقد كان طول الخط (170 كم) وعلى طول قناة السويس من سواحل المتوسط وحتى الجنوب ويتألف من ثلاثة خطوط تؤمن العمق الكافي للخط بخلاف خط ماجينو حيث كان عمق الخطوط الثلاثة (12

كم) وكان الخط من المناعة والقوة بحيث أن أغلب المحللين العسكريين بعد زياراتهم لهذا الخط كانوا يرون أنه لا يمكن تدميره إلاّ باستعمال القنبلة الذرية ولكن القوات العربية المصرية تمكنت خلال ثلاث ساعات فقط من العبور بعد فتح (73) ثغرة في الخط جرى كل ذلك بعد أن قامت القوات المصرية بإجراء ثلاثمائة تجربة حقيقية لفتح الثغرات في الخط وثلاثمائة تجربة للعبور ومد الجسور سريعة النصب من طراز (**PMP**) آلية الحركة وكان التنفيذ خلال حرب رمضان عام (1973م) سريعاً جداً حيث عبرت الأرتال المدرعة إلى شرق القناة في زمن قياسي حقق نصراً باهراً لمصر وجيشها وحقق درساً مشهوداً للتاريخ العسكري العالمي.

لقد كان التخطيط دقيقاً وشاملاً لكل الاحتمالات أجريت حوله التجارب والتدريبات والاستطلاعات المختلفة وعلى مدى سنوات حرب الاستنزاف الخمسة ومع وجود إجراءات إسرائيلية خاصة لا سابقة لها كاستعمال النابالم في خزانات لها منافذ إلى مياه القناة بهدف اشتعال السطح ولكن التخطيط الدقيق والتدريب المتواصل مكن قوات الصاعقة المصرية من الاستيلاء على خزاناتها قبل استعمالها بحركات سريعة مفاجئة وأسر مصممها والمشرف على استخدامها قبل أن يتمكن من تشغيلها.

جمع هذا الخط الدفاعي أسلوبي الدفاع السيار والمتحرك حيث تواجدت كل الدروع على أجزاءه الثلاث بهدف مهاجمة أي قطعات معادية تتمكن من العبور.

بدأ العمل بالخط تحديداً في العام (1968م) وركز العمل ابتداءً على المناطق المحتملة أو الأكثر احتمالاً للعبور من الضفة الغربية للقناة وقد استخدمت في إنشاء نقاط حصينة في هذه المناطق آخر تكنولوجية التحصين في العالم المستقاة من تجارب وخبرات الحروب الحديثة وتحقق كل نقطة اكتفاءً ذاتياً لوجستياً وكانت التقديرات

الأولية وفق الخطط الموضوعة تشير إلى تمكن كل نقطة من الصمود لمدة أسبوع بوجه كتيبة مشاة معادية.

وجرى تزويد جنود المشاة بكميات كبيرة من الأعتدة لتأمين الاكتفاء الذاتي وتجنب الحركة الكثيرة مقابل أسلحة ثقيلة معادية كالطائرة والمدفعية كما زود المشاة بأسلحة ضد الدبابات الخفيفة بأعداد مضاعفة كقاذفات الـ(آر - **بي** - **جي** - 7) المحمولة على الأكتاف مع الكميات الكافية من العتاد لها مع الأجزاء مباشرة.

يبدو أن الإسرائيليين عند مناقشاتهم لإنشاء الخط قاموا بدراسة مفصلة لخط ماجينو الفرنسي وحللوا العوامل الأساسية للنجاح والفشل فيه ووفق سير مجريات الحرب والتعرض الألماني عليه وتوصلوا إلى استنتاجات أساسية كانت العوامل الرئيسية في التصميم لهذا الخط وتنفيذه وإعداد الخطط المفصلة لإدارة المعركة الدفاعية عليه.

مع كل هذه الإجراءات والدراسات المتقنة واستخدام كل التكنولوجيا المتطورة فلم يصمد الخط إلاّ لساعات محدودة أمام العبور المصري.

ولا أريد هنا الدخول في تحليلات أكثر عمقاً لتجنب الخروج عن الهدف من الدراسة وإنما سأكتفي بهذا القدر من شرح هذا النموذج مع العودة إلى المبدأ الأساس والمنسجم مع أهداف الدراسة وهو:-

ليس هناك في كل تاريخ الحرب دفاعات وتحصينات لا يمكن خرقها خاصة إذا كانت معدة سلفاً مما يمكّن الطرف الآخر من دراستها واتخاذ السبل الناجحة للتغلب عليها وأن التحصينات وكما سبق الشرح في أماكن أخرى لن تتمكن إلاّ من تحقيق أحد الأهداف الثلاث أو كلها وأذكرها بأنها

- إيقاع نسبة من الخسائر بالعدو بعد صده وإيقافه أمام الموانع.

❖ تأخير العدو لأوقات معينة تمكن المدافع من تحريك قواته باتجاه المحاور الرئيسية.

❖ سوق العدو إلى أرض القتل المخطط لها ضمن الخطة والمستورة بنيران كل الأسلحة.

والأهداف الثلاث كلها تساعد على إدارة معركة دفاعية ناجحة باستخدام القوات المتحرّكة وكتل الخيالة في الحرب القديمة أو كتل الدروع في الحرب الحديثة.

لقد كان انهيار الخط صدمة كبرى لإسرائيل ولكن السياسة السائدة يومها والتحالفات الاستراتيجية ومصالح الدول الكبرى في المناطق وارتباطات القيادات العربية هي التي أدت إلى النتائج المعلومة للجميع حيث كان عبور قوة شارون في الدفرسوار فرصة طيبة لتدمير هذه القوة... ولكن...!.

لا أراه مناسباً الاستطراد في تفصيل هذه الأمثلة حيث أن هناك عالمياً الكثير منها مثل خط سيكفرد الألماني على الحدود مع هولندا وبلجيكا وفرنسا والذي سمي بالجدار الغربي وهناك الخط الدفاعي الفاصل بين الهند وباكستان وكوريا الشمالية

والجنوبية والخطوط الأمنية مثل جدار برلين والخط الجدار الذي تبنيه إسرائيل بينها وبين مناطق السلطة في فلسطين وغيرها كثير.

ولكن الأهم من كل ذلك أن أركز مجدداً على أن التحصينات المنشأة سلفاً والقائمة أمام مراصد وعيون المهاجم سيصمم لها حتّى الآلات اللازمة لتدميرها وخرقها وفي حالة العجز سيحور خططه باتجاه النقاط الضعيفة أو يناور بهدف إخراج القوات من خلف حصونها وكما حدث في معركة دخول بغداد من قبل هولاكو في العام (1258م) حين ناور بهدف إخراج الجيش العباسي من خلف أسوارها واشتبك معه في معركة (**دجيل**) التي خطط لها ووفق أحسن الظروف الملائمة له وكما سنرى في الفصل الأخير

من هذا البحث وبتفصيل مناسب حيث تعتبر هذه المعركة من أبرز ما دار على أسوار بغداد من معارك مما يمثل أبرز المحطات في أهداف الكتاب والتي نقلت إلى أجيالنا بصورة مشوشة خالية من الحياد والإنصاف والمهنية وفي كل ذلك ضرر كبير على أمتنا وأجيالها وموجهاً إلى الأوهام بدل الحقائق المفيدة بدروسها لمستقبلنا ومستقبل أجيالنا فالأجدى لنا أن نعرف الحقيقة بدل طمر الرؤوس في التراب لتجنب رؤيتها وهي مسيرة التاريخ وتاريخ الأمم والشعوب في النهوض وسلوك طرق العقل والعلم والدراسة والمنطق بدل الركض وراء الأوهام التي لا تسمن ولا تغني من الجوع ولعل هذا هو ما يمثل هدفي الأساس من هذه الدراسة حيث كانت هذه المعركة وعواملها نبراساً لي وأشهد هنا بأن هذه الدراسة ولو أنها تأخرت لسنوات ولكنها زودتني بالكثير المفيد في حياتي العملية عندما كانت مسودات فقط غير مرتبة وغير منتظمة ولكنها مرتبة في ذهني أسال اللـه أن تفيد غيري وهو الهدف الأكبر لي منها.

لقد سنحت الفرص لي في بداية الثمانينات وأنا على رأس سلاح المهندسين في الجيش العراقي (**صنف الهندسة عسكرية**) إن أقوم بتصميم وتنفيذ مجموعات من الخطوط الدفاعية على الجبهة العراقية الإيرانية الطويلة البالغ طولها ألف ومائتا كيلومتر من ضفاف شط العرب على رأس الخليج وحتى ملتقى الحدود العراقية التركية الإيرانية في منطقة (**وادي حاجي بك**) ولا يتسع المقام هنا للدخول في تفاصيل مهنية دقيقة ولا أعتقد أنها تفيد القارئ غير المتخصص ولكن سأضرب مثلاً واحداً مركزاً على المبادئ الأساسية سالفة الذكر وبشكلها العام فقط. في العام (1982م) عبر الإيرانيون نهر الكارون في منطقة طاهري واتجهت أرتالهم جنوب الحدود العراقية باتجاه منطقة (**الشلامجة - كشك البصري**) وبعد أن حدثت انهيارات في أوضاع القوات العراقية الأمامية حيث توجهوا مباشرة إلى مدينة المحمرة بهدف استعادتها وتمكنوا من ذلك فعلاً حيث كانت المدينة تمثل هدفاً معنوياً للإيرانيين ولأهداف حربهم.

صدرت التوجيهات بإعداد خطوط دفاعية أمام خمسة فرق لقاطع يبلغ طوله حوالي مائة كيلومتر في أرض سهلة خالية من أي نوع من الموانع عدا بحيرة اصطناعية تشغل المنطقة خلف أحد أجزاء الخط الصغيرة.

وكنت سابقاً النظر في هذا الموضوع ومنذ بداية الحرب في العام (1980م) حيث أجريت دراسات جغرافية وجيولوجية للمنطقة وبالتنسيق مع جهات بحثية حكومية (**مركز دراسات شط العرب**) ونظمت أفكار أساسية لخطة شاملة لكل القاطع ابتداءً من حافات وشواطئ هور الحويزة في منطقة ميسان وهو بحيرة مائية كبيرة مشتركة بين العراق وإيران ويدخل ثلث مساحتها داخل الحدود الإيرانية وثلثيها داخل الحدود العراقية إلى منطقة شمال (**كشك البصري**) وعند الخط (48) طول وحتى ملتقى الحدود العراقية الإيرانية في منطقة (**شلهة الأغوات**).

وقد نظمت أفكاراً مبنية على الدراسات السابقة في إعداد خط دفاعي يتألف أساساً من عدة خنادق تمنع عبور الدبابات معززة بخطوط مركبة من حقول الألغام والموانع السلكية لعرقلة تقدم المشاة أمام الفرق الخمسة وبالتنسيق مع قياداتها وهيئات ركنها ويهدف ستر هذه الخطوط الدفاعية المركبة والمنظمة أساساً بالعمق بكل ما يمكن من نيران الأسلحة وبكثافة عالية.

وكان الوقت محدود جداً ولو أن الإمكانيات الآلية في مكننة حفر ونقل الأتربة كانت عالية جداً مما جعل أهم معاظل إنشاء الخطوط هو ليس تدخل العدو وإنما صعوبات الإدارة الهندسية الكبرى لأكثر من ألفي آلية تعمل في قاطع محدود ذو ترب خفيفة يمتاز بالمستوى العالي للمياه الجوفية ومع كل المشاكل الإدارية اللوجستية في إدامة العدد الهائل من البشر ولتصليح عدد هائل من المكائن وصيانتها بهدف استمرارها بالعمل تحت ظروف التدخل المعادي.

حيث فوجئ المهاجمون بأغلب المواقع والتي كانت حديثة الإنشاء لم تتح الفرصة الكافية لهم لاستطلاعها مفصلاً وجمع المعلومات الوافية عنها وقد نجحوا في الاختراق أيضاً لكن التحصينات أدت غرضها تماماً في إيقاع أكبر نسبة من الخسائر والتأخير

والتعويق حيث كانت مقبرة كبرى للدروع المعادية في هذه الخنادق وأمام هذه الأستار وتمكنت الفرق الخمسة وبنجاح منقطع النظير من إيقاف العدو وحصره وتدميره وفق الخطة الموضوعة سلفاً ولكن ومع شديد الأسف لم يكن هناك طموح حربي كافي لاستثمار هذا الفوز بسبب ظروف سياسية مما جمد الأوضاع العسكرية وكما انتهت المعركة فعلاً بتحقيق أهدافها في تدمير القطعات المعادية الرئيسية وخاصة المدرعة منها وإعادته إلى خطوط الحدود القديمة ودحر أهدافه الرئيسية في التقدم نحو (**البصرة**).

لقد استخدم المخططون في حلف الناتو أسلوب عدم تنفيذ الدفاعات والتحصينات بأوقات مبكرة على الحدود الشرقية للحلف ومفاصله مع حلف وارشو حيث قاموا بعملية طمر لأنابيب بلاستيكية مملوءة بالمفرقعات والمتفجرات لغرض حفر هذه الموانع بواسطتها عند نشوب الحرب وبهدف مفاجأة ومباغتة الجانب الآخر.

وهذا هو الأسلوب الأمثل في الحرب الحديثة وبسبب من عدم قدرة أي تحصينات على الصمود وبسبب أساس من التطور الهائل في المعدات وتكنولوجيتها وعلى مختلف الأصعدة الميدانية والعملياتية والسوقية الاستراتيجية.

أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الموجزات لجلاء ذهن القارئ عن طبيعة الأفكار القديمة والحديثة في ما يخدم أهداف بحثي هذا عن تحصينات وأسوار ودفاعات بغداد المنظمة في عهد أبو جعفر المنصور في مدورتها دار السلام وفي عهد المستعين بسوره الشرقي والغربي لبغداد الكبرى وبعد عودة الخلافة إليها من سامراء وضمن عقلية ومفاهيم وإمكانات ذلك الزمان وفي قرون الألف الثاني للميلاد وما قبلها.

الفصل الثاني

* إعلان ثورة بني العباس في خراسان والكوفة وقيام الدولة.
* عودة الخلافة الإسلامية إلى الكوفة من دمشق.
* المشاكل القائمة والمشاكل الجديدة بعد تأسيس دولة بني العباس.
* مثالب ومساوئ موقع الكوفة والهاشمية.

إعلان ثورة بني العباس
في خراسان والكوفة وقيام الدولة

لما تجمع العباسيون في خراسان مع أعوانهم من مواليهم أو من مناصريهم من العجم واتخذوها مركزاً آمناً لهم ولدعوتهم وبالتعاون مع العلويين حيث وحد جهودهم عداءهم مع بني أمية وكل منهم بدعوى الأحقية بالخلافة الإسلامية بعد الطعون الكثيرة في شرعية الخلافة الأموية في الشام، وكانت الحجج في ذلك كثيرة أهمها كان الخروج من قبل بني أمية على المبدأ الأساس في تولي السلطة في الإسلام وهو مبدأ تولية الأفضل ديناً وقدرة وتأهيلاً والذي ثبت على أساس انتخاب أهل الشورى والحل والعقد وإبدالهم لهذا المبدأ بالوصاية وولاية العهد من قبل الخليفة لابنه أو لغيره مما أثار الاعتراضات والملاحظات ثم الثورات وحركات التمرد على الخلافة[1] حيث اعتبرها الكثير من النّاس غير شرعية وأن مقاومتها واجبة لتصحيح المسار في دولة المسلمين الجديدة.

---

[1] - لم يوصي الرسول الكريم صراحة إلى الخلافة من بعده وحتى عند اقترابه من الموت ولو أن هناك ادعاءات كثر حول الموضوع ومنها دعوة بني العباس إلى أنه من الثابت أنه ليس هناك نصاً صريحاً واضحاً قاله الرسول حول تسمية اسم معين لخلافته ولأهمية الموضوع القصوى فإنّه لا ينسجم مع العقل السوي أن الرسول الكريم لم يفعل ذلك سهواً وإنما تعمد فيه وبتوجيه رباني بالتأكيد فهو (لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى)، تثبتاً منه لمبادئ أساسية في الإسلام تكون نبراساً للمسلمين في أيامهم المقبلة في أزمنة لاحقة لأجيال هي غير أوائل المسلمين بتقواهم وصلاحهم وإيمانهم وبعدهم عن الهوى والمنافع الشخصية وكما رأينا ونرى اليوم في زماننا الراهن وعلى رأس هذه المبادئ مبدأ الشورى والانتخاب الذي خرج عليه معاوية بن أبي سفيان بتسمية ابنه يزيد.

وقد وردت حول الموضوع آيات كريمة وأحاديث شريفة جرى تفسيرها وتأملها بأشكال متعددة ولا مجال لي هنا في الخوض فيها والخروج عن الموضوع[1] إلاّ أنني أردت الإشارة فقط إلى دعوى بني العباس بوصايه الرسول لعمه العباس في أمور شخصية عممها بني العباس على الأمور العامة وادعوا الأحقية في الخلافة وأيدهم في ذلك خلق كثير ليس إيماناً بالمبدأ في أغلب الأحوال بل بغضاً لبني أمية خاصة وأنهم انحازوا إلى العروبة مما أثار حفيظة الأعاجم في خراسان عليهم وكذا لطوائف وأمم أخرى والأمارة في الإسلام هي الأخرى قضية شرعية يلزم وجودها[2] ولا يجوز خلوها مما يعرض أمر المسلمين إلى الارتباك والضياع[3].

---

[1] - ورد في الآية 38 سورة الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

- وورد في الآية 159 سورة آل عمران ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وذكرت الأخبار أن رسول الله ﷺ قال للمثنى بن حارثة الشيباني حين راجعه بعد دخوله الإسلام طالباً توليته قيادة جيش المسلمين في العراق (لا نوليها من طلبها) ورفض طلبه مع كل ما له من يد في نصر العرب على العجم في ذي قار ووضع مبدأ حول الأمر حيث أن المثنى حين راجع الصديق أبو بكر بعد وفاة الرسول رفضه هو الآخر لرفض الرسول إياه ثم عاد المثنى فراجع الفاروق عمر بعد وفاة أبو بكر فقال له عمر (كيف تريدني أن أجيبك وقد رفض الرسول الكريم ومن بعده خليفته الصديق أبو بكر) وهكذا ذهبت مبدأ لمن شاء أن يستقيم ويقيم قواعد الإسلام الحنيفة ومن لم يشأ وأراد ركوب الهوى وحب السطوة والسلطة فعليه وزرهُ أمام الله وأمام المسلمين.

[2] - روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا سار منكم اثنان في سفر فليأمرا أحدهما) وروايات أخرى كثر حول عدم جواز خلو الأمارة من صالح لها.

[3] - إن التركيز في وصايا الرسول الكريم على ضرورة وجود الإمام والأمير هدفها الأساس حفظ الدين أولاً وحفظ المسلمين بأرواحهم وأملاكهم وكرامتهم ثانياً بتسيير الأمور وتجنبهم النزاعات التي لا تؤدي إلاّ إلى فرقة الأمة وهلاكها وتمكين العدو منها وحيث لم يوصي الرسول صراحة بخلف له في قيادة الأمة رغم كل أهميتها تثبيتاً للمبادئ حيث سار على النهج وأتبعه الخلفاء الراشدين من بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب زاد في الأمر توضيحاً حين أصيب بضربة اللئيم عبد الرحمن بن ملجم برأسه وبقى ليومين ينازع الموت جريحاً ولحين الأجل المكتوب حيث راجعه قبل وفاته نفر من كبار شيعته يسألون توصيته لهم بمبايعة الإمام الحسن بن علي بالخلافة من بعده، وكان الإمام الحسن يومها راشداً في الخمسين وهو الذي تربى في بيت النبوة وسيرته وفقهه معلومة للجميع لا يختلف عليها اثنان خاصة وأن الرسول ﷺ وصفه مع أخيه الإمام الحسين بأنهما (سيدا شباب أهل الجنة) فأجابهم بأنه لا يوصيهم ولا ينهاهم وطلب منهم كرم الله وجهه التشاور والتحري عن الأفضل من بين المسلمين لمبايعته وكذا كان.

إلاّ أن معاوية بن أبي سفيان والي الشام خرج على المبدأ الإسلامي وبعد توليه الخلافة (بعد الفتنة التي أحدثها بخروجه عن أوامر الخليفة الشرعي المنتخب الإمام علي بحجة القصاص من قتله عثمان تلك

ومعلوم أن دعوى بني العباس للإمامة أولاً ولخلافة المسلمين ثانياً راجت في خراسان في السر إلى أن نضجت وتهيأت لها أسباب النجاح فأعلنت وانتشرت في خراسان وانتقلت إلى الكوفة.

إن ذروة ثورة بني العباس كانت بعد شيخوخة دولة بني أمية ونزاع أمرائها وصراعهم على السلطة والإمارة وبروز الكثير من المطالبين بالعرش لسبب أو لآخر من الأبناء والأعمام والأخوال وأبنائهم وبسبب عوامل أخرى تصيب الدولة عند هرمها وعبورها دور الفتوة والشباب[1].

الحجة الى ثارات نزاعات ودعاوى مازالت قائمة إلى يومنا هذا وكان رأي الإمام علي منها التأجيل لتجنب العودة التي ثارت الجاهلية وإثارة الفتن والإمام شيخ القضاء والقضاة مما لم يرق للعصبة الأموية وهي عصبة جاهلية بدون شك بخروجها على الخليفة وتفضيلاً الأهل والعشيرة على قواعد طاعة الخلافة الشرعية لا يرضاها الإسلام ولا أهله فالخليفة ولي المسلمين وأميرهم وهو الأحق شرعاً بالطاعة في قراراته وهو الأحق في قرارات القصاص كما في غيرها وليس القريب من الأخوة والأبناء والعشيرة والقبيلة بتسمية ابنه يزيد ولياً للعهد مرشحاً لبيعة الخلافة من بعده وسارت تلك السنة السيئة في كل خلفاء بني أمية وبني العباس من بعدهم وكذا في الممالك والأمم الإسلامية الأخرى في المشرق والمغرب والبعض منها إلى يومنا هذا. ولكن الدعوة إلى الرجوع عن هذا الأمر والعودة إلى المبدأ الأساس في انتخاب أمير الأمة من قبل الفقهاء والعقلاء من أهل الحل والعقد، ولكن سطوة السلطان وجبروته وقوته التي لا تقاوم إلاّ بالقوة والثورة والفتنة وكما حدث فعلاً في ثورة بني العباس في خراسان والعراق ولقد كانت بالمناسبة ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده في معركة الطف في كربلاء من أبرز هذه الحوادث في التاريخ الإسلامي حيث أريق الدم الطاهر للإمام وأهله وكذا حدث في ثورات أخرى وفي مختلف الولايات الإسلامية وفي مختلف الأزمنة مثل ثورة محمد ذو النفس الزكية وأخاه إبراهيم. كما استغل أعداء الإسلامي هذه الفتن لصالحهم فكانت حركات الخوارج والزنج والقرامطة. إن البعض من ذوي العدل والحق من بني أمية من الصحابة الكرام أمثال الصحابي عمرو بن العاص اعترضوا على بيعة يزيد ورفضوها ولكنها سطوة السلطان وقوته مما أجبرهم على بيعة السيف بحوادثها المعلومة.

ورغم سيطرة دولة الأمويين الفتية في الشام وقوتها في بداية أمرهم فإن حوادث التمرد والعصيان استمرت بحجة أو بأخرى وكان آخرها تحالف العباسيين مع العلويين والذي اتخذ من خراسان الولاية البعيدة عن مقر الخلافة في دمشق والبعيدة عن أعين الرقابة والرصد مقراً لتجمعهم وموطناً لدعوتهم الإمامية الجديدة حيث نمت وكبرت وترعرعت سراً وكان لأبي مسلم الخراساني وعشيرته الفضل الأكبر في جمع الأنصار حولها إضافة إلى العوامل الأخرى، ثم انتشرت في أجزاء أخرى من عالم الإسلام يومها في العراق والحجاز وحيث مركزي الفكر الإسلامي في مدرسة الكوفة ومدرسة المدينة الفقهيتين.

[1] - ابن خلدون – المقدمة – 1978 – دار القلم – بيروت – لبنان.

يقول ابن خلدون في الصفحة 290 تحت عنوان - في أن الحجاب كيف يقع في الدولة وفي أن يعظم عند الهرم - ما نصه: (اعلم في أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنّه لابد لها من

ويعد نجاح إعلان الثورة وخروجها من خراسان إلى العراق وفي الكوفة تحديداً وزيادة عدد الأنصار والموالين (**خوفاً وطمعاً**) وكما هو حال المنتصرين دوماً خاضت الحركة العباسية مجموعة من المعارك والصراعات مع أنصار وجيوش الأمويين وكانت أكبر هذه المعارك معركة الزاب حيث النصر العباسي الأعظم وإعلان قيام دولتهم وبيعة أبو العباس السفاح إن مراحل تأسيس الدولة ومن نقطة الصفر هي مراحل ولاشك خطيرة ليست خطورتها مقتصرة على قوة الكيان الإدارية والتنظيمية والمالية فحسب وإنما تعم إلى آراء الأتباع والمدارس الفكرية التي لا تلبث في مثل هذه الحالات الا وتغني افكار التطرف والمعارضه في كل شؤون الحكم والحكام وامورهم ولا يحصل الاستقرار اعتيادياً إلاّ بعد جهود مضنية يبذلها الحكام الجدد في التقرب إلى النّاس وتوضيح وتجميل الصور حتّى يقبلها النّاس وتصبح اعتيادية وخاصة في حالة بني العباس وبني أمية حيث لكل منهما دعاوى لا تقرها المدارس الفكرية في الكوفة والمدينة ولا يقرها العامة إلاّ بقدر انتفاعهم منها ولذا فقد بذل رجال بني العباس

العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلائها والبداوة - هي شعار العصبية والدولة وإن كان قيامها بالدين فإنّه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها بعد الغلب فقط فالبداوة التي فيها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الفضاضة والبداوة والقرب من النّاس وسهولة الإذن، فإن رسخ عزه وصار إلى الانفراد بنفسه عن النّاس للحديث مع أوليائه في خاصة شؤونه...
كما حدث لأيام معاوية بن عبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجرت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت قلق الملك على ما يجب بينها فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية، دار للخاصة ودار للعامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدولة حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن هل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء في الأعتاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه بوهمهِ أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير) انتهى.
إن في ما قاله ابن خلدون آنفاً شرح وافٍ للحالة النفسية للحاكم والتي بنيت بها ليس مبادئ حكمه فحسب وإنما يثبت بها كل تفاصيل قراراته اللاحقة وهذا يوجب اتجاهاً حاداً للانفراد بالسلطة والرأي والابتعاد عن مبدأ الشورى الشرعي والعقلاني وكان حال بني أمية هكذا.

العاملين ابتداءً مع أبو العباس السفاح الجهود المضنية والكبيرة لا قرار وضع الدعوة الجديدة بعد إعلانها.

وبعد انتقال العلنية في الدعوة والدولة إلى الكوفة وقتل أبو سلمة الخلال والي الكوفة وما هو معلوم من الحوادث لا أريد الولوج والتوسع فيها لكيلا أخرج عن الموضوع الأساس وإنما أردت فقط أن أبين الطبيعة القلقة للمرحلة التأسيسية لدولة بني العباس وأثرها الكبير في الهاجس الأمني للقيادات العباسية والتي كانت من أهم أسباب تغيير عاصمة الملك من هاشمية الكوفة إلى منطقة وسط وادي الرافدين ثم إيلاء عنصر الدفاع كل تلك الأهمية سواء باختيار الموقع أصلاً أو بتحصينه وتأمين الدفاعات المنيعة حوله. سواء في دار السلام موضوع البحث أو غيرها من مدن الخلافة ومقار ولاياتها.

كان أبو العباس السفاح أول خلفائهم بعد نجاح ثورتهم على الحكم الأموي وسيطرتهم على العراق وقرارهم جعله مقر حكمهم وعاصمته الكوفة يومئذٍ وكما كانت أيام الإمام علي كرم الـلـه وجهه.

وتوجه أبو العباس شمالاً فبنى الهاشمية في منطقة الأنبار معسكراً لجيشهِ ومقراً لإقامتهِ وكذا بالنسبة لهاشمية الكوفة والتي ورث الحكم فيها الخليفة أبو جعفر المنصور. لكنها لم تقلل من أهمية الكوفة حيث المركز الحضري التجاري ومسجد الكوفة الشهير والمركز الديني البحثي فيه فهي مدرسة الكوفة ثاني أكبر مدرستين فقهيتين في العالم الإسلامي يومها ولذا فقد بقت المدينة سكناً أساساً لجند أبو جعفر المنصور وعوائلهم[1].

---

[1] - الطبري (234/6).

ولا يخفى بأن مقر الحركة العلوية كان أساساً في الكوفة وإن الحركة شعرت بأن العباسيين خانوها بعد استئثارهم بالسلطة عقب نجاح الثورة التي كان لهم الفضل الكبير في جمع الأنصار والمؤيدين حولها وإذكاء نارها.

ولم يكن للعلويين أن يقروا لأهل بيت العباس وأحفاده دعواهم في الأحقية في الخلافة بسبب الوصية الشهيرة لرسول الـلـه (ﷺ) وتوكيله عمه العباس في مناحي شخصية مخصوصة بموضوعها وقصدها، حيث بذل العلويين جهوداً كبيرة في مقاومة بني أمية ومحاولة إحقاق المفاهيم الشرعية الموروثة عن الرسول (ﷺ) وأحفاده وأهل بيته والذين كانوا قمماً طاهرة عاملةً بالشريعة والأبرز في كل التواريخ الإسلامية اللاحقة ولكنها حكمة الـلـه في الموضوع وقد تكون على حد فهمي لهذا الموضوع بهدف عدم تأليه هذه السلالة الطاهرة وكما بدأ من أول الأمر وخلال ولاية وخلافة الإمام علي كرم الـلـه وجهه[1]. والمهم في بحثنا هذا هو النزاع القائم بين بني العباس والعلويين والذي شبت ناره بعد استئثار بني العباس بالسلطة والخلافة مما اعتبره البعض غدراً بالعلويين وعدم التزام بالعقود والمبادئ التي قامت عليها دعوتهم ابتداءً واتفق عليها **(ولم تذكر المراجع والمصادر أي شيء عن نصوص هذه الاتفاقات)** مما خلق إشكالات

[1] - قامت عدة فئات من النّاس ممن ابتغوا سبيلاً إلى الفتنة أيام خلافة الإمام علي كرم الـلـه وجهه وهو المسلم المؤمن التقي الورع الطاهر ابن بيت النبوة وابن عم الرسول وبطل الحملات والغزوات الإسلامية الأولى في بدر واحد والخندق وداحر اليهود في خيبر ومثبت الحقّ الإسلامي بعد وفاة الرسول خلال خلافة الصديق والفاروق عمر بكل نكر أن الذات المشهور عنه وتفضيله الإسلام والإيمان بالله ورسوله على كل ما عداهما وفي الفتن الكبرى التي حدثت أواخر خلافة عثمان بن عفان أرسل الإمام ولديه الحسن والحسين إلى دار الخليفة بأن يذودوا عنه الى درجة الفداء بنفسيهما ولا عجب فهو أبو الحسن أبو المكارم والأخلاق الإسلامية إلاّ أن طوائف من النّاس ظهرت أيام خلافته دعت إلى الوهيته وتسمى هذه الطائفة (العلي الهيه) حاربها الإمام وهو الورع المؤمن بالله بكل قوته وبدون جدوى وقتل منهم خلق كثير لكنهم لم يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى الإسلام دين علي ودين أبناءه وأحفاده الطاهرين الطيبين.

كبرى لدولة بني العباس حديثة الولادة ولكن شدة وقسوة وبطش أبي العباس السفاح لم تتح من فرصة لهذه الأفكار والجماعات للبروز والطفو على السطح[1].

إن الأوضاع التي كانت سائدة في كافة أرجاء العراق لم تكن مستقرة بالقدر الكافي للبدء ببناء الدولة الجديدة على أسس مستقرة كما أن بلاد الشام كانت هي الأخرى مازالت تعج بفئات عديدة من مناصري ومؤيدي بني أمية وعيونهم نحو الشمال الأفريقي وأفريقية[2] حيث كان التأييد لهم محدوداً لوجود الكثير من موالي بني أمية وكذا بلاد الأندلس حيث هرب إليها عبد الرحمن الداخل صقر قريش وهو يحاول إنشاء دولة أموية جديدة في تلك البلاد البعيدة عن سيطرة بني العباس ونفوذهم، أما المشرق الأعجمي فقد هاج وماج بعد اعتلاء أبو جعفر المنصور الخلافة بعد وفاة أبو العباس حيث قام المنصور بقتل أبو مسلم بعد أن استدرجه خارج منطقة نفوذه إلى

---

[1] - إن من الغرائب التي يرويها الخطيب البغدادي في الجزء الأول من مؤلفه (تاريخ بغداد) في الصفحات (62-66) جملة من أحاديث عن الرسول الكريم (ﷺ) فيها تنبؤات عن خلافة بني العباس واستقرارها. ويروي حديثاً لا أدري ما نصيبه من الصحة عند أهل الحديث عن الحسن بن أبي طالب عن عمر بن أحمد الواعظ عن عبد الله بن سلمان بن الأشعث ومحمد بن علي الزعفراني ومحمد بن حسين بن حميد بن الربيع الحزاز وأبو القاسم الأزهري عن محمد المظفر الحافظ عن أبو سهيل محمد بن علي الزعفراني عن أحمد بن راشد الهلالي عن سعيد بن خيثم عن حنظلة عن ابن العباس قال حدثتني أم الفضل بنت الحارث الهلالية قالت وردت بالنبي (ﷺ) وهو في الحجر فقال: (يا أم الفضل إنك حامل بغلام) قالت: يا رسول الله وكيف وقد تحالف الفريقان أن لا يأتوا النساء؟ فقال: (هو ما أقول لك فإذا وضعتيه فأتيني به) قالت: فلما وضعته أتيت به رسول الله(ﷺ)، فأذن في أذنه اليسرى وقال: (اذهبي بأبي الخلفاء قالت فأتيت العباس فأعلمته فكان رجلاً جميلاً لباساً فأتى النبي (ﷺ)، قام إليه فقبل ما بين عينيه ثم أقعده عن يمينه ثم قال: (هذا عمي فمن شاء فليتباه بعمه) قالت: يا رسول الله بعض هذا القول (يا عباس لم لا أقول هذا القول؟ وأنت عمي صنو أبي وخير من أخلف بعدي في أهلي) فقلت: يا رسول الله ما شيء أخبرتني أم الفضل عن مولودها هذا فقال: (نعم يا عباس، إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة فهي لك ولولدك، (منهم السفاح ومنهم المنصور، ومنهم المهدي).

وهناك الكثير من الروايات الأخرى في نفس الموضوع يوردها الخطيب في مؤلفه عن تاريخ بغداد ولا أدري حيث لم تثبت صحتها ولا عدم ورودها في الصحاح ولدى محققي الحديث وهي من الأمور الغريبة التي استغلها بني العباس في دعوتهم وجلبت لهم من الأنصار والمؤيدين ما لا حصر له وبما أدى في النهاية إلى نصرتهم وأخذهم الخلافة من بني أمية عنوة.

[2] - هي ليست القارة الأفريقية المعروفة بهذا الاسم في زماننا الحاضر وإنما هي تونس الخضراء التي كان العرب يطلقون عليها اسم أفريقية.

العراق مما أثار حفيظة أهله الأعاجم في خراسان لشعورهم بخذلان أبو جعفر لهم رغم كل خدماتهم السابقة لدولة ودعوة بني العباس قبل الثورة وخلالها وبعدها أيام أبو العباس السفاح.

إن كل هذه الظروف والعوامل تفاعلت لدى القيادة العباسية الجديدة مما أوجد حساسيات كبرى لديها غذت شعورها بالحاجة إلى الحماية والتحسب لكل الأخطار المحتملة.

عودة الخلافة الإسلامية إلى الكوفة من دمشق

لقد كان أول إجراء اتخذه أبو العباس السفاح بعد نجاح الثورة وإعلان قيام الدولة العباسية الجديدة وقتل أبو سلمة الخلال والي الكوفة الأموي الذي كان مؤيداً للحركة خلال مراحل الدعوة السرية لها في خراسان وبعد أن علم أبو العباس بأنه أرسل في طلب استدعاء ثلاثة من العلويين من الحجاز إلى الكوفة ومحاولته حجز قادة بني العباس في داره بالكوفة مما أشعر أبو العباس بأنه موالٍ للعلويين ومظاهراً لهم على بني العباس هو أنه قدر أن تعود مقرات الخلافة إلى الكوفة من دمشق والتي كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام خلافة الإمام علي كرم الـلـه وجهه ونقلها إلى دمشق معاوية بن أبي سفيان بعد تمرده المشهور وحروبه مع الإمام المبايع الشرعي وبعد أن قتل الإمام على يد عبد الرحمن بن ملجم وتولى الإمام الحسن ثم تنازله لمعاوية كسراً لفتنةٍ لا تخدم الإسلام ولا المسلمين وبيعة معاوية من قبل البعض في بلاد الشام.

لقد كان هذا القرار مصيرياً بالنسبة لدولة بني العباس حيث كان العراق بفكره أقرب كثيراً إلى موالاة بني العباس وفيه أنصارهم ومواليهم وهو وسط في أمر المسلمين ليس له تطرف الشام الغربي وقربها من نفوذ الروم ولا تطرف خراسان الشرقي حيث نفوذ الأعاجم الكبير.

والحقيقة أن موقع الكوفة قريب إلى الحجاز وشبه جزيرة العرب فهو بمحاذاة الصحراء غرب نهر الفرات، عموماً فهو موقع وسط في هذه الدولة المترامية الأطراف وبنفس الوقت فبعده عن مواطن التهديد المحتملة كافٍ للإنذار والتهيؤ وفوق هذا وذاك فهي مقر سابق للخلافة غيره الأمويين إلى دمشق.

ومن الطبيعي أن تعيد (الثورة عليهم والتي أنهت حكمهم) الأمور إلى نصابها وسابق عهدها إضافة إلى أن سكان المدينة هم ممن جمعوا إضافة إلى العلم والبحث كل الفعاليات التجارية والزراعية والحرفية والصناعية وكل متطلبات المجتمع الحضري وتقع المدينة غرب الفرات ولا يفصلها عن الحجاز والجزيرة ماءاً ونهر ومعلوم أن الاتصال بالحجاز كان أساسياً في الدولة الإسلامية.

كان العراق قاعدة للفتح خلال العصر الأموي تتحشد فيه الجيوش لغزو المشرق وفيه قواعدهم ومناطق سكناً عوائلهم وموطن الإمدادات الإدارية اللوجستية وكما كان درعاً لصد المهاجمين فثغوره هي ثغور المشرق العربي وهو بحق يمثل البوابة الشرقية لموطن أمة العرب وللكيان الإسلامي الجديد الناشئ. ولوصفه الفكري فقد كان نوراً يشع باتجاه المشرق وينقل كل المفاهيم الإسلامية.

وموقع الكوفة بالذات هو موقع وسط بالنسبة للطرق يؤمن تجمع القوات الإسلامية وتحشدها وهو غرب الفرات متصل مباشرة بطريق الإمداد من الجزيرة وبينه وبين الفرس نهران حيث بدءوا بإعادة تجميع وحشد قواتهم بعد الهزائم المنكرة في المدائن وسقوط دولتهم وكان القائد سعد بن أبي وقاص ميالاً للسكن والإقامة لجنده فيها (**المدائن**) إلاّ أن الخليفة عمر بن الخطاب بنظره الثاقب ورؤيتهِ الستراتيجية لم يحبذ ذلك بل وجه القائد سعد برسالته إليه قائلاً: **﴿أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً﴾**[1] ولقد كان سعد بن أبي وقاص يقيم الوضع في رغبته بسكنى المدائن المكتملة الخدمات والمحصنة - تقييم القائد الميداني الذي يستهدف راحة جنده وإعدادهم لمعارك المستقبل بعد الجهد المضني الذي بذلوه في قتال الجيوش الفارسية وهي جيوش كبرى ليس من الهين على الجيوش الإسلامية محدودة

[1] - البلاذري - فتوح البلدان - صفحة 75.

الخبرة مقاتلتها والنصر عليها إضافة إلى احتمالات التهديد من المشرق لذا فلم يكن من المناسب من وجهة نظر القائد سعد إضاعة الجهد في بناء جديد علاوة على الإنفاق الكبير المطلوب لذلك وكأي قائد عسكري حريص على إدامة قوة جيشه وحسن إعداده فإنّه يفضل دوماً إخضاع جنده إلى قسط من الراحة بعد العناء الكبير وإعداد برامج تدريبية لتدريب المستجدين من المدد الجديد وإدامة كفاءات الجند القديم وصهر الخبرات والتجارب السابقة ببوتقة التدريب بالاندماج وبتبادل هذه الخبرات وتشذيب القادة الميدانيين وإدامة اللياقة البدنية للجميع وهي عوامل كلها اساسي من وجهة نظر الخليفة (**القائد العام**) السوقية التي ترى الأمور بمنظار أوسع وقد لا يشمل فقط الأمور العسكرية الاستراتيجية وقد يعمم إلى أمور الإدارة ومستقبلها في البلاد الجديدة الداخلة في كنف الدولة حيث عرف عن الخليفة الفاروق رؤيته البعيدة لكيان الدولة وهو أول من فتح الدواوين وأحصى الجند وثبت أمورهم مجتمعة في سجلات خاصة. كما أنه ثبت أسساً للعمل ضمن الدولة سواء في المركز أو في الأقاليم والولايات.

ولذا فإن رؤيته للموقع الملائم ليكون مركزاً لولاية العراق لا يقتصر على الأمور الحربية وحشد الجند والتهيؤ لانطلاقات جديدة وإنما يمتد ليشمل وضع المدينة المقر للولاية مستقبلاً إضافة إلى الحاجات الآنية. وحتى العسكرية منها فلم يشأأن تكون في مكان معروف للعدوفهي مدينته وبنفس الوقت فإن المعروف عن الفاروق أنه كان لا يريد لجند الجيش الإسلامي الاستقرار المطلق في العراق مما سيمنع المشاركة الواسعة في فتوح المستقبل ولذا فهو لم يملك الأرض للفاتحين كما فعل الرسول(ﷺ)في خيبر أو كما فعل أبو بكر في بلاد الشام[1] وإنما أبقاها لأهلها فمن دخل الإسلام فهو لا تثريب على موقعه في الكيان الجديد وأما من بقى على دينه وأكثر أهل العراق كانوا من

[1] - ولذا فقد سمي العراق بأرض الملوك حيث ترك الفاروق الأرض مملوكة لأهلها ممن دخل الإسلام أو بقى ذمياً وجاء الحجاج في العصر الأموي ثم العباسيين ليملكوها إلى من والاهم وناصرهم وبالغ العباسيون في إقطاعات كبيرة لمواليهم.

النصارى، فيؤدي الجزية وفق أحكام أهل الذمة وما عليهم وله الحماية والخدمات من الدولة مقابل ذلك وهو مبدأ جرى التعامل به مع كل أهل الذمة في البقاع الإسلامية.

وكان أن منع الخليفة الفاروق جند العراق من الاشتغال بالزراعة وخاصة الدائمية منها لكي لا يستقروا كما أسلفنا ويستكينوا إلى الراحة والرخاء فيبتعدوا عن صفاتهم الأساسية في الجندية ويفقدوا حماسهم للقتال والفتح وإنما سمح لهم بالأعمال الوقتية فقط وأعلن الفاروق لهؤلاء الجند أن عطائهم قائم وأن رزق عيالهم جارٍ[1]. ومن العوامل الأخرى لدى الفاروق التي دعته إلى عدم الموافقة على اتخاذ المدائن مقراً لجند العراق عامل البيئة والمناخ حيث لاحظ اختلالاً في صحة وألوان الزائرين منهم إلى المدينة المنورة ولما استفسر عن أسباب ذلك منهم ومن قائدهم سعد الذي أجابه يقول: **(إن العرب ضروهم كفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة)** وهم المعتادين على بيئة الصحراء الجافة في الحجاز وفي مناطق جزيرة العرب الأخرى.

أصدر الخليفة الفاروق إلى قائد جيوش العراق **(كما سبق له مع عتبة بن غزوان في اختيار موقع البصرة، والمعروف عنه أنه كان يتصل مباشرة بالقادة ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في شؤون الإدارة أو القيادة إلاّ ودرسها ومحصها بحس القائد العام الاستراتيجي ثم أصدر القرار المناسب بشأنها)** بأن يترك بيئة المدائن طيسفون الواقعة شرقي نهر دجلة والأقرب إلى محاور بلاد فارس ويتجه إلى الغرب بما نصهُ **(أن تنزلهم منزلاً قريباً)**[2].

وبعد صدور هذا التوجيه من الخليفة - رأس الدولة - أصبح القائد سعد ملزماً بالتفتيش عن موضع آخر يؤمن متطلبات التوجيه ليستقر به جيشه فبدأ

[1] - البلاذري - فتوح البلدان - الصفحة 277.

[2] - ناجي معروف - المدن الإسلامية - الصفحة 26.

استطلاعاً غريباً وعلى ضفاف الفرات الغربية خاصة والقريبة من الصحراء ودروبها وسبلها فوصل الأنبار. وكانت الأنبار أيام الحكم الفارسي تعتبر مستودعاً زراعياً لكثرة زروعها ومياهها ومن اسمها الأنبار جمع نبر وهو منبع الماء - ويبدو أن الأنبار لم تلاقي هوى في نفس القائد سعد ولعل من أهم الأسباب هو أن الأنبار تقع في الجانب الشرقي من نهر الفرات مما يجعل المانع المائي الكبير بينه وبين العاصمة الإسلامية (**المدينة**) ولبعدها عنها مما يؤخر وصول المدد عند الحاجة إضافة إلى وجود البحيرة (**الحبانية**) والمستنقعات الأخرى وسوء مناخها وكثرة الرطوبة والذباب فيها[1].

اتجه القائد سعد باستطلاعه بعد تحولهِ عن الأنبار إلى كويفة ابن عمرو وهي جنوب الأنبار ولكن الماء يحيط بها هي الأخرى فتركها ولم يستحسن لا موقعها ولا مناخها. ثم نزل جنوباً ووصل موضع الكوفة حيث أرشده إليها ابن بقيلة وقال له: (**إنك على أرض ارتفعت عن البق وانحدرت عن الفلاة**) وهذا دليل آخر على بطلان آراء ابن خلدون حول الموضوع حيث كان البحث والتقصي عند العرب عن أماكن السكن الجديدة موسوعياً شاملاً لكل مناحي الحياة خاصة بعد أن شذب الإسلام خلقهم وزين طرق تفكيرهم حيث تدل هذه الاستطلاعات وتضيف الأسباب والموجبات والشرائط من عسكرية إلى صحية إلى مناخية إلى زراعية إلى تجارية على سعة في الأفق وتطور في العلوم ومستوى مناسب من التحضر بعد تركهم خلق البداوة والوحشية التي أنكرها عليهم الإسلام يقول اللـه عز وعلا:

﴿**الاعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللـه**﴾[2] وهم الأعراب في البادية وليسوا العرب كقوم والعيب عند ابن خلدون أنه يعمم الأشياء والتعميم ولاشك خطأ كبير يقع فيه الباحث فمن بين ألف دليل ودليل على حضارة الأمة

---

[1] - كاظم الجنابي - تخطيط الكوفة - الصفحة 25.

[2] - الآية 96 سورة التوبة الجزء الحادي عشر.

ورقيها بالإسلام يتمسك بدليل واحد ليصف به الأمة بكاملها وهذا هو عين مجانبة الحقّ ومجانبة الأسلوب العلمي في التحليل والاعتماد على الإحصاءات أو الإكثار من تتبع الأدلة والبراهين ويبدو أن (**الظهر**) الذي كان يدعى (**خد العذراء**) وهو موقع مرتفع عن الفرات وغربيه وينبت (**الخرافي والإقحوان والشيح والقيصوم والشقائق**) مما اعتاد عليه العرب في واحاتهم والطيب من أراضيهم، قد أعجب القائد سعد[1] وأرض الكوفة وموقعها اختيار حديث جديد حيث ثبت عند كل الباحثين والمؤرخين القدامى والجدد أن الموقع لم يكن معروفاً لسكن بشري قبل اختيار سعد له ولم تدل البحوث الآثارية الحديثة والتنقيبات على وجود أي منشآت لعصور ما قبل التاريخ - كشأن أغلب المدن العراقية - ولا في العصور المقاربة[2].

يتفرع نهر الفرات إلى نهرين في منطقة الهندية جنوب مدينة المسيب وتسيطر على مياهه اليوم سدة اسمها سدة الهندية وهي ناظم كونكريتي بفتحات تفتح وتغلق حسب نسب توزيع المياه المطلوبة ويتفرع منه عند السدة فرعان يطلق اسم شط الهندية على أحدهما وشط الحلة على الآخر[3] وعلى الأخير تقع مدينة الحلة ومدينة الديوانية ويمر الأول قرب مدينة الكوفة وبمحاذاتها وأرضها طيبة لا تطالها مياه الفيضان لارتفاعها ولا تقترب منها الأهوار بأجوائها الرطبة كثيرة الهوام والحشرات حيث ترتفع المدينة بحوالي 22 متراً عن سطح البحر. ولم يكن في المنطقة سكن كثيف منذ عصور ما قبل التاريخ كما أسلفنا عدا ما وجده الآثاريون قرب حصن الإخيضر من أدوات بدائية عند تنقيباتهم ويعتقد بعضهم أن مدينة صغيرة كانت قرب هذا الحصن والمنطقة عموماً بعيدة تماماً عن الكوفة وفي بحر النجف المعروف.

---

(1) - البلاذري - فتوح البلدان - الصفحة 227.

(2) - كاظم الجنابي - تخطيط الكوفة - الصفحة 11.

(3) - جاسم محمد الخلف - جغرافية العراق الطبيعية - الصفحة 174.

ولكن الشابشتي في كتابه (**الديارات**)[1] يذكر أن ما يعرف بديارات النجف يقع من ظاهر الكوفة وتسمى ديارات الأساقفة والمنطقة من أعمال الحيرة وتتبعها إدارياً وهي ليست مستوطنات كبيرة ولكنها أديرة معزولة عن مناطق السكن ككل الأديرة.

وبذا فيكون القائد سعد هو أول من اختار المكان معسكراً لجنده لوقوعه غرب الفرات وقرب الصحراء ومدينة سكن لذويهم وموقعاً ومقراً لقائد الحملة فيه وموضعاً لتحشد القوات مما يلبي توجيهات الخليفة الفاروق في مجاورة الصحراء للانسحاب إليها عند مباغتة العدو[2] وعدم وجود مانع مائي بينها وبين مسالك المدينة المنورة. وهو هدف استراتيجي لدى القيادة الإسلامية.

كما لاحظنا من توجيه الخليفة أبو بكر في بداية حملة العراق وهو أسلوب ولاشك منسجم مع طبيعة القوات الإسلامية وتدريبها وتأهيلها مما يدلل على الفكر العسكري المتقدم في زمانه[3] وهو إضافة إلى العوامل الأخرى كان سبباً أساساً في توالي انتصارات الجيوش الإسلامية وفتوحها الكبيرة خلال أوقات محدودة.

---

(1) - الشابشتي – الديارات – الصفحة 236.

(2) - يذكر أن توجيهات الخليفة الأول أبو بكر الصديق إلى القائد خالد بن الوليد بعد فراغه من حروب الردة في منطقة اليمامة كانت أن يصعد بجيشه إلى (الكاظمة) و(الأبلة) ولم تكن الكويت والبصرة موجودتان ثم إلى (المذار) وهي سوق الشيوخ الحالية و(اليس) وهي مدينة السماوة الحالية وأن يسلك أطوار الفرات الغربية لأن الفرس لا يجيدون قتال الصحراء كما تجيده جيوش المسلمين ولكي يلجأ إليها عند المباغتة ويتجنب شرقي الفرات الآهل بالزرع والبشر.

(3) - إن من الأمور المهمة اللافتة للنظر عند دراسة التاريخ العسكري الإسلامي هي أن القادة الأوائل أبو بكر وعمر كانت لهم نظرات استراتيجية بعيدة النظر ومتقدمة في زمانها وهم البعيدون عن الحروب والجيوش الكبيرة والمدربة ذات التاريخ العريق مثل جيوش الفرس والروم التي تدرب قادتها في مؤسسة عسكرية متكاملة لسنوات طويلة اكتسبوا فيها الخبرة العالية في قتالاتهم بينهم ومع الأمم الأخرى بينما كان الصديق تاجراً يعيش الحياة المرفهة لأغنياء مكة ومعروف عنه اللين والوداعة والبعد عن الخشونة والصراع المطلوبة في سلوك قادة الجيوش وفي حياة الرسول كان هو الصديق الذي لم يتخذ قراراً أبداً، ولما استلم القيادة بعد وفاة الرسول نراه ليس حازماً في الردة فحسب بل كان قائداً ستراتيجياً بارزاً بارعاً حين أمر بحركة الجيوش التسعة لمقاتلة المرتدين في أطراف الجزيرة النائية معدومة الطرق الواضحة عدا طرق القوافل، وبتوقيتات مختلفة لتصل إلى أهدافها بوقت واحد أو متقارب مما يحرمها من إمكانية التعاون والإسناد ويهيئ أفضل الظروف للأرتال الإسلامية بدقة متناهية، وكذلك كان الفاروق عمر

ولنعد إلى الكوفة وتمصيرها حيث يذكر البلاذري أنها مصرت سنة 17 للهجرة[1] بينما يذكر المسعودي أنها مصرت سنة 15 للهجرة[2] ويبدو أنها تواريخ القرار وانتهاء البناء، والذي يهمني في هذا البحث أنها انتخبت موقعاً على أساس عسكري دفاعي وخططت على أساسه أيضاً، مما جعلها وبموقعها الممتاز بعيدة عن الحروب والتدخلات الخارجية. وقد كان اهتمام سعد بعمارتها كبيراً ثم جاءها الإمام علي كرم اللـه وجهه فزادها روعة وعنفواناً وتحصيناً وكان اهتمامه بالعلم والعلماء عاملاً مهماً في وجود المدرسة الفقهية فيها وإلى قرون أخرى.

ولقد أردت في هذه الشروح أن أعطي القارئ الكريم ما يلفت نظره إلى نقطتان أساسيتان هما:

أولاً: الشكل الملائم للسكن الحضري الصحي لمدينة الكوفة مما يؤهلها لتكون مقراً مناسباً لحكم إقليم العراق وتوابعه.

وثانياً: الطبيعة العسكرية الهجومية والدفاعية والإدارية للموقع مما يؤهلها لتحشد الجيوش القادمة من الحجاز تمهيداً لانطلاقها إلى أهدافها كموقع متقدم من ناحية وإمكانية الدفاع عن الموقع بكفاءة في حالات تعرضه لخطر مهاجمة العدو وعدم تمكينه من المباغتة والمفاجأة.

بتوجيهه المعروف إلى قائد جيش العراق سعد قبل القادسية والذي اشتمل على مبادئ الحرب التسعة (والتي لم تسجل تحريراً إلاّ في مذكرات نابليون 1805م) ولكن بلغة العرب ولا مجال هنا للتفصيل في الموضوع، والخليفة عمر هو الآخر لم يمارس قيادة الجيوش الكبرى حيث لم يكن للعرب هناك جيوشاً كبرى لا في دولهم في جنوب الجزيرة ولا في قبائلهم في الوسط والشمال حيث كانت معاركها بينها محدودة صغيرة لا يتعدى فيها الفرسان العشرات وبحالات نادرة المئات لعلها هداية الإسلام ونورهِ وإلهام السماء وهديها.

[1] - البلاذري – فتوح البلدان – الصفحة 328.

[2] - المسعودي – مروج الذهب – الصفحة 211.

وإن كل هذه العوامل ساقت فكر قيادة أبو العباس السفاح إلى الكوفة لاتخاذها عاصمة لملك بني العباس حديث الولادة ورغم كل ما كان متوقعاً وظهر في أوقات لاحقة من شكوك بولاء سكانها ذوي الميول العلوية بغالبيتهم الكبيرة مما يهدد بزعزعة ولاء الجند للدولة الجديدة وكما حدث فعلاً في عهد المنصور أبو جعفر كما سنورد في فصل لاحق.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن القرار في عودة الخلافة الإسلامية إلى الكوفة وسط العراق كان قراراً استراتيجياً ناضجا أملتهُ عوامل الأمن والدفاع والتجارة والصحة والإدارة في مركز وسط بين أقاليم الدولة الإسلامية النامية والتي مازال الكثير من أقاليمها في المشرق والمغرب والشمال غير مستقر ولم يدخل في دين الإسلام تماماً مما يؤهله إلى التمرد خاصة وأن هناك في أقاليم هذا المشرق والمغرب شعوباً ذات أحلام إمبراطورية زال ملكها بفعل فتوح الإسلام ونمو الدولة الجديدة.

وكما أسلفنا فإن العامل الآخر المهم جداً هو حداثة حكم بني العباس وعدم زوال النفوذ الأموي في الشام كلياً وتنامي الكيان الجديد لأبنائهم في الأندلس حيث تزامن مع تأسيس دولة بني العباس تأسيس الدولة الأموية في الأندلس وطموحات راعيها عبد الرحمن الكبيرة والتي لم تخلو يوماً من النظر إلى المشرق.

هاشمية الأنبار / هاشمية الكوفة

هاشمية الأنبار

تشير الأخبار الواردة إلينا عن طريق المراجع والمصادر أن أبو العباس السفاح لما قدم الكوفة وقد قرر أن يسكنها ويتخذها عاصمة له ولملك بني العباس من بعده ونقل إليها جنده وقادته وأعوانه ومواليه وكان حساساً للمخاطر المحدقة فعلاً والمحتملة بهذا الوليد الجديد وهو لم يرى النور بعد حيث شعر بهواجس وشكوك كبرى من نوايا أهل

الكوفة وما عرفوا به من عدم الاستقرار على ولاء قديم ومنذ دعوتهم للإمام الحسين من الحجاز وخذلهم إياه أيام يزيد بن معاوية أوائل أيام الدولة الأموية مما هو معروف خاصة وإنه شعر بموالاتهم للعلويين وبدأ يسمع من عيونه وعسسه ما لا يسر من الأخبار قرر التفتيش عن ملاذ آخر فصعد إلى موضع قرب الأنبار (**وكانت الأنبار مستودعاً زراعياً كبيراً أيام الحكم الفارسي للعراق وفيها الكثير من الكثافة السكانية والكثير من الخيرات والزروع ونخلتها وافرة تغني المنطقة وأهلها عن طلب الأقوات من خارجها**) وبنى مدينة سماها (**هاشمية الأنبار**)[1] وكان انتقالهُ إليها بعد سنتين من مكوثه في الكوفة وظل فيها إلاّ أن توفي[2] وكان اتخاذه لها سنة 134 هجرية. واشترى فيها إقطاعات كبيرة بنى ببعضها وأسكن في البعض الآخر أهله وخاصته وأعوانه وقواده[3] وكانت أيام أبو العباس السفاح فيها مليئة بالجهد بأعمارها وببناء أركان الدولة الجديدة فيها ومع كل ما تستلزمه هذه الجهود من تفرغ واستقرار لم يكن متيسراً لأبي العباس بسبب قلقه وتحسبه أيام تشكيل الدولة الأولى وعلى أي حال فإن جو الكوفة السياسي لم يرق لأبي العباس إطلاقاً رغم تأييدها لدعوة بني العباس قبل إعلانها وعدائها الصريح في ذلك الوقت لبني أمية.

ومن شواهد كرههم هذا ذهاب المختار بن أبي عبيد الثقفي إليهم عام 66 هجرية عند خروجه على دولة بني أمية[4]. وكانت تطلعات وسلوك أهل الكوفة رغم ما سبق مدعاة ريبة لأبي العباس رغم أن بيعته تمت فيها بعد إعلان الدولة وأنه ألقى خطبته الشهيرة في مسجدها وهو الذي واكب الدعوة أيام سرها وعلنها وله في موضوع فهم

---

(1) - أنساب الأشراف – 150/3.
(2) - الطبري – 30/3.
(3) - اليعقوبي – 95/3.
(4) - الطبري – 487/4.

الرجال باع طويل ورأى أن الأمور مختلفة عليه عن أيام سرية الدعوة ولذا فقد قرر أبو العباس أن يعيش وسط جنده في معسكر حمام أعين القريب من الكوفة ولكنه خارجها.

ولما قرر أبو العباس ترك الكوفة انتقل إلى هاشمية الأنبار التي كرهها سعد ابن أبي وقاص وعمرها[1] وزاد في بناءها وهي تقع على شاطئ الفرات في منطقة قريبة من بلدة الأنبار وتشير أغلب المصادر إلى أنها تقع شمال الفلوجة الحالية في منطقة الصقلاوية وأطلالها اليوم موجودة هناك وبجوار مخرج نهر الرفيل من الفرات (**وهو الذي بدل اسمه العباسيين إلى نهر عيسى نسبة إلى عيسى بن علي عم الخليفة**)[2] وهذا النهر يستمر في مساره نحو موقع بغداد ويصب في نهر دجلة وهو من الأنهار الكبيرة التي كانت تستخدم للملاحة التجارية وتنقل من خلاله بالسفن الصغيرة مختلف أنواع البضائع والمنتوجات إلى منطقة بغداد وإلى نهر دجلة.

والظاهر أن أبو العباس عندما قرر ترك الكوفة لم يكن بادئ ذي بدء قد قرر على البدائل بشكل نهائي وحاسم لأنّه نزل جنوباً وحل بالحيرة أولاً إلاّ أنه عاد فقرر تركها لعدم ملاءمتها بدون أن يفصح عن أسباب ذلك القرار وسار بأعوانه على أطوار الفرات صاعداً إلى الشمال متفحصاً كل الأمكنة التي مرّ بها إلى أن وصل موضع هاشمية الأنبار فاستحسن المكان وقرر الإقامة فيها حيث أنشأ لسكناه وسكنى جيشه وخاصتهُ مبانٍ كثيرة اشترى أراضيها ودفع أقيامها إلى أهلها وأقطع قسم منها لخاصته[3].

---

[1] - نلاحظ تكرار اسم (الهاشمية) حيث يبدو أن بني العباس كانوا ميالين لتخليد الاسم وكانوا يسيقون اسم أي عمارة جديدة باسم الهاشمية إضافة إلى اسمها الأصل فيقولون (هاشمية الكوفة) و(هاشمية الأنبار).

[2] - الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد – 92/1.

[3] - اليعقوبي – التأريخ – 429/2.

أما تاريخ انتقاله إلى هاشمية الأنبار فيذكر (**دليل خارطة بغداد**) إنه كان عام 132 هجرية[1]، وهو عام قيام الدولة العباسية وإعلانها في الكوفة وتشير مصادر أخرى إلى أن انتقاله كان عام 134 أي بعد سنتين من خلافته[2].

ويبدو لي أن اضطراب هذه المعلومات لم تكن بسبب عدم دقة المؤرخين بقدر ما كانت بسبب قلق أبو العباس وعدم اطمئنانه إلى المواقع التي حلَّ بها لسببٍ أو لآخر وكثرة انتقاله بينها وتمت بيعته فيها كما أسلفنا انتقل فوراً مع جيشه إلى معسكر حمام أعين وأقام أشهراً ثم تحول إلى قصر ابن هبيرة وأكمل بناءه إلاّ أنه كره المقام فيه لكثرة ذكر النّاس لاسم ابن هبيرة ونسبتهم القصر له مما أزعج السفاح فبنى عمائر أخرى قبالته وعبر الطريق فقط والتي كانت أساساً لهاشمية الكوفة توسع في أبنيتها وسكنها لحوالي سنتين غادر بعدها إلى الشمال واستوطن هاشمية الأنبار المار ذكرها ولو أن المصادر لم توصل لنا شيئاً وافياً عن المدينة وتخطيطها وطرق حمايتها والدفاع عنها إلاّ أنها ولاشك كبرت وتوسعت عند سكن السفاح بها حيث كان مقر الدولة والجيش ومع شديد الأسف فإن الموقع لم يحظ بالاهتمام الكافي والوافي من قبل الآثاريين وتنقيباتهم وهي مسؤولية الآثار العامة ولا ريب وتأهل لها مستقبلاً أفضل. ولو أن بعض النصوص جاءت مشيرة إلى أبنية وقصور وعمائر كبيرة وواسعة[3] وكانت حياته فيها حتّى وفاته بعد إصابته بالجدري حيث صلى عليه فيها عمه عيسى بن علي لأن المنصور كان غائباً في مكة ودفن في الأنبار ولا يعلم موضع قبره اليوم بشكل محدد وقاطع.

---

[1] - مصطفى جواد وأحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – الصفحة 3.

[2] - اليعقوبي – التأريخ – 429/2.

[3] - الحموي ياقوت – معجم البلدان – 368/1.

وقام العم عيسى بأخذ البيعة لأبي جعفر المنصور وكتب إليه يعلمه بوفاة أخيه السفاح وبأخذ البيعة له ويطلب منه الحضور فوراً[1].

وكان ورود ذكر هذه المدينة هاشمية الأنبار بعد وفاة السفاح محدوداً جداً حيث ذكرها الطبري في أخبار خروج إبراهيم بن عبد اللـه وفي أخبار مقتل إيتاخ الخزري عام 235 هجرية[2]. ورأيت من المفيد والممتع هنا (**قبل أن نترك ذكر هذه المدينة القديمة والمهمة في تاريخ العراق والمهملة حالياً من قبل المختصين الباحثين وكذا من الجهة المسؤولة في الدولة العراقية الحديثة وهي مديرية الآثار العامة**) أن نتطرق إلى ما وردنا من أخبار مهمة لباحثين كبيرين من باحثينا (**رحمهما اللـه**) الدكتور العلامة مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة اللذين أجلهما كثيراً حيث لا أزور موقعاً أثرياً في أي جزء من هذا البلد وأسأل حراسة والقائمين عليه عن متابعات الآثار وروادها لموقعهم إلاّ ويكون الجواب هو أن آخر زيارة كانت للدكتور مصطفى أو للدكتور أحمد بتاريخ كذا مما يدلل على اهتمامهما الواسع وعلمهما الغزير الذي مازال وسيظل قائماً إنشاء اللـه بفضل مؤلفاتهما وقيمتها العلمية العالية ويقول الدكتورين المذكورين في هامش بالصفحة 3، 4 من مؤلفهما (**دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً**) وآثرت أن أنقل النص لهما وكما هو:

(تقع أطلال مدينة الأنبار على ضفة الفرات اليسرى جنوب قرية الصقلاوية الحالية، وعلى بعد زهاء ستة كيلومترات من جنوب صدر الصقلاوية الحالي، وكان الفرس يسمونها فيروز سابور باسم بانيها الملك سابور[3] (241-272م)، وفي العهد العربي أصبح اسم فيروز سابور يشمل معاملة الأنبار بما فيها من القرى على أن من مؤرخي

---

[1] - الطبري – 7 – 471.

[2] - الطبري – 242/6.

[3] - كانت منطقة الأنبار أيام السيطرة الفارسية موضع اهتمام كبير لهم كما سبق التنويه، حيث كانت تعتبر مستودعاً زراعياً رئيسياً للعراق.

العرب من اعتبرها من مدائن كورة سامراء، وقد أطلق مليان مرخلان على المدينة اسم بيريسابوراس (Pirsaboras) وذلك عند وصفهِ لحملة يوليانس (363) ميلادية كما أنه وصف سورها المضاعف المنيع وقد كان للأنبار مكانة سامية في العهد العربي إذ اتخذها الخليفة العباسي الأول عبد الـلـه السفاح (132هـ-750م) عاصمة لمملكته وبنى فيها قصراً سماه (الهاشمية) يعني المدينة الهاشمية، وقد توفي في القصر الذي شيده فيها، وقد سكنها أبو جعفر المنصور ردحاً من الزمن قبل أن يشيد العاصمة الجديدة بغداد. وزعم المستوفي وقد زارها في القرن الرابع عشر الميلادي أن طول سورها يبلغ زهاء خمسة آلاف خطوة. وذكر ابن شاكر الكتبي في ترجمة السفاح في فوات الوفيات (486/1) إن السفاح بنيت له الهاشمية إلى جانب الأنبار وفيها قبره وإن الهاشمية أخذت اسم الأنبار وإن الأنبار الأولى درست)، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة (174/2) سنة 748 هجرية = 1347م ومنها سافر إلى هيت والحديثة وعانة. واستولى عليها سنة 814هـ-1411م الأمير عجل ابن نصير الطائي بعد أن كسره الأمير قره يوسف القره قوينلي وأخرجه من عانة، على ما ذكر ابن حجر في أنباء بانباء العمر في حوادث سنة 814هـ-1421م فقد ذكر الغياث البغدادي في تاريخه الغياثي (صفحة 187) إن أبا علي خرج من الأنبار مع أخيه ناصر الدين علي وذهب إلى الحلة لاستيفاء أموالاً فيها وحكم في الحلة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً. والظاهر أن الأنبار بدأ خرابها بعد هذا التاريخ لكثرة الحروب واختلاف الأمن وقد انتقل قوم من أهل الأنبار إلى المسيب ثم انتقل قوم منهم إلى الكاظمية ولا تزال محلتهم تعرف بمحلة **(الأنباريين)** انتهى النص. ويبدو مما تقدم أن المدينة كانت محصنة أصلاً قبل دخول المسلمين إليها ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر الصديق عندما سير خالد بن الوليد لفتح العراق كان قد سير العياض بن غنم من دومة الجندل إلى الأنبار طالباً منه النزول منها إلى الحيرة

وأخبرهما (**خالد والعياض**) بأن من يفتحها أولاً تكون له قيادة العراق ففتحها خالد حيث بقى العياض محاصراً في دومة الجندل لحين قدوم خالد وفك الحصار عنه.

هاشمية الكوفة

بعد وفاة السفاح أبو العباس وصيرورة الخلافة إلى أخيه أبو جعفر المنصور الذي كان يحمل الكثير من الملاحظات حول قرارات أخيه واختياراته مما كان يعتبره أبو جعفر تلكؤ في حسم الكثير من الأمور (**كان أبو العباس السفاح أكثر حكمه في معالجة الكثير من الأمور وخاصة تلك التي تمثل تهديداً للدولة الجديدة**) التي كان يرى فيها انقلاب أحلاف الغد أو تنامي نفوذ ومكانة الآخرين منهم حيث يجتمع الأنصار حولهم مما يُشعِر بالأخطار الداهمة والمؤامرات الخفية التي أراد أبو جعفر المنصور حسمها فوراً وبدون إبطاء للتفرغ إلى الأمور الأخرى في بناء الدولة. وقد كان متسرعاً فعلاً في بعض الأمور والقرارات التي اعتبرها هو شخصياً من أخطائه الكبرى كما سيرد ذكره في موضع آخر.

وأول الأمور التي لم تعجب المنصور هي اتخاذ هاشمية الأنبار عاصمة للدولة من قبل السفاح ولكنه على ما يبدو استكبر واستعظم موضوع بناء مدينة جديدة فقرر العودة إلى الكوفة والسكن قربها في هاشمية الكوفة.

تقع هاشمية الكوفة كما يصفها المؤرخون في موقع قبالة قصر ابن هبيرة بينهما الطريق[1] وإلى الجنوب مدينة الكوفة الحالية وبينها وبين الحيرة[2] وهناك وصف آخر لموقع هاشمية الكوفة للمؤرخ (**لي سترانج**) يقول بأنها تقع على الضفة الغربية لنهر

---

[1] - الطبري – 234/6.

[2] - اليعقوبي – البلدان – الصفحة 237.

الفرات الذي يسميه الغربي[1] وهو فرع يتفرع من الفرات كما تصفهُ المصادر من ضفته الغربية كان معروفاً في القرن العاشر الميلادي ويصب في مستنقع كبيرة يسمى البطيحة.

والأكثر شيوعاً لدى المؤرخين أن يزيد بن عمر بن هبيرة وكان قائد جيش الأمويين في العراق بنى له قصراً ومدينة بالقرب من الكوفة على نهر الفرات وأنه لم يكمل بناء هذا القصر حين جاءه كتاب من الخليفة مروان يأمره فيه بترك الكوفة وعدم مجاورة أهلها[2] بسبب عدم ولائهم لدولة بني أمية وكان القصر الذي لم يكمل بناءه حين أتاه الأمر يقع بالقرب من جسر سورا ويروي الطبري أن ابن هبيرة تحصن في مدينة واسط خلال الحرب التي نشبت بين الجيش الأموي والثوار العباسيين في ولاية العراق[3] ويذكر الدينوري أن يزيد بن عمر بن هبيرة قتل في مسجده بالقصر المنسوب إليه[4] وعلى كل حال لم تردنا تفاصيل عودته من واسط إلى الكوفة أو إلى قصره قربها ليقتل فيه حيث لاحظت الكثير في تلك الروايات مما يبدو تناقضاً ولكن أعتقد أنها عدم الدقة في سرد الوقائع أو عدم تدقيقها ولكن الوارد أن ابن هبيرة لم يبني القصر فقط والذي لم يكتمل بناءه وإنما بنى قرية مدينة للجند والأعوان وسكن هو فيها لفترة ليست بالطويلة وتركها كما يذكر الدكتور صالح أحمد العلي في بحثه المنشور في مجلة كلية الآداب عام 1962م والموسوم باسم منطقة الحيرة. إلاّ أن المقدسي يقول بأن القصر المذكور كان من السعة بحيث يعتبر مدينة كبيرة جيدة الأسواق تروى من نهر الفرات يقطنها الكثير من الحاكة واليهود[5] وعلى أي الأحوال فإن لأبو جعفر عند قراره العودة إلى الكوفة كان له أصل من هذه المدينة التي أكمل

---

[1] - لي سترانج – بغداد في عهد الخلافة العباسية – الصفحة 13.

[2] - البلاذري – فتوح البلدان – الصفحة 285.

[3] - الطبري – 104/6.

[4] - الدينوري – الأخبار الطوال – الصفحة 370.

[5] - المقدسي – أحسن التقاسيم – الصفحة 121.

عمارة منشآتها الأساسية قبل قرار نقل العاصمة وبناء دار السلام المدورة وحين باشر ببناء المدورة حدثت فتنة ظهور أمر محمد بن عبد اللـه بن حسن فعاد أبو جعفر إلى الكوفة وأقام بقصر ابن هبيرة وبقى فيه أياماً وحين تم له القضاء على التمرد عاد إلى دار السلام لإكمال بناء مدينته المدورة ذائعة الصيت[1] كما وأنه قيل أن أبو جعفر بنى مدينة أخرى بظهر الكوفة سماها الرصافة[2] **وأن كل هذه التنقلات وتعدد القرارات تدل على شيئين:**

الأولى:أن القيادة العباسية لم تهيئ ولم تفكر جيداً بما ستؤول إليه الأمور في حالة نجاح الثورة واستلام السلطة من بني أمية إلى درجة أنها لم تفكر بالمقر الذي ستتخذه بحيث تهيئ له سلفاً وتنقل إليه فعالياتها.

الثانية:أن الوضع السياسي كان حرجاً وغير مستقر بحيث أن في كل فترة جديدة يظهر ما يهدد كيان الدولة وإلى درجة من الخطورة بحيث أن القيادة تتخذ في كل موقف منه قراراً جديداً ونقل العاصمة ومقر الحكم ليس بالأمر الهين الذي يتغير معه في عهد خليفة واحد عدة مرات خاصة في عهد الخلفاء الأولين الذين لم تستقر الأمور لهم بعد ولم يؤسسوا بشكل رصين مراكز ومقرات ويولوا ولاة وحكاماً لأقاليمها خاصة إذا كانت هذه الدولة فتية حديثة العهد بالتأسيس.

وجدير بالإشارة إلى أن الكوفة وهاشميتها يقعان في وسط العراق وضمن اختيارات رصينة جداً من الفاروق عمر وقائده سعد بن أبي وقاص وكان الاختيار شاملاً لكل العوامل المؤثرة بعد بناء مدينة البصرة خاصة وأن الفتوح مازالت قائمة والمسلمون يحملون في نفوسهم كل معاني وقيم الجهاد وحب الفتح لاستمرار نشر الدعوة في المشرق والتبشير بالإسلام حيث كانت هناك تخوم كثيرة في هذا المشرق تحتاج إلى مثل

---

[1] - اليعقوبي – التاريخ – 450/2.

[2] - صالح أحمد العلي – بغداد مدينة السلام – الجانب الغربي – 25/1.

هذا الجهد والعراق مركز العالم القديم يومها والكوفة وهاشميتها تقع وسطه مما يؤهله كعاصمة دولة بهذه السعة فتية حديثة التكوين.

وقد كانت القيادة الجديدة بحاجة إلى مزيد من الوقت لترسيخ أقدامها وتثبيت الأسماء الجديدة في قلوب النّاس وخاصة في المركز الذي فيه ومنه تحمى هذه الدولة وتتمكن من إسناد قواتها في الثغور المختلفة ولم تكن هاشمية الكوفة محصنة تحصيناً جيداً وكما فعل أبو جعفر في دار السلام المدورة ويبدو لأنّه لم يكن قد قرر بعد الشكل النهائي للدولة وعاصمتها لأننا إذا قلنا بأنه الوقت المحدود فقد نكون قد جانبنا الحقيقة لأن المفروض أنه إن كان مقتنعاً بالموقع فإنّه كان عليه أن يبدأ في إنشاء التحصينات المناسبة أو يستعين بتحصينات هاشمية الأنبار الموجودة مثلاً إلى أن تتهيأ له الظروف المناسبة لإنشاء البديل ولكن يبدو أنه كان يحمل في ذهنه أفكاراً أولية أحتاج إلى الوقت اللازم والظرف المناسب والمال الكافي وقوى العمل اللازم لهندستها وإنشائها على النحو المناسب للوضع الجديد والقيادة الجديدة، خاصة وإن المخاطر تزداد يوماً بعد آخر وتظهر في كل يوم حركة جديدة ومطالبين جدد بالعرش وبالخلافة.

المشاكل القائمة والمشاكل الجديدة
بعد تأسيس دولة بني العباس

إن الحديث عن المشاكل التي واجهت الدولة الجديدة يمكن أن يأخذ أشكالاً وأبعاداً متعددة. ودارس الموضوع عليه أن يضع نفسه في موضع صناع الدولة الجديدة التي خلفت دولة بني أمية حيث أن طريقة التغيير كانت أصلاً طريقة عتيقة تمثلت بقيام ثورة في أحد الأقاليم الشرقية النائية (**إقليم خراسان**) وانتقالها بسرعة فائقة إلى الإقليم المجاور (**إقليم العراق**) الذي عرف دوماً بعدم موالاته للحكم الأموي القائم أصلاً ومنذ بدايته على القوة واستخدام القسوة في طريقة الحكم والتعامل مع السكان المحليين، وهم في العراق سكان غير اعتياديين فهم لا يشبهون بدو الصحراء في أرباض الجزيرة العربية ولا هم أهل الشام بهدوئهم المنقول عن الحضارة الرومانية ولا هم من سكان الأرياف ذوي المفاهيم السطحية، أنهم أبناء ورثة مجموعة من الحضارات القديمة - سومرية - أكدية - كيشية - عيلامية - بابلية - آشورية. وهذا البعد الحضاري هو ما ميز أهل هذا الإقليم دوماً بإيجابيات هذه الحضارات وسلبياتها فهم أناس اعتادوا التحليل العميق لكل أمر وقضية كبرت أم صغرت، عامة كانت أم خاصة، سياسية أو غير سياسية كما اعتادوا المناقشة وعدم قبول الأمور على علاتها ولا صغر الجزئيات، حباهم الله بخيرات كثر منذ تشكلت الخليقة وحدث وانحسر طوفان نوح وهم مركز الأساطير والملاحم الموروثة منذ الأزل، لهم من الخيال الواسع ما عدد مذاهبهم وتوجهاتهم في كل شأن في الشؤون الحياتية وحتى الدينية منها. وعلى الإمام علي السلام حين وصفهم بأنهم (**ثوار على الحق، ثوار على الباطل**) فهم إذن ثوار في

كل الأحوال لا يرضيهم شيء ولا يقنعهم لا صاحب منطق ولا معدومه. يطمحون دوماً إلى التجديد والتغيير في كل شيء، وعلاوة على ذلك فهم قوم اختلطوا بكل أقوام المشرق والمغرب وأخذوا منهم وأعطوهم وفي كل المجالات وليس في مجال الفكر والسياسة فحسب وبحكم موقعهم الجغرافي وسط العالم القديم حيث مر كل الغزاة في التاريخ في حملات المغرب الإغريقية للإسكندر المقدوني المدفون في أرض العراق[1] إلى حملات الروم وإلى غزاة المشرق من فرس وأفغان ومغول وتتر.

وعلى كل الأحوال فقد كان التأييد قوياً للثورة العباسية في العراق مما حقق للعباسيين انتصاراً سريعاً وخاصة في المعركة الحاسمة مع القوات الأموية (**معركة الزاب**) التي كانت فاصلة في إنهاء الحكم الأموي وإحلال الثوار العباسيين محلهم على رأس دولة الإسلام مترامية الأطراف متعددة القوميات وكان هذا الفصل في النزاع عراقياً على أرض العراق، وكما كان التأييد قوياً.

وسريعاً فقد كان التراجع عنه قوياً وسريعاً بنفس النسب حيث حدثت مجموعة كبرى من الفتن وظهرت طوائف بأفكار جديدة لحد أن البعض منها خرج عن الإسلام واجتهد الآخر فيه إلى درجة النزاع والصراع وبطريقة غير معقولة ولا أخال أي باحث أو مفكر يتمكن أن يجد شبيهاً له في العالم ولعلها ضريبة الحضارة كما يحلو لبعض الفلاسفة التفسير والتعليل.

لقد كانت طريقة التغير العنيف هادمة لأركان الدولة شاملة لكل المجالات أدت إلى فراغ كامل لكل إدارات الدولة ومؤسساتها تأثرت به الأقاليم الأخرى أيضاً وحتى الولاة الذين حاولوا الحفاظ على ولاياتهم بتقديم الولاء السريع للحكام الجدد فقد ارتبكت

---

[1] - يروى أن الإسكندر المقدوني واجه بعد احتلال العراق مشاكل معقدة مع سكانه ففكر في إجلائهم إلى أرض اليونان وإحلال يونانيون محلهم فما كان من مجلس حكمائه إلاّ ونصحه بالتروي في الأمور والكف عن الموضوع لأنهم وكما قالوا: (سيفسدون لك بلاد اليونان وسيفسد اليونانيون في بيئتهم في العراق). سبحان اللـه.

أمور ولاياتهم وحدثت فيها فتن مختلفة وصلت إلى الأندلس وسرت سريان النار في الهشيم حيث حدثت نزاعات كبرى كان أخطرها نزاع القبائل القيسية واليمانية إلى أن حلَّ بها عبد الرحمن وأسس للحكم ولدولة جديدة ولكن على أساس العنف والقسوة أيضاً.

ويمكن تصنيف المشاكل القائمة والجديدة إلى:

سياسية:

حيث كان أغلب المسلمين وخاصة أهل العلم منهم على غير رضا لحكم بني أمية.

أولاً: لقسوته وشدته التي لم يعتادوا عليها أيام الخلافة الراشدة التي كانت ومازالت إلى يومنا النموذج الحضري العادل والمثالي بسلوكه وطرائق حكمه ومعاملته للناس وديمقراطيته البارزة يومها وفي أجواء كان الظلم والجور سائداً في أغلب بقاع الأرض شرقها وغربها مما جعل المسلمين في كل أمصارهم يشعرون بأنهم الأرقى فكراً والأكثر عدلاً بين سكان الأرض إلى درجة شعورهم عند غزوهم الأمصار بأنهم محررين من الجهل والعبودية والظلم.

وثانياً: لتلاعبه بطرق وعقائد وأساليب حكم المسلمين على غير ما ورث عن الرسول الكريم ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده حيث كان الأمر شورى فتحول إلى رأي واحد مسيطر بالقوة لا يسمح ولا يصحح وكان الانتخاب والترشيح لأهل العقيدة والصحابة الكبار فتحول إلى وصية يوصي بها الأب لابنه أو لأخيه في بعض الحالات دون الرجوع إلى عموم المسلمين وخاصتهم حتّى وإن كان هذا الولي للعهد معتوهاً أو سفيهاً أو طفلاً يجب وصايته وخاصة في أول أدوار الدولة الأموية حين ابتدع معاوية تسمية ابنه يزيد وفي آخرها حيث اشتد الصراع بين الأمراء وأصبحوا

متنازعين في حياة الخليفة وفسح المجال في حياة الخليفة لتدخل الطفيليين وأصحاب المصلحة والمنفعة من حواشي الدواوين وعلى كل المستويات وكان وضعاً خطيراً حقاً شعر فيه النّاس بالفوارق الكبرى بين هذه الأوضاع وتلك التي كانت سائدة أيام الخلافة الراشدة مما زاد من الفتن وحروب الطوائف وظهور الأفكار الشاذة والمخالفة للإسلام بكثرة وبخاصة في العراق الإقليم المجاور لإقليم الشام وإقليم وسط المعمورة وبكل إرثه الحضاري المتوارث لآلاف السنين في حضاراته القديمة وأفكاره الجديدة.

إدارية

كان لتوسيع الفتوح نحو الشرق والغرب وحجم الدولة الإسلامية الكبير حيث كانت من أكبر الإمبراطوريات المعروفة وقتها.. ولم تكن هناك نظم إدارية يمكن الركون إليها عند عرب الجزيرة ولا يوجد أناس ممارسين ذوي خبرة في الشؤون الإدارية كما وجرت العادة أيام رسول الـلـه (ﷺ) وبعده أيام الخلافة الراشدة اختيار الأشخاص في المناصب الإدارية من ذوي الإسلام الحسن والتقوى والورع ومخافة الـلـه وهي كلها لا تمثل كفاءة إدارية معروفة ومجربة وفي أيام الخلافة الراشدة لم تظهر أي إشكالات في هذا المجال وسبب ذلك لا يعود لكفاءة المعينين من الأشخاص وإنما لاستمرار فترة الحرب وتولى القادة العسكريين أمور الولايات وما يرافقه في أوضاع خاصة تختلف تماماً عن حالات الاستقرار كما أن عدد السكان كان قليلاً فلم تظهر هناك إشكالات وتحديات جدية لدى متولي الإدارة، رغم أن الإسلام كدين وعقيدة قد وجه إلى الاهتمام الكبير بمسائل الخدمات ومتطلبات الحياة اليومية إلى درجة أن الفاروق عمر يقول: **(و الـلـه لو أن بغلة عثرت بسبب الطريق في العراق أو اليمن لوجدتني مسؤولاً أمام الـلـه)** ويدلل هذا على طبيعة التوجيهات وطبيعة النظام الإسلامي الجديد المبني

أساساً على الخدمة العامة. كما أن طبيعة الحياة البسيطة التي كانت سائدة بين قبائل العرب في الجزيرة لم تكن تستوجب إجراءات معقدة وخدمات عامة متقدمة.

وكلما زاد عدد السكان وكثرت المدن والأمصار وتنوع البشر وزادت رفاهية المجتمع وتحسن الوضع الاقتصادي كلما زادت الحاجة إلى الخدمات المتقدمة التي تفرض وجود جهاز إداري متكامل مؤهل لأداء هذه الخدمات وكلما زادت الحاجة إلى هذه الخدمات زادت الحاجة إلى كفاءات عليا لدى الإداريين المطلوبين لإدارتها بينما كانت الإدارة في العهد الأموي في المركز مهمته بشكل أساسي بذاتها حيث الخلافة في دمشق وإقطاعات أنصارها وأعوانها وولاتها القساة في الأقاليم الذين لا همَّ لهم سوى فرض السيطرة على النّاس بالسيف والسوط والعصا وليس للعامة من حول ولا قوة وخاصة في الأيام الأخيرة لبني أمية ولذا فقد كان التأييد للثورة العباسية كبيراً وواسعاً وسريعاً ولكن الظرف الجديد كان هو الآخر غير مناسب لأداء مثل هذه الخدمات للناس في أول أيام الدولة العباسية خاصة وأنها اضطرت وبسبب الولاء السياسي إلى إناطة المناصب بأناس هم الآخرين يطرقون هذا الباب لأول مرة ولا مؤهل لهم سوى القدرة على استعمال القوة مع النّاس والولاء السياسي للدولة. إن هذه الأوضاع وما يرافقها من روح التذمر والنقمة لدى العامة استمرت حتّى عهد هارون الرشيد حين بدت مظاهر جديدة بسبب الاستقرار السياسي والتوازن الاقتصادي وثقافة المترفين كما يحلو لبعض المفكرين إطلاقها وللنمو الكبير في حركة الثقافة والفكر والترجمة حيث بدأت علوم وخبرات الشعوب الأخرى تنتقل إلى المجتمع الإسلامي.

اقتصادية

كان بذخ أمراء بني أمية قبل الثورة العباسية وفي أيامهم الأخيرة مسرفاً في الإنفاق على القصور والضياع واللهو والشهوات مما أنهك اقتصاد الدولة والمجتمع ولما نجحت

الثورة وجاء الحكم الجديد وهو لحداثته يحتاج الإنفاق على أوجه عدة لبناء الدولة وإعادة تأهيل المؤسسات وخاصة المؤسسة العسكرية والأمنية حيث كانت المخاطر التي تهدد الكيان الكبير الجديد مما اضطره إلى زيادة الضرائب لتغطية الإنفاق العالي مما أثار الاستياء لدى عموم النّاس ليس في إقليم العراق فحسب بل في كل الأقاليم مع استمرار استعمال القسوة لتحصيل هذه الضرائب وجمع هذه الأموال مما زاد من تذمر العامة والخاصة وأثر في سير الحياة الاقتصادية للفرد ولجماعة المسلمين تأثيراً بالغاً وخلق أوضاعاً جديدة غير مستقرة أدت إلى عدم استقرار المجتمع بأكمله وطبيعي في مثل هذه الحالات أن يكون وضع النّاس قابلاً لتأييد أيٍ من حركات الضد.

وللدلالة وليس للحصر أحاول توضيح بعض الأمور المتعلقة بالحركات السياسية وحركات الضد التي ظهرت أيام السفاح والمنصور وقبل المباشرة ببناء الحصن في دار السلام المدورة في أواسط العراق.

فللسياسة مفاهيم عديدة لدى المفكرين والساسة الكبار ولكنها في المفهوم الإسلامي الذي ظهر مع بزوغ فجر الإسلام وهو تعريفها بأنها فن إدارة المحكومين وتدبير شؤونهم وتوفير الحياة الطيبة لهم[1] وبسائر طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية منها وخاصة الطبقة الفقيرة المسحوقة وبعيداً عن الظلم والاستبداد والاستغلال وكانت مدارس الفقه الإسلامي في الكوفة والمدينة والوعاظ والزهاد والعلماء في سائر المدن والأمصار يحثون الحاكمين دوماً وخلال دروسهم وخطبهم أمام العامة على ضرورة الالتزام بهذه المبادئ ولكن أين هم وأين الإسلام من شهوة الحكم والتسلط لدى البشر والتي طغت خلال العصر الأموي وبانت واضحة خلال الأيام الأولى لقيام الدولة العباسية وخاصة بعد التحول الكبير الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان خلال أيامه

---

[1] - محمد عبد الستار عثمان – المدينة الإسلامية – الصفحة 296.

الأولى للخلافة حين تحولت دولة الشورى والعدل والمساواة بين الشعب الواحد وشعوب وأمم الدولة الإسلامية والتي تعددت فيها القوميات إلى دولة الملوك وبكل ما تحمله الكلمة من معاني السيطرة والظلم والاستغلال.

وشديد الأسف لأن بني العباس جاءوا بثورتهم التي استغلوا بدعوتهم لها هذه الأمور لدى بني أمية ولكنهم لم يغيروا هذا الواقع بل رسخوه بشكل واضح منذ الأيام الأولى لحكمهم مما أفقد النّاس الثقة بالمستقبل وصاروا بوضع نفسي وفكري أهلهم لتقبل أي فكر يحرض على الثورة وعلى الخروج عن طاعة الخلافة مما عرض الدولة والمجتمع للكثير من الهزات خلال السنوات الأولى للدولة العباسية وهي ما تزال بعنفوان شبابها.

وعموماً فليس من باب الالتزام الخوض في هذا الموضوع أكثر والخروج عن أهدافه ومراميه حيث تحتاج إلى بحث خاص بها **ولكني سأوضح بعض ما يخص بعض الحركات السياسية عموماً وكالآتي:**

أولاً: لم يكن في أوائل أيام الدولة العباسية قد قضي تماماً على النفوذ الأموي حيث كان الكثر من النّاس في بلاد الشام خصوصاً وفي المغرب وشمال أفريقيا عموماً يؤيدون الحكم الأموي ويحنون لأيامه الرغيدة ولما تلاها من أيام العسر التي تصاحب الثورات والكيانات الجديدة خاصة وأن بعض قادة جيوش بني العباس كانوا قد أعطوا عهوداً ومواثيق خلال الثورة نقضوها بعد تمكنهم وسيطرتهم مما جعل الكثير من النّاس في تردد من أمرهم.

ثانياً: الانحرافات الحاصلة في الكثير من المدارس الفكرية التي أوجدت أفكاراً متطرفة خرج القسم منها عن الإسلام تماماً ومازالت جذوره الفكرية هائمة إلى يومنا هذا وقد حدث ذلك في إيران وفي سواحل بلاد الشام والأهواز

وجنوب العراق مما هو معروف عن حركات التمرد للزنج والقرامطة والخوارج.

وقد كانت هذه الحركات عدا ما يتعلق بخروجها الفكري مما يهدد العقائد الأساسية للمجتمع مهيجة وحاثةً دوماً على التمرد والخروج على الدولة مما يشيع روح عدم الاستقرار في المجتمع وبالتالي عدم السيطرة عليه[1].

ثالثاً: الخروج الكبير لبعض الحكام عن أسس المبادئ الإسلامية كخروج معاوية على مبدأ الشورى وانتقاله إلى نظام الملكية بتسميته الوريث وهي جاهلية رفضها الإسلام حين جعل الترشيح والانتخاب والبيعة من قبل الصفوة أهل الحل والعقد والعلم وتبعه بقية خلفائهِ وكذا كان في نظام بني العباس الذي أعطى الأمل للناس في أيام دعوته السرية وعاد عنها عند استلامه الحكم مما أفقد الثقة عند العامة كما أسلفنا وأحدث للدولة الوليدة وضعاً خطيراً وهي بعد لم ترسخ أقدامها.

[1] - يقيم آرنولد توينبي تجربة الدولة الإسلامية الأولى من منظور تاريخي نابع من دراسة النتيجة وغير متناغم مع الفكر حيث يعزى ضعف الدولة الإسلامية إلى عدم قدرتها على اتخاذ عاصمة ملائمة أو عدم قدرتها على اتخاذ مدن تؤدي دور العواصم ويقول بأن الأمويين حين اتخذوا دمشق عاصمة لهم فقدوا السيطرة على خراسان وأن العباسيين حين اتخذوا الكوفة وبغداد عاصمة لملكهم فقدوا السيطرة على المغرب والأندلس ويتصور بأنهم لو اتخذوا سلسلة العواصم القديمة في طيسفون وأنطاكية والإسكندرية لكانوا نجحوا في السيطرة على أجنحة الدولة الكبيرة في المشرق والمغرب. ولا أشاطره الرأي كلياً في هذا الطرح الذي يغفل دور الفكر وينسى قياس المسافات إذ ما الفارق بين أنطاكية ودمشق أو بين بغداد وطيسفون أو الإسكندرية والفسطاط. ولو عدنا إلى أسس موضوع السيطرة أيام الأمويين والناجم عن الحركات السرية لأقوام زال نفوذهم وملكهم بالإسلام وخاصة في الأقاليم البعيدة عن مقرات السلطة وثانيهما خروج بعض الحكام عن أحكام الدين الحنيف وأدبياتهِ كما ضربنا مثلاً في موضع سابق عن الإرث في الحكم والخروج عن مبدأ الشورى والجور في أسلوب الحكم مما أوقع العامة في ظل هذه الحبائل التي كان لبعضها بعض الحقّ والبعض الآخر لكلمات الحقّ التي أريد بها الباطل. خاصة وأن المسلمين الأوائل في هذه الدول كانوا يذكرون سماحة ورحمة أبو بكر وعدل عمر ولين عثمان وقضاء واستقامة علي والتي كانت عهودهم قريبة ويقارنوها بسطوة الحجاج في العراق أو بأس السفاح والمنصور وأعتقد جازماً بأن سعة الدولة وبهذه السرعة هو الآخر كان عاملاً مهماً وكما كان لدولة الإسكندر.

رابعاً: الحركة العلوية الحليف السابق لبني العباس وخروجهم على الاتفاقات التي لم تفصل المراجع والمصادر شيئاً عنها كما أسلفنا مما حدا بالعامة إلى تأييد الدعوات الجديدة وكما حدث في ثورة محمد وأخيه إبراهيم والتي أوشكت على السيطرة حين وصلت إلى الكوفة[1].

خامساً: تنامي حركات الكفر والزندقة والهرطقة لهذه الأسباب حيث كانت حركة الراوندية أو فتنتهم كما يحلو للبعض أن يسميها وثورتهم في واقع حالها والراوندية هم فئة من أهل الكوفة ومناصريهم حيث حقق البعض من الباحثين في أهميتها وهي في الحقيقة كبيرة ولا أريد الخوض فيها هنا في هذا الموضع لأني سأعود إليه تفصيلاً عند البحث عن أسباب قرار تبديل الكوفة كعاصمة والانتقال من هاشميتها التي عمرها وأكمل بناءها أبو جعفر المنصور وأدار منها دولته الكبيرة ردحاً من الزمن.

سادساً: ورود معلومات كثيرة ومن مصادر عديدة عن الأوضاع في إقليم خراسان والنفوذ الكبير المتنامي لأبي مسلم الخراساني فيها إلى المنصور في هاشمية الكوفة خاصة وأنه يذكر بوضوح أيامه وأخوته في خراسان وكيف كانت بدايات الدعوة أولاً في هذا الإقليم البعيد عن مقر السلطة وثانياً طريقة نموها وانتشارها إلى المستوى الذي أهلها للإعلان والانتقال إلى العراق

---

[1] - إن هذه الثورة دليل قاطع على ما سبق وأوردته من رأي بخصوص أسباب المشاكل القائمة والجديدة لدولة بني العباس بسبب من خروج معاوية على مبادئ وأسس انتخاب الخليفة مما أدى بعده إلى ثورة الإمام الحسين وخروجه على يزيد الذي بدأ حكمه ببيعة السيف فما هو مشهور إجباره عمرو بن العاص على البيعة قسراً وما دار من أحداث ومعارك بها من الظلم والجور مما هو معروف ومن المساس ببيت النبوة والآل الكرام وكذا فعل أبو جعفر المنصور ومع بدايات حكم العباسيين ولم يكن هؤلاء الأطهار طلاب حكم وسلطة ولكنها المبادئ والتمسك بمبادئ الدين وقد أيدها الإمام مالك مفتي المدينة حين وصلتها ثورة محمد من اليمن حيث لجأ محمداً يشكوا من أهل المدينة من رفض البيعة بحجة بيعة أبو جعفر فأفتى الإمام مالك ببطلان بيعة أبو جعفر المنصور لكونها بيعة سيف خرجت عن أصول وقواعد البيعة الشرعية فسبحان الـلـه فيما نراه اليوم في دول المسلمين.

وإعلانها في عاصمتها الكوفة مما كان يشكل له حساسيات خاصة من هذا الوضع خاصة وأن وضع أبو مسلم الخراساني اليوم هو أفضل بكثير من وضعهم معه بالأمس فهو والي الإقليم المعين من قبل السفاح وله من الأنصار والمؤيدين الكثير الكثير ولا عجب فهو يملك السلطة والمال وهو بين أهله الفرس وعشيرهِ أهل خراسان مما جعل المنصور متهيباً من وضعه الشديد خاصة وأن ظواهر سلوكه الداعي إلى جمع المؤيدون بإنفاق المال وبأكثر مما ينفقه الخليفة المنصور نفسه وبيت حكمه في الهاشمية.

مثالب ومساوئ موقع الكوفة والهاشمية

إذا أردنا البحث في أسباب اختيار سعد بن أبي وقاص لموقع الكوفة وطبقاً لتوجيهات الخليفة الفاروق **وكما سبق في أماكن أخرى فسنجد أن هناك العوامل التالية:**

العامل الأول : أن الخليفة الفاروق كان يريدها مركزاً لتجمع القوات القادمة من المدينة المنورة ولذا فلم يشأ أن يكون هناك مانع مائي بينه وبين هذا الموقع والفرات مانع مائي كبير ليس من السهل تجسيرهُ وعبورهُ ويتمكن العدو وبإجراءات بسيطة وضع الموانع والعراقيل وتدبير الخطط عليه، والكوفة تقع غرب النهر بينما كانت رغبة القائد سعد في استطلاعه أولاً هي سكنى المدائن وهي لا تلبي هذا الشرط فبينها وبين طريق الحجاز مانعان هما دجلة والفرات كما أن الاستطلاع شمل أعالي الفرات بعد التوجيه ثم نزل إلى منطقة الكوفة.

العامل الثاني: إنها تقع على ظهرة عالية لا تطالها مياه الفيضان وجوها نقي نقاء جو الصحراء وماؤها قريب من الفرات وتربتها صالحة للزراعة ولا تعيش فيها الحشرات الطيارة كالبق والذباب كما كانت في أجواء الأنبار غير الصحية وقد كرهها سعد لهذا السبب عندما نزلها علماً أنها مدينة قديمة من أيام الفرس كما أسلفنا ولها عمارة وأسوار وتحصينات ولكنها غير صحية ومناخها رطب لا يلائم جيوش المسلمين المؤلفة من العرب الذين اعتادوا الصحراء وأجواءها الجافة عليلة الهواء معتدلة المناخ.

أما وقد تغير الوضع بعد إكمال فتح العراق أيام الفاروق ووصلت الجيوش والفتوح بلاد فارس والسند والهند وحدود الصين في أيام الدولة الأموية الأولى فلم تعد العوامل

الحاكمة هي نفسها التي كانت أيام الفاروق والعوامل والاعتبارات قد تبدلت وتغيرت والمطلوب اليوم هو غير المطلوب في الأمس حيث كان الطلب لاتخاذ معسكر ومركز تجمع متقدم فقط بهدف الوثوب منه إلى أماكن أخرى في الشرق وإسناد غزوات جديدة ولذا فإن الطلب الجديد هو اتخاذ عاصمة لملك بني العباس وسط إقليم العراق يعد اختياراً لمركز حكم الدولة الإسلامية.

كل هذا من جانب ومن الجانب الآخر كان القرب من مراكز الروم العدو المهم لا يساعد على الاختيار لأنّه يمكن للعدو أن يفاجئ به ويتحرى المباغتة لساكني الموقع والمدافعين عنه بسهولة والعدو المحتمل هو الروم من الشمال القريب والفرس من الشرق وهم الخطر الأكبر.

لقد تغيرت الأيام وأصبح الطلب في بدايات الحكم العباسي هو اختيار موقع جديد لعاصمة جديدة تبنى من الصفر وتسمى باسم بانيها ولعلها عقدة قصر ابن هبيرة لدى المنصور حين لم يستطع محو اسمه وساءه كثيراً إطلاق العامة اسم بن هبيرة عليه في الوقت الذي كان الخليفة المنصور ساكنه متخذاً إياه مكان إقامته وديوان حكمه ومقره الرسمي.

إن هذه المواقع الكائنة في أواسط بلاد ما بين النهرين قد تكون متساوية القيمة من وجهة النظر العسكرية الدفاعية المحلية ولكنها تفترق وتختلف في أقيامها عند دراسة المحاور المؤدية لها من الجهات الأربع ومناطق التقرب والتحشد للأعداء المحتملين والمتوقع تقربهم إلى أواسط العراق سواء من الشمال أو الجنوب، من الغرب أو من الشرق وتستند هذه الفوارق إلى عاملين أساسيين في الاعتبارات الدفاعية ومن وجهة النظر الأمنية ويبدو أن الخليفة المنصور وهو الذي كان يعتد برأيهِ في انتخاب المواضع الجديدة سواء للعاصمة مقر الحكم أو للعواصم الثانية ومقرات إدارة الأقاليم

والولايات أو عند اختيار أماكن إقامة القطعات العسكرية ولا عجب فهو الخليفة ونظم الحكم في ذلك الزمن فردية غير مؤسساتية وشورى الإسلام اللازمة أصبحت محدودة فهي أولاً تطلب ولا تعطى مما يعني أن كل صاحب رأي لا يستطيع الكلام إلاّ إذا طلب منه ذلك وليست هناك مؤسسات بالمعنى المفهوم اليوم لتقوم بالدراسة والتحليل واعتماد آراء المتخصصين لكي تعطي مركز القرار رأياً ناضجاً مفيداً يمكن الركون والاطمئنان إليه.

نعم يبدو أن الرجل (**الخليفة المنصور**) كان كما كتب عنه رجلاً ناضجاً عاقلاً في فكره موسوعياً في الدراسة والتحليل مجرباً ذا خبرة لا بأس بها في مثل كل هذه الأمور جامعاً بين الفكر السياسي والإداري والاقتصادي التجاري والأمني والعسكري وهي الصفات المطلوبة من رجل الدولة في نظم الحكم الفردية التي تغيب فيها المؤسسات ومراكز البحث والتحليل ذات القدرة المطلوبة للقرار على مثل هذه الأمور الكبيرة والخطيرة في تأثيراتها على مستقبل الدولة ومصيرها.

ويبدو أن في جولته عندما سكن الكوفة وألقى خطبته بها كما وجرت بيعته فيها ثم انتقل إلى هاشمية الأنبار وهاشمية الكوفة لم يكن مطمئناً تماماً لا إلى السكان فيها ولا إلى البيئة المحيطة المساعدة على نقل وتحشد الجيوش المعادية والقطعات الكبيرة القادرة على التأثير والتغيير.

إن محاور وطرق الغرب وأماكن التحشد خلف الفرات تقدم تسهيلات كبرى للمهاجم القادم من الغرب مركز الروم ودولتهم ومستعمراتهم كما تشكل صعوبة كبرى لمهاجم الشرق القادم من بلاد الفرس العدو الرئيسي الثاني لوجوب عبوره مانعين كبيرين هما دجلة والفرات إذا اختير السكن غرب الفرات كما جاء بوصية الخليفة الفاروق إلى

قائده سعد حين كتب له[1]: ((**أن تنزلهم منزلاً غربياً**)) حين كان همه الأكبر وشغله الشاغل يتمثل في أمور الفتح والغزو والاندفاع نحو الشرق (**هدفاً هجومياً بحتاً**) حين كانت الدولة بحاجة ماسة إلى استقرار الفتح وتأمين المشرق وهداية أهله بنشر الإسلام في ربوعه ولم يكن محبذاً لأي استقرار فيه يؤدي إلى الهدوء لدى الجند المسلمين واستكانتهم إلى الراحة والمنافع في أرض الفتح الجديدة.

ولا يعني هذا إطلاقاً أن الفاروق لم يكن يفكر بالأمن والدفاع وإلا لما اختار الغرب في العراق حيث الطرق والسبل القريبة والمفتوحة والأمينة إلى مقر الدولة في المدينة المنورة بل على العكس من ذلك تماماً فقد كان هو والصديق أبو بكر قبله حساسين تماماً من هذه الجهة وعارفين بخواص العرب وجند الإسلام البدوية الصحراوية الأصل والمنشأ حين طلب الأول من سعد توخي المكان الغربي وحين طلب الثاني من خالد ابن الوليد سلوك أطوار الفرات الغربية في تقدمه من الجنوب نحو الحيرة وسط العراق.

ودليل أن الأمور كانت مرحلية في تقييم أهدافها ومتطلباتها وأن الفاروق كان مدركاً تماماً لكل الاعتبارات وتوقيتاتها هو اختيارهُ البصرة ثم اختياره الكوفة بعد فتح المدائن وتأمين أواسط العراق وانسحاب الفرس إلى الشرق وخسارتهم معركة نهاوند (**فتح الفتوح**) التي انتهت بها تجمعاتهم وتحشداتهم الكبرى وتحولت معاركهم إلى نزاعات محلية لا تأثير بالغ لها على جيوش المسلمين ولكنه التحسب والحذر.

لكل ما جاء أعلاه فأن موقع الكوفة الذي كان محبذاً و عند تمصيرها أصبح غير ملائم في أيام الدولة العباسية وبعد حوالي القرن من الزمان.

---

[1] - البلاذري - فتوح البلدان - الصفحة 277.

إن الحاجة الجديدة أصبحت ملحةً إلى موقع وسط يؤمن مجموعة كبيرة من المتطلبات كما سيرد لاحقاً لا هو إلى الشرق من دجلة ولا هو إلى الغرب من الفرات ولا هو إلى شمال العراق قرب الروم ولا هو متطرف إلى الجنوب ولذا فقد كانت منطقة أواسط العراق تمثل وضعاً مثالياً كما سنرى عند مناقشتها.

كل ذلك بالنسبة لاعتبارات الأمن العسكري من وجهة نظر المحاور ومناطق التحشد والمقتربات خارج المدن والمواقع وإلى أعماق العدو في الشرق والغرب.

وثمة عامل آخر هو تيسر الموانع المحلية فمنطقة الكوفة والأنبار هي من المناطق التي تحيطها بيئة مفتوحة تماماً، ولو أن منطقة وسط العراق كلها، كانت بيئة مفتوحة إلاّ أن منطقة ما بين النهرين في أضيق منطقة لاقترابهما من بعضهما كانت عامرة بمجموعة كبيرة من القنوات والأنهار الفرعية الواصلة بين النهرين مما جعلها محمية من شمالها وجنوبها ولم تكن كل هذه الأنهار صغيرة حيث كان البعض منها كبيراً إلى درجة استخدامه لأغراض الملاحة كما في نهر عيسى (**الرفيل**) وكما تلاحظ من الخرائط المرفقة بالبحث (راجع الخارطة رقم (13)).

إن هذه المواقع الكثيرة عدا فوائدها في تقديم تسهيلات للمدافع وليس المنع كلياً وإنما العرقلة والتأخير، فهي ذات فائدة كبرى في تحديد قدرة المهاجم على المناورة في هذا الموضع محدد المسالك وفي ذلك فوائد جمة للمدافع لتنظيم وإدارة دفاعه وكسب الوقت اللازم لإنجاز ترتيباته[1] الدفاعية عليها، بشكل محكم مدروس يؤمن له النصر في معركته المحتملة.

---

[1] - إن واجب سلاح المهندسين في الجيوش الحديثة الأساسي هو (عرقلة حركة قطعات الخصم وتسهيل حركة القوات الصديقة) وفي هذا مدلول كبير عند تقييم طبيعة الأرض التي ستدور عليها المعارك المحتملة من وجهة نظر الطرفين من حيث تقديمها التسهيلات وإقامتها الصعوبات لأي من الطرفين مع إمكانية مساعدة طبيعة الأرض لأي منهما والأرض كما هو معلوم عامل أساسي في مناقشات تقدير الموقف العسكري.

إن الفارق بين وجهات النظر للقيادة العسكرية الإسلامية بين ما كانت عليه أيام الفتح الأولى زمن الخلافة الراشدة والتي مثلت متطلبات مرحلة معينة من تاريخ الأمة وتاريخ هذه القيادة وبين وجهات النظر لهذه القيادة أيام بداية دولة بني العباس هي أن الأولى كانت تراعي المتطلبات الدفاعية التي أوجبتها ظروف المرحلة ومعطياتها الجديدة.

لذا فيمكن القول إن ما كان محبذاً أيام أبو بكر والفاروق لم يعد صالحاً للعمل أيام الدولة العباسية بعد مائة عام من الزمن.

إن الذي أريد بيانه بوضوح في هذا الجزء من البحث للقارئ الكريم عدا ما لم يُطرق من الأمور العسكرية سابقاً هو القدرة العالية للقيادة الإسلامية العسكرية وعلى أي من مستوياتها المعروفة هو أنها كانت مرنة في قراراتها كل الوقت بحيث أنها لم تتشبث بقرار سابق زالت عوامل اختيارهِ ولمن كان هذا القرار مما يجعلها قيادة جامدة التفكير بل كانت واعية مرنة تحسب لكل موقف ظروفه وعوامله الجديدة واجبة الأخذ بنظر الاعتبار.

إن ما سبق مناقشته من عوامل وصفات منطقة الكوفة والهاشمية كان مهنياً عسكرياً وجغرافياً وبقي لنا أن نناقش طبيعة السكان المحليين ودرجات ولائهم للحاكم القديم والجديد ومدى إسلامهم ونقائه وهو عامل مهم جداً.

إن المعروف عن أهل الكوفة عدم استقرارهم على منهج واحد طيلة أيامهم وهو ما يذكر عنهم إلى يومنا الحاضر ومنذ أيام علي كرم اللـه وجهه والحسين عليه السلام وكانت أيام القيادة العباسية الأولى مليئة بالمفاجئات من هذا الجانب فكلما كان تأييد الكوفيين للثورة قوياً وسريعاً كانت رجعتهم عنها سريعة فقد شعر الخلفاء العباسيين من أول أيامهم بالكوفة بأن الكوفيين ميالين إلى ولاء العلويين وليسوا ميالين إليهم

بحيث أنهم لاحظوا إفساداً لجندهم المقيمين هناك ولم يكن بالإمكان إبعادهم عن أهل المدينة حيث سكناهم وأسواقهم ومعاشهم وفي كل يوم كانت الأخبار تأتيهم عن طريق العيون والعسس بجديد.

وجدير بالذكر هنا أن مواقف أهل الكوفة هذه ليست جديدة ومنحصرة في خذلانهم للإمام الحسين ومواقفهم القلقة بعده وإنما استمرت كذلك أيام الأمويين المختلفة حيث كان قرار يزيد بن عمرو بن أبي هبيرة الشهير بعدم السكن داخل الكوفة وإنما توجه خارجها وبنى قصره المعروف باسمه ثم بنى سكناً لجنده كما تذكر الأخبار قربهُ وخارج المدينة مما يدلل على توخيه الحذر منهم وعزل جنده وعسكره عن المدينة وأهلها ولما أعاد الخلفاء العباسيين المكانة الكبرى للمدينة بعد تأييدها لهم ظهرت كما أسلفنا من جديد عوامل الموقف القلق.

ولما حدثت ثورة محمد وأخيه إبراهيم وهما سيدان علويان بدءا في اليمن وسيطرا بعدها على الحجاز ودخلا المدينة المنورة وكان لهما مع أهلها والإمام مالك ما سبق التطرق إليه انتقلا بجيشهما إلى الكوفة واحتلاها وفيها قتل محمد بسهم تلاه إبراهيم وليس لي أن أتوسع في الموضوع خارج الهدف ولكن طرقته للتدليل على المشاكل الجديدة للدولة الفتية.

ثم جاءت فتنة الراوندية التي اختلف المؤرخون كثيراً على توصيفها فمنهم من وصفها بالفتنة المحدودة ومنهم من وصفها بالثورة ذات الأهداف الكبيرة والمخطط لها.

والراوندية هم من دعاة الخلافة لبني العباس دون غيرهم وبتطرف كبير إلى درجة أنهم ادعوا بإلوهية أبو جعفر المنصور ويبدو أنهم فكرياً ينتمون إلى مدرسة (العلي إلهية) وهذا واضح من سلوكهم وكما حارب الإمام علي كرم اللـه وجهه فكرة تأليهه ولا عجب فهو المؤمن الورع المشهود له بالرسوخ في العقيدة والقوة بالتمسك

بأهداف الشريعة وهو فقيهها وقاضيها ومفتيها فكذا فعل أبو جعفر المنصور حين حارب الراوندية ولم يكن بمنزلة الإيمان من الإمام ولكنه أنكر على الراوندية ادعائهم.

لم يرعوي الراوندية بالتوجيه فقط وإنما استمروا بغيِّهم حيث كانوا يحضرون إلى قصر المنصور ويطوفون حوله جماعات جماعات مما أشعر أبو جعفر (وهو أصلاً صاحب الهاجس الأمني والحذر جداً من مثل هذه الأمور) بأنهم يريدون الفرصة السانحة للانقضاض عليه وقتله.

ولدى خروجه إليهم عصر يوم على صهوة فرسه ونهره إياهم لعقائدهم الفاسدة (لخوفه من اللـه وحرصه على عقيدة التوحيد وهم يقولون أيضاً بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك ويقولون عند طوافهم بقصر المنصور إن هذا قصر ربنا)[1] وهو الذي كان يظن بأنهم من أنصار بني العباس وعلى درجة من الإخلاص لهم في بادئ الأمر إلاّ أنه لما رأى منهم الكفر كره منهم ذلك ولم يرضى عنهم ثم بدأت شكوكه بنواياهم البعيدة وغير الظاهرة في ادعاءاتهم الأولية من تأييد حكم بني العباس.

وممن وصف هذه الفتنة بالثورة هو الطبري حيث يقول[2]: (ثارت الراوندية بأبي جعفر في مدينته التي تسمى الهاشمية وهي حيال مدينة ابن هبيرة كره سكناها لاضطراب من اضطرب أمره على الراوندية).

ولا أرى موضوع كره أبو جعفر السكن في هاشمية الكوفة نابع من فتنة الراوندية ولو أنه كان السبب الأساس لكان انتهى عند القضاء على الفتنة. ولكنه من الواضح أن

---

(1) - الطبري – 147/6.
(2) - الطبري – 234/6.

هناك أسباب أخرى كما سنرى في موضع قادم عن العوامل التي دفعت المنصور إلى هذا القرار والمواصفات المطلوبة للموقع الجديد. كل هذا رغم أن الموضوع لم يكن هيناً حيث انتقلت الثورة إلى قصره وعند خروجه أصيب بجرح في كتفه وكان الموت يحدق به خلالها والسيوف مشهرة تطلب رأسه بعد أن أنكر عليهم دعواهم وكانت كما يروي البلاذري واليعقوبي والطبري بداية لسلسلة من الثورات ضد الحكم العباسي لإرهاقه وإضعافه لكنهُ بحسه الأمني وخبرته المتراكمة أدرك الأهداف البعيدة من هذه التحركات وكان هذا الحس تعزيزاً لتقدير الموقف العسكري في الأوضاع الجيدة ومع مجموعة الأفكار والأحلام المختلفة لبناء عاصمة جديدة تسمى باسمه وباسم الحكم العباسي وكذا كان.

ونعم فإن أبا جعفر كان متسرعاً ومجازفاً في بعض قراراته كما يقول هو نفسه[1] ولكن قراره بترك الكوفة والتحول إلى أواسط بلاد ما بين النهرين بالقرب من قرية بغداد كان حكيماً للمعطيات السابقة إذ ليس من المعقولية في شيء أنه يتخذ مثل هذا القرار الكبير لسبب ثورة قامت عليه وتمكن من القضاء عليها ولكنه وهو الذي خبر الرجال أيام سرية الدعوة في خراسان وكانوا من كل الأجناس والقوميات والألوان ناقش في نفسه مجموعة من العوامل المفاعلة وكانت له نظرة ذات أفق بعيد عن مستقبل هذه الدولة وهي لعظمتها تستأهل استحداث مدينة ومقر حكم يحمل اسم العباسيين دون غيرهم ولم يترك كما سنرى عاملاً إلاّ وناقشه وسأل عنه أهل الخبرة إلى أن اتخذ قراره الأخير بعد قراره الأولي بانتخاب أواسط العراق مكاناً لهذه المدينة العاصمة وليس لعامل واحد يقول علي ظريف الأعظمي[2] ما نصه: (لا صحة لما قيل

---

[1] - الطبري – 149/6.

يقول أبو جعفر المنصور فيما نقله الطبري (لقد أخطأت ثلاث خطيات وقاني اللـه شرها، قتلت أبا مسلم وأنا في خرق ومن حولي يقدم طاعته ويثرها ولو هتكت الخرق لذهبت ضياعاً وخرجت يوم الراوندية ولو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً. وخرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ضياعاً).

[2] - علي ظريف الأعظمي – مختصر تاريخ بغداد – الصفحات 655.

من أن المنصور كره الهاشمية لقربها من الكوفة التي كانت حينذاك مركز الفتن وأنه كرهها منذ ثارت عليه جماعة الراوندية سنة 141 هجرية. أو أنه كان خائفاً من أشياع أبو مسلم الخراساني الذي قتله في ساباط فبنى بغداد وحصنها وغاية ما هناك أنه بناها لأهمية موقعها من جهة إدارة الملك ولا يخفى ما في ذلك من عظم الغاية بتدبير أمر الدولة). انتهى نص ابن ظريف الأعظمي وأنا من خلال مراجعتي مجموعة كبيرة من المراجع لا أرى أن شخصية المنصور القوية والحاسمة للأمور إلى درجة التسرع أحياناً يمكن أن تكون بهذا الوهن الذي تقرر معه بناء مدينة وتغيير عاصمة وبذل مثل هذا الجهد والمال والوقت لو كان مقتنعاً بجودة موقعها (الكوفة) من الناحية العسكرية في ظل تغير ظرف التهديد من المشرق الفارسي في عهد الفاروق إلى المغرب الأموي في عهد أبو جعفر إضافة إلى عوامل أخرى.

وعليه فيمكن إجمال مثالب الكوفة وهاشميتها وكما يلي:

أولاً: عدم تأمين الحماية الكافية تجاه أي جيش متقدم من الشرق أو الغرب وعلى السواء.

ثانياً: سكان المنطقة مشكوك بولائهم للبيت العباسي وخلافته وأغلبهم مؤيد للعلويين والبعض الآخر أصحاب فتن مختلفة لا تساعد على استقرار العاصمة.

ثالثاً: البيئة المحيطة بالمدينة لا تقدم إلاّ تسهيلات محدودة جداً للمدافع ولا تؤمن عرقلة كافية للعدو المهاجم ولا تحدد حركته وتحدد قدرته على المناورة.

رابعاً : المنطقة ليست من النقاوة الصحية كما كان يعتقد سابقاً حيث توفي السفاح بمرضٍ من الأمراض المعدية.

ويمكن القول بأن هذه المواصفات لا تؤمن طموح المنصور فيما يجب أن تكون عليه عاصمة ملكه واجبة البناء.

الفصل الثالث

* نقل عاصمة الملك العباسي حديث التأسيس.

* الصفات والمزايا المطلوبة في الموقع الجديد.

* استطلاع الخليفة ابو جعفر المنصور الشخصي وأراء أهل الخبرة والدهاقنة في المنطقة.

* القرار على الموقع الجديد وسط بلاد الرافدين قرب قرية بغداد التاريخية.

نقل عاصمة الملك العباسي حديث التأسيس

بعد ما سبق وأن رأينا مما واجه الدولة الجديدة من إشكالات فقد قرر الخليفة المنصور بناء مدينة جديدة لاتخاذها عاصمة للملك العباسي تأخذ بنظر الاعتبار كل الظروف والعوامل العسكرية والأمنية والسكانية والتجارية والاقتصادية والصحية ولا تحبذ أفكار المنصور ترميم المدن القديمة وإنما أراد بناءاً جديداً يتحكم في تصميمه وينشئ دفاعاته كما يفكر في إدارة معاركه ووفق معطيات خبرته وقدرات جيشه وتدريبه وإمكانات أسلحته وتجهيزاته.

ويبدو أن الخليفة المنصور لم يشأ إطلاع معيته وأعوانه على هذه الأفكار (حيث لم ترد في الأخبار الواصلة إلينا من المصادر والمراجع ما يشير إلى أنه تكلم عن هذا الأمر ولو بالإشارة والتنويه). والراجح أنه أراد التدقيق شخصياً وبالزيارة الميدانية ليصل إلى القرار النهائي. صحيح أنه قرر أن يكون إقليم العراق هو اختياره وأن أواسط هذا الإقليم في منطقة اقتراب النهرين هي المكان الأفضل.

وقد كان المنصور مدركاً أن العراق الإقليم هو مركز العالم القديم مما كان يتداوله الجغرافيون القدماء ولا عجب فهو موسوعي بمعلوماته موسوعي بسلوكه وعلى هذا النمط والطراز ستكون الاختيارات والقرارات على هذا النحو في أغلب الأحوال. يقول الخطيب البغدادي في مؤلفه تاريخ بغداد)[1] إن الجغرافيين القدامى كانوا يوصفون العالم القديم (آسيا وأوربا وأفريقيا) (ولم تكن الأمريكيتين ولا أستراليا معروفة في

---

[1] - الخطيب – 22/1-23.

حينه) بأنه يتألف من سبعة أقاليم هي أقاليم بلاد الهند/ والحجاز/ ومصر/ وبابل/ والروم/ والشام/ والترك/ والصين.

وهنا يكون الإقليم الرابع هو إقليم بابل فيه العراق ويقول الخطيب: (**وهو أوسط الأقاليم وأعمرها وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا**).

ويقول أيضاً في وصف حدود هذا الإقليم كما عرف سابقاً: (**وحد هذا الإقليم مما يلي أرض الجاز وأرض نجد الثعلبية من طريق مكة وحده مما يلي الشام وراء مدينة نصيبين من ديار ربيعة بثلاثة عشر فرسخاً، وحده مما يلي أراضي خراسان وراء نهر بلخ وحده مما يلي الهند خلف الدبيل بستة فراسخ وبغداد هي وسط هذا الإقليم**). انتهى وصف الخطيب البغدادي لإقليم بابل.

إذن كان في اختيار المنصور الأولي لإقليم العراق مركزاً لحكمه ولعاصمته الجديدة كل الحكمة والعقل المستند على خبرات ومعلومات الأولين وعلوم أهل العلم من الجغرافيين وعلماء أجناس البشر (الأنثروبولوجي) ولو أنها في وقتها كانت محدودة ككل العلوم وحيث يضيف الخطيب (**فالإقليم الرابع والذي فيه العراق وفي العراق، بغداد، هو صفوة الأرض ووسطها لا يلحق فيه عيب سرق ولا تقصير. قالوا ولذلك اعتدلت ألوان أهله واحتدت أجسامهم وسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان، ومن غلظة الترك، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشاكل خلقهم، فسلموا من ذلك كله، واجتمعت في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار بلطفٍ من العزيز القهار، وكما اعتدلوا في الخلقة كذلك اطفوا من الفطنة التمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور، وهم أهل العراق ومن جاورهم وشاكلهم**).
وهذه الأوصاف وسواها هي ناتج طبيعي لدارس أوضاع أهل الأرض في تواريخها الأولى ففي هذه البقعة من الأرض نشأ الإنسان

الأول وفيها تطورت حياته البدائية فاكتشف وابتكر ما هو معروف من الأدوات والوسائل البدائية وطورها. وفيها انتهج البشر نهج مجتمعاتهم البدائية وتطوروا منها إلى مستوى المدينة ودويلاتها ثم الإمبراطوريات والممالك وما اكتشافاته الأولى في الحرف والكتابة وسن القانون والأساطير والملاحم إلاّ دليل عظمة إنسان هذا الإقليم الوسط وجاءت عقيدة التوحيد في أرضه بعد الطوفان وملاحمه وسلسلة الأنبياء حتّى آخر الرسائل.

ولقد لاحظت ميلاً كبيراً لحالة مفكري الغرب عموماً لهذه الفكرة والتصنيف والتوصيف حيث يقول الرحالة الإنكليزي آرنولد توينبي في كتابه المعنون (بين آمو-داريا وجمنا)[1] وهو الصادر ضمن (مجموع من الشرق والغرب) والذي ترجمه إلى العربية حسين الحوت عن رحلته الشهيرة عام 1960م إلى أفغانستان ما نصه: (يدور على ألسنة الأوربيين مثل يقول: ((كل الطرق تؤدي إلى روما)) وهذا قول يبدو أنه صحيح من وجهة النظر الأوربية، ولكن أوربا ليست إلاّ تخماً من تخوم العالم القديم. والأوضاع المتضاربة تؤدي إلى وجهات نظر متعارضة. ضع نفسك لا في أوربا ولكن في العراق، ((والعراق هو مركز المعمورة)) طبقاً لمنطق التاريخ من هذا الوضع المركزي تجد أن طرق العالم القديم تتخذ لوناً جديداً، ويصبح واضحاً أمامنا أن نصف طرق العالم تؤدي إلى صليب لا إلى روما وأن النصف الآخر تؤدي إلى (بجرام) عند السفح الجنوبي لجبال هندكوش الوسطى حيث تتلاقى ثلاث طرق رئيسية). ثم يتطرق نفس المؤلف إلى موضوع نشأة الحضارة وتطورها في هذه البقعة من العالم فيقول: (ويبدو أن مدنية العالم القديم ظهرت في العراق قبل حوالي 5000 سنة ثم انتشرت من العراق شرقاً وغرباً). وهذا وعلى قدر تعلق الموضوع بهدف مؤلفنا إن دل على شيء فإنما يدل على الفكر الواعي المتتبع للخليفة المنصور حيث كان الاختيار منصباً

[1] - وهي أنهار تقع شمال وجنوب شرق أفغانستان.

على إقليم العراق، والذي أريد التركيز عليه هنا هو الانتخاب العام لإقليم سبق لأهل الفكر والمعرفة تقييمه بأنه مركز العالم القديم وملتقى طرق مواصلاته وتجارته وهدف غزاته حيث لم يكتمل للإسكندر المقدوني ملكه إلاّ باحتلال العراق وأفغانستان ولم تكتمل للعرب المسلمين إمبراطوريتهم إلاّ باحتلال العراق وأفغانستان وكذا كان بالنسبة للمغول. وما أشبه اليوم بالبارحة.

وليس صحيحاً أن العباسيين عادوا إلى العراق بسبب كونه موئل وعاصمة الإمام علي كرم اللـه وجهه ولكنهم كما يظهر كانوا على دراية تامة بمواصفات المكان وما فيها من ميزات ومساوئ وزنوها فوجدوها مرجحة لكفة الاختيار للسكن والدفاع ولإدارة هذا الملك الكبير.

وما كانت المشاكل الجديدة القديمة في الكوفة إلاّ عاملاً إضافياً حفز المنصور على سرعة البدء بالعمل لتغيير العاصمة ونقلها والخروج من دوامة الحساب للجهد المطلوب لإنجازها والوقت اللازم للتنفيذ والكلفة العالية لمثل هذا المشروع الضخم وكان القرار العام وبدأ دور التحري والاستطلاع الخاص لتحديد الموقع وتصميم المدينة وفق المعطيات السابقة وبأفضل صورة تحقق الأهداف المتوخاة وأهمها العسكرية الدفاعية.

الصفات والمزايا المطلوبة في الموقع الجديد

بعد القرار العام المتخذ من قبل الخليفة المنصور لاتخاذ إقليم العراق الوسط مركزاً يجري فيه الاستطلاع لموقع المدينة العتيدة المطلوب إنشاءها لتكون عاصمة لملك بني العباس ودولتهم الجديدة بعد أن شاع أمرهم وذاع صيتهم في أرجاء أقطار المسلمين، كان على المنصور أن يتوقف قليلاً ليضع شروطاً وصفات لموقع المدينة حتّى يجري الاستطلاع على أساسها ولكي لا تترك شاردة ولا واردة إلاّ ويجري تدقيقها والتحري عنها فالموضوع كبير جداً ومكلف ليس للمال فقط وإنما للوقت والجهد الثمين لترسيخ أركان الدولة الجديدة في تلك الأوقات القلقة والعصيبة من عهد المنصور وقد كان حيث تدل الوقائع وما وصلنا من المراجع والمصادر أن الدراسة شملت كل الجوانب ذات العلاقة ببيئة ملائمة لمدينة تصلح عاصمة كبرى لأمة المسلمين بعد استقرار الأمور وصيرورة الملك إلى بني العباس بدون منازع ذي قدرة تؤهله لمنافستهم الملك والسلطان حيث اضمحلت كل تلك الحركات المناوئة ولو أن نيران فتنتها بقت خامدة إلاّ أنها سكنت تحت الرماد.

ومن استقراء أقوال المؤرخين حول الصفات المطلوب مراعاتها عند اختيار الموقع الجديد والتي أخذها المنصور فيها عند استطلاعه الشخصي الشهير هي:

أولاً: العوامل السياسية:

كان العامل السياسي من أول العوامل المطلوب تحريها وتوفرها في موقع العاصمة الجديد وقد كان الصراع السابق لهذا الزمن مع الدولة الأموية يتميز بأوضاع تأييد سكانية وبارزة لكل من أهل العراق وأهل الشام لهذا الطرف أو ذاك مع حياد أهل

المغرب ومصر والحجاز وجنوب الجزيرة مما وجه أنظار الحكام الجدد إلى موطنهم، فهم وإن كانوا أصلاً أهل الحجاز وعرب الجزيرة وتحديداً من قريش ومقامهم الذي أجبره عليهم الأمويين أعداءهم هو الحميمة في الأردن الحالية وأن دعوتهم وحركتهم السرية كانت في أقصى المشرق في خراسان إلاّ أن أعينهم ظلت طيلة الوقت ترنوا إلى العراق مركز الخلافة الإسلامية قبل الأمويين حيث تم القضاء على أقوى الأعداء، دولة الفرس، ومنه انتشر الإسلام إلى المشرق وترسخت أموره ودولته ولم يبق له خطر كبير يهدد كيانه خاصة بعد أن تلاه ما في أخبار الروم في بلاد الشام ومعركتها اليرموك حيث القضاء على نفوذ الروم في المشرق. والحقيقة أن العامل السياسي يفرض على المنصور اختياراً محدوداً في إقليم العراق حيث لم يكن ممكناً إطلاقاً اختيار بلاد الشام حيث موطن بني أمية لثمانين عاماً أو تزيد وحيث مؤيديهم من أغلب السكان ولا للشمال الأفريقي لتطرفه وبعده عن مركز الإسلام وموطن الصحابة والرعيل الأول والثاني ولا لجنوب الجزيرة لنفس السبب ولا للأقاليم الأعجمية في الشمال والشرق لتطرفها أولاً ولخطورة ما تظهر فيها من حركات خارجة على الإسلام وعلى الدولة كما أنه في كل هذه الأقاليم جماعات من النّاس لا تؤيد حكمهم وليس من الحكمة السكن وسطها فهي سبق لها المعارضة لهم في أوقات سابقة وعليه فإن الاختيار كان مناسباً تماماً ومتوافقاً مع العامل السياسي وهو عامل مهم جداً.

ثانياً: **العوامل العسكرية الدفاعية**

مما لاشك فيه بعد العرض السابق لأحداث القضاء على دولة بني أمية ونجاح ثورة بني العباس وانتقالها إلى العراق في الكوفة وقضاءها على جيش بني أمية الرئيسي في معركة الزاب (شمال العراق) وما أعقب ذلك وبعد اتخاذ الكوفة والأنبار وهاشميتهم عاصمة لهم من أحداث في خروج محمد ذو النفس الزكية وأخاه إبراهيم على الحكم العباسي وكيف أنه كان محتملاً أن تنتهي دولة بني العباس وهي في أول أيامها في الحكم

ولو أنها انتهت في الكوفة بسرعة ثم ما تلاها من حركة الراوندية الخارجة على مبادئ الإسلام ولو أنها بداية كانت تدعوا إلى الانفراد لبني العباس بالحكم ولكنها خرجت عن الإسلام وعادت فهاجمت الخليفة وكادت سيوفها أن تنهيه. كل تلك الأمور أخذت تدق أجراس الخطر للحكم الجديد مما أوجب التفكير جدياً بموضوع ضرورة وجود المكان المحصن القلعة القابل للدفاع وتجنب الأماكن المفتوحة البسيطة التي كانت بداية تمثل سكن الخلافة ومقر حكمها وإدارتها لهذه الدولة الواسعة ويبدو ومن سير الأحداث أن الخليفة المنصور أخذ يفكر جدياً بهذا الأمر متطلعاً إلى قلعة محصنة محاطة بموانع تساعد جيشه على الدفاع وتسبب أكبر الصعوبات والعراقيل لعدوه سواء منهُ القادم من أي جهة من خارج المدينة أو الثائر من داخلها ومهما كان حجم قوته وعدد مؤيديه.

المعروف عن التحصين عند أسلحة المهندسين في الجيوش أنه عملية تتداخل فيها صفات الموقع الجغرافية وكذا على المحاور والطرق المؤدية إليه ومناطق التحشد التي تبدأ منها هذه المحاور مع الصفات الجيولوجية المكونة للموقع ومدى ملائمة تربته للتحوير أو لتأمين المواد الأولية لإنشاء دفاعاته ولحاجاتها الأخرى ولتأهيله كموقع دفاعي كبير حصين يمثل مكاناً حصناً محمياً يمكن القتال عند الدفاع عنه بأفضل صورة للمدافع يتحمل تطبيقاً مثالياً لخطة المدافعين الموضوعة سلفاً وإدارتها بأفضل صورة وكيفية تمكنه لتحقيق الغلبة والنصر.

وهنا في حالة تحديد متطلبات مثالية لمثل هذا الموقع وفي ذلك الزمان تتداخل المتطلبات تماماً وبشكل تبدو معه أنها متعارضة وهي كذلك فعلاً بما يوجب إجراء الموازنات الضرورية لها.

فالتحصين والدفاع عن الموقع يفرض على المصمم تقليل المساحة إلى أدنى حد ممكن مع مراعاة ساحات الرمي وأراضي القتال التي سماها أهل ذلك الزمان (الفصائل) بينما يفرض موضوع كون هذا الموقع عاصمة ومقراً للحكم سعة في مساحته تؤمن كل حاجات هذا الكيان في التوسع لتأمين حاجات دووواين الإدارة وسكن النّاس وتأمين حوائجهم إلى الأسواق والطرق والمرافق الأخرى التي تتطلبها الحياة الحضرية في مدينة كبيرة خاصة وأن طموح أبو جعفر كان بجعلها عاصمة الدنيا ومركز العلم والمعرفة فيه وكما حدث لاحقاً فعلاً.

معروف أيضاً عند مهندسي الجيوش أن المناعة في أي تحصين هي غير مطلقة وأن تعبير المناعة والمانع هي تعابير نسبية لا يقصد المعنى اللغوي المجرد لها وإنما هي معرقلات ومحددات تؤمن مجموعة من المتطلبات في صنع أكبر الصعوبات الممكنة للعدو وتحجم من حركته وقدرته على القتال والحركة والمناورة واستخدام أسلحته المختلفة بكفاءة وباتجاه إيقافه قبل الهدف أو عليه وصده وتدميره وإنهاء هجومه وإيقاع أكبر الخسائر بقواته لتحقيق مآرب وأهداف الدفاع.

وبالمقابل فالموانع تستهدف إيجاد أكبر قدر من التسهيلات لقطعات المدافعين عن الحصن والمكان في قدراتهم على استخدام أسلحتهم بكفاءة وباتجاه إيقاف العدو وحصره ومنعه من حرية الحركة والمناورة أو باتجاه تدميره بمهاجمة مواقعه ومطاردته واستثمار الفوز.

كما أن هناك نقطة أخرى في تصميم وهندسة هذه الدفاعات فهي تعطي المدافعين إن كانت كبيرة عالية حصينة ثقة كبرى بأنفسهم وبأسلحتهم وتؤدي إلى قوة كبرى في معنوياتهم وعزائمهم وهي ذات أهمية خاصة حيث تعتبر مبدأً أساساً في الحرب بدون أن تسقط الهمة ولا يتمكن المحاربين من القتال والاستمرار فيه مما يؤدي إلى خذلانهم

وخسارتهم منذ اللحظات الأولى للمعركة وأحياناً حتّى قبل الاشتباك والجيوش تولي هذه القضية أهمية خاصة وتتخذ جملة من الأسباب والأساليب لتأمين رصانة في معنويات جندها وثقة عالية لهم بدفاعاتهم وأسلحتهم وقياداتهم وكل ذلك يأتي من تصميم وشكل هذه الحصون والقلاع.

إن آلية العمل عند تصميم المهندسين لموانع قلعتهم توجب أن توضع الخطة أولاً ليتمكنوا من إعداد تصاميمهم باتجاه تحقيقها وإن ظهرت الصعوبات لسبب أو لآخر، وهي تحدث دوماً، فيجري التنسيق والتعديل لحين الوصول إلى أفضل حالات الدفاع.

ولم يكن المنصور خالي الذهن من كل هذه الاعتبارات كما يبدو حيث المستوى المتقدم لقيادته وقد جرى التحري فعلاً عن كل هذه الأمور وجرت مناقشات واستشارات مختلفة واستطلاع ميداني طويل كما سنرى لاحقاً الى ان توصل الى الشكل المناسب والتصميم المناسب المعقول والمراعي لقدرات جيشه وحاجات عاصمته وأفضل إمكانية للقيادة بشكل متسلسل وناجح في إدارة هذا الدفاع مع الأخذ بنظر الاعتبار تحديدات قوة العمل وكفاءتها والوقت والمال اللازمين لإنجازها في ظل ظروف الدولة الجديدة حديثة الإنشاء واسعة الأرجاء متعددة السكان والأجناس وبكل ما تتطلبه هذه العوامل من اقتصاد في الإنفاق وإسراع في الوقت مع تأمين الراحة اللازمة للعاملين بكل مستوياتهم التصميمية والتنفيذية والعمالة البسيطة.

ومعلوم أيضاً لكل مهندسي الجيوش وغيرهم أن أي عمل هندسي مهما كانت ضخامته وبلغت كلفته يمكن إنجازه بتوفر فرص الجهد المطلوب وهو هندسي تصميمي وفني وعمالة ماهرة وعمالة اعتيادية وفرص المال اللازم والمطلوب إنفاقه على كل مفاصل العمل والوقت بتحدياته المختلفة وفرص المواد الأولية وجهد الإمكان في الموقع أو قربهُ مع تيسر وسائل النقل اللازمة لهذه المواد الأساسية في الإنشاء ومنها

الصخور والطين والمواد اللاصقة والأبواب من الخشب والحديد والمهمة جداً لإكمال مثل هذه المنشآت وتيسر الصناع وأرباب الحرف اللازمين لإنجازها وتثبيتها على أفضل وجه يخدم أهداف إنشاء هذه التحصينات ويزيد من قوتها ومناعتها.

وقد كانت للعرب كما أسلفنا عموماً ولأهل العراق خصوصاً ومنذ زمن الآشوريين والبابليين مهارات خاصة في تصميم وإنشاء مثل هذه التحصينات المعروفة لدى الآثاريين في بقايا مدن وقلاع أهل العراق.

وقد استند أبو جعفر إلى هذه القاعدة عند التنفيذ كما سنرى ولكنه هنا كان دارساً لهذه المعطيات بهدف القرار الرصين القابل للتنفيذ.

وقد برز جلياً هاجس الأمن والدفاع وعامل العسكرة في تحصينات المدينة وأسوارها وخندقها وطاقاتها وأبوابها وأبراجها على المنصور عند الاستطلاع بعدما واجهه في الكوفة والهاشمية تعاملاً مع طموحه الأساس وأستطيع القول أن هذا الهاجس كان أساساً في فكر المنصور عند الاستطلاع الشخصي وقبله وقد أجمع المؤرخون القدماء والجدد على هذا الرأي وإن كان هناك منهم من أضاف عوامل أخرى تأخذ دورها المتقدم من الأهمية والأولوية.

ولم تكن الأمور مقتصرة على ذلك فقد كان همه ومستشاريه إيجاد مكان يقدم التسهيلات من حيث وجود الموانع الطبيعية بأفضل شكل إضافة إلى ما سينشأ من موانع اصطناعية بالحفر وبالبناء. حيث تتحدد حركة المهاجمين ويفقدوا القدرة على المناورة وحرية الحركة.

وقد ركزت على هذا العامل لعلاقته المباشرة بموضوع البحث أولاً حيث أن التحصينات والموانع هي أساس فكرة الأسوار والخنادق المائية حولها وهي التي كانت الباعث الأساس لأبي جعفر في تصميم وبناء مدينة جديدة حصينة تكون موئلاً

لعاصمة ملكه ويمكنه ولمن بعده من الدفاع عنها بكفاءة بسبب أساس من تحصينها ومناعة أسوارها وخنادقها وأبوابها كما سنرى.

ثالثاً: العوامل البشرية السكانية

ليس لعاصمة ملك في أي من الدول أن تزدهر وتنمو إلى المستوى المطلوب في طموح القيادة العباسية بدون مجموعات من السكان ذوي الثقافات المتوسطة على الأقل والحاوية أيضاً في ذلك الزمان على مهارات حرفية أساسية للحياة المدنية النامية وبكثافات معتدلة تؤمن حاجات المجتمع وقد وضع المنصور ذلك نصب عينه كهدف أساسي أيضاً لاختيار منطقة العاصمة وكانت منطقة أواسط العراق ملائمة من هذه الناحية حيث تكثر فيها التجمعات السكانية على شكل قرى زراعية وتجارية ولعل العمق التاريخي لها كان أساساً في وجود هذه القرى إذ يعود تاريخها إلى أكثر من 2500 سنة قبل الميلاد وسبق أن تواجدت فيها عواصم حضارات قديمة كثر كما سبق التنويه.

رابعاً:_العوامل الإنتاجية الزراعية والحيوانية

كانت مجتمعات تلك العصور تعتمد أساساً على الإنتاج الزراعي كأساس لاقتصادياتها حيث تؤمن الحاجات الأساسية للسكان المحليين إضافة إلى التصدير ومعلوم أن أرض بلاد وادي الرافدين هي أرض رسوبية صالحة للزراعة منذ الأزل كما تروي الكتب السماوية وتواريخ الحضارات القديمة التي عاشت على أرض الوادي الغني بمياهه حيث حباه الله بالنهرين العظيمين وروافدهما مما جعل الحياة الزراعية أساساً لحياة سكان الوادي خاصة وأن تربه وأجواءه تساعد على إنتاج متنوع متعدد المواسم غني بإنتاجه مع كل ما يترتب على القدرة الزراعية من قدرة كبرى على الإنتاج الحيواني المعتمد أصلاً على الإنتاج الزراعي، وأن هذا التكامل في الإنتاجين على

هذه الأرض جعل لأهلها اكتفاءً ذاتياً ومنذ كان المنصور في هاشمية الأنبار والكوفة كان ينظر بجدية إلى قدرة هذه الأرض على الإنتاج وغناها ولزوم ذلك للمنطقة المطلوب اختيارها حيث كانت الأنبار في حقبة الحكم الفارسي نموذجاً زراعياً متميزاً وكانت أيام الفرس تعتبر مستودعهم الزراعي الرئيسي مما لفت أنظار المنصور إلى العامل قبل استطلاعه الشهير.

خامساً: **العوامل الإنتاجية الصناعية**

ولو أن الصناعات في تلك العصور كانت بدائية محدودة وتأخذ أشكال حرفية بمهارات فردية تتوارثها عوائل معينة إلاّ أنها كانت لازمة في أي مجتمع حضري وعلى البقع المتقدمة نسبياً في حضارتها وطموح المنصور وأعوانه ومستشاريه الكبير كما تورد الأخبار، يوجب التفتيش عن مثل هذه الإمكانات وقد كانت متركزة في المجاميع الحضرية المدنية في إقليم العراق وخاصة في وسطه حيث كانت هناك مهارات وحرف موروثة قدمها قدم مدن وعواصم الوسط.

سادساً: **العوامل التجارية**

وبقدر ما كانت الزراعة والصناعات الحرفية لازمة في الموقع المطلوب كانت التجارة وخاصة الدولية منها حيث كان المتتبع لأخبار إقليم العراق يعرف أن خطوط التجارة العالمية كانت تمر منه رابطةً الشرق الآسيوي بالغرب الروماني والجنوب البحري بالشمال صاحب طريق الحرير المشهور والعرب أصلاً كانوا من الأقوام التجارية كما هو معلوم والتجارة الحرة أساس حياتهم ومعاشهم في الجزيرة ومعلومة رحلة الشتاء والصيف إلى الشام واليمن من أواسط الجزيرة ولذا فقد كان بنو العباس ومنهم أبو جعفر من المهتمين المدركين للموضوع فكيف وهم يطمحون لقيادة الأمم والشعوب حيث تكون التجارة العالمية لازمة لحياة دولتهم الفتية ولا يمكن لها أن تحيا الحياة

الرغيدة بدون الفعاليات التجارية ولذا فقد كان لزاماً على المنصور ومستشاريه وأعوانه أن يجدوا مكاناً مساعداً على النمو التجاري قريباً من طرق التجارة الدولية أو عليها ولما كان معروفاً من طرق للقوافل أو الطرق البحرية.

ولقد عرفت الخارطة التجارية للطرق الرئيسية المارة بمراكز التجارة العالمية إقليم العراق كمركز رئيس رابط لأقاليم الشرق بسواحل المتوسط بثلاث طرق رئيسية شمالي يمر بمنطقة الموصل ووسطي يمر بمنطقة بغداد وجنوبي يمر بالبصرة ترتبط طرق الشمال بطريق الحرير الشهير كما وترتبط طرق الجنوب بإقليم الشرق الآسيوي والهند عن طريق البحر أيضاً عبر موانئ الخليج وكانت كل موانئ البحر المتوسط الشرقية تؤدي إلى إقليم العراق[1] وهي كل موانئ التجارة في العالم أو أكثرها نشاطاً وازدهاراً على أقل تقدير. وكانت المدن العراقية المعروفة على خطوط التجارة هذه من أكثر المدن نشاطاً وتحوي كل التسهيلات المعروفة يومها من أماكن سكن القوافل وراحتها وأماكن تزودها بالمؤونة وكانت تعرف باسم (الخانات) كما كانت تعج بأسواق العرض للسلع وعلى أي حال فيبدو أن المنصور والعرب عموماً قبله كانوا على إدراك تام بأهمية النشاط التجاري علاوة على العوامل الأخرى المعروفة ولذا فقد كانت اختياراتهم لمدنهم ويبدو واضحاً اهتمام المنصور من قول صاحب قرية بغداد ما نصه: (وأنت يا أمير المؤمنين على الصارة تجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط من دجلة وتجيئك المياه من أرمينية وما تصل بها من تامرة حتّى تصب إلى الزاب وتجيئك المياه من الروم وأمد والجزيرة والموصل في دجلة)[2] إن هذا لم يكن ليطرح على المنصور في هذا الوقت لو لم يكن موضوعاً لمناقشة بدأت بسؤال للمنصور أو لأحد أعوانه أو مستشاريه المرافقين في رحلة الاستطلاع الشهيرة والتي سنتناولها في موضع آخر تفصيلاً. وعلى كل الأحوال

---

(1) - خالص الأشعب – حضارة العراق – الجزء الخامس – الصفحة 180.

(2) - الطبري – 236/6.

فقد كان معروفاً في مفاهيم ذلك الزمان وقبله ما للتجارة من أهمية قصوى في حياة البشر وخاصة في المدن الكبيرة حيث الكثافة السكانية العالية وما يتطلبه عامل النمو المطلوب في عاصمة الدولة من نشاط تجاري وبحسب مكانة هذه الدولة فهو مطلوب بكل الاتجاهات وبكل أنواع النشاط التجاري.

سابعاً: **العوامل البيئية والصحية والمناخية**

لقد كان لتحري المنصور عن مكان يؤمن له ولجنده ولشعبه خاصتهم وعامتهم ظرفاً مناخياً سليماً وبيئة حسنة وجواً صحياً نظيفاً خالياً من الأوبئة والأمراض أهمية كبرى في نفسه ويدل على ذلك ما ورد في الأخبار عند تذمره من الذباب والناموس في بيئة الأنبار وهاشمية الكوفة خاصة وأن أخاه السفاح كان قد قضى بعد أصابتهِ بوباء ومرض عضال مما يؤكد أن البيئة التي تركها المنصور وقرر على اختيار غيرها لم تكن بيئة صحية.

والعرب عموماً كانوا ممن يولي العامل الصحي أهميته الكبرى فسعد ابن أبي وقاص ترك الأنبار لكثرة أمراضها وأوبئتها وكان اختياره لمنطقة (خد العذراء) على ظهر الكوفة لسبب صحي مناخي إضافة إلى الأسباب الأخرى وكذا كان الحجاج عند اختياره موضع واسط حيث أوفد عدداً من الأطباء ليستنير برأيهم عن الموضع المنتخب للمدينة قبل المباشرة بالبناء[1].

ومن البديهي والحال هذا أن يكون لأبي جعفر اهتمامه الكبير بعامل البيئة والصحة وهو الذي خبر التنقل لوحده أو مع جنده في الحميمة والحجاز وخراسان والعراق ورأى كيف أن هذا العامل إن أهمل فسيكون الهلاك المحتم له ولمعيته وحتى وإن لم يكن كذلك فهو سبب سيؤدي إلى ترك المدينة من قبل أغلب سكانها ولا يستقطب إليها عناصر جديدة.

---

[1] - ياقوت الحموي – معجم البلدان – 883/4.

استطلاع الخليفة أبو جعفر المنصور الشخصي وآراء أهل الخبرة والدهاقنة في المنطقة

بعد كل ما سبق من كره المنصور لسكن الكوفة وهاشميتها وخاصة منه ما هدد دولته وحياته فقد قرر المنصور بشكل نهائي وحاسم تبديل العاصمة ومقر الحكم ونظراً لعدم وجود مدينة مؤهلة تلبي شروطه المختلفة والتي وضعها بناءاً على دراسة مستفيضة وتجارب مرة مرت عليه خلال أيام حكم أخيه أبا العباس السفاح أو خلال توليه الخلافة هو. وكانت هذه المطاليب والشروط سبعة وهي لازمة فعلاً للمدينة العاصمة لأكبر دولة في العالم المعروف يومها مكانةً وهيبةً ومساحةً وسكاناً.

ويبدو أن هذا الأمر لم يكن من بنات أفكار المنصور وحده لأن الأخبار المنقولة إلينا تشير في أحد المصادر وهو المقدسي[1] إلاّ أن السفاح أبو العباس هو الذي بنى مدينة (بغداد) كذا الرواية وهي غير قابلة للتصديق لأن بغداد أصلاً كانت موجودة منذ عهد الكيشيين، وفيها كما أسلفنا مما ثبت وجوده خلال التنقيبات الأثرية آثار بابلية أيضاً في جانب الكرخ من بغداد وإلى جنوب مدينة دار السلام المدورة إضافة إلى ما أورده كل المؤرخين القدامى في مدوناتهم من أن المنصور هو الذي صمم المدينة المدورة ونفذ بناءها وسكنها.

وقد تكون رواية المقدسي هذه غير دقيقة وأنه لم يقصد إنشاء المدينة لأنها كما أسلفنا موجودة قبل عهد السفاح بآلاف السنين، أو أنها ليست عن بناء المدينة وإنما عن استحسانه لها موقعاً عند جولاته بأرجاء العراق فهي كما هو معروف مركز تجاري هام وفيها وفي محيطها من القرى الزراعية والأسواق التجارية مثل سوق الثلاثاء

---

[1] - المقدسي – أحسن التقاسيم – الصفحة 119.

الكثير الكثير وإليها تجيء السفن التجارية عبر دجلة والفرات وعن طريق أنهارها الفرعية مثل رفيل وإنليل محملة بأنواع الميرة والبضائع النادرة والواردة من الهند والشرق الآسيوي عن طريق ميناء البصرة والخليج أو من بلاد الشام وأرض الروم عن طريق الفرات.

وأن السفاح قد يكون ذكر المدينة والموقع مع خاصته متجنباً أن تكون عاصمته هنا في منطقة بغداد لميزاتها المعروفة ومن كل الجوانب وهي كثيرة ولكنه لم يقرر بشكل نهائي أو أنه قرر ولم يسعفه الوقت والظروف للتنفيذ وهو المؤسس الذي كان مشغولاً بآلاف القضايا التي تصيب البدايات الأولى لتشكيل أي دولة فكيف بها وهي هذه الإمبراطورية الممتدة من حدود الصين وحتى الأندلس وأمامهُ كل إشكالات الدولة القديمة (دولة بني أمية في الشام) وذيولها ولن يستقيم له أمر بدون حلها.

ولعل المنصور وإن كان استطلاعه واسعاً إلاّ أن المكان كان بذهنه ومن أحاديث السفاح ولكنه بحاجة إلى التدقيق والمقارنة مع الاحتمالات الأخرى. وبعد الأحداث الجسام في ثورة ذو النفس الزكية وثورة الراوندية في الكوفة وتنامي هاجسه الأمني قرر المنصور الإسراع في أمر تغيير العاصمة وبدأ بحملة إجراءات كما تروي الأخبار تزامنت مع الاستطلاع الشخصي.

حيث أوفد الكثير من الرسل لجمع البنائين والنجارين وأرباب الحرف الأخرى في سائر البلاد وإحصائهم تمهيداً للعمل الكبير.

وقبل انتقال أبو جعفر للتفتيش عن موقع العاصمة الجديد كانت له أفكاره الأولية والتي على ما يبدو طرحت منذ حياة أخيه السفاح كما سبق ذكره فإنّه أي المنصور أوفد من أعوانه وخاصته من كلفه بالتفتيش عن هذا الموقع وكان ذلك كما

أسلفنا بعد تحديده المتطلبات اللازمة كصفات أساسية للموقع المنشود[1] فاستحسنوا موضعاً قرب جبل حمرين حيث يقول الطبري ما نصه: (لما أراد أبو جعفر الانتقال من الهاشمية بعث رواداً يرتادون له موضعاً ينزله واسطاً رافقاً بالعامة والجند فنعت له موضع قريب من (بارما)[2] ولكنه أي المنصور عندما خرج إلى المكان نفسه حتّى يتأكد شخصياً من كل شيء وبات في الموقع مكرراً التدقيق واستحسن الموقع بادئ الأمر وحيث استحسنه مرافقيه أيضاً على ذكر الحموي وهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب الخوزي وعبد الملك بن حميد الكاتب وآخرون وقالوا للمنصور: (ما رأينا مثله هو طيب صالح موافق. وأصدقهم المنصور قائلاً: (هو هكذا)) ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات وإنما أريد موضعاً يرتفق النّاس به ويوافقهم مع موافقته لي ولا تعلوا عليهم فيه الأسعار ولا تشتد فيه المؤونة فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار وقلت المادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على النّاس وقد مررت في طريق على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وبائت فيه فإن اجتمع فيه ما أريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله للجند والناس أتيته[3].

إذن فإن المنصور استنار أولاً وقبل كل شيء بآراء أصحابه الذين أوفدهم للتدقيق والبحث ثم بدأ هو بجولة كبرى يذكر أنه بدأها من منطقة أسفل أواسط العراق حيث انحدر إلى منطقة (جرجاريا)[4] (ويقال أنها منطقة دير تاريخي قديم ومن أوائل الديارات في العراق) وقرب مدينة العزيزية الحالية ثم صعد متفحصاً منطقة المدائن

---

[1] - الطبري – 372/2.

[2] - ياقوت الحموي – معجم البلدان – 464/1، 463. (بارما – اسم جبل بين تكريت والموصل في منطقة الفتحة شمال شرق مدينة بيجي وهي المنطقة مرور دجلة في شق عبر جبال حمرين وبارما هو جزء من السلسلة المذكورة.

[3] - الطبري – 2346، 235.

[4] - ياقوت الحموي – معجم البلدان – 54/2 (وهي بلد من اعمال النهروان بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي لدجلة كما وصفها الحموي).

وبغداد وسامراء وتكريت وحتى وصل منطقة الجبل قرب الموصل وكان استطلاعاً دقيقاً حيث بات المنصور في مواقع مختلفة أراد التدقيق في مواصفاتها ومدى مطابقتها للشروط التي وضعها قبل الاستطلاع.

أورد الطبري مكملاً حديثه السابق عن المنصور أنه قال: (فخبر أنه أتى ناحية الجسر فعبر في قصر السلام ثم صلى العصر وكان في صيف وكان في موضع القصر بيعة قس ثم بات ليلاً حتّى أصبح فبات أطيب مبيت في الأرض أرفقهُ وأقام يومه فلم ير إلاّ ما يحب فقال: هذا موضع أبني فيه فإنّه بين الفرات ودجلة وجماعة من الأنهار ولا يحمل الجند والعامة إلاّ مثله فخطها)[1].

وكما سبق لنا القول فإن الموقع على ما يبدو كان أصلاً يدور في ذهن المنصور ولكنه أراد المشورة أولاً وهي أساس لمن كان مثله والتأكد شخصياً من مطابقة المواصفات لمتطلباته ودراسته للموضوع وقد تكون المواقع الأخرى سالفة الذكر ملائمة من نواحٍ ولكنها ليست كل الشروط ولذا كان امتناعه عنها وتركها إلى المكان الملائم أو الأكثر ملائمة.

إن المنصور كان يدرك تماماً أن إقليم العراق هو مركز العالم القديم وأن منطقة اقتراب النهرين دجلة والفرات في وسطه وهي منطقة بغداد هي سرة الإقليم وقلبهُ وكما كان مدركاً أن الأقوام السابقة حين أنشئوا عواصم ملكهم في هذه المنطقة في (أوبيس) عاصمة الأكديين، و(بابل) مقر حكم البابليين والميديين والإسكندر، و(المدائن وطيسفون) للفرس الساسانيين و(سلوقية) الإغريقية وكلها كانت عواصم إمبراطوريات كبيرة امتدت من الشرق إلى الغرب امتداد الدولة العربية الإسلامية أيام الخليفة المنصور بأكبر مساحة عرفتها الخلافة الإسلامية بعد تأسيس دولها.

---

[1] - الطبري – 234/6، 235.

هنا قرر المنصور تعزيز آراءه النابعة من استطلاعه، يأخذ آراء أهل المعرفة والخبرة من عيون المنطقة ووجوهها. فاستدعى بعد نزوله بدير في المنطقة وكان قرب موقع قصر الخلد الشهير، مجموعة من هذه الوجوه منها صاحب الدير الذي نزل فيه والبطريق صاحب رحا البطريق وصاحب بغداد القرية وصاحب المخرم وصاحب الدير المعروف ببستان القس وكذا صاحب العتيقة.

وكان إيجازاً رائعاً لكل ما هو مطلوب معرفته عن المنطقة ومواصفاتها ومن كافة الوجوه والصفات التي حددها المنصور مما يجب توفره ليكون المكان ملائماً وموافقاً لحاجات المدينة الكبيرة العاصمة المنشودة.

والواضح من استفسارات المنصور أنه كان مستهدفاً لجمع أكبر قدر ممكن من المواصفات التي سبق له وأن حددها في المكان المنشود حيث سال من استدعاهم عن بيئه المنطقة، حرها وبردها، بقها وهوامها، وحرها ومطرها، ثم أمر أعواناً له أن يبيت كل منهم في قرية من قرى المنطقة ويبدو أن القرى المنتخبة كانت في عموم منطقة اقتراب النهرين ولم أجد لها تحديداً دقيقاً إلاّ أن المأثور هو أنه بعد أن رجع أعوانه مما كلفهم به من المبيت في القرى والدساكر في المنطقة هو أنه شاورهم فيما جمعوه له من المعلومات وآرائهم فيها حصل الاتفاق على استدعاء صاحب قرية بغداد فتم استدعاءه وشاوره المنصور وحاوره مفصلاً عما أراد من أخبار المنطقة خاصة وأن قريته في المكان وهو المربعة المعروفة اليوم بمربعة أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي.

فكان جواب الدهقان: (يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وطيبها وما يختار منها فالذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج، في الجانب الغربي طسوجين وهما (قطربل) و(بادوريا) وفي الجانب الشرقي وهما نهر (بوق) و(الكلواذي) وهما

شرقي نهر دجلة وتقسيمهما إلى شمالي جنوبي مشابه لما كان عليه حالة قطربل وبادوريا في الجانب الغربي[1] وأن وصف دهقان بغداد هذا كان شاملاً لضفتين من النهر غربيها وشرقيها وبهدف إعطاء أوسع المجال لأحسن الاختيارات الممكنة وأردف الدهقان: (وأنت تكون بين نخل وقرب الماء فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته، كان في الطسوج الآخر العمارات، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات وتجيئك طرائف مصر والشام وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة وتجيئك الميرة من أرمينية[2] وما اتصل بها من تامرا وتجيئك الميرة من الروم وأمد والجزيرة والموصل في دجلة وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك، أنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلاّ احتاج العبور[3] وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد وأنت قريب من البر والبحر والجبل)[4]. هذا مع دهقان بغداد، ويروي ابن الطقطقي أن المنصور (أرسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وأمرهم بارتياد موضع فاختاروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور)[5] يقول الأستاذ الدكتور طاهر مظفر العميد معلقاً على ما أورده المؤرخون من دقة ورصانة استطلاع المنصور لإيجاد عاصمة له في مكان ملائم منسجم مع الحاجات الأساسية للدولة الإمبراطورية ما نصه: (يتضح لنا بصورة جلية أن الخليفة المنصور اهتم اهتماماً خاصاً في اختيار الموقع الذي سيقيم عليه مدينته المدورة ومن النصوص التاريخية تلك، أصبح معروفاً عن المسلمين منذ فجر الإسلام حتّى بناء بغداد، أنهم كانوا يتخذون مواضع مدنهم، ويتفحصون أمكنتها تفحصاً

---

(1) - ياقوت الحموي – المعجم – 762/1 و301/4.

(2) - كانت شبه جزيرة الأناضول عموماً تسمى أرمينية.

(3) - توصيف لطيف من دهقان بغداد ما يؤمن هدفاً أساسياً من أهداف المنصور في حُسن انتخاب بيئة ملائمة للدفاع والتحصينات والتي هي أساس الحاجة لتغيير العاصمة وانتخاب مكان جديد ملائم.

(4) - الطبري – 235/6.

(5) - ابن الطقطقي – الفخري – الصفحة 161.

طبوغرافياً، لذلك وضعوا شروطاً وقواعد لبناء المدن وتخطيطها)[1] ولطيف جداً وعلمي تماماً ما يناقشه الدكتور طاهر في هذا الموضع من آراء ابن خلدون في مقدمته لا مجال لي هنا في هذا البحث من الخوض فيها.

ويمكن هنا التأكيد مجدداً على أن الاختيار ووفق المنقول عن الرحلة الاستطلاعية والأسئلة والردود والشروح كلها توحي بأن الاختيار لم يكن عشوائياً مزاجياً وإنما هو اختيار مدروس ثبتت عناصره أساساً وجرى التحري عن كل منها بالرؤيا أو بالاستنارة بأهل الرأي ثم نوقشت هذه الإجابات وجرى القرار الرصين عليها.

وواضح أن العوامل الأساسية وعلى رأسها العوامل العسكرية الدفاعية كانت أساساً في القرار والتصميم والإنشاء كما سنرى لاحقاً.

ويمكن القول بأن تجربة اختيار وفيما بعد تصميم مدينة دار السلام المدورة كان نموذجاً رائعاً ليس للفكر الاسلامي العسكري الدفاعي فحسب بل للفكر المعماري أيضاً وهي ملاحظة حضارية مهمة في تاريخ الأمة الإسلامية أنكرها عليها بعض المستشرقين وأشاد بها وبحثها البعض الآخر منهم.

وقبل أن أنتقل من موضوع الاستطلاع أريد أن أفصل قليلاً مما أراه مهماً في وصف جغرافية منطقة وسط بلاد الرافدين وسبلها وأنهارها وهي المنطقة التي وقع الاختيار عليها من قبل المنصور لبناء عاصمته العتيدة.

تمر في هذه المنطقة مجموعة كبيرة من الأنهار الفرعية الصغيرة والكبيرة ترويها ومنذ العهود البابلية مما جعلها منطقة نماء زراعي بارز وبالتالي منطقة تجمع سكاني كبير (انظر الخارطة رقم 15 و16 و17).

---

[1] - طاهر مظفر العميد - تخطيط المدن الإسلامية - الصفحة 321.

وأهم أنهار المنطقة هو نهر (رفيل) وهو يتفرع من الضفة اليسرى للفرات جنوب مدينة الأنبار[1] ويسير باتجاه الجنوب الشرقي تقريباً ليصل إلى موقع (المحول)[2] وهو موقع سد على هذا النهر حيث يتفرع منه نهر الصراة[3] كما أن بلدة كبيرة نشأت في هذا المكان تسمى بلدة المحول الكبير[4] وأن التحويل في هذه المحولات لم يكن (كما يذكر مؤلفا خارطة بغداد) بتحويل السفن من نهر إلى نهر وإنما كان بتحويل البضائع من سفينة إلى أخرى عند المحول. وبلدة المحول كما ذكر عنها المؤرخين (بلدة طيبة السكن كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه وبينها وبين بغداد فرسخ) وكثير من الخلفاء العباسيين من اتخذ له قصراً قربها ومنها قصر المعتصم المسمى (قصر الكشك) في الجزء الأعلى من البلدة. وأثار هذه البلدة اليوم يمكن مشاهدتها على بعد حوالي الستة كيلومترات من جسر الخر عند مجموعة التلول وفي منطقة المضيق كما يطلق عليها وقد كانت مجموعة من الأنهار هذه تجعل من منطقة وسط العراق في ما بين النهرين الكبيرين نموذجاً رائعاً للمناعة والدفاع حيث يضطر المتقدم خلالها إلى إجراء العديد من عمليات العبور وقبل وصوله الهدف وحيث تتحدد قدرته على المناورة والالتفاف والإحاطة.

وقد كان رأي الدهقان الذي كانت قريته في المربعة المعروفة باسم مربعة أبي العباس الفضل بعد أن سأله المنصور وإجابته له بما سبق لنا النص عليها هو أن الموقع المنتخب الذي يسأل عنه المنصور هو موضع مثالي للدفاع ليس لوجود مانع أو أكثر

---

(1) - أبو الفداء – تقويم البلدان – الصفحة 52.

(2) - مصطفى جواد وأحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – الصفحة 73.

(3) - يبدو أن السد إضافة إلى هدفه الأساس في توجيه المياه إلى أي من الفرعين فعنده تقف السفن لتحول حمولاتها التجارية بصورة خاصة إلى سفن أخرى في الفروع وهذا يعني تيسر ساحات التكديس وغيرها من متطلبات وتحويل المياه يوحي بوجود بوابات للغلق والفتح.

(4) - حيث أن التسمية بإضافة الوصف (الكبير) تدل على وجود أكثر من بلدة بهذا الاسم مما يعني بالضرورة وجود أكثر من محول لتنظيم المياه على هذه الشبكة الواسعة في المنطقة والتي عززها العباسيون بعد سكنهم المدورة بإنشاء مجموعة أخرى من الأنهار لري المنطقة وتوسيع المزروعة منها.

فحسب وإنما لتعدد هذه الموانع وكثرتها حيث يكتسب الدفاع عمقاً كبيراً لا يتيح للعدو الوصول إلى أسوار المدينة وخندقها إلاّ بعد سلسلة من المعارك ستأخره وتوقع به الكثير من الخسائر وتربك صفوفه وتخل بخطته الهجومية وتضعف معنويات جنده قبل وصولهم إلى ساحة المعركة الرئيسية على الأسوار المصممة من قبل المدافعين حيث يجري حسم المعركه نهائيا وحيث المدافعين المرتاحين في مواضعهم المحمية والمدروءة وحولهم كل ما يؤمن أمورهم الإدارية وفيها قياداتهم التي سيساعدها هذا الموقف على رصانة التفكير وحسن إدارة الخطة الدفاعية بمراحلها المختلفة ومن أماكن مرتفعة تسيطر بالنظر على كل ساحة المعركة ابتداءً من قبل الخندق المائي المحيط وحتى دخول العدو منطقة الفصائل بين السور الخارجي والخندق وبين السورين حيث تبرز له قوة الاحتياط الرئيسية في منطقة ما يعرف بالتعبئة الحديثة (أرض القتل).

إن في هذا التخطيط الكثير من الوضوح في تصميم الأسوار والخندق كما سنرى لاحقاً.

كما أن العوامل الأخرى حيث لاحظنا آنفاً إشارة الدهاقنة وأهل الخبرة إلى أمرين أساسيين من الأمور المتعلقة بأفضليات وأوصاف موقع بغداد هما الجانب العسكري والجانب الاقتصادي التجاري وأما الجانب السكاني وأني ولو لم ألاحظ في المنقول عن ذلك الزمان إشارات واضحة جدية تتمثل في نصوص مكتوبة ولكن الموضوع واضح تماماً لأبي جعفر المنصور من المشاهدة الميدانية وبالتأكيد لأن الناظر إلى المنطقة سيرى بالتأكيد كثرة قراها ونماء عدد سكانها وخاصة وهي المنطقة الزراعية ذات الطساسيج الأربعة الكبيرة شرق وغرب نهر دجلة وحتى حافات الفرات في الغرب منبع أغلب أنهار المنطقة الغربية من بغداد.

أما الاعتبارات الصحية المناخية فتورد المصادر أخباراً كثيرة عنها تصب في عمومها باتجاه الوصف الطيب الصحي لهوائها ومناخها ومعلومة للقارئ الرواية المعروفة عن أن المنصور أمر بذبيحة وزع أجزاءها في المنطقة وانتظرها يوماً ليرى المتعفنة منها قبل بقية الأجزاء مما يعني طيب الهواء وصحة المناخ فيها.

بقت نقطة مهمة في المواصفات المثالية الجيدة للموقع المطلوب لإنشاء العاصمة المدينة وهي قابليتها على التوسع والامتداد وحسب الظرف السكاني والاقتصادي، فمن المعلوم أن عاصمة هكذا دولة وهي الأكبر بين دول العالم المعروف يومها لن تقتصر في مستقبل أيامها على العدد المحدود من السكان وإنما ستتوسع بالتأكيد بمن يفد عليها من الموظفين والجند والتجار والحرفيين ومن كل من له علاقة برصانة الوضع الاقتصادي ومكوناته البشرية، مما يتطلب من واضع خطط المدينة وتصاميمها أن يحسب حساب التوسع المحتمل فيها، ولدى دراسة الموقع مفصلاً وبالاتجاهات الأربعة نلاحظ إمكانية التوسع إلى القرى والطساسيج المجاورة حيث تتوفر كل المتطلبات الحياتية للبشر كما وترتبط هذه القرى والمناطق بطرق بالمركز حيث الموقع المنتخب وعلى ما أراه من توجهات للخليفة المنصور من خلال أسئلته المنقولة والواصلة عن طريق المؤرخين المشار إليهم وهذا بديهي حيث أن المنصور بنظرتهِ الموسوعية لم يكن ليترك مثل هذا الجانب المهم قبل أن يشبعه بحثاً ومناقشة وتحرياً واستطلاعاً.

ولقد كان المنصور بالتأكيد بين عاملين يناقض أحدهما الآخر وهما:

الأول: عامل الاستيعاب السكاني واحتمالات توسعه الكبرى في مثل هذه العاصمة الكبيرة وامتداده ليس بسبب النزوح المحتمل إليها فحسب بل بسبب التزايد السكاني وخاصة الكبير منه والذي يصاحب النمو الاقتصادي

والتجاري مما هو معلوم عن الرفاه ونتائجه من كثرة الإنجاب وزيادة عدد السكان مما يتطلب سعة كبرى في مساحة المنطقة المنتخبة.

والثاني: وهو عامل التحصين وإنشاء الأسوار والأبراج ومناطق القتال وهو يتطلب عدم التوسع في ذلك تلافياً للكلفة العالية والجهد الكبير والوقت الثمين الذي سينفق على مساحات واسعة سيكون حسم الدفاع والقتال عليها في مناطق محدودة منها وكل ذلك يتطلب تصغير مساحة المنطقة المنتخبة إلى أدنى حد ممكن وبدون الإخلال بالعوامل المهمة الأخرى.

ويبدو أن المنصور ناقش هذا الموضوع ليس مع نفسه وإنما مع مهندسيه عند بحث تصميم المدينة وخططها بحيث أنهم توصلوا إلى قصر عدد الساكنين في المدينة إلى الحد الأدنى وجعل المدينة المدورة أصلاً قلعة حصينة مستقلة بخدماتها عما حولها لا يبنى فيها إلاّ مقر الحكم وقصر الخليفة والمسجد الكبير[1] وسكن الخاصة وإيواء الجند وخزن سلاحهم وعتادهم ومناطق القتال المحتملة.

إن الناظر إلى تصميم المدينة المدوره يلاحظ بجلاء واضح جدا ان هذا العامل هو المهم في تصميم المدينه وخططها ويرى بأنه ناتج موازنة دقيقة بين العاملين.

إذن منذ كان القرار وبعد القرار الحاسم للمكان والموقع هو قرار حجم المدينة القلعة بما يتناسب مع عامل الدفاع والتحصين أساساً ووفق الخطة الدفاعية ومن ثم العوامل الأخرى الضرورية لحياة المدينة وبحسب أسبقيات أهميتها.

من المعروف للمتخصصين من قادة القوات المسلحة في الجيوش قديماً وحديثاً أساس خطة قتالية خاصة بها وباتجاه إعطاء الخطة الدفاعية أكبر الفرص للنجاح، إن هذا

---

[1] - كانت العادة عند المسلمين الأوائل والمتبعة بعد إنجاز الفتوحات وعند تمصير المدن هو اختبار موقع المسجد الرئيسي في مركز المدينة وانتشار المرافق الأخرى من إدارية إلى خدمية إلى تجارية وأسواق ثم دفاعية وتحصينات حولها وبكل الاتجاهات.

يعني إنك تضع خطة الدفاع التعبوية أو بأي مستوى آخر ليقوم المهندسون على أساسها لتصميم الدفاعات (في مفاهيم ذلك العصر الأسوار والخنادق المائية والجافة والموانع الأخرى من حسك[1] ومعرقلات وعلى أساس سير الأحداث المحتملة للمعركة وفق خطة الدفاع الموضوعة سلفاً). أي أن الخطة توضع أساساً لتأمين أهداف معلومة أساسية وثانوية ثم وعلى أساسها توضع الخطة الهندسية باتجاه تحقيق أهداف الخطة التعبوية بما تشمله من تفاصيل وتصاميم للموانع من خنادق وأسوار وأبراج وكل معرقل يؤخر ويعرقل ويوقع نسبة من الخسائر في صفوف العدو وانسجاماً مع الأسلحة والقوى الأخرى المتيسرة لدى المدافعين عن الحصن أو المكان وكذا كان في تخطيط المدورة دار السلام جوهرة الشرق وعاصمة الخلافة الإسلامية لقرون عدة وكما كان الموضع زاخراً بعواصم عدة لحضارات سالفة مما يؤكد حسن اختيار الموقع من قبل المنصور وقادته وأركان حكمه ومستشاريه المقربين. إن هذه الرحلة الاستطلاعية للخليفة المنصور وصحبهِ التي نزلت جنوباً وصعدت شمالاً وحتى منطقة الجبل وجرى خلالها التركيز على مناطق معينة والمبيت فيها والاستنارة بآراء أهل الخبرة من سكانها ودهاقنتها ورؤساء قراها وأصحاب أديرتها والذين هم أفضل من يعرف مواصفاتها ومن كل الوجوه كانت رحلة استطلاع مثالية لأمر في غاية الأهمية **وقد سارت هذه الرحلة وفق الأسس والمراحل التالية:**

- مرحلة تثبيت المتطلبات للمدينة العاصمة.
- مرحلة اختيار الإقليم والمنطقة الجغرافية.
- مرحلة إيفاد جامعي المعلومات ودارسي المواقع.

---

[1] - الحسك هو نوع من النباتات الصحراوية متوسطة الارتفاع ذات أشواك كثيرة وأغصان متداخلة كانت تستخدم في تلك العصور لإنشاء أسيجة دفاعية حمايوية تتألف من معرقلات للبشر والخيل وبما يشبه اليوم استخدام الأسلاك الشائكة المعدنية.

- مرحلة الاستطلاع الشخصي لصاحب القرار وخاصتهِ ومستشاريه وأعوانه.
- مرحلة الاستنارة بآراء أهل الخبرة من سكان المناطق.
- مرحلة القرار على الموضع تحديداً ومناقشة تطابقهِ مع المتطلبات المثبتة.
- مرحلة التصميم (سنأخذ بجوانبها المتعددة لاحقاً).

المهم لدينا هنا هو أن القرار كان بناءاً على فكر سابق ومعطيات لاحقة عملية متدرجة لدراسة دقيقة جمعت المشاهدة الميدانية والخبرة السابقة وآراء رؤوس ووجوه المنطقة وهو بحق كان قراراً جامعاً لكل هذه العوامل الأساسية لمثل حالة اختيار موقع لمدينة عاصمة ومع كل متطلباتها الحالية والمستقبلية في التوسع خاصة وأن الممكن اقتصادياً وعملياً ومع كل ما لمحددات الوقت والزمان تناسباً مع نمط الدولة حديثة العهد بحيث اقتصر الإنشاء الأولي على قلعة محصنة محدودة لمقر الحكم وسكن الخاصة والعسكر تؤمن الحماية المنشودة لرأس الدولة والخلافة.

القرار على الموقع الجديد وسط بلاد وادي الرافدين قرب – قرية بغداد التاريخية

بعد كل ما شهدنا من صفات الخلافة الجديدة السياسية منها والإدارية وخاصة ما يتعلق منه بترسيخ أركان الحكم ومكافحة ومغالبة الأعداء والمناوئين من أركان الحكم السابق (الخلافة الأموية وأنصارها) وحركات التمرد الجديدة والتي غالباً ما تصاحب الثورات وحركات التغير السياسي في الدول وخاصة في مثل هذه الدولة الإمبراطورية الكبيرة متعددة الأقوام والأجناس والأديان والأعراق. نرى أن الاستقرار النسبي الذي رافق حكم المنصور بعد بيعته وقضاءه على ثورة محمد وأخيه ثم فتنة الراوندية وتحركات أبو مسلم الخراساني وتحركات الأمويين في المغرب فقد بدأ المنصور ينظر إلى الأمور من وجهة القائد المسيطر المطاع والمالك لمقادير الأمور السياسية والاقتصادية والدينية والعسكرية بحيث قاده كل ذلك إلى الإسراع في بناء العاصمة اللائقة بمكانة الإمبراطورية والمستوعبة لحاجاتها والمحصنة بما يخيف أعداءها ويحقق مهابتها في نفوسهم وقلوبهم وكذا كان.

فبعد كل هذه الجهود حدد المنصور المنشآت وسعة المدينة ثم حدد تفاصيل أبنيتها وعمائرها وسككها بعد أن حدد عدد وهوية المطلوب إسكانهم فيها مما قاده إلى تحديد دقيق للمساحة المطلوب تيسرها للبناء وإمكانيات التوسع حولها **بما يحقق الأهداف الأساسية في:**

1- بناء مدينة عاصمة جديدة يحقق للخلافة العباسية اسماً وعنواناً بارزاً بين أقرانها من الخلافات الأخرى تذكر به على مر العصور والدهور وكما حدث فعلاً بعد بناء دار السلام وعلى مر الزمان وإلى يومنا الحاضر.

2- تأمين أكبر حماية ممكنة لرأس الدولة وهيئاتها في قلعة محصنة لا تؤمن الحماية المحلية فحسب وفي وقتها الراهن وإنما تؤمن قدرة عالية على إدارة معارك متوالية حولها وعلى محاور التقرب منها أو في مناطق تحشد الأعداء المحتملين وبعيداً عن المدينة العاصمة وكلما أمكن ذلك مع الاحتفاظ بقدرة الدفاع والقتال حتّى الرمق الأخير وعلى الأسوار والتحصينات أو حتّى في داخل المدينة وفي فصائلها وسككها وقصورها إن تطلب الأمر والموقف ذلك.

3- قصر الإنفاق على أقل ما يمكن لتأمين قدرة عالية مالية أكبر على مواجهة تحديات إنشاء الدولة والسيطرة على أقاليمها الواسعة وتأمين متطلبات نموها وتطورها وازدهارها علمياً وفكرياً وحضارياً وبما يجعلها مضرب أمثال عصرها.

4- الاقتصاد بالوقت المطلوب لإنشاء مثل هذه المدينة العاصمة إلى أقل ما يمكن بهدف التفرغ إلى الأمور سالفة الذكر والحيوية للمرحلة الراهنة وترك توسع المدينة إلى مراحل لاحقة سيتولاها النّاس في قطاعاتهم المختلفة وبعد أن تؤمن الدولة لهم أساسيات العوامل اللازمة للتوسع وممارسة الفعاليات الحياتية والتجارية والزراعية والسكانية.

5- تأمين حجب كافٍ لمراكز التمرد والمعارضة للدولة الجديدة وبما يحقق أقل تأثير لهذه التيارات على أفكار السكان وبخاصة الجند العباسي منهم وبما يؤدي إلى زعزعة ولائهم لبني العباس ودولتهم الجديدة.

إن إقليم العراق كان اختياراً ناجحاً حقاً لقادة بني العباس من حيث توسطه الأقاليم في الدولة الإسلامية وغناه الزراعي والإنتاجي وثراءه الفكري والحضاري وعزم أهله وصفاتهم العامة بين أهالي الأقاليم الأخرى.

إن هذا الإقليم وكما رآه القادة العباسيين الأوائل يحقق لهم القدر الأكبر من المواصفات المطلوبة لمقر دولتهم وبما يتيح لهم ليس السيطرة عليه فحسب بل والانطلاق منه إلى الأقاليم الأخرى غرباً وشرقاً شمالاً وجنوباً.

كما رأى هؤلاء القادة أن النمو الاقتصادي الرهين بالموقع التجاري أساس لنمو الدولة وعظمتها وكما اعتاد العرب الأوائل في الجزيرة من رحلات تجارية شهيرة بين مكة واليمن جنوباً مما سمي برحلة الشتاء وبين مكة وبلاد الشام مما سمي برحلة الصيف حيث كان المجتمع العربي قبل الإسلام معتمداً بشكل أساس على تجارة الرحلات وقوافلها المطلوبة وجاء الإسلام ليؤكد هذه النواحي المهمة لحياة البشر فجعل من تجارة الحج عاملاً مشروعاً لنمو المنطقة وازدهارها ورفاه أهلها وغناهم حقاً فإن مبادئ التجارة الحرة المعروفة في عصرنا الحاضر قادت إلى اختيار بني العباس لإقليم العراق مقراً لحكمهم حيث يتميز هذا الإقليم من بين ما يميزه عن الأقاليم الأخرى بالموقع التجاري الهام كما أسلفنا فتمر منه خطوط التجارة بين حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يعتبر المركز التجاري الهام لدول الحوض شماله من الدول الأوربية وجنوبه من دول شمال أفريقيا مع دول المشرق الآسيوي في الهند والصين ومناطق جنوبي شرقي آسيا في العالم المعروف في ذلك العصر والزمان كما أنه يقترب من ناحية الشمال بل ويرتبط بطريق الحرير التجاري المعروف ومن ناحيه الجنوب يرتبط بالمياه الدافئة في بحار العرب والهند حيث خطوط التجارة الأفريقية باتجاه الغرب والآسيوية باتجاه الشرق وما عرف عن دول التوابل في مشرق العالم وثرواتها التجارية الأخرى وأهمها الخشب وملحقاته المنتجة من غابات المشرق الآسيوي والهند والصين.

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله الجغرافيون في العالم القديم من إن اقليم العراق هو قلب هذه الأقاليم ووسطها تحدهُ ثلاثة منها من الشرق وثلاثة من الغرب فيه تتمركز

اقتصاديات ذلك العالم المعروف يومها ولا غنى لمن يريد السيطرة على العالم أن يسيطر عليه وحري بهذه الدولة الإمبراطورية أن تجعله مقرها ومركز ثقلها خاصة وأنه لم يعد هكذا بمقاييس العالمية فحسب بل هو كذلك بمقاييس دولة الإسلام في مركزها بين الأقوام الداخلة فيه من الهند وحدود الصين في المشرق إلى الشمال الأفريقي والأندلس في المغرب.

ومن بلاد الترك وما بين النهر في الشمال وبلاد العرب بجزيرتهم وبلاد اليمن وحضرموت في الجنوب وبما تطلبه هذا الوضع من موجبات السيطرة الإدارية لمقر الدولة في وسطها وبكل ما تتطلبه هذه الإداريات من اتصال سهل بالولايات والإمارات الإسلامية التابعة لهذه الدولة.

وفي هذا الموقع الوسط الكثير من حسن الاختيار والمثالية في موازنة المتطلبات المتعارضة والاستفادة من تجارب الآخرين وهو ما برع به الخليفة المنصور وبما اشتهر عنه من حصافة الرأي والاستنارة بآراء الآخرين والتوسع في الاستطلاع والتحري والدراسات.

يقول المستشرق الرحالة الإنكليزي آرنولد تويمي ان ما من غازٍ حاول السيطرة على العالم إلاّ وفكر باحتلال إقليم العراق اعتباراً من الإسكندر وغزاة الروم وانتهاءً بالعرب المسلمين والمغول حيث يرى أن الأمر لم يستقم للإسكندر إلاّ بعد احتلال العراق وكذا بالنسبة لدولة الإسلام وللغزاة المغول وأضيف أنا بهذه المناسبة وكذا بالنسبة لغزاة القرن العشرين والحادي والعشرين حيث كانت خطة رومل القائد الألماني الذي عمل في قيادة الفيلق الأفريقي من شمال أفريقيا تتضمن بعد احتلال قناة السويس ومصر التقدم باتجاه البصرة لاحتلال منابع النفط وكذا يفعل الأمريكان اليوم في إمبراطوريتهم السادسة عند احتلالهم العراق ليس من أجل النفط

فحسب أو موارد العراق الأخرى بل وبسبب أساسي في موقعه في قلب العالم القديم حيث أصبحوا غرب الصين والدولتين النوويتين في الهند وباكستان وجنوب روسيا والقوقاز وشمال نفط الخليج ومياهه الدافئة وشرق سواحل المتوسطة الشرقية وبكل ما يؤمنه هذا الوضع من خدمات مستقبلية لإسرائيل حليفهم الاستراتيجي.

إن بلاد وادي الرافدين تمتد شمالاً وجنوباً بامتداد النهرين العظيمين من منابعهما وحتى مصبهما في الخليج بعد مائة وخمسون كيلومتر من التقائهما في منطقة القرنة شمال مدينة البصرة وتشكليهما لشط العرب والذي يصب فيه الكارون في منطقة المحمرة ويعتبر مجراه جغرافياً جزءً من الوادي لبلاد النهرين، هذا من ناحية الشمال والجنوب أما من ناحية الشرق والغرب فمرتفعات سلسلة حمرين الشرقية وامتداد سلاسل الجبال الأخرى هي حدوده الشرقية وهضبة الصحراء الغربية هي حدوده الغربية.

تمتاز هذه المساحة بوجود كافة أنواع الأراضي بتركيباتها الجيولوجية المختلفة منها الصحارى المقفرة والأهوار المائية والجبال المرتفعة والسهول الخصبة حول الأنهار وبينها وهي مساحات واسعة لأراضي وافرة الخصوبة كثيرة المياه العذبة تساعد على كل أنواع الزروع والمحاصيل التي تحتاجها التجمعات السكانية لإشباع حاجاتها وتنتج كل المحاصيل الصناعية وكذا فهي مناسبة جداً لتربية كل ما تحتاجه هذه المجتمعات من ثروة حيوانية ضرورية جداً لمختلف أوجهها الحياتية وليس للغذاء فحسب ومن بين هذه الحاجات تربية حيوانات القتال حيث تكون الحاجة ماسة إلى وجود أنواع مختلفة من هذه الحيوانات لاستخدامها للنقل عند حركة الجيوش أو استخدامها في بعض صفحات القتال والمناورة والإحاطة بأوقات سريعة تؤمن المباغتة والمفاجأة وهي حاجات أساسية في الحرب.

ولكل ما سبق فيكون هذا الإقليم هو الأوفر حظاً في المفاضلة مع الأقاليم الإسلامية الأخرى لاتخاذه كمكان لإنشاء المدينة العاصمة وفق الطموح الكبير للخليفة المنصور والذي يرى الدنيا بأكبر إمبراطورياتها قد دانت له ولعائلته من بني العباس وبقى عليه تنظيمها وتوفير مستلزمات رقيها ونموها ونمو فكرها ومؤسساتها العلمية والفقهية ووفق متطلبات المرحلة الزمنية التي نشأت فيها تلك الدولة وقد كان حقاً أساساً متيناً لمن جاء بعده ووسع المدينة وزاد من قيمتها العلمية والتجارية والسياسية والعسكرية في الأزمان اللاحقة وخاصة عند توسع المدينة خارج أسوارها الأولى في الجانبين الغربي والشرقي منها وتوسع أفق أسوارها الجديدة وتحصيناتها.

يبدو ومن سير الأحداث وطبيعة النصوص المنقولة إلينا عن أسئلة الخليفة المنصور أنه استنار بآراء الجغرافيين أيضاً حيث كان الاختيار رصيناً من الناحية الجغرافية أيضاً وهذا ليس غريباً عنه فهو جزء من سلوكه الواضح. وعندما نقول الجغرافيين نقصد الجيولوجيين أيضاً حيث كان الاختيار ناجحاً من وجهة النظر هذه بتوفير أفضل الظروف لمواد الإنشاء المطلوبة لهذا العمل الضخم وخاصة بالنسبة لأسوار المدينة وتحصيناتها. كما أن وقوع الموقع المنتخب وسط تجمعات سكانية قديمة في قرية بغداد وحولها وفي القرى القريبة منها حيث تكثر الأيدي العاملة المطلوبة لإنجاز العمل الضخم ومن الواضح في الروايات المنقولة أن المنطقة تحوي خبرات كبيرة للكادر الفني المتقدم المطلوب ولو أن الخليفة المنصور لم يقتصر في ذلك على أهل المنطقة وإنما استنفر ولاتهِ في بلاد الشام وفارس والجزيرة ويروى أنه أحضر إلى المكان مائة ألف عامل وفني ولكن القاعدة الأساس في العمل تبقى في أهل الموقع نفسه ويعزز بالإمكانيات المضافة.

إذن يمكننا القول بأن قرار الاختيار لإقليم العراق وفي منطقة اقتراب النهرين الكبيرين دجلة والفرات قرب قرية بغداد التاريخية البابلية كان قراراً صائباً من وجهة نظر العوامل المثبتة سلفاً وهي:

1- **عسكرية**. بوجود حماية ذاتية في جغرافية الموقع وتوسطه النهرين الكبيرين من الشرق والغرب ووجود مجموعة الأنهار الصغيرة المتفرعة عن الفرات ودجلة ومسيرها من الغرب إلى الشرق وتفرعاتها التي تشكل شبكة دفاعية مهمة عززها المنصور بالخندق المحيط وبالأسوار والأبراج المنيعة وبتصاميم المداخل والأبواب الأربعة وطاقاتها المتعرجة وفصائلها.

2- **تجارية اقتصادية**. باختيار الموقع الوسط بين مراكز التجارة العالمية المعروفة يومها ومرور طرق هذه التجارة الرئيسية بإقليم العراق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وبين المتوسط والمشرق والإقليم والطرق البحرية في الخليج.

3- **زراعية إنتاجية**. حيث كانت الغلة الزراعية من أهم الموارد المطلوبة يومها بما يتناسب مع حجم السكان والنمو المتوقع وكان الإقليم خير نموذج لها.

4- **سكانية حضرية**. حيث كانت التجمعات السكانية وسط إقليم العراق تجمعات ذات جذور حضرية متقدمة وارثة لحضارات الوادي القديم من سومرية وأكدية وبابلية وآشورية ونبطية وكيشية وعيلامية والملاحظ هنا أن أبو جعفر اختار الموقع بالقرب من أربعة عواصم لحضارات قديمة سادت ثم بادت في الموقع مما يعطيه أفضلية كبرى في الجانب الحضري والفكري ويبعده عن البداوة الواضحة في مواقع الكوفة والأنبار ويعطيه آفاقاً كبرى

للتقدم الفكري والعلمي وكما حدث فعلاً فيما بعد أيام الرشيد وأيام خلفاء عصر الازدهار والنهضة.

أستطيع القول هنا وبكل ثقة أني وجدت من خلال بحثي وتدقيقي في المراجع والمصادر أن الاختيار لموقع عاصمة الملك العباسي في المدورة دار السلام كان اختياراً ناجحاً تماماً وهو أفضل الاختيارات المتاحة يومها وكما أثبتت ذلك الأيام اللاحقة للخلافة العباسية.

الفصل الرابع

* العلوم الهندسية الإنشائية في بداية العصر العباسي.

* العلوم العسكرية الدفاعية في بداية العصر العباسي.

* تيسر العوامل الأولية للإنشاء.

* الموارد المالية وكلفة الإنشاء.

العلوم الهندسية والإنشائية
في بداية العصر العباسي

لنحاول هنا وقبل الدخول في الفصل اللاحق بموضوع تصميم المدينة المدورة واعتباراته العسكرية والهندسية أن نلقي نظرة إلى مستوى العلوم الهندسية على مستوى التصميم ومستوى العلوم الهندسية التطبيقية في العصر العباسي الأول وقبله عند العرب ليس في العراق فحسب وإنما على مستوى الأمة في عموم أوطانها.

ومع شديد الأسف فقد أنشأت الحركة الاستشراقية العالمية فكراً عاماً لدى روادها مؤداه أن العرب في دولهم بعد الإسلام لم يكونوا على مستوى مناسب من العلوم الهندسية يؤهلهم لتخطيط سليم لمدنهم يأخذ بنظر الاعتبار كل العوامل اللازمة في مثل تلك البحوث.

ومع الأسف الأشد فإن جيلاً من أساتذة هذه العلوم وعلى مستوى الدراسات العليا وأساتذة الجامعات وفي كل أوطان أمة العرب أخذوا بهذه الأفكار بحكم تربيتهم الأوربية في مراحل الدراسة وخاصة أولئك الذين ذهبوا إلى الغرب بأعمار صغيرة وتدربوا هناك وتفاعلوا مع كل مغريات الجهات المنظمة لهذه الحملات التي استهدفت الأمة وتاريخها ولا أريد هنا الخوض في هذا الموضوع الشائك فأخرج عن أهداف الدراسة ولكني أقول باختصار بوجوب دراسة الموضوع دراسة علمية دقيقة ابتداءً من جمع فينا الكنسي الذي دعا له بابا الكنيسة الكاثوليكية في ليون قبل انتقالها إلى روما عام 1312 ميلادية وإجراءاته المختلفة على مر السبعة قرون اللاحقة مع كل تقديري وإعجابي ببعض المستشرقين المخلصين لعلومهم واختصاصاتهم وهم ليسوا قلة في المجموع واللذين درسوا وكتبوا وحللوا أموراً فاقت جهود مؤرخينا وأساتذتنا من أبناء

بلداننا ولا أريد ولست قاصداً إلقاء اللوم وتعليق تقصيرنا على هذه الشماعة فإن رأيي وكما أوردته في الفصول السابقة وخاصة في مقدمة كتابي هذا هو أننا على أعلى درجات التقصير في دراساتنا وأبحاثنا عن تاريخنا وآثارنا وما دعوت إليه من ضرورة الإكثار من مراكز الدراسات والأبحاث التاريخية والآثارية ولكن المقام لا يتسع لأكثر من هذا التذكير وآمل التفات أهل العلم له.

لاشك بأن العرب قبل الإسلام كانوا على تمام الدراية بتخطيط المدن وشواهد ذلك كثيرة في مدن اليمن والشام والعراق وسأتطرق إلى الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل القادم لأعطي الفكرة الواضحة عن القدرات الهندسية والعسكرية الدفاعية ولكني هنا أقول بأني لا أنفي إطلاقاً اشتراك الكثير من أهل الفكر والعلم والكفاءات الهندسية من غير العرب في صدر الإسلام الأول الذي لم يبق على أي من عوامل التحزبات القومية عند الأقوام الداخلة في الإسلام ممن شكل نواة المجتمع الإسلامي المتماسك والذي أعطى الأفضلية للتقوى وليس للعرق أو النسب رغم أن بعض القيادات الأموية مارست العصبية القومية وكذا لبعض العباسيين إلاّ أن عموم القيادات الإسلامية كان ولائها الخالص لإسلامها وليس إلى عصبياتها وإن كان قد ظهر في بعض الحالات من خروج على المبدأ ولكن الأساس بقي قائماً.

ومع كل ذلك مما ذكرناه فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا موضع احترام وثقة وقد حافظوا على عهودهم وذميتهم وكذا كانت نظرة المسلمين إليهم، نظرة ود واحترام مما مهد للاستفادة القصوى من علوم وخبرات العلماء والمهنيين منهم وكذا فإن باب الاستفادة من العلوم والتقنيات لم تغلق في العهود الإسلامية بوجه أي مواطن مقيم في الدولة أو قادم إليها مع ميزاته وعلومه من خارجها حيث كانت خبرات الفرس والروم هي الأخرى متواجدة في الساحة العلمية للدولة الإسلامية وخاصة في العصور العباسية المختلفة وفي كل المجالات العلمية، أخص منها هنا ما يتعلق ببحثنا

هذا من العلوم الهندسية والعسكرية ولا عجب فعدا ما كان من سلوك الإسلام المتسامح فهي الدولة الإمبراطورية متعددة القوميات والأعراق والديانات ومن ثم المذاهب والنحل في الدين الواحد.

ومن بديهيات الأمور أن الخبرات العلمية قد انتقلت بين الحضارات المختلفة.

وقد كانت الدولة الإسلامية في هذا العصر نموذجاً لفعاليات انتقال العلوم والخبرات بين الحضارات المختلفة وإلى أي من البلدان التي تشكل بيئة صالحة للترجمة ولنمو العلوم وأبحاثها وكما كانت الدولة العباسية في عصرها الأول والأوسط حيث كثرت التراجم وانتقال المؤلفات اليونانية الإغريقية والرومانية والفارسية والصينية والهندية مما رفع من مستوى هذه العلوم في كل المجالات وخاصة مجالات بحثنا هذا الهندسية والعسكرية.

ومعلوم أن لأمة العرب شواهد تاريخية وآثارية حضارية كبرى ليس في أماكن القرب من الحضارات الأخرى كبلاد الشام ومصر والشمال الأفريقي والعراق فحسب وإنما في مواطن العرب الأولى في الجزيرة واليمن وعمان حيث تتجلى أعظم صور التقدم العلمي الهندسي نسبة إلى زمانها في مدن اليمن في مأرب وصنعاء والحديدة والمدن العمانية حيث عرف الإنسان لأول مرة في تاريخ تطوره الحضري فكرة البناء العمودي فاستفاد من أصغر المساحات لإسكان أكبر عدد من النّاس ومع كل ما يتبع هذا النمط من البناء من مشاكل لا يمكن حلها إلاّ بفكر هندسي علمي عالي المستوى كمشاكل الأسس وفحوص التربة وطبيعة المواد المستخدمة للبناء والمواد اللاصقة لها ومعالجة السقوف وإلى معالجات التسطيح فوق البناء في بيئة استوائية تمتاز بغزارة أمطارها وفي أغلب مواسم السنة كما هو معروف عن بيئة اليمن، بل زاد عرب اليمن على كل ذلك هندسياً بإقامتهم السدود لحجز المياه وتنظيم الري في تلك البيئة الجبلية الوعرة مما

عرّف بلادهم تاريخياً باليمن السعيدة وبأوصاف جنات عدن المعروفة وخير شاهد على ذلك هو سد مأرب التاريخي مما يؤكد تطور العلوم الهندسية في ذلك الزمان وفي أصول بلاد العرب.

أما عرب العراق وبلاد الشام فقد كانوا هم الآخرين موضع تطورات هندسية متقدمة في عصرها وزمانها وليس في العهد موضوع بحثنا هذا وهو العهد العباسي فقط وإنما قبله بمئات السنين بل بآلافها مما هو ظاهر وقائم بعضه إلى يومنا الحاضر من شواهد وآثار وعمائر الحضارات السومرية والأكدية والآشورية والبابلية. وزاد من مهارات أهل العراق الهندسية الحضارية وعدا مالهم فيها من إبداع ومبدعين وعلماء احتكاكهم بحضارات عالمية قريبة كالفارسية والرومانية والإغريقية التي أخذت منهم وأعطت لهم فقد كانت بابل وآشور سابقة لهذه الحضارات بأزمان بعيدة، وكما ذكرنا عن اليمن كذلك نقول عن العراق وبلاد وادي الرافدين فقد كانت سدود وجسور وقنوات الري المبطنة في أرض شمال الوادي من أبرز المعالم للتقدم العلمي الهندسي ولا أغالي إذا قلت بأن سكان الوادي هم أول من عرف عمارة منشآت الري في التاريخ مع كل التقدير والتثمين لحضارات الجنوب الأمريكي في بلدانها.

وعلى أي حال فلابد من ذكر مستوى العرب العلمي في هذه البلاد وبلاد الشام حيث تدل منشآت البتراء جنوبي بلاد الشام على مستوى هندسي ومعماري عالي حيث لم يكتفي المهندس بالعمارة الرصينة المنشأة على أسس علمية هندسية عالية متقدمة وإنما زاد عليها بفكر معماري خلاق أعطى المدينة وأبنيتها شكلاً جمالياً حضارياً متقدماً في زمانه ومحاكياً للتطورات الهندسية الإنشائية عند الإغريق والرومان وكذلك في مدينة تدمر السورية ومدينة الحضر العراقية وبما عرف عند المؤرخين باسم المدن العربية الصحراوية أو عند الآشوريين في شمال الوادي باسم (عربايا) أي بلاد العرب.

أما عمائر جنوبي الوادي فهي الأعظم والأكبر وخاصة ما عرف عن بابل ومعابدها وقصورها وبرجها الشهير وجنائنها المعلقة التي رويت عنها مختلف الروايات وأثيرت حولها أقاويل المؤرخين الباحثين بين مصدّق ومكذّب وتبقى هي في كل الأحوال من عجائب الدنيا السبع وكما عرفها بعض الآثاريين.

ومهما تكن الآراء فإن للتقدم الهندسي العلمي العالي في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده من مدلولات وشواهد لا يمكن إغفالها في أي بحث حول تلك الأصول أو من أي باحث منصف محايد أو متجرد فهي حقائق بعضها قائم إلى اليوم. فليس إطراءٌ وصف هذه الأمة بالتقدم وإنما هو إقرار بحقيقة الفكر الهندسي الخلاق الذي بني على ما ذكرنا في بلاد الشام والعراق وجنوب الجزيرة فهو الذي بنى أهرامات الجيزة في مصر ومعابد طيبة وأبو سنبل مما يعتبر إعجازاً هندسياً رائعاً إلى يومنا هذا عجز الكثير من المهندسين عن تفسير طرق إنشاءه وتصاميمه في زماننا الراهن وبما يوجب إجراء بحوث عديدة كبرى لكل من هذه المنشآت لتفسير إعجازات إنشاءها من قبل إنسان اعتبره الغرب بدائياً متخلفاً وإلى يومنا الحاضر.

ومهما افتروا على هذه الأمة فالبحوث العلمية تثبت افتراءاتهم وكذلك الشواهد ولكن الذي يؤسفني كما أسلفت هو ما بدأ يطفو على السطح من فكر شاذ مخالف للواقع والحقيقة لدى بعض أقزام الأمة ممن أنشأت الجهات العدوة وزودتهم بأفكار منافية لواقعها ولا أقول هذا نافياً تقصيرنا أو معلقاً أخطائنا على شماعة نظرية المؤامرة التي كثر الحديث عنها أخيراً وهي كلمة حقّ أريد بها باطل ولكني أدعو إلى المنهج العلمي والوثائقي المحايد في تقييم هذه الأمة وغيرها كذلك.

أعود إلى دار السلام المدورة وبانيها أبو جعفر المنصور تلك المدينة المعجزة في عصرها مدينة ألف ليلة وليلة والسندباد البحري مدينة العبق العربي الأصيل فأقول

بأن الخليفة المنصور فعدا ما كان يمتاز به من صفات قيادية متقدمة وعلمية موسوعية بارزة عرفت عنه بما نقل عنه المؤرخون من أخبار فهو ليس من المعقول أن يكون مصمماً للمدينة بكاملها ولكنه استقدم العديد من المهندسين من ذوي الخبرة والكفاءة ومن كافة أنحاء الدولة مترامية الأطراف كما استقدم المهرة من العمال وأرباب الحرف من بلاد الشام وأرض الروم وبلاد الفرس وقضى الساعات الطوال في مناقشة التصاميم معهم وليس من شك في أنهم كانوا على درجات عالية من المهارة والخبرة وكما سيرد ذكرهم في فصل لاحق من هذا المؤلف.

ومن الأمور اللافتة للنظر الأخرى في مجال التقدم العلمي الهندسي هو إنشاء هذه العمائر في أرض وسط بلاد وادي الرافدين كما أسلفنا وهي أرض ذات تحمل خفيف للأثقال وتربتها خفيفة وفيها العالي من مستويات المياه الجوفية لإحاطة الأنهار بها من كل الجوانب ولانخفاضها مما يعرضها سنوياً أو في أحسن الأحوال لأغلب السنين إلى فيضانات مدمرة عارمة تأتي البنيان من أسسه ومع ذلك نشاهد الكثير من هذه العمائر مازالت قائمة أو مازالت بعض آثارها نشاهده إلى يومنا الحاضر ولما سنورد تفصيلاً عن الفيضانات التي تعرضت لها هذه المنشآت في فصل قادم.

أعتقد هنا وبعد هذا العرض لشواهد ودلائل التقدم العلمي الهندسي في العصر العباسي وما سبقه بأنني أعطيت فكرة متواضعة للقارئ الكريم عن مدى التقدم والمستوى العلمي العالي في زمانه وقياساً إلى طبيعة العصر تؤهلني للدخول إلى تفصيلات ودخائل المدينة المدورة دار السلام أولاً ثم بغداد الشرقية والغربية وبما توسعت إليه المدينة وما أحيط بها من أسوار وتحصينات هائلة حمتها من عوائل الزمان ومعتديه وغزاته وكذلك من عوامل الطبيعة وثوراتها في الفيضانات المدمرة في الأرض المنخفضة هذه.

العلوم العسكرية الدفاعية
في بداية العصر العباسي

معروف أن أمة العرب لم تعرف الجيوش الكبيرة قبل الإسلام حيث كانت دولها في جنوب الجزيرة دولاً صغيرة بأحجامها وأشبه ما تكون بدويلات المدن ولا تحتاج بل ولا تتمكن من إنشاء وحشد الجيوش الكبيرة وليس لها من الموارد المالية لإدامتها وتسليحها وتدريبها وتجهيزها ولا تحتاج أصلاً لذلك إلاّ في حالات نادرة وبقية العرب هم عرب القبائل لا يعرفون للحرب معنى سوى بالغزوات القبلية فيما بينهم وهي معارك عدد المقاتلين فيها محدود ويروى أن أكبر هذه القوى لم يكن يستخدم من سلاح الخيالة المهاجم ومعاركهم في الغالب هجومية بطبيعتها أكثر من مائة إلى مائتي خيال وهو عدد لا يكاد يعني شيئاً في معارك الجيوش الكبيرة حولهم. وهم وإن كان لديهم بعض أهل الخبرة في الحرب كدريد بن أبي الصمة فهم أهل خبرة في هذه المعارك المحدودة العدد ونطاق وسعة الاستخدام وعمقه ومداه.

هذا ما جعل أرض العرب ومدنها عرضة للغزاة الطامعين من مشارق الأرض ومغاربها فقد غزا الفرس العراق واحتلوا أرضه وفرضوا عليه وصاية دامت مئات السنين لم تنته إلاّ بظهور الإسلام وكذا فعل الروم في بلاد الشام والشمال الأفريقي وغزا جنوب الجزيرة الفرس من الشرق والأحباش من الغرب حيث عبروا باب المندب وكانت غزوة أبرهة الحبشي لهدم الكعبة بناءاً على وشاية وتحريض يهوديين وقد جرت كل تلك الحملات بدون مقاومة تذكر لعدم وجود الجيوش عند العرب بمفاهيم

العصر وحين تمكن عرب العراق من المناذرة تجميع قواهم وتجنيد قبائلهم تمكنوا من دحر الفرس في ذي قار وسط العراق.

لهذه الأسباب لم يكن هناك عند العرب قبل الإسلام فكر عسكري واضح للمعارك الكبرى ولا قيادات مجربة كقيادات جيوش الروم والفرس ولكن من فضل الـلـه سبحانه وتعالى على أمة المسلمين والعرب أنه منحهم القوة والعزم والحكمة في بداية الدعوة الإسلامية حيث نرى الخليفة أبو بكر الصديق (وهو التاجر الذي عاش حياة مرفهة ناعمة طيلة حياته السابقة للإسلام والصديق بعد الإسلام الذي كان يصدق كل ما يصدر عن رسول الـلـه ﷺ ولم يتخذ في حياته قراراً) يتخذ قرارات الحرب الخطيرة وبنطاق واسع ولجيوش كبيرة بعد وفاة الرسول في المدينة لمقاتلة المرتدين في توقيتات مختلفة لتصل أهدافها في وقت واحد بهدف منع المرتدين من التعاون مع بعضهم مع كل ما لظروف ذلك الزمان ولطرق ومسالك الجزيرة الوعرة التي لم تكن سوى نياسم لسير القوافل غير معلمة الحدود وينتصر في تلك المعارك الكبرى بما يؤمن الاستقرار والثبات لحكم دولة الإسلام الحديثة ثم يتحول وبسرعة فائقة لفتح العراق ويوجه القائد الميداني خالد بن الوليد لفتح العراق بتوجيهات نادرة من قائد استراتيجي بارع. وقد كان الخليفة عمر الفاروق هو الآخر نموذجاً رائعاً بتوجيهاته لسعد بن أبي وقاص قبل القادسية كما أسلفنا في موضع سابق. وعلى أي حال فإن قيادات عسكرية بارعة برزت من خلال الفتوح الإسلامية حيث ظهر خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع والباهلي وطارق بن زياد وكثيرون غيرهم على مستوى العمليات أما قادة التعبئة فلا مجال لإحصائهم في هذا البحث والثابت أن مدرسة فكر عسكري إسلامي قد برزت في تلك المراحل استمرت في إنجاب تلاميذ جدد حتّى وصل الزمان عهد بحثنا في العصر العباسي الأول حيث ورثت القيادات العسكرية العباسية مدارس الجيوش الأموية والراشدة وأضافت إليها الكثير بالفكر والتسليح

والتنظيم والتعبئة ووسائل القتال حيث كان العسكر العباسي في أواسط أيام الدولة العباسية نموذجاً عالمياً لا مثيل له وكانت القوات العباسية ذات قيادات كفوءة ومنظمة ومدربة ومسلحة تسليحاً لائقاً باسم وعنوان دولة الخلافة العباسية أكبر إمبراطوريات العالم وقتها، ولكن فكر وتنظيم وتسليح وعقيدة هذا الجيش تستند كما هو معلوم إلى فكر العسكر الإسلامي وعقيدته والذي بدأت دولة الإسلام ببنائهِ بادئ ذي بدء أيام سرايا الرسول الكريم محمد ﷺ حين أخذ المشركون موقفاً معادياً للانتشار الفكري السلمي للإسلام حيث بدئوا بإيذاء المسلمين وزاد عليهم الروم في بلاد الشام بمهاجمة من دخل الإسلام لردعه وإعادته إلى حظيرة الكفر والخروج عليه مما اضطر الكيان الإسلامي إلى الدفاع عن نفسه وعن أعوانه وعن البناء الجديد وبحماية تشجع النّاس على الإمساك بزمام الأمور من منطلقاتها الفكرية وعدم استخدام القوة في الدعوة حيث نزلت الآيات العظام بعد فتح مكة[1] تمنع استخدام العنف في الدعوة في الإسلام وتدعو إلى الحوار والنقاش طريقاً للدعوة إلى الإقناع والحجة والمنطق سبيلاً لها. ولكن الأعداء لم يتركوا للخير وسيلة وأصروا على استخدام القوة في مهاجمة المسلمين بهدف الإيذاء أولاً والمنع من الانخراط في الإسلام ثانياً.

للأسباب أعلاه نرى أن الفكر العسكري بني أساساً على الدفاع ولا تعني بدر أو سرايا الرسول إلى بلاد الشام أن التفكير كان هجومياً وإنما هو ما نص عليه المبدأ في العقائد العسكرية الحديثة من نبذ فكرة الدفاع المستكن ذي الفرص المحدودة في النجاح والأخذ بمبدأ (الهجوم هو خير وسيلة للدفاع) وهذا لا علاقة له إطلاقاً بالطريق

---

[1] ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**﴾ سورة المائدة الآية 3 الجزء السادس.

﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ**﴾ سورة البقرة الآية 206 الجزء السادس.

﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ سورة النمل الآية 125 الجزء الرابع عشر.

﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ سورة النمل الآية 125 الجزء السادس عشر.

الفكري الذي تبناه الإسلام وإنما هو أسلوب حربي تعبوي تكتيكي لإدارة الحركات بطريق تؤدي إلى تحقيق الهدف في منع المشركين من إيذاء المسلمين ومنعهم من اتخاذ العقائد التي يريدون بعد اقتناعهم وإيمانهم. ويتجنى على الإسلام والمسلمين كثيراً من يقول بأن الإسلام انتشر عن طريق القوة وحد السيف حيث لم يكن هذا من أهدافه ولم يتخذه المسلمون الأوائل إلاّ مع نفر محدود من طغاة المشركين الذين لم تفد معهم كل أساليب الإقناع والدعوة في كف أذاهم عن أهل الإسلام.

ولما توسعت الفتوح وكبرت الجيوش تنامى جيل جديد من القادة العسكريين وعلى مستويات ثلاث كما أسلفنا هي السوق والعمليات والتعبئة وأخذت أفكارهم في الحرب بمختلف صفحاتها تنتشر على نطاق واسع ويدرسها القادة والكبار لمتدربيهم المستجدون مما شكل مدارس عسكرية واضحة في كل أنماط القتال وصفحاته وبفكر منظم ميّز مبادئ الحرب الأساسية عن قواعد القتال في كل من صفحاته الأربع المعروفة في التقدم والهجوم والدفاع والانسحاب مع تفصيل كامل في زوايا ومتطلبات أي منها.

كما وضعت مواصفات أسلحة القتال بكل صفحة وحالة وجرى التركيز على دراسات الأرض بما لهُ علاقة بالحرب كما نظمت الجيوش على شكل مجاميع لكل منها قيادتها الميدانية ونظمت الاتصالات بما يؤمن وصول المعلومات من الإمام إلى الخلف ووصول الأوامر من الخلف إلى الأمام وكذلك نظمت أمور الإمداد والتموين والتعويض والطبابة بشكل ينسجم تماماً مع طبيعة هذه التشكيلات ومدى عملها وقدرات الإسناد اللوجستي خلفها.

كل ذلك جعل هذه القوات تشكيلات ناجحة في أداء مهامها محققة للنصر في معاركها الصغرى والكبرى على حد سواء مما أوصل جيوش الفتح إلى حدود الصين من

الشرق وشبه الجزيرة الايبيرية من الغرب عند عبور طارق بن زياد للمضيق المعروف باسمه إلى يومنا هذا، ومما يلفت النظر حقاً في غزوات الإسلام ويميزها عن كل الغزوات على مدى التاريخ وبشكل ظاهر هو أن كل هذه الغزوات كانت تبدأ بأحجام كبيرة من ناحية عدد المشتركين فيها وتنتهي أو تصل إلى أهدافها بأعداد قليلة بسبب الخسائر والمرض والتعب والكلل بما كانت تستغرقه من سنوات طول في مسيرتها وعلى عكس الغزوات الإسلامية التي كانت كلما تقدمت إلى أهدافها تكبر أحجامها ويزداد عدد مقاتليها بسبب دخول النّاس في تلك الديار بالدين الإسلامي ويروى على سبيل المثال وليس الحصر أن طارق بن زياد بدأ الحملة بعد العبور الشهير بستة آلاف مقاتل ووصل النهر الكبير في منطقة قرطبة بثمانية عشر ألف مقاتل علماً بأن طريق إمداده قد أغلق بعد حرقه السفن في البحر.

وعلى أي حال فإن المتيسر من المصادر والمراجع لم يبين لنا تفصيلاً ماهية الفكر العسكري لا في صدر الإسلام ولا أيام الدولة الأموية ولا أيام الدولة العباسية ولكن هذه المصادر والمراجع فيها الكثير من الدلالات عن آفاق هذا الفكر وانعكاساته في تنظيم الجيوش وأساليب القتال والتسليح وتطبيق مبادئ الحرب في المعارك التي خاضتها هذه القوات مع أعدائها مما يمكن أن يعطينا فكرة واضحة عن آفاق هذه المعارف وخاصة عندما ستصل إلى فكر أبي جعفر المنصور الدفاعي العسكري الواضح من تصاميم مدينته المدورة وأسوارها وخنادقها وتحصيناتها وتوزيع الجند وقياداتهم وأسلحتهم عليها.

وقد يكون هذا الغموض في المراجع والمصادر راجع إلى عدم بحث الموضوع من قبل المتخصصين ذوي الخبرة في الحرب ومبادئها وفنونها مما حدا بهؤلاء المؤرخين إلى سرد الواصل إليهم من الأحداث الجارية بدون تحليل أو تحقيق وحتى الأسلحة فقد ذكروها كأسماء جامدة لا تعطي الدارس المتتبع الفكرة الوافية المناسبة والمطلوبة للتحليل

والتدليل على فكر واضح للعموم مما يستوجب الدراسة المتخصصة المعمقة للوصول إلى الفكر العسكري العباسي.

ولنبدأ بهذه الدراسة في تحليل مبادئ الحرب في الفكر العسكري العباسي:

إن من المعلوم لدارسي علوم الحرب وقادتها أن مبادئ الحرب لم تثبت تحريراً وبشكل منظم إلاّ في الحقبة النابليونية وفي مذكرات نابليون بالذات حيث وردت بالشكل الآتي:

التعريف

هي مجموعة من الاعتبارات المتوازنة عبر القرون، والتي تساعد على السوق والتبعية في وضع الأسبقيات ومسالك العمل[1].

ومن مراجعة تواريخ الحروب نرى فعلاً أن المبادئ المذكورة هي متوارثة من أيام هانيبال في معاركه الكبرى وطبقها الإسكندر المقدوني في معاركه الشهيرة ثم انعكست في تطبيقات كل الجيوش الكبيرة المعروفة على مر العصور بدون أن تدون بشكل منظم متسلسل.

كانت معارك العرب الأولى في صدر الإسلام نماذج واضحة لهذا الفهم حيث وردت في تطبيقات الخليفة الصديق في توجيهاته خلال حروب الردة أو في فتح العراق، كما وردت في رسائل الفاروق عمر إلى القائد سعد قبل القادسية وخلالها ولكن بلغة العرب ولا مجال هنا للتفصيل[2] ولكن من المفيد هنا أن نتذكر أن هذه المبادئ طبقت في تلك المعارك الإسلامية الكبرى بدقة وكانت بحق سبباً أساسياً للدخول في عهد جديد

---

[1] - حارث لطفي الوفي – لواء ركن – مبادئ الحرب – دراسة مقارنة – دائرة التدريب في الجيش العراقي– الطبعة الأولى – 1985 – الصفحة 31.

[2] - الطبري – ج3 – ص8.

للقوات المسلحة الإسلامية وفكرها الناضج وسبباً رئيسياً للنصر ومدخلاً أساساً لوجود جيوش منظمة أيام الخلافة الراشدة وخاصة بخلافة الفاروق عمر حيث وضع الدواوين وثبت الرواتب ونظم الأمور الإدارية خلف الجيوش ومصّر الأمصار حيث بنيت الثكنات والربط والقيروانات.

لقد اتفق الرأي لدى معظم الجيوش على تسمية مبادئ الحرب ومنذ العصر النابليوني وفق السياق التالي[1]:

توخي الهدف.

التعرض.

التحشد.

الاقتصاد.

المناورة.

القيادة.

الأمن.

المباغتة.

المعنويات.

الشؤون الإدارية.

المرونة.

---

[1] - حازم عبد الرزاق شهاب - عقيد ركن - مبادئ الحرب في العصر الحديث - مديرية التطوير القتالي في وزارة الدفاع العراقية - الطبعة الأولى - 1985 - الصفحة 21.

ومهما تكن الآراء في تقييم هذه المبادئ وإسداء الأهمية الخاصة على البعض منها أو إبراز البعض الآخر فإنها تبقى في عمومها نبراس فكر القادة وهيئات ركنهم نلاحظها بوضوح في معارك المسلمين بتطبيقات مختلفة قد تفرض الظروف أحياناً إبراز أحدها وتبعاً لموقع القتال وأرضه وطبيعة الخصم وتسليحه وقدراته الأخرى. ولكنها تبقى وبمجملها مطلوبة كمبادئ تنير درب القادة في كل الأزمان ولا ضرب مثلاً لأقرب لقارئي الكريم فكرة التطبيق على مر العصور والأزمان بالوسائل المختلفة ولمبدأ واحد فقط:

المناورة: كان قادة الجيوش في زمان القرطاجنيين والإغريق والرومان والعرب المسلمين والفرس يطبقون هذا المبدأ باستخدام الخيالة للقيام بحركات إحاطة يتحدد مداها بقدرة خيالتهم وشكل الأرض وترتيبات العدو وكما فعل خالد بن الوليد في معركة أحد عندما كان قائداً للخيالة عند قريش حين التف حول مواقع المسلمين ومن خلف جبل أحد مستغلاً غفلتهم عن الموقع وسرعة حركة خيالته مما أعطاه نصراً في تلك المعركة بسبب تطبيق هذا المبدأ وكذا في معارك عدة في حروب هانيبال والإسكندر والروم والفرس وقد قامت الجيوش الحديثة وخاصة المدرعة والآلية فيها بحركات مماثلة من ناحية المبدأ مختلفة من ناحية المدى وسرعة التنفيذ حيث كانت الوسيلة هي العجلة المدرعة والدبابة وكما حدث وبشكل بارز في حروب ومعارك شمال أفريقيا في الحرب العالمية الثانية من قبل القائد الألماني المارشال رومل والملقب بـ(ثعلب الصحراء) حيث استفاد وبشكل بارز من سرعة هذه الآليات وقدرتها على اجتياز المناطق الرملية وملائمة محركاتها لأجواء

المنطقة وطبيعة تسليحها بالمدافع ذات المدى والرشاشات وحتّى لأسلحة مقاومة الطائرات عند تعرض العدو الجوي عليها.

إن المقارنة بين الحالتين ترينا بوضوح كامل أن تطبيق المبدأ واحد مع فارق القدرة من ناحية السرعة والمقاومة بالدروع وثقل التسليح وسنرى بوضوح أكثر عند وصولنا إلى مرحلة شرح تصاميم أسوار المدورة دار السلام كيف أن الفكر العسكري العباسي حقق تطبيق هذا المبدأ مع مبدأ المرونة في تصاميم الأسوار والأبواب والخنادق مما يدلل على فكر متقدم لدى الجيش العباسي وفي عهد الدولة الأول.

كما أن الدارس لمعارك العباسيين وخاصة في معركتي الزاب مفتاح نصر العباسيين في صراعهم على السلطة مع الجيش الأموي ومعركة عمورية الشهيرة أيام المعتصم يلاحظ وبوضوح تام أن تطبيق مبادئ الحرب في التعرض والتحشد والمناورة ووحدة القيادة والمباغتة كانت بارزة تماماً تدلل على فكر عسكري متقدم ومتوازن كانت تتمتع به هذه القيادة وبكفاءة بما فتح لها آفاق المستقبل وإمكانيات تشكيل الدولة والسيطرة عليها.

تنظيمات الجند العباسي[1]

إن توسع القيادة العباسية بعد استلامها الخلافة في عدد الجيوش كان لازماً للحفاظ على هذه الدولة الكبيرة وفعلاً فقد كان لهذه القوات الفضل الأكبر في تثبيت أركان الدولة ونفوذها **وقد كانت مصادر الأشخاص ونوعيات المنتمين إلى هذه القوات وفق النظم التي وضعتها القيادة العباسية هي:**

أولاً: المرتزقة (وهم من اتخذ القتال حرفة ويتقاضى راتباً من الدولة).

---

(1) - الدكتور خالد جاسم الجنابي - تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني - دار الشؤون الثقافية العامة - 1989.

ثانياً: المتطوعة (وهم الراغبون بالجهاد تطوعاً).

ثالثاً: البعوث (وهم المكلفون حيث يضطر الخليفة إلى تكليف ولاية معينة ومدينة ما عندما تدعوا الحاجة إلى جيش كبير وهو بفرض أنواع النفير الخاص أو التعبئة الجزئية.

هذه من ناحية طبيعة الجند والمجندين ومصادر تجنيدهم أما من ناحية تنظيمهم على شكل وحدات مقاتلة رئيسية ووحدات فرعية ملحقة لكل منها قياداتها وكما يلي[1]:

أولاً : الجريدة. وهي أصغر الوحدات المقاتلة في الجيش العباسي وتعني الأفراد المجردون.

ثانياً: الرهط. وهو من خمسة إلى عشرة أفراد لهم آمر رهط.

ثالثاً: الحضيرة. وهي عشرة أفراد مع آمر.

رابعاً: المقنب. وهو بين الثلاثين أو الأربعين فرداً يرأسهم آمر.

خامساً: السرية. وهي بين الأربعين إلى الخمسين فرداً يرأسهم آمر.

سادساً: الكتيبة. وهي من مائة إلى ألف فرد يرأسهم آمر.

سابعاً: الجيش. وهو من ألف إلى أربعة آلاف.

ثامناً: الجحفل. وهو من ألف إلى أربعة آلاف أيضاً ولكنه يتميز عن الجيش بوجود الخيالة فيه مع المشاة الراجل (مختلط).

---

[1] - ثابت نعمان - رئيس ركن في الجيش العراقي - الجندية في الدولة العباسية – مطبعة بغداد – 1939م – (أعد هذا البحث بهدف جعله أطروحته لنيل شهادة أركان الحرب – دققه وراجعه بعد استشهاده السيدان عبد الستار القرةغولي وإبراهيم أدهم الزهاوي وطبعاه وهو والحق يقال كنز ثمين في مجال تاريخ العلوم العسكرية والجندية في عصر الدولة العباسية أكبر إمبراطوريات العالم لخمسة قرون من تاريخ البشرية.

تاسعاً: الخميس. وهو من أربعة آلاف إلى اثني عشر ألفاً (وقد سمي خميساً لأنّه يقسم إلى خمسة طرق هي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب).

عاشراً: العسكر. وهو مصطلح جامع للأقسام آنفاً.

حادي عشر: الأرعن. وهو الجيش الكبير.

إن هذا التنظيم وإن دل على شيء فإنما يدل على الدقة المتناهية والقدرة العالية لهذا الجيش الإمبراطوري الكبير الذي كان سند هذه الدولة الإمبراطورية وهو يدل فيما يدل على عظمة الحضارة العربية الإسلامية أيام الدولة العباسية وفي كل الأحوال فهو في بحثنا هذا يؤشر حقيقة المستوى العالي للعلوم العسكرية[1] وهو ما يؤشر مستوى التصميم والتخطيط لموضوع بحثنا هذا في دفاعات المدن الإسلامية وعلى رأسها دار السلام المدورة ثم بغداد العباسية وبعد انتقال الجزء الأكبر من المدينة إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة وإنشاء تحصينات جديدة لها بأسوار وخنادق جديدة وقلاع بأبراج عظيمة حمت المدينة من الغوائل.

ومن أسس التنظيم الرصين الأخرى في الجيش العباسي بما له من الدلالات على الفكر العسكري المتقدم هو تنظيم هذا الجيش بصنوف عديدة منظمة ومرتبة حسب الواجبات المحتملة أسوة بأحدث جيوش العصر في المبدأ مع فارق القدرة والعلوم والوسائل والتجهيزات ووسائل السيطرة والقيادة وقدرات الحركة والتنقل ولكنها بأي حال تدل على تقدم الفكر العسكري عند هؤلاء القادة البناة لتلك الحقب من تاريخ البشرية **وقد كانت صنوف الجيش في تلك الحقبة التاريخية كما يلي وبالأسماء الأصلية وتسلسلاتها:**

---

[1] - دكتور خالد جاسم الجنابي - تنظيمات الجيش - 1989م - الفصل الثاني - الصفحة 31.

أولاً: الصنوف المقاتلة.

أ. الخيالة (الفرسان).

ب. المشاة (الرجالة).

جـ النشابون.

د. المنجنيقيون.

هـ النفاطون.

و. الدبابون.

ثانياً: الصنوف الملحقة.

أ. الفعلة (المهندسون العسكريون).

ب. الكوهباتية (المخابرون).

جـ الأطباء.

د. الخدمات الإدارية.

إن المدقق المختص في تنظيم هذه الصنوف يلاحظ ويؤشر وخاصة عندما يطلع على تفاصيل وحداتها أو فروعها فكراً متقدماً للغاية في زمانه وعلى مستوى جيوش دول العالم المعروفة يومها مما جعله سنداً أساساً لدولة الإسلام.

تسليح الجيش العباسي[1]

إن من الأمور المهمة التي تؤشر الفكر العسكري هي أنواع الأسلحة وما طرأ عليها من تطورات تتخذها الجيوش لتحديث أسلحتها بما يؤمن الفعالية المطلوبة في القضاء على الجيش الخصم ويسهل الاستخدام من قبل القوات وقد كان تسليح الجيش العباسي في فتراته المختلفة يتمثل بمجموعات مختلفة من الأسلحة الهجومية والدفاعية الفردية والجماعية وكلها مصنعة في مدن الدولة العباسية وحسب الاختصاصات وهي:

أولاً: الأسلحة الهجومية:

أ. الأسلحة الخفيفة

السيف. سلاح فردي يستخدم بيد واحدة ذو حد مسنون.

الرمح. وهو عود من الخشب الزان أو الشوحط له رأسان من الحديد.

القوس العربية. وهي أقواس متعددة السهام تطلق مرة واحدة.

القوس الناوكية. وهي أقواس قاسية لا يتمكن من شدها وتوتيرها فرد واحد وإنما يشترك معه عدة أفراد ويصف الطبري قوتها فيقول بأنها تخرق جسد أكثر من شخص واحد.

أقواس الأبراج الثابتة. ويتم نصبها على الأبراج والقلاع ولها مجاري للسهام يوضع فيها أكثر من سهم واحد وتمثل هذه الأقواس سلاحاً كثيف النيران.

وهناك أنواع أخرى من الأسلحة الخفيفة كالخناجر وغيرها يسلح بها الأفراد لاستخدامها عند الاشتباك القريب.

---

[1] - نفس المصدر – تنظيمات الجيش – الصفحة 50.

ب. **الأسلحة الثقيلة.** وهي أسلحة تمتاز بثقل القذائف وطول المدى وشدة التأثير ويستخدمها مجموعة من الأشخاص عند القتال لما يتطلبه تهيئتها من جهد كبير وهي:

الدبابة. هيكل كبير من الخشب محمول على دوالايب تعطيه قدرة على الحركة وينقع بالخل لمنع اختراق النار وتستخدم لغرض التقرب من الأسوار والتحصينات وهدمها.

المنجنيق. وهو سلاح فتاك يستخدم في الهجوم والدفاع يناظر المدفعية في يومنا وله القدرة على تدمير المنشآت والأسوار وبإمكانه رمي أي من المقذوفات الحارقة المؤذية والكرات المشتعلة.

سلالم الحصار. تستخدم لتسلق الأسوار.

السفن والزوارق النهرية.

ثانياً. **الأسلحة الدفاعية**

كالدروع والخوذ والترس وكل ما يؤمن قدراً من الحماية للمقاتلين.

ثالثاً. **التحصينات الدفاعية**

وهي كل ما يتخذ لترصين الأرض وتأهيلها لتسهيل قتال أفرادنا وعرقلة أفراد العدو وإيقاع أكبر الخسائر بهم.

وهي الحصون والأبراج والخنادق والحسك الشائك.

وسنأتي على تفصيل مناسب عند بحث تصاميم أسوار وحصون بغداد في دار السلام الشرقية والغربية على حد سواء.

إن كل الشروح السابقة وضعتني في يقين من عظمة هذه الأمة وتطورها ورغم ما لحقها في متأخر الزمان بسبب تقصير أبنائها وتقاعسهم وسوء حكامهم.

لقد كان تفصيلي في هذا الجزء من البحث (العلوم العسكرية في العصر العباسي) مقصوداً فهو يلامس أسس الهدف من البحث في إبراز تفصيلات العلوم والقدرات العسكرية للدولة العباسية وقياداتها والتي كانت عصارتها تصاميم تحصينات وأبراج وأسوار وخنادق عاصمة الملك العباسي دار السلام المدورة ثم ما تلاها من توسعات للمدينة في غرب دجلة مما عرف بالكرخ ومن ثم في الجانب الشرقي مما عرف بالرصافة والذي انتقلت إليه فعاليات الخلافة في الحكم كاملة فيما بعد والذي أنشأت حوله الحصون والقلاع والخنادق المائية وزود بكل متطلبات الدفاع والحصار الطويل.

وقبل أن أترك هذا الجزء الهام من بحثي منطلقاً مما دلت عليه الأخبار المنقولة من اتجاهات مؤشرة للفكر العباسي وبما يوجبه التذكير وبسبب من تفصيل أمر الدفاع هو أن هذا الفكر لم يكن دفاعياً بحتاً. ولكنه أثر توخي عدم الوقوع في مفاجأة العدو وتأمين أطول وقت ممكن للاستعداد والتهيؤ.

وعموماً فإن الفكر الحصيف يوجب حساب كل الاحتمالات مهما قلت وبدرجات عالية وخاصة عندما يتعلق الأمر بحماية الدولة وعاصمتها ومواطنيها من السكان من هذه الأخطار المحتملة والتي كانت كثيرة في تلك العهود مما دفع الحكام والقيادات إلى الاجتهاد والإبداع في أشكال التحصين والدفاعات حول مدنهم ومعسكراتهم وحصونهم وقلاعهم وأماكن خزن مدخراتهم الزراعية والصناعية.

ولعل خبرات التحصين عند أهل العراق جاءتهم بسبب من تعرض أرض الوادي دوماً للغزو من المشرق والمغرب وكذلك بتوارث الثقافة العسكرية الآشورية المبنية أصلاً على قواعد العمل العسكري في المناطق الجبلية وطبيعة تحصيناتها الصخرية الحجرية المبنية أصلاً في مواقع مساعدة تكثر فيها القطوع الحادة مما يجعل التقدم فيها من الأمور الصعبة خاصة عند تحسينها بالإنشاء والحفر.

وكذلك فهناك وعند أهل العراق الخبرة المتوارثة من أرض اليمن حيث كانت الموجات المهاجرة من قبائل اليمن إلى أرض العراق وقت انهيار سد مأرب ولا يخفى ما لخبرة أهل اليمن وجنوب جزيرة العرب والتي هي بعمومها أرض جبلية وعرة التضاريس من أثر في انتقالها مع القبائل النازحة إلى أرض العراق بعد انهيار السد حيث تعطي الأقوام الجبلية نسبة عالية من جهودها الدفاعية إلى الأرض وجيولوجيتها وما يجري عليها الفكر العسكري من تحويرات وتطويرات تؤتى ثمارها الكاملة الكبيرة عند تعزيزها بالسلاح المسيطر من الأرض المرتفعة ومع كل ما تقدمه هذه المناعة من زيادة في قوة معنويات المقاتلين المستندين إلى سلاح جيد وأرض مسيطرة ومن ضعف في معنويات المهاجمين حيث يقطع الجبل والأرض الوعرة أنفاسهم قبل وصولهم الهدف ويمّكن المدافعين من مشاغلتهم بفعالية وسوقهم إلى (أرض القتل) حسب المفهوم العسكري الحديث القديم حيث تضطرهم الموانع والتحصينات إلى سلوك السبل الممكنة والتوجه إلى القسم الأسهل والممكن وكما يحدث في أصول وقواعد التقنية الحديثة باستخدام أنواع معينة من حقول الألغام. ولا نريد الاستطراد في هذا الموضوع أكثر ولكننا نقول بإيجاز بأن العلوم العسكرية بكل أنواعها المعروفة في قتالات ذلك الزمن كانت لدى القيادة العباسية وفي عهدها الأول على مستوى رفيع عالمياً زودها ومرافقها المهمة بأساليب متطورة في زمانها حافظت على كيان هذه الدولة لخمسة قرون من الزمان لم تنته إلاّ بزحف موجات المغول وهي قضية عالمية حدثت عدة مرات في تاريخ البشر مع إهمال الخلفاء العباسيين لكيانات حكمهم وتسلط المتسلطة عليهم ولتمر أسباب الفساد في الدولة بعد شيخوختها وما ينتج عنه من ابتعاد الشعوب عن حكامها وسيطرة المفسدين المستغلين مما هو معروف في تاريخ هذه الدولة.

الإمكانات البشرية

إن العنصر البشري بمستوياته المختلفة ولاشك هو العنصر الأساس في العمارة والبناء بدأً من مراحل التصميم وانتهاءً بآخر فقرات التنفيذ.

ويبقى عنصر التخطيط والتصميم هو الأهم في هذا المجال ولم يكن المنصور ليحتار كثيراً في تأمين هذه الإمكانية على الرغم مما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن دار السلام المدورة هي تخطيط وتصميم المنصور وهذا أمراً أراه مبالغاً فيه فصحيح أن الرجل كان موسوعياً في معارفه كما يروى ولكن ليس بالدقة المطلوبة في علوم المخطط والمصمم لمثل هذه المنشآت الضخمة الواسعة والأرجح أنه أعطى الأفكار العامة وحولها مهندسوه إلى تصاميم حولت بعدها إلى نماذج صغيرة شاهدها ودرسها وأقرها وأمر بالمباشرة بالبناء[1] (أنه أحضر مائة ألف من أصحاب المهن والصناعات لإنشائها، ومما ذكره اليعقوبي في هذا الصدد ((أن المنصور وجه لإحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه من يفهم شيئاً في البناء فحضر مائة ألف من أصناف المهن والصناعات))، أخبر بهذا جماعة من المشايخ (وذكروا أن) أبا جعفر المنصور لم يبتدئ بالبناء حتّى تكامل له من الفعلة وأهل المهن مائة ألف ثم اختطها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائة.

---

[1] - الدكتوران مصطفى جواد وأحمد سوسة – دليل خارطة بغداد المفصل – مطبعة المجمع العلمي العراقي – 1958م – الصفحة 47.

ويقال أن المنصور أحب أن ينظر إلى المدينة قبل إنشاءها فأمر أن تخط بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط فأوقدت فيها النار لإبرازها بشكل واضح، وحفرت أسس الأسوار والخندق المحيط بها من الخارج بحسب هذه الخطوط الموضوعة وأجرى الماء في الخندق.

وكان اليوم الذي شرع فيه المنصور ببناء المدينة يوماً مشهوداً حضره الأمراء والوزراء والعلماء والقادة والأعيان ووضع المنصور بيده أول لبنة في الأرض وقال: ((بسم الـلـه والحمد لله وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)) ثم قال: ((ابنوا على بركة الـلـه)) فشرعوا في البناء).

إن ما سبق إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنصور استعان بكل الخبرات الممكنة علمية، هندسية، تخطيطية، وحرفية إنشائية، وحرفية أخرى في الحدادة والنجارة والزخرفة المعمارية وغيرها مما يتطلبه تشييد العمائر والمنشآت الأخرى.

إن الرواية الخاصة برسم المدينة - أسوارها - سككها - قصورها - خندقها على الأرض ووضع حب القطن على الخطوط ورشه بالنفط وإضرام النار فيه بإبعاد المدينة الحقيقية كما يحلو لبعض المؤرخين توصيفه هو أمر غير معقول تماماً لسعة المدينة وكون الأرض المنشأة عليها أصلاً هي أرض زراعية فهي مزرعة المباركة التي عوض المنصور أصحابها ولم يصادرها كما تشير المصادر وبمثل هذه المساحة لا يعقل أن يؤتى بحبل طويل لتأشير الدوائر الخارجية الخاصة بالخندق والأسوار فهي لأكثر من كيلومترين قطراً بالتحديد وعلى بعض الروايات هي كيلومتر ونصف وليس معقولاً تماماً وجود مثل هذا الحبل بمثل هذا الطول لتأشير الدوائر وأعتقد أن الأرجح هو تأشير المركز واتجاهات الأبواب الأربعة والخروج من المركز بالذرع المتساوي لكل باب لدائرة القصر والمسجد الجامع أولاً ثم لدائرة قصور أولاد المنصور ثم لدائرة السكك

ثم لدائرة السور الأعظم ثم لدائرة السور الخارجي ثم لدائرة الخندق حول المدينة فهو الأسلوب الذي يمكن قبوله عقلاً ولكن المحرج هنا هو عدم ذكر هذا التفصيل من قبل المؤرخين ولكن وجدته أسلوباً في بعض المصادر الخاصة بالأعمال الهندسية في القرن الرابع الهجري وعند تأشير بعض الربط والمعسكرات.

ويبقى تخطيط وتصميم هذه المنشآت من الأمور اللافتة للنظر في ذلك الزمان وهو بالتأكيد جهد جماعي لمجموعة كبيرة من العارفين بالعلوم الهندسية يقودهم صاحب رؤيا واضحة عن هذه العلوم وهو ما يهمنا في بحثنا هذا.

إن القطع برأي بات في موضوع تخطيط المدينة المدورة دار السلام على نموذج مطابق بالمساحة لمساحة المدينة الحقيقية هو من الأمور الصعبة جداً حيث تورد أخبار المؤرخين رؤى مختلفة عنها وأغلب الظن أن المشار إليه هو نموذج مصغر للمدينة ومرافقها وهو الأقرب إلى العقل والتصديق وإن كان كذلك فهو الآخر برهاناً مضافاً على تقدم العلوم الهندسية في ذلك العصر ودليلاً أكيداً على كفاءة وخبرة المهندسين الذين استعان بهم المنصور لتصميم وتخطيط المدينة والذين سنرد على ذكرهم بأسمائهم في القادم من الشروح من هذا البحث وكما ذكرهم المؤرخون.

وقبل الانتقال من هذا الموضوع فقد بقيت قضية مهمة جداً في موضوع تحديد الموقع الذي بنيت عليه المدورة ومدى تحملها لأثقال الأسوار وأبراجها العظام والمنشآت الكبيرة الأخرى حيث لم أجد رغم الجهد الكبير من يشير من المؤرخين إلى هذا الموضوع رغم أهميته العالية من وجهة النظر الهندسية خاصة في موقع يمتاز بخفة التربة وبارتفاع مستوى المياه الجوفية لإحاطة الأنهار به ولانخفاض أرضه عن أراضي الجوار وخاصة من ناحية الغرب والشمال. إن إنشاء هذه العمائر بهذه الارتفاعات وهذه الأوزان يدل دلالة واضحة على إنشاءها على أسس رصينة مصممة هندسياً على

أساس مهما كان بسيطاً وبدائياً من فحوص تحدد طبيعة التربة ويتحدد على أساسها عمق وعرض هذه الأسس وطبيعة المواد المستخدمة في إنشاءها وهي قضية أخرى تدلل وبوضوح على ضرورة لازمة لاستمرار الباحثين المتخصصين في التحري والتنقيب والحفر وكما في التنقيب في بطون المصادر المغمورة ليوصلونا إلى حقيقة المستوى العلمي الذي بنيت على أساسه هذه العمائر وعاشت لمئات السنين وحققت فيها كافة الأغراض والمقاصد التي أنشأت من أجلها.

ويمكن لنا أن نتطرق بشيء من التفصيل عن ماهية الخبرات التي استخدمها المنصور من مختلف البلاد لأغراض هذا العمل الضخم ولو أن المصادر هي الأخرى أحجمت في هذا الجانب عن ذكر مفصل لتراجم هؤلاء المهندسين[1] ولكن بعض المراجع كمؤلف أستاذنا المرحوم الدكتور صالح أحمد العلي – بغداد مدينة السلام – الجانب الغربي المشار إليه حاول الرجوع إلى أصولهم بتتبع انتماءاتهم العربية وفق مدنهم إلاّ أنني أعتقد أنهم خليط من أصول أمة الإسلام بأقوامها المختلفة وهذا أساس طبيعي لعصور الإسلام الأولى وللمنطق حيث لم تكن العلوم والفنون محصورة في أمة العرب ولا في غيرها وإنما كان هناك الجهد المشترك والعلوم المتبادلة والمتوارثة والمنقولة وهو ما أعتقد أنه أقرب إلى الحقيقة وليس أدل على ذلك من تتبع معاجم الأشخاص لأي علم من العلوم وحتى في علوم الدين والفقه والحديث في تلك العهود.

إن من استطعنا تتبع أخبارهم من مهندسي الدرجة الأولى:

الحجاج بن أرطأة /[2].

أبو حنيفة النعمان /

---

[1] - الدكتور صالح العلي – بغداد مدينة السلام – الجانب الغربي – 1985م – الصفحة 229.

[2] - الطبري – 276/3.

حيث يقول الخطيب البغدادي: (تولى الوقوف على خط بغداد الحجاج بن أرطأة وجماعة من أهل الكوفة)[1] ولا أدري لماذا يستعمل الخطيب اسم بغداد وهي دار السلام المدورة وليست بغداد القرية وهو كاتب تاريخها المختلط بين المدورة وبغداد الشرقية والغربية وبعد عدة قرون من إنشائها وبنائها.

ويبدو أن الحجاج بن أرطأة كان من أبرز مهندسي دار السلام وهو من رجال الحديث والفقه وله مؤلفات عديدة فيها وقد أجمل الذهبي في ترجمته وقال أنه كان أحد مفتي الكوفة وتولى أمر الشرطة في بعض الأحيان كما تولى قضاء البصرة ومعروف أن العلماء في ذلك الزمان كانوا موسوعيي المعرفة وفي العلوم المختلفة[2] وهو الذي خط مسجد المدينة المدورة الجامع ذو القبة الخضراء وسط المدينة.

وممن وردت أسمائهم من المشهود لهم بالمعرفة في العلوم الهندسية ضمن أخبار مهندسي ومخططي المدينة والمشرفين على بناءها:

عبد الـلـه بن محمد.

الحجاج بن أرطأة.

عمران بن الوضاح.

شهاب بن كثير.

وقد كلف المنصور عمران بن الوضاح للإشراف على الأرباض الممتدة من باب الكوفة إلى باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل به[3].

---

(1) - الخطيب – 70/1.
(2) - الذهبي – سير الأعلام النبلاء – 68/3.
(3) - اليعقوبي – البلدان – 246.

وكلف عبد الله بن محرز الإشراف على الربع من المدينة من باب الكوفة إلى باب الشام وشارع طريق الأنبار[1].

وكلف الحجاج بن أرطأة للإشراف على الأرباض بين باب الشام إلى ربض حرب[2] وكلف المهندس شهاب بن كثير على الأرباض ما بين باب خراسان إلى الجسر وإلى باب قطربل[3].

إن تقسيم المدينة إلى أجزاء يسهل السيطرة عليها وتتحدد المسؤولية فيها بأشخاص بعين ذاتهم هو الآخر دليل على التنظيم الهندسي المتخصص ليس في التصميم والتخطيط فحسب وإنما في التنفيذ والإشراف، وموضوع الإشراف بالذات هو من العوامل الأساسية لضمان حسن التنفيذ وفق المواصفات المثبتة ويشمل ذلك سلامة المواد المستخدمة في الإنشاء ومطابقتها للمواصفات بهدف الحفاظ على الجودة العالية.

وقد كان المنصور حريصاً جداً على متابعة العمل حيث يذكر الطبري أنه أي المنصور عندما سمع بخروج محمد بن عبد الله عليه خلال مراحل البناء غادر موقع العمل قاصداً الكوفة ولكنه استخلف مولاه أسلم للإشراف على البناء نيابة عنه[4]. ولم تتطرق المصادر أيضاً إلى المنسقين من قادة الجيش عند بناء السور الأعظم والأبراج حيث أن هناك الكثير من الأمور التي تتعلق باختصاصاتهم يتوجب التنسيق فيها عند الإنشاء حيث أن التنسيق عند إعداد التصاميم يتضمن الارتفاعات وفروقها بين السور الداخلي والخارجي والمسافات للفصائل بينها وبين الخندق المائي المحيط واتجاهات الأبواب والطاقات مع اتجاهات المعابر والجسور على الخندق والأمور الأخرى

---

(1) - نفس المصدر – 242.

(2) - نفس المصدر – 242، 249.

(3) - نفس المصدر – 242، 249.

(4) - الطبري – 219/3.

الواجب التنسيق فيها هي عدد المزاغل بما يؤمن كثافة مطلوبة للنار واتجاهاتها وتصاميمها وبما يؤمن الحماية للمقاتلين والرماة وراءها وبقدر ما يؤمن لهم من سيطرة لنيرانهم مطلوبة في كل المراحل اعتباراً من تقرب المهاجمين من الخندق المائي وحصرهم عند الفتحات المحددة في السور الخارجي ثم صب أكبر كمية من النيران عليهم بين السورين مع ملاحظة أن نقطة الوهن الرئيسية التي تستوجب أكبر كمية من النيران المصوبة هي عند عبور المهاجمين للخندق المائي إذا أفلح المدافعين في تدمير جسوره لأن القائم بالعبور يكون على أوهن حالاته عندما يكون في الماء وقبل استلامه الضفة القريبة من شواطئ الخندق كل ذلك إضافة إلى الوهن الكبير الذي يصيب معنويات أفراد القوة المهاجمة إذا كانت النيران موجهة بشكل جيد مؤثر يوقع خسائر مهمة في صفوفهم مما يستوجب تدقيقاً كبيراً من قبل القادة لضمان تأمين كفاءة وصلاحية مواضع الرمي ومزاغلة على الأبراج وفوق الأسوار لهذه الأهداف المهمة جداً في مثل هذه الأنواع من القتالات وقبل اقتحام الأسوار. وقد أمن المنصور هذا التنسيق بشكل دقيق ملفت للنظر حيث قسم المدينة كما أسلفنا إلى أرباض أربعة[1] وجعل الإشراف على كل واحد منها لثلاثة رجال لهم ثلاثة اختصاصات **وهم بالتخصص:**

قائد عسكري - وواجبه بشكل رئيس تنسيق المتطلبات العسكرية والسيطرة.

مولى - وواجبه بشكل رئيسي الإشراف والتوجيه الهندسي للعمال.

وكان القادة الذين أشرفوا على الأرباض الأربعة هم:

المسيب بن زهير.

سليمان بن خالد.

---

[1] - اليعقوبي - البلدان - الصفحة - 240.

حرب بن عبد اللـه.

هشام بن عمرو التغلبي.

والموالي هم:

الربيع وواضح وغزوان وعمارة بن حمزة.

والمهندسون هم:

عمران بن الوضاح.

عبد اللـه بن محرز.

الحجاج بن أرطأة.

شهاب بن كثير.

ولضمان كفاءة البناء والتنفيذ فقد ركز المنصور على موضوع الإشراف ولم يكتفي بما سبق لنا ذكره من القادرة والمهندسين والموالي بل زاد باختيارات خاصة لأناس من أهل الفقه والدين ومن المعروفين بالقدرة العقلية وصلاح الدين والإخلاص في العمل وعلى عدة مستويات ففي المستوى الأول اختار المنصور الحجاج بن أرطأة وأبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وكلفهما بمتابعة سير العمل والإشراف عليه ومحاسبة القائمين على التنفيذ[1] وكما أنه اختار وبمعاونة ومشورة قادته ومواليه مجموعة

---

[1] - هما من أهل الدين والفقه والحديث معروفان بالعدالة والحق والإخلاص في العمل وتنفيذ الواجبات والذمة وكان سبق للمنصور أن طلب من أبي حنيفة تولي القضاء في مدينته الجديدة بعد إنجاز تنفيذ بنائها ولكن الأخير امتنع عن ذلك وحلف على ذلك بعد حلف المنصور عليه، فاضطر المنصور وحفاظاً لماء الوجه وثقته بالنعمان إلى توليته الإشراف على العمل مع الحجاج بن أرطأة وعلى ضرب اللبن وعده وحث العمال على العمل كما يروي الطبري (الطبري 238/6) ويوضح الخطيب البغدادي أيضاً أن النعمان ابتكر طريقة جديدة لاختصار الجهد بعد اللبن فاستخدم القصب بطول معين يوازي عدد من اللبن وبضرب الأرقام يتوصل إلى العدد المضبوط وهو أول من

من المشرفين الفرعيين يعملون بأمرة المشرفين الأساسيين المذكورين ويتوزعون على طول خطوط العمل ومواضعه لكل منهم قاطعة. أما العمال غير المهرة والمهرة المسؤولين عن تنفيذ العمل فيقول اليعقوبي[1] بأن أبا جعفر لم يأمر ببدء العمل إلاّ بعد أن تكامل وصول مائة ألف من العمال المهرة للبناء وغير المهرة للحفر والنقل ولمساعدة المهرة في إيصال اللبن والمواد اللاصقة وفرشها ولم يتطرق المؤرخون إلى تفصيل أكبر في تسمية الحدادين والنجارين وهما من أهم الحرفيين الذين تؤثر كفاءتهم بشكل كبير على سلامة العمل في السقوف والطاقات والأبواب والمنافذ والشبابيك ولكنه واضح مع هذا الجهد المتميز أن الذين أحضروا منهم كثر وعلى أعلى المستويات في الكفاءة ومن كل بلدان الدولة الإسلامية وولاياتها.

موارد المواد الأولية

المعروف عن مدن العراق القديم وقبل العصر العباسي الأول أنها بنيت بمواد أصولها طينية أما صنعت من أطيانها قطع اللبن بأحجامها المختلفة[2] وهي سمة الحضارات الطينية[3] في بلاد ما بين النهرين. فهذه الموجات الهائلة من مياه

فعل ذلك مما يدل على معرفته بعلوم الحساب والرياضيات مما أفاد المسلمين بعده باعتماد هذه الطريقة بالحساب في الحالات المشابهة وكما يروي الخطيب (الخطيب 71/1).

[1] - اليعقوبي – الصفحة 238.

[2] - اللبن هو قطع من الطين الرسوبي الخالي من الأملاح يصنع عن طريق خلط التربة بالماء ومزج مادة رابطة معها كالتبن وخلطها جيداً وتخميرها داخل حفر خاصة بها لعدة أيام مما يضفي عليها لزوجة ومرونة عالية ثم تنقل إلى قوالب من الخشب أو أية مادة صلبة أخرى لإعطائها أشكالاً هندسية منتظمة ضرورية لاستخدامها في البناء ثم تترك بعد نزعها من القوالب في الشمس لعدة أيام حيث تجف وتكتسب الصلابة المطلوبة لاستخدامها في البناء وتصبح مادة عازلة للحرارة وملائمة جداً للأجواء العراقية المعروفة بحرارتها الشديدة صيفاً وهي من أهم ميزاتها الهندسية.

[3] - الحضارات الطينية – مصطلح يستخدمه الآثاريون للتعبير عن الطبيعة الطينية فنشأت عمائر المدينة العراقية القديمة في الحضارات السومرية والأكدية والبابلية والتي قلما نشاهد اليوم عمائرها قائمة رغم الجهود التي بذلها الأقدمون لتقويتها باستخدام مواد تساعد على تماسكها وتقويتها كالحصران والقصب والقار المتيسر في المناطق العراقية المختلفة والمعروف منذ القدم. إن سبب زوال هذه الآثار إضافة إلى وهنها هو انخفاض أرض الوادي وانغمارها سنوياً بمياه الفيضانات المدمرة.

الفيضانات السنوية تدمر ما في هذه المدن من منشآت ولذا نرى أن الحضارات السومرية والأكدية تركزت في محور الفرات ولا نرى لها أثراً على محور دجلة ومن بغداد حتّى الجنوب بسبب من ارتفاع أرض وادي الفرات عن دجلة.

ونعود إلى مادة اللبن الأساس في بناء مدينة دار السلام ومن ثم بغداد الشرقية مضيفين أن أهل العراق أضافوا إلى العملية الخاصة بصنع اللبن عملية أخرى بالشي بالنار وبتعريض اللبن قبل جفافه بالشمس كلياً إلى درجات حرارة معينة حيث يتم فخره ويتحول إلى طابوق صلب بعد اكتسابه الصلابة المطلوبة ونشاهد هذه المادة في مدن مختلفة في العراق القديم وفي العراق العباسي والعثماني وقسم منها قائم إلى يومنا الحاضر في منشآت مختلفة كالمساجد والخانات وأجزاء من أسوار بغداد القديمة وأبوابها وعمائرها.

استخدم بناة دار السلام المدورة هذه المادة بشكل أساسي في بناء المدينة وأسوارها ويذكر المؤرخون أن بناة بغداد استخدموا (اللبن العظام)[1] وهو حجم لم يعرف بالمقاسات الاعتيادية واستخدم بشكل أساس في بناء الأسوار والأبراج المخصصة للقتال حول السور الأعظم الداخلي وفي بناء طاقات الأبواب والمداخل.

كما تذكر المصادر المختلفة أن الآجر وهو الطابوق الحاصل نتيجة فخر اللبن وشيه بالنار استخدم في عقاده الطاقات مع استخدام الجص وهو معروف في بعض مناطق العراق الشمالية منها والوسطى في محيط منطقة سامراء[2] وهي مادة لاصقة تساعد كثيراً على تماسك قطع الآجر وهي تستخدم إلى يومنا الحاضر لهذا الغرض أو بهدف

---

[1] - اليعقوبي – البلدان – 239.
(اللبن العظام) تعبير استخدمه المؤرخون للتعبير عن أحجام كبيرة من هذا اللبن وصفت بأن أبعادها ذراع في ذراع أي (50 سنتمتراً × 50 سنتمتراً) وهو حجم كبير نسبة إلى المقاسات الاعتيادية للبن البناء وهو لكبره يختصر الجهد والوقت في قطع اللبن وقصه كما يختصره في عملية البناء ذاتها.

[2] - د. صالح العلي – بغداد مدينة السلام – الجانب الغربي – 1 – الصفحة 303.

طلاء الجدران الداخلية بصورة خاصة مما يساعد على تقوية البناء وملئ الثقوب والشقوق في الجدران والحادثة بسبب المفاصل بين طبقات الطابوق.

كما استخدم الطابوق الفرشي المعروف في أيامنا بـ(الكربلائي) في تبليط أرضية أبواب المدينة الداخلية ومسالكها المدورة داخل الطاقات وقبل أن أنهي كلامي عن طبيعة المواد المستخدمة لابد لي من الإشارة إلى أن اثنتان من الأبواب الأربعة جلبها المنصور من مدينة الحجاج في واسط وهي أبواب قديمة لمدينة إيرانية قرب واسط كما سيرد ذكره مفصلاً في بحث أبواب المدينة في فصل لاحق وهي أبواب حديدية شديدة المتانة وصنع أخرى وهي الأوهن وجلب الرابعة من الكوفة.

ورد في بعض الروايات أن أبا جعفر المنصور فكر في جلب الطابوق من طيسفون المدينة الفارسية الواقعة جوار طاق كسرى في منطقة المدائن ولكنه واجه صعوبات كبرى في نقل الطابوق لهذه المسافة الطويلة ونقله عبر نهر دجلة على جسر عائم فأحجم بعد هذه الصعوبات عن ذلك ويقال أنه فكر ابتداءً حتّى بهدم طاق كسرى ثم ترك الموضوع فيما بعد لصعوبته.

وباختصار فإن المواد المستخدمة كانت بعمومها طينية مصنعة من ترب المنطقة الوسطى من العراق المعروفة بطبيعتها الرسوبية النقية والخالية من الأملاح ولم يكن ممكناً استخدام المواد الحجرية المعروفة في الحضارة الآشورية شمال العراق لبعدها.

الموارد المالية وكلفة الإنشاء

ورد في الأخبار المنقولة حول كلفة إنشاء المدينة وبناءها روايتان فيهما اختلاف كبير في الأرقام حيث نقل ابن الفقيه والطبري والخطيب[1] عن عيسى بن المنصور أنه وجد في خزائن أبيه المنصور أن مقدار ما أنفق على المدينة بما فيها المسجد الكبير والقصر كان مقداره (أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم). هذا في الرواية الأولى.

أما الخطيب البغدادي فينقل عن أحمد البربري أن المبلغ كان (ثمانية عشر ألف ألف) وقد نبه الخطيب إلى هذا التباين[2]. وهذه هي الرواية الثانية.

وتذكر المصادر أن الأسطة من البنائين كان يتقاضى أجراً يومياً مقداره (قيراط فضة) وأن (الروزكاري) كان أجره اليومي حبتين إلى ثلاث حبات وحسب نشاطه[3]. وقد وردت روايات أخرى بأرقام مختلفة والغريب أنها في نفس المصادر وأعتقد أن الأجرة كانت تعطى تبعاً لظروف العمل ونشاط العامل عند ارتفاع السور أو المنشأ أو يعمل في السقوف مما يجبره على نقل المواد بمشقة إلى الارتفاعات.

---

(1) - ابن الفقيه – 39.
الطبري – 326/3.
الخطيب – 69/1.

(2) - الخطيب – 69/1.

(3) - الطبري – 326/2.
(الأسطة) هو البناء الماهر الذي يقود عملية البناء ويمارسها بيده.
(الروزكاري) هو العامل غير الماهر الذي يعمل لمساعدة الأسطة في نقل مواد البناء وإحضارها وفرش المواد اللاصقة من قار وجص وغيره.

الفصل الخامس

* فن اختيار المدن وخططها عند العرب قبل الإسلام وبعده وعلاقته باختيار موقع دار السلام المدورة.

* أفكار أولية حول تشكل المدينة العام.

* تصميم وبناء المدورة دار السلام.

* توسع المدينة في مناطق الجوار.

* الشواهد التاريخية المهمة في بغداد الغربية/ الكرخ.

* الشواهد التاريخية المهمة في بغداد الغربية/ الرصافة.

فن اختيار المدن وخططها عند العرب قبل الإسلام وبعده وعلاقته باختيار موقع دار السلام المدورة

دأب البعض من المؤرخين والباحثين إلى إلصاق أوصاف شائعة ببعض الأمم لدى إجراء دراساتهم وذلك بإعطاء الصفات والحوادث المنقولة عن أمة ما صفة العمومية والإطلاق وهذا غير متناسب مع أصول البحث ودقته حيث أن المقولة المشهورة (لكل حادث حديث) تعتبر أساساً في التوصيف.

ومن يقرأ المقدمة (لابن خلدون) يرى بادئ ذي بدء أن الرجل يسب أمة العرب حين يقول: (إن العرب لا يتغلبون إلاّ على البسائط، وذلك لأنّه منهم أهل انتهاب وعبث. ينتهبون ما قدروا عليه من غير فعالية ولا ركوب خطر، ويقرون إلى منتجعهم بالفقر ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلاّ إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم... الخ)[1] ثم يعود في فصل آخر فيقول: (في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب والسبب في ذلك أنهم أمةٌ وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وحيلة وكان عندهم (ملذوذ) لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران...الخ)[2]. ان ما جاء بالاية الكريمة من ان الاعراب اشد كفرا و نفاقا قد أراد بذلك الأعراب والبدو حصراً وليس العرب كأمة[3] لأن اللـه خلق البشر على شاكلة

---

(1) - ابن خلدون – المقدمة – 149 الفصل الخامس والعشرين.

(2) - ابن خلدون – المقدمة – ص149 الفصل السادس والعشرين.

(3) - القرآن الكريم سورة التوبة آية 96 ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُود اللـه**﴾.

واحدة وأن الطبع كما هو ثابت علمياً اليوم هو حصيلة النشأة بما فيها من ظروف وعوامل طبيعية وبما فيها من أمور تربوية وليس أدل على ذلك في وجود هذه الخصال في أقوام بدائية أخرى وحتى الأمم المتحضرة ففي حالات الحروب والصراع تظهر فيها كل عوامل الهدم والتخريب وكما حصل فعلاً في حروب القرن العشرين مما فعلته الأمتين الألمانية والإيطالية وما فعله الروس والأمريكان والإنكليز والفرنسيين بأعدائهم بعد تمكنهم منهم وليت الأمر كان قد اقتصر على ذلك فقد قامت هذه الشعوب المتمدنة بأفعال شنيعة ولا إنسانية وبمستوى متدني جداً في الأمم التي استعمروها وهي ضعيفة فقيرة ولمجرد مطالبتها بحقوقها وأفعال الإنكليز في كينيا ودول أفريقية أخرى والفرنسيين في الجزائر والأمريكان في فيتنام خير شاهد على ذلك ويا ليت ابن خلدون كان حياً ليرى بنفسه.

إن ما يهمنا في هذا البحث هو أن نقول في هذا الصدد، إن هذه الأمة كغيرها من الأمم فيها الخصال الحميدة وفيها غير ذلك ولكنها وعلى قدر تعلق الأمر ببحثنا هذا امتازت بالقدرة العالية على البناء والإعمار وبرعت في التصميم والتخطيط والتنفيذ عندما كانت الظروف ملائمة وأنها عمرت في العراق والشام ومصر والأندلس والمشرق وعلى يد غير قائد وفاتح[1] وللمدينة العربية الإسلامية خصائص ومميزات تدل على عمق فكر القائمين على أمر التخطيط والتصميم لإنشائها وسعة أفقهم وشمولية دراساتهم ودقة أبحاثهم واستنارتهم بالقواعد المتوارثة والمنقولة عن الحضارات الأخرى المجاورة والبعيدة عن نفس الموضوع. إلاّ أن دراسات المؤرخين العرب المسلمون لم تكن بالدقة الوافية لإيضاح مثل هذه الأمور، وكانت لدراسات المستشرقين الأولية في كشف هذا الجانب الحضري في أمة العرب وتاريخها والذي يعكس بوضوح مرحلة مهمة من

[1] - د. طاهر مظفر العميد – تخطيط المدن العربية الإسلامية – مطبعة جامعة بغداد – 1986 – نماذج من المدن العربية قبل الإسلام – الصفحة 9.

مراحل التطور الإنساني وكما يوضح الدكتور محمد عبد الستار عثمان في مؤلفه الموسوم (المدينة الإسلامية) والصادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت في آب 1988م. وكما سنرى لاحقاً.

شواهد من قبل الإسلام

مأرب:

وعرفت كذلك باسم سبأ نسبةً إلى سبأ بن يشعب والمدينة واسعة وتعتبر من أكبر مدن اليمن والجنوب العربي ولم يبق من آثارها اليوم إلاّ القليل وهي إضافة إلى تصميمها الحضري والتجاري فهي مدينة مهيأة للدفاع تماماً كما تظهر لنا أسوارها[1] حيث أن المدينة محاطة بأسوار من اللبن المصنع الذي شيد فوق أساسات مصممة من الحجر كما أنه مغلف بالحجر أيضاً، وتدعم هذا السور أبراج. وهذه الأبراج مهيأة للدفاع والقتال والتصدي للمهاجمين وهي ليست على شاكلة واحدة أو حجم واحد وإنما هي مصممة في كل جزء من السور لمواجهة حجم معين من التهديد وحسب طبيعة المنطقة المحيطة[2].

وتقع المدينة بالقرب من سد مأرب التاريخي وعلى بعد أربعة كيلومترات شرقاً وعلى وادي أذنة وحولها الكثير من الحدائق والبساتين والمناطق الزراعية[3] والسد المذكور هو الآخر من المشاهد الحضارية المهمة في تاريخ عرب اليمن فهو نموذج هندسي معماري يعتبر بحق أهم أثر في منطقة الشرق العربي ليس فقط لكيانه المعماري الهندسي وإنما بسبب دوره المهم في آلية السيطرة على المياه وتنظيم

---

[1] - د. طاهر مظفر العميد - تخطيط المدن العربية الإسلامية - 1986 - الصفحة 9، 10.

[2] - نفس المصدر - الصفحة 10.

[3] - القرآن الكريم - سورة سبأ الآية 15 **﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾**.

استخدامه لأغراض ري المناطق المحيطة مما يعتبر نهجاً حضارياً متقدماً في زمانه وبما ليس له نظير وقتها.

صنعاء:

وقد ورثت سبأ بعد انهيار سدها العظيم ونزوح ساكنيها شرقاً وغرباً وشمالاً وقد أنشأها ملوك تبع وكانت ومازالت إلى يومنا الحاضر حاضرة اليمن المهمة. ومن تواريخها المهمة أنها أصبحت في منتصف القرن السادس الميلادي وقبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة عاصمة أكسوم المسيحية زمان الاحتلال الحبشي لها حيث بنيت الكنيسة الشهيرة باسم (القليس)[1] كما أن هناك في اليمن شواهد عديدة وعمائر بارزة من أشهرها قصر غمدان المنسوب بنائه إلى (اليشرح بن يحصب) ويذكر المؤرخون أن هذا القصر ظل قائماً حتّى بداية ظهور الإسلام ودخوله إلى اليمن وما بعده حيث جرى هدمه في حروب الردة لكونه قلعة حصينة تحصن بها المرتدون.

وكانت المدينة (صنعاء) هي الأخرى محاطة بسور عظيم دائري الشكل (وهو أحد النماذج المهمة والبارزة في العمارة العربية (هندسياً وعسكرياً) والتي استقى منها الخليفة أبو جعفر المنصور أفكاره ومهندسيه عن الشكل المدور لمدينته دار السلام وسورها الدائري الشكل) ويذكر أنه بني ما بين الأعوام (50 إلى 25ق.م) من قبل أحد ملوك اليمن والذي اشتهر تاريخه بالفتوح والتوسع وهو (يريم بن أيمن بن علهان بن نفهان) والذي قام بغزوات عديدة في منطقة الجنوب العربي واحتل المناطق العمانية ومنطقة حضرموت حتّى وصل إلى شيوه[2] إلاّ أن هناك ذكر وفي نفس المرجع إلى تعزيز السور وترميمه وإعادة بناء بعض أجزائه المتهدمة وبنفس الطرز المعمارية

---

(1) - أحمد فخري – اليمن ماضيها وحاضرها – الصفحة 92.

(2) - عبد اللـه الشور – هذه هي اليمن – الصفحة 203.

السابقة (لأنّه تهدم بفعل الزمن) ومن قبل السلطان (طعتكين بن أيوب) - (579 - 590هـ/1183 - 1194م).

والسور اليوم مشيد باللبن مع كتل حجرية غير منتظمة ويبدو أنها من فعاليات المتأخرين ممن حكموا اليمن ولاشك بأنه وكأي منشأ آخر من المدينة لم يعش طول هذه السنين والقرون وإنما رمم وبني وجدد لعدة مرات والذي يهمنا هنا هو وجود فكرة السور عند العرب قبل الإسلام كجزء من النهج الدفاعي عن المدن وبطريقة التحصين[1]. و سنورد تفصيلا له في بحث خاص عن حصون و قلاع و اسوار المدن اليمنية إن شاء الـلـه و ساعد العمر .

الحضر:

لما كان الصراع قائماً بين دول المغرب البيزنطية بصورة خاصة والفرثية والساسانية من دول المشرق وكان الشرق العربي في العراق وبلاد الشام وسيطاً بينهما نشأت فكرة من الحياد بين الطرفين المتنازعين عند سكان المنطقة من العرب وقياداتهم السياسية التي تبنت فكرة الحياد والحلول السياسية التوفيقية عند وصولها إلى استنتاجات أساسية مبدئية تتعلق بعدم وجود أي جدوى أو فائدة لسكان المنطقة من هذه الصراعات والحملات العسكرية خاصة وأن هذه الحملات كانت تتجنب الدخول إلى الصحراء بسبب من الطبيعة القاسية لهذه الصحراء وعدم توفر الموارد الإدارية واللوجستية لإدامة معارك هذه الجيوش فيها وعدم قدرة مواطنيها من الجنود على الانسجام والتوافق مع أجواء الصحراء وهذا ينطبق على دول المشرق ودول المغرب والتي كانت معظم أراضيها جبلية وأجوائها رائقة لطيفة ذات العيش

---

[1] - د. طاهر مظفر العميد - تخطيط المدن العربية الإسلامية - الفصل الأول - نماذج من المدن العربية قبل الإسلام - الصفحة 12.

الناعم على العكس من الأجواء الصحراوية ذات العيش الخشن القاسي المفتقر لأبسط متطلبات الحياة الإنسانية.

وكان تطلع هذه الأقوام إلى (الحياد بين أطراف نزاعات خارجية ليس لأقوام المنطقة فيها (ناقة ولا جمل) ساحتها أرضهم الواقعة وسط منطقة النزاع بين هذه الأطراف) دافعاً مهماً للسكن في أماكن متفرقة من هذه الصحراء الكبيرة وفي مدن تجارية تؤمن لهم عناصر الدفاع الأساسية حيث بيئة الصحراء وتحصينات مدنهم مما يجعل أطراف هذه الصراعات من فرس وروم تتردد في مهاجمتها للكلفة الباهضة والخسائر الكبيرة في هذه الهجمات مادياً وبشرياً أولاً ولما يؤثر في مصالحها التجارية في هذه المحاور المهمة ثانياً.

وكانت الأسوار والخنادق المحيطة بهذه المدن عاملاً أساسياً لتأهيلها للدفاع وتمكين عناصرها القتالية من الصمود وتأدية واجباتها العسكرية بصد المهاجمين.

بهذا الاتجاه نشأت المدن العربية الصحراوية في البتراء وتدمر في الشام والحضر في العراق وتقع الحضر في الجزء الشمالي الغربي من بلاد وادي الرافدين جنوب غرب مدينة الموصل بحوالي (110كم)، ويقول الأستاذ المهندس شريف يوسف في مؤلفه (تأريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور) أنها أي الحضر من مدن البوادي كالبتراء وتدمر. وقد قمت بتدقيق موضوع صحراوية الموقع فوجدت بأن مجاري مياه مهمة لمسارات قديمة لنهر دجلة يمر بالقرب من موقع المدينة وأن فيها مجموعة من المجاري المطمورة تحت الأرض تمر على مقربة منها أو داخلها على شكل قنوات مبطنة اصطناعية صممت وأنشأت من قبل أهالي الحضر القدماء وهي دائمة الجريان طيلة أيام السنة مما يجعل فروقاً مهمة تبرز بين بيئة البتراء وتدمر وبيئة الحضر وأنها تمتاز بميزات العمارة الدائرية للمدن والمنقولة عن العمارة الآشورية والسومرية

(انظر خارطة الأسوار المدورة للحضر (خارطة رقم (3))[1] وأنها كانت أقرب لعمارة مدن بلاد وادي الرافدين منها إلى عمارة المدن الصحراوية ولو أنها شاركت هذه المدن بإنشاء كم مهم من المعابد يؤمن لها إسناد قبائل البدو الرحل حولها تجارياً واقتصادياً كما يؤمن لها الإسناد الدفاعي عند مهاجمتها من قبل الغزاة. وكانت المدينة عاصمة لدولة عربية تمتد حدودها بين الفرات ودجلة غرباً وشرقاً وحاضرة المدائن وجبل سنجار جنوباً وشمالاً وكان وادي الثرثار يقطعها من الشمال إلى الجنوب)[2] وتعرف هذه باسم (عربايا) (بلاد العرب) وكانت تتمتع بالاستقلال الذاتي ضمن سيطرة الفرثيين العامة وحيث كانت خطوط تجارتهم تمر بهذه المدينة ، ولقد امتد حكم هذه المملكة حوالي اربعة قرون من الزمان وليس من شك في ان نموها كان بسبب موقعها الجغرافي والمناخي حيث كان الربيع فيها غنياً بالامطار التي تنبت العشب الذي يغري قبائل العرب على التجمع فيها اضافة الى قيام القائمين على القرية القديمة (تاسست اصلاً في منطقة تجمع المياه المنحدرة من الشمال) ببناء عدد من المعابد فيها مما جعل زيارتها من قبل العربي مرغوبا في المواسم الدينية . وكان الإله شمش أو شمشا من أشهر آلهتهم[3] التي كانت سبباً لزياراتهم إليها وبالتالي انتعاش المدينة وتوسعها إلى الحد الذي جعل عناصر إنشاء المملكة متوفرة وبالتالي قيام هذه المملكة وبهذه الحدود الواسعة وبين إمبراطوريتين كبيرتين هما الإمبراطورية الرومانية (والتي كانت سبباً في القضاء على مملكة الحضر بعد تحالف ملكها

---

(1) - المهندس شريف يوسف - تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور - دار الرشيد للنشر - 1982 - الدويلات العربية الصحراوية - الصفحة 207.

(2) - وادي الثرثار يعتبر من المجاري القديمة لنهر دجلة حيث يأخذ مجراه المياه من جنوب غرب مدينة الموصل الرئيسي لوادي الثرثار الذي مازالت معالمه واضحة جداً على الطريق المرتبط بين مدينتي بيجي على دجلة وحديثة على الفرات والذي تقع مدينة الحضر شماله وعلى مجرى الوادي. وهذا الموقع للمدينة على امتدادات هذا الوادي ويدل على أنها لم تكن مدينة صحراوية صرفة كالبتراء وتدمر.

(3) - فؤاد سفر، محمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس - الصفحة 17.

(سنطروق) والذي فرض عليه من قبل الإمبراطور الروماني (تراجان) والإمبراطورية الفرثية التي هاجمها الملك الساساني (شابور) في العام (241م) وقضى على ملكها واحتل عاصمتها ورمز سيادتها ومكانتها عند عرب الجزيرة والشام.

أن من الأمور اللافتة للنظر هي تشابه الطريقة الدفاعية من حيث تخطيط المدينة المدورة وإدارة الدفاع عنها بين دار السلام المدورة (إن هذا يعطينا فكرة واضحة عن مصادر تصور أبو جعفر ومهندسيه) وطريقة بناء الأسوار الدائرية حولها حيث كان لمدينة الحضر سوران داخلي وخارجي وكما لدار السلام المدورة[1].

السور الخارجي مبني من اللبن وقطره حوالي ثلاثة كيلومترات ويبعد عن السور الداخلي حوالي 500 متر وهي مسافة مناسبة تماماً ليس لمعارك المشاة فقط وإنما لمعارك الخيالة أيضاً وتغطي النبال والسهام والرماح مساحتها من فوق السور وكذا الأسلحة الدفاعية الأخرى وتتيح الفرصة للمدافعين للقيام بهجمات مقابلة فعالة بعد أن يكون زخم الهجوم قد ضعف خلال معارك خارج الأسوار وتعرض المهاجمين إلى نيران المدافعين وأسلحتهم ومثله عند اقتحام السور الخارجي وهذا ينسجم تماماً مع قواعد التعبئة في الدفاع بالصد والإيقاف أولاً مع إيقاع نسب مهمة من الخسائر خلال هذه المرحلة وتحديد محاور واتجاهات الهجوم بدقة ثم الحصر لمنع توسع الثغرات والسيطرة عليها ثم الهجوم المقابل بهدف التدمير ثم استثمار الفوز. وتشير أيضاً إلى وجود أربعة أبراج رصد في جهات السور الأربع تقدم المعلومات المبكرة قبل تقدم المهاجمين واقترابهم من السور الخارجي او اقتحامه و الوصول الى السور الداخلي وتتركز عليه بنية الدفاع الأساسية حيث يوجد القسم الأكبر من المدافعين وبضمنهم قوة الهجوم المقابل التي تعتبر العنصر الأساس في إنهاء الهجوم، ويتوزع هؤلاء المقاتلين

---

[1] - واثق الصالحي – التحصينات الدفاعية في مدينة الحضر – الصفحة 3.

وأسلحتهم على أبراجه إلى مائة وثلاثة وستين برجاً ويبلغ قطر هذا السور كيلومتران وعرض قاعدته ثلاثة أمتار وقد استخدم الحجر المنحوت المنتظم الأشكال في بنائه مع أسس متينة[1] وفيما عدا الأبراج المشار إليها سابقاً والمعلومة الوظائف العسكرية في الرصد وتأمين مواضع القتال للنشابة والرماحة فهناك مجموعة من القلاع الحجرية الصلدة كما سماها الدكتور طاهر العميد في مؤلفه المشار إليه فهي في مفاهيم التوصيف العسكري دكات للرمي للأسلحة المتوسطة والثقيلة التي كانت معروفة بوقتها وهي المجانيق لرمي الكرات النارية الموصوفة بالنار الإغريقية وما شابهها من أسلحة ذلك العصر ويشير الأستاذ المذكور أن أمام إحدى هذه الدكات بنيت مصدات بألواح حجرية كبيرة وهي للحماية من رمي أسلحة المهاجمين وقد وجدت في دكة واحدة منها وأكيد أن الأخريات كانت بنفس التصميم إلاّ أنها تهدمت بفعل الزمن والعوامل الجوية وتدخل من سكن هذه المنشآت فيما بعد (استعملت في العهد العثماني كثكنة للخيالة التابعة للجيش السادس العثماني حيث جرت مداخلات عديدة على أبنية ومنشآت المدينة ومنها الأسوار وحسب حاجة الساكنين الذين لم يكن لديهم أي وعي آثاري) (وقد لاحظت شخصياً في زيارات مهنية عسكرية حيث كنت آمراً لفوج مشاة ضمن لواء مشاة عسكر في منطقة الجرناف في العام 1971) وتوجد خلف السور مباشرة سلالم متعددة وفي محوره الداخلي حجرية الإنشاء لتمكين المقاتلين المدافعين من ارتقائه بسرعة تتناسب مع حاجات ووظائف القتال من على السور وأبراجه ودكاته، وتشير المصادر آنفة الذكر إلى وجود خندق يحيط بالسور الداخلي ويبلغ عرضه نحو عشرين إلى ثلاثين متراً مما يجعل أمر القفز فوقه من قبل الخيالة أمراً مستحيلاً وعمقه أربعة إلى خمسة أمتار وهناك منشأ آخر يدور مع السور الداخلي

---

[1] - د. طاهر مظفر العميد - تخطيط المدن العربية الإسلامية - جامعة بغداد - 1986.

(خلفه) وهو مسند بجدار حجري من الداخل ومزود بدعامات تقوية تمنع انهياره عند الاستخدام الكثيف.

وجدير بالإشارة أن التنقيبات الأثرية دلت على وجود قنطرة أمام الباب الشمالي وعلى الخندق عرضها خمسة أمتار أنشأت بهندسة القناطر المقوسة المبنية بالحجر الصلد[1].

وهي تقليد للفكر الآشوري في بناء القناطر حيث يحبذ في مثل هذه الحالات بناءها بالخشب بهدف إحراقها عند نشوب الحرب ولكنه تيسر المواد وقلة الكلفة.

ولقد كانت هذه الأسوار والتحصينات من المناعة بحيث أنها صمدت أمام جيش سفيروس رغم تمكن المهاجمين من إحداث ثغرة بالسور خلال حصار المدينة في العام (198 للميلاد) وكذا فهي صمدت أيضاً أمام هجمات جيوش أردشيد الملك الفارسي الساساني في العام (226 للميلاد) وفي الحالتين فشل المهاجمين في الاقتحام وإنجاز هجوم ناجح يؤدي إلى احتلالها و لا اريد التوسع في بحث تحصينات المدينة ومعاركها لكي لا أخرج عن الموضوع وإنما أردت فقط إبراز جوانب الشبه الكبيرة بين تحصينات هذه المدينة العربية التاريخية وتدويرها مع دار السلام المدورة والتي خرج التصميم الأساسي لهما عن المألوف في تصاميم المدن الهلنستية والرومانية والسلوقية المعاصرة لمدينة الحضر والتي كانت تعتمد التخطيط الشبكي المبنى أصلاً على وجود شارعين رئيسيين يتقاطعان في وسط المدينة، وجدير بالإشارة أن لهذين الشارعين تسميات خاصة فقد كان شارع الشمال-جنوب يسمى (كاردو) وشارع الشرق-غرب يسمى (ديكا

[1] - واثق الصالحي – التحصينات الدفاعية في مدينة الحضر – الصفحة 453.

موثوس) وتقسم باقي أجزاء المدينة إلى أحياء نمطية متشابهة التصميم ووفق التصاميم المعدة من قبل المهندس الإغريقي (هيبوداموس)[1].

وهذا التصميم يخالف المدينة المدورة التي تلاحظها في تصميم مدينة الحضر ومدينة دار السلام المدورة يكون شوارع المدينة المدورة تمتد بين مركز المدينة وأسوارها على شكل الأشعة التي تعطي مرونة أكثر للمناورة بالقوة بعدة مسالك بدل التحدد بشارعين رئيسيين متعامدين يربطان المركز بالأسوار. (انظر خارطة رقم3).

ولا ننسى أن موقع الحضر هو بين دجلة شرقاً والفرات غرباً وكما في دار السلام حيث يؤمن النهران العظيمان حماية تجاه الجيوش المتقدمة حيث على المتقدم من الشرق أن يجسر ويعبر نهر دجلة والمتقدم من الغرب أن يحسر ويعبر نهر الفرات ومعلوم ما تمثله عمليات العبور والتجسير للجيوش الكبيرة من معاضل ومشاكل جدية.

اختيار موقع دار السلام المدورة

في الواقع أن الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور وكما أوردنا في الفصل السابق كان قد كره الإقامة في مدينة الكوفة وهاشميتها لأسباب مر ذكرها في النفوذ العلوي في الكوفة وتأثيره على جنده إلى ثورة الراوندية مما حمله (إضافة إلى أسباب أخرى مناخية وصحية) على أن يقرر نقل عاصمة ملكه إلى موقع آخر أكثر أمناً من حركات الداخل ومناعةً من هجمات الخارج فقام باستشاراته واستطلاعاته الشهيرة والواسعة بين منطقة (جرجاريا) وهي (موقع قرب مدينة الكوت الحالية على نهر دجلة جنوب شرقي بغداد بحوالي 150كم) ومنطقة الجبل حيث اتجه من جرجاريا إلى الشمال بمحاذاة دجلة وأكد في استطلاعه على منطقة بغداد القرية (منطقة

---

[1] - ماجد الشمس – الحضر – ص30.

اقتراب النهرين العظيمين دجلة والفرات إلى أقرب مسافة بينهما) واستطلعها مفصلاً واجتمع بأهلها ورؤساء قراها وقسس أديرتها ومعابدها واستمع إلى آرائهم حول صفات الموقع كما يروي المؤرخون ثم صعد شمالاً فاستطلع منطقة الإسحاقي وسامراء وحتى منطقة الجبل ويلاحظ بأنه حصر الاستطلاع في منطقة ما بين النهرين مما يدلل على إقرار أولي عام في أن تكون العاصمة بينهما. وكل ذلك ضمن إقليم العراق.

وهو إقليم وسط بين تهديدات المشرق والمغرب فلا هو كالشام قريب من قواعد الرومان القوية وفيها دمشق عاصمة الأمويين غير الموالية لبني العباس لسبق ولائهم وبيعتهم لبني أمية.

ولا هو كخراسان يقربها من المشرق وتهديداته. كما أن العراق هو إقليم خير وزروع ومياه وفيرة وليس كالحجاز فقيراً مجدباً ولو أن فيه كل المراكز الدينية في مكة والمدينة.

وقد دققنا في هذا الموضوع (اختيار موقع دار السلام) كثيراً في الفصل السابق ورأينا أن اختيار الموقع لم يكن اعتباطياً وكان بناءاً على دراسات واستطلاعات وتدقيق وتمحيص واستماع واستنارة بآراء المختصين وغير المختصين من ذوي التجربة والخبرة في الحرب والسياسة والاقتصاد والتجارة والصحة والمناخ بما يؤشر بالدليل القاطع حصافة ونضوج آراء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور وبقناعته التامة له وللمحيطين به من وزراءه وقواده ومستشاريه وناصحيه وأهل الرأي والحكمة من خاصته ورؤوس دولته.

أفكار أولية حول شكل المدينة الجديدة العام

لقد لاحظنا من الفصول السابقة أن الشكل المتعارف عليه للمدن في ذلك الزمان من ناحية تصميم وتخطيط المدن العام هو وجود شكلين رئيسيين:

الأول: هو المدن المدورة الشكل كما تعارف عليه الآشوريين والعرب في مدنهم الصحراوية والذين فضلوا هذا الشكل في بناء مدنهم وبسبب رئيس من تساوي ميزات ومساوئ البيئة المحيطة بها والمفتوحة الخالية من العوارض بالنسبة للأرض السهلة والصحراوية وحكم القمم المدورة في حالة المدن الآشورية الجبلية.

الثاني: هو المدن مربعة الشكل التي يتقاطع فيها شارعان رئيسيان في المركز.

وعامل التدوير هو عامل متأثر في الغالب بتساوي الاحتمالات ومن كل الجهات من ناحية المفاهيم العسكرية الدفاعية. حيث أن في هذا التصميم من المرونة كما أسلفنا الشيء الكثير وبما يتيح للمدافع مجالات واسعة في المناورة بالقطعات العسكرية ويجنبه الحصر في زوايا حرجة تحدد المناورة وتعيق القدرة على الحركة. وقد كان هذا خيار القيادة العباسية في بحوث موضع العاصمة إضافة إلى عناصر أفضلية أخرى سنرد على ذكرها فيما بعد وأهمها سيطرة القيادة في المركز على كل أجزاء محيط المدينة وأسوارها وتحصيناتها وبنفس المواصفات لكل عناصر وإمكانيات القيادة في تحويل الجهد الرئيسي والمناورة به لأي من الاتجاهات وبحسب ما يقتضيه الموقف التعبوي.

إن دار السلام هي ليست مدينة كبيرة كما يتصورها البعض ولكن المتتبع لما نقله المؤرخين من روايات مما وصلنا في كتبهم ومؤلفاتهم والمدقق لأرقام أبعاد المدينة ومساحاتها يرى أنها ليست مدينة بالمعنى المفهوم وما تشمله المدن من مرافق

كالحدائق والساحات والمرافق الأساسية الأخرى وإنما هي قصر ودار حكم وسكن للخاصة والجند فقط.

ويمكن إطلاق تسمية الحصن أو القلعة عليها ومع ذلك فإن أبو جعفر المنصور وبما عرف عنه من حصافة وسعة أفق ودقة حسابات كان قد ترك حول المدينة من المساحات ما يمكن اعتباره مجالاً لتوسع المدينة المحتمل مما يغطي حاجاتها الأساسية في الفعاليات الحضرية للتجمعات السكانية الكبيرة من تجارية واقتصادية وثقافية وترفيهية مما هو لازم لعاصمة ملك كبير كعاصمة ملك بني العباس في وسط بلاد وادي الرافدين مركزهم المسيطر على إمبراطورية كبيرة حدودها من الصين شرقاً حتّى الأندلس غرباً مروراً ببلاد الشام ومصر وشمال أفريقية ومن الشمال لبلاد الروم وسواحل البحر الأسود وبحر قزوين وجنوباً حتّى سواحل المحيط الهندي وبحر العرب (انظر خارطة رقم (23)).

ولم يكن لمثل هذه الإمبراطورية وهي أكبر إمبراطورية في العالم المعروف يومها أن تحكم من خلال كيان حضري صغير مثل المدورة دار السلام بدون أن يكون قد خطط لتوسعها ونموها وحسب حاجات هذا الكيان.

وفي عالمنا الحاضر نماذج كثيرة لمدن تنحصر الفعاليات الرئيسية فيها وضمن رقعة معينة وتتوزع الفعاليات الأخرى في مناطق الجوار مع فارق تطور وسائل النقل مما يجعل المقارنة بالمسافات والمساحات غير منسجمة، وهذا التوسع في الجوار الزراعي المفتوح والكبير هو ما فكر به أبو جعفر[1].

---

[1] - إن قيام أبو جعفر المنصور ذاته ببناء قصر الخلد خارج أسوار دار السلام على ساحل دجلة يظهر لنا ما كان يخطط له في توسع المدينة - بغداد بين الأمس واليوم - أمانة العاصمة - 1987 - ص59.

وهكذا باشر أبو جعفر بوضع الأفكار الأساسية للتصميم مع مستشاريه ومهندسيه على أساس توزيع الفعاليات الأخرى للعاصمة (تجارية - اقتصادية - صناعية - زراعية - ترفيهية) خارج موقع القلعة وبالاتجاهات الأربعة وأكثر من ذلك فقد خطط لعبور العمران وبما يخدم توسع المدينة عبر نهر دجلة نحو الشرق وإلى جزئها الشرقي الذي عرف باسم الرصافة والغربي المعروف باسم الكرخ، وقد جرى هذا التوسع في حياة المنصور نفسه وازداد في عهود خلفائه من بعده من أبناء وأحفاد من بني العباس إلى أن وصلت مساحة العاصمة (بغداد) في أواسط أيام الدولة مبلغاً من الكبر والسعة مما استوجب بناء أسوار جديدة لها (وخاصة بعد إنشاء القصور ومقرات الحكم في الأجزاء الجديدة).

وفي كرخها الغربي ورصافتها الشرقية حيث صحت التسمية القديمة الجديدة على (بغداد) على الكيان الموسع الجديد للعاصمة العباسية والتي أصبحت فعلاً عاصمة العالم المعروف في يومها وموطن ازدهار العلوم والفنون والثقافة والصناعة وازدهار التجارة فيه وحتى انهيار دولة بني العباس على أيام الخليفة الأخير (المستعصم بالله) وعلى يد الغازي المغولي (هولاكو) في العام (1258م) واحتلاله بغداد العاصمة وتقدمه بعدها باتجاه بلاد الشام وكما سيرد ذكره فيما بعد.

ومن المفيد ونحن نتكلم عن بيئة دار السلام وبما له من العلاقة الوثيقة بتصميمها وتخطيطها ولكي نكون والقارئ الكريم في صورة واحدة لمشهد الموقع المنتخب وفي زمانه جهد الإمكان أن نصف جغرافية هذه البيئة، موضحين ذلك بواسطة الخرائط المنقولة لنا عن منطقة أواسط الوادي عن طريق مؤرخينا وباحثينا.

يقع الموقع المنتخب بدار السلام المدورة في الجانب الغربي من نهر دجلة في منطقة تكثر فيها الأنهار الاصطناعية المحفورة منذ العهد البابلي والكيشي في بعض الحالات

وهي منطقة سهلة رسوبية كأي من مناطق بلاد وادي الرافدين الوسطى والجنوبية المتكونة عن ملايين الأمتار المكعبة من الطين والطمى والغرين النازل من جبال شمال الوادي عن طريق مياه الفيضانات السنوية وللآلاف السنين حيث تكونت منطقة زراعية بترب خالية من الاملاح وأن أجواء الوادي معتدلة شتاءاً مما يساعد كعامل مضاف على نمو وحياة كل أنواع المزروعات ويقع الموقع المنتخب شمال (المنطقة) حيث جامع (براثا) المنشأ قرب دير (سونايا) الشهير وحي العطيفية الحالية وجنوب مدينة الكاظمية حيث اتخذها العباسيين موقعاً لما سمي (مقابر قريش) وحيث يقع اليوم مرقدي الإمامين (موسى الكاظم) و(محمد الجواد) و(القاضي أبو يوسف) ومرقد الإمام (أحمد بن حنبل) وعلى مقربة من نهر دجلة وباختيار دقيق بموازاة إحدى عطفات النهر حيث تقدم الحماية الإضافية.

وكما أسلفنا فإن المنطقة تتخللها مجموعة كبيرة من الأنهار الصغيرة والكبيرة تتبع من أحد النهرين وتصب في الآخر ويعود تاريخ أغلبها إلى العصور الكيشية أو البابلية حيث يقول الأستاذان مصطفى جواد وأحمد سوسة في مؤلفهما الشهير (دليل خارطة بغداد – قديماً وحديثاً)[1]: إن نهر عيسى مثلاً (والتسمية جاءت من اسم عيسى بن علي عم الخليفة المنصور)[2] هو من الأنهار القديمة جداً حيث ورد أن تاريخه يعود إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد وهو يتفرع من نهر الفرات في منطقة جنوب الأنبار وتحديداً في منطقة (الصقلاوية) الحالية ويقطع منطقة ما بين النهرين متجهاً إلى الجنوب الشرقي ويصب في نهر دجلة جنوب منطقة الدورة الحالية وتحيط به البساتين من جانبيه وتتفرع عنه مجموعة كبيرة من فروع الإرواء ومن الجانبين

---

[1] - مصطفى جواد/أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً – مطبوعات المجمع العلمي العراقي – 1958.

[2] - هذا النهر كان في العهود السابقة للعهد العربي يسمى نهر (الرفيل) والاسم لدهقان من الفرس أسلم على يد الصحابي سعد ابن أبي وقاص بعد القادسية.

ويشكل بركة كبيرة قرب مصبه في دجلة كانت في زمانها مرتعاً ومحمية طبيعية لأنواع متعددة من الطيور في العهد العباسي (اندرست آثار هذه البركة في الوقت الحاضر ويعتقد بعض الباحثين أن هور رجب الحالي المندرس قد يكون أثراً لها) وهي كبيرة المساحة.

وفي العصور العباسية حيث كان النهر مستخدماً لأغراض الملاحة النهرية التجارية حيث تفرغ الحمولات من السفن الكبيرة في الفرات إلى سفن صغيرة في المحول لتنقل البضائع التجارية من وإلى القرى على مسار النهر.

كما أدخلت في مناهج تدريب الفتوة في العهد العباسي هذه البحيرة كموضع للتدريب على مختلف فعاليات هذا النظام للشباب ونظراً لشيوعه وقتها وإقبال النّاس بعمومهم وخاصتهم عليه لاصطياد الطيور والتنزه في المنطقة وفيما عدا أغراض تدريب الشباب وممارسة نشاطاتهم المختلفة فإن البحيرة كانت متنفساً سياحياً قريباً من المدينة ومن التجمعات السكانية في منطقة بغداد، وقد اندثرت مع شديد الأسف هذه البحيرة في القرون الأخيرة بسبب الفعاليات الزراعية والإنشائية.

ويمر هذا النهر بالقرب من (دور-كاريكالزو) عاصمة الكيشيين المعروفة اليوم باسم آثار (عقرقوف) والواردة في المصادر التاريخية للمنطقة باسم مدينة (عقرقوفا) بمسافة قريبة جداً لا تزيد على الثلاثين متراً بقناة تتفرع عنه وتعرف باسم (الورادة) وقد وردت بعض النصوص المسمارية من العهد الكيشي إلى هذا الفرع الذي يمر قرب العاصمة الكيشية ويمدها بحاجتها من الماء وتسميه هذه النصوص كما سبق ذكره (نهر إنليل) ويبدو أنه لفرع (الرفيل) مار الذكر وهو اسم إله بابلي قديم حيث ورد اسم (إنليل) في مدونات آثارية مختلفة.

والاسم العربي لهذا النهر (نهر عيسى) نلاحظه إلى يومنا هذا يطلق على مجموعة من المعالم فهنالك (تل عيسى) الذي يقع قرب ذنائب نهر الصقلاوية الحالي والذي هو الآخر له (شاخة)[1] تسمى شاخة (آل عيسى) وتتفرع عن فرع الكصباوي.

وشاخة (العيساوية) أحد فروع نهر (علي السليمان) المعروفة في المنطقة وأرى أن هذه الأسماء بمجملها لا تكاد تكون بعيدة عن الاشتقاق من الأصل (نهر عيسى) ومن الأمور الجديرة بالذكر أن هناك سد حجري على مدخل نهري (الرفيل) و(الصراة) وعلى نهر الفرات هدفه حجز الماء بما يؤمن ارتفاع المنسوب وانسيابه إلى مجرى النهرين.

وجدير بالذكر أيضاً أن نهر عيسى وكما أسلفنا كانت تنقل عن طريقه بالسفن البضائع المختلفة ومنها الإنتاج الزراعي وحاصلاته حول النهر، ومع ملاحظة أن البضائع تلك كانت تنقل من السفن النهرية الكبيرة المستخدمة في مجرى الفرات إلى سفن صغيرة تتناسب أحجامها مع عرض نهر عيسى إضافة إلى أن السد يعيق دخولها الفروع ولو كانت السفينة صغيرة.

تعتبر هذه الأنهار إروائية رئيسية لإرواء وحياة منطقة ما بين النهرين الزراعية الخصبة وتتفرع عنها شبكة واسعة من الفروع والشاخات وتغطي كامل المنطقة الزراعية. لقد حولت هذه الشبكة من الأنهار المنطقة إلى جنة خضراء بمزارعها وبساتينها وقراها.

وكما سبق فإن هذه المنظومة الإروائية المتقدمة في زمانها والواسعة تعتمد في الأساس على النهرين الأكبر (الصراة) و(الرفيل) واللذان تتفرع عنهما الشبكة الكبرى من الأنهار الإروائية الصغيرة الفرعية (انظر الخارطة رقم (15)).

---

[1] - (الشاخة) هي الفرع الصغير من النهر الإروائي وتنتهي إلى الأرض المزروعة.

يقع في شمال منطقة هذين النهرين نهر كبير آخر يسمى (نهر دجيل) (مازالت أغلب آثار أجزاءه موجودة) وهو الآخر له الكثير من الفروع والشاخات.

ويقع غرب منطقة النهرين نهر الصقلاوية الذي لا يصل إلى موقع منطقة بغداد ولكنه يروي هو الآخر منطقة الغرب منها وتتفرع عنه فروع تغطي مساحة المنطقة وهو الآخر يرجع تاريخ إنشاءه إلى ما قبل العهد الإسلامي.

أما بغداد الشرقية فهي الأخرى يقطعها نهران كبيران أيضاً مع فروعهما وهما نهر (الخالص) ونهر (بين) اللذان ينزلان إلى الجنوب الغربي في منطقة (الخالص) و(بعقوبة) ويمتد نهر الخالص بفروعه إلى منطقة بغداد حتّى يصب في نهر دجلة عند قرية (كلواذا) ومنطقة السنك جنوب مدينة بغداد الحالية.

أما نهر بين فيتجه منحرفاً إلى الجنوب حتّى منطقة المدائن ويدل هذا المسار الذي ثبته لنا مؤلفا (دليل خارطة بغداد المفصل) على أنهما يتفرعان من أيمن وأيسر نهر ديالى والذي يصب هو الآخر في نهر دجلة عند منطقة (الزعفرانية).

إن الأسماء (بوق) و(بين) و(الصراة) و(عيسى) و(إنليل) و(الخالص) و(دجيل) و(النهروان) و(الجاث) و(أبي دحيل) و(بطاطيا) و(كرخايا) و(المعلى) كلها أسماء لأنهار وفروع من أنهار تغطي المساحات المحصورة بين النهرين العظيمين دجلة والفرات في منطقة اقترابهما من بعضهما قرب بغداد التاريخية والمنطقة الواقعة شرق دجلة وحتى منطقة بعقوبة والخالص. وهي أنهار تمثل تلك الشبكة الهائلة من منظومات الري التي حولت تلك المناطق إلى جنان اللـه في أرضه وذات زرع وضرع وخير زراعي عميم وهي التي كانت تصب عين السفاح كما ذكر المؤرخون كما كان اختيار المنصور لبقعة بناء عاصمة ملكه ولا عجب، فهي إضافة لخصوبتها وقلة أملاحها وكونها رسوبية غرينية تنتج مختلف أنواع الزروع الدائمية والموسمية التي تحتاجها العاصمة

وسكانها لإدامة حياتهم وفعاليات دولتهم الحضرية كل ذلك إضافة إلى اعتدال المناخ وكما ورد في بعض اختبارات المنصور العملية.

أعود فأؤكد بأن كل الميزات السابق ذكرها عن مواصفات منطقة اقتراب النهرين من بعضهما وسط إقليم العراق المنتخب من قبل الخلافة العباسية كموقع للعاصمة والقلعة الحصن مركز الدولة ومقر الخليفة وموطن سكنه هي ميزات أضافت إلى الميزات الدفاعية الحمايوية والمستندة إلى النهرين شرقاً وغرباً وإلى مجموعة الأنهار الصغيرة شمالاً وجنوباً وهذه الميزات الدفاعية التي درست من قبل المنصور وقادة عسكره وخاصته من الموالي ووقع الاختيار الأساس بسببها كانت هي الأخرى مرشدة إلى تصاميم حصون وأسوار وخنادق واستحكامات مرتبة ومنظمة باتجاه إدارة دفاع ناجح سواء في المدينة نفسها أو على أسوارها أو على الطرق والمقتربات المؤدية إليها في مناطق التحشد المحتملة في الأقاليم أو مناطق الجوار وخاصة وأن المهاجم سيجبر على إجراء عمليات عبور كبرى لأنهار كبيرة مثل دجلة والفرات وأنهار صغيرة على الشبكة المار ذكرها وهي عمليات صعبة في قدرات ذاك الزمان وسيتعرض إلى أوضاع واهنة على سطح الماء وقبل أن تطأ أقدامه الضفاف القريبة وسيعطي الخسائر المهمة إذا أحسن المدافع تعبئة جيشه على هذه الأنهار واستعمل ما تيسر له من السلاح بكفاءة عرف عنها الجيش العباسي في العهد الأول والأوسط من أيام دولة بني العباس وعزها.

وكما سبق فقد اختار أبو جعفر المنصور ومستشاريه النظام الدائري لتصميم المدن وهو نظام سبق لسكان وادي الرافدين من الآشوريين والعرب الأنباط الأخذ به في تصاميم مدنهم وأعتقد أن السبب الأساس هو عسكري بحت حيث يكون هذا النظام محبذاً عند تساوي القيمة العسكرية للأرض المحيطة بالمدينة وعند تساوي المحاور المؤدية إليها في القيمة أيضاً حيث لا يمكن ترجيح محور على آخر أو اتجاه على اتجاه آخر.

هذا من جانب القيمة العسكرية والجانب الآخر هو سهولة القيادة والسيطرة في هذا النظام حيث توخى المصمم أن تكون القيادة في المركز وتؤدي الطرق منها إلى الأسوار والخنادق (مواضع القتال الرئيسية) بنفس المسافات والتوقيتات وبدلالات سهلة وبسيطة).

تصميم وتخطيط دار السلام

إن عملية تخطيط المدينة هي عملية وضع خارطة المدينة بحيث تحقق أفضل السبل للوصول إلى أهداف معينة يتوخاها التصميم آخذاً بنظر الاعتبار الظروف المحيطة سواء أكانت اقتصادية أو سكانية اجتماعية جيولوجية أو بتأثيرها على مكانة المنشآت أو بتوفيرها المواد الإنشائية وتبقى الموارد المالية من الأسس التي لا يمكن إغفالها عند النظر إلى تصميم مثل هذه المنشآت[1] كما وتبقى الوظيفة المتوخاة هي العامل الحاسم عند اختيار التصاميم وقد تكون الأمور معقدة أكثر عند تعدد

[1] - د. محمد عبد الستار عثمان – المدينة الإسلامية – الفصل الثاني – تخطيط المدينة الإسلامية – الكويت 1988م.

الوظائف في مثل حالة عاصمة كعاصمة الدولة العباسية فهي بتصاميمها تتوخى وظائف عسكرية حمايوية بالدرجة الأساس لدفاع رصين عن عاصمة الملك وقيادته.

وكذلك فهي تتوخى وظائف سياسية إدارية لاستيعاب مقر الحكم وملحقاته

ووظائف سكانية لاستيعاب سكن منتسبي الدولة والجند والخاصة من الموالي.

ووظائف عمرانية حضرية تجعل المدينة بصورة بهية تتلاءم مع قيمتها ومكانتها العالمية.

ووظائف اقتصادية تؤمن حركة حرة لتجارة مزدهرة تؤمن الموارد والضروريات للحياة.

ووظائف صناعية تؤدي إلى أفضل حالات التطور الصناعي والحرفي المطلوب.

إن المواءمة بين كل هذه الوظائف تتطلب براعة كبرى عند المصمم للتوصل إلى حلول تؤمن حداً معقولاً لها. وتحتاج إلى رقعة واسعة من الأرض لتأمين كل تلك المتطلبات والوظائف في حين أن هذه السعة في المساحة تؤثر تأثيراً بالغاً على العوامل العسكرية والمالية وعامل الوقت. وليست الحلول الوسط هي المطلوبة في مثل هذه الحالات من المصمم وإنما المطلوب هو التوازن لتحقيق الممكن المقبول وبما لا يلحق ضرراً بالعوامل الأخرى. وعليه فيبدو أن القدرة التصميمية لمهندسي المنصور هي قدرة عالية حيث توصلوا إلى التصميم المتوازن. وأن المجموعة القائمة بالتصميم هي[1]:

الحجاج بن أرطأة – وكان محدثاً فقيهاً إضافة إلى كونه مهندساً بارعاً كما أسلفنا.

عمران بن وضاح.

---

(1) - بغداد بين الأمس واليوم – أمانة العاصمة – 1987.

عبد اللـه بن مجرن.

الحجاج بن يوسف. وهو غير الحجاج بن يوسف الثقفي والي بني أمية على العراق.

شهاب بن كثير.

ووضع التصميم العام على الأرض أولاً كما يروي المؤرخون بنثر الرماد الأسود على الخطوط العامة. ونظراً لسعة المساحة ولكي يراها المنصور بدقة ووضوح فقد وضع حب القطن المنقع بالنفط الأسود على تلك الخطوط وأشعلت النار فيه.

وبعد إقرار التصميم نهائياً من قبل الخليفة أمر بحفر الأسس للمرافق المهمة والأساسية كالأسوار أولاً، وفي هذا دلالة واضحة على أن المصمم هم المهندسون المذكورون وأن أبو العباس عرض عليه النموذج بالطريقة السابقة ليوافق عليه ومن ثم بوشر بالإنشاء.

الجدير بالذكر أن هؤلاء المهندسون دارسون جيدون لعلوم الهندسة والتخطيط وقارئون للمدارس الهندسية القديمة والتاريخية وذوي كفاءة وقدرة عالية وهو ما يجلي الكثير من الغبار عن مستوى العلوم العامة في تلك المرحلة.

يمكن تفصيل المدينة المدورة من الداخل (المركز) إلى الخارج وكما يلي: (انظر خارطة رقم (22) مدينة المنصور المدورة كما رسمها الدكتور أحمد سوسة)

1. الدائرة المركزية: وتتألف من عمارة قصر باب الذهب (سكن ومقر حكم الخليفة أبو جعفر) والمسجد الجامع الكبير.

2. الدائرة الثانية: وتتألف من مجموعات لقصور أبناء المنصور.

3. الدائرة الثالثة: دائرة الإدارات العامة في الدولة والتي منها تُسيَّر الأمور بوصفها الجديد والتي أطلق عليها (دواوين الحكم).

4. الدائرة الرابعة: وهي دائرة تتضمن سكك[1] الحرس والجند وموظفي الدولة ومن يحتاجهم الحكم من المقربين وتتألف من 41 سكة لكل منها شارع رئيسي تحيط به من الجانبين مجموعة من الدور ولاشك أن هذا الحجم لا يتسع لمدينة كبيرة مثل العاصمة ولذا فإن المنصور كان قد خطط لفعاليات أكبر تدار من خارج القلعة إما من خلال المنشآت المشيدة في القرى المحيطة أو من خلال منشآت جديدة يقرر عليها عند الحاجة، ومجموعة السكك والأبواب الأربعة هي:

باب البصرة وطاقاتها

سكة الدرب الضيق	سكة الشيخ ابن عميرة
سكة أبي أحمد	سكة مهلهل
سكة ابن بريهة	سكة الربيع
سكة القائين	سكة سليمان
سكة واضح	سكة النعيمية
سكة المروودية	سكة الحرس

باب الكوفة وطاقاتها

سكة الشرط	سكة عطية مجاشع
سكة الهيثم	سكة العباس
سكة المطبق	سكة غزوان

[1] - السكة هي المحلة أو الحي كما سميت وقتها.

سكة النساء

سكة بن حنيفة

سكة سرجس

سكة العتيقة

سكة الحسين

باب الشام وطاقاتها

سكة المعكي

سكة العلاء

سكة أبي قرة

سكة نافع

سكة عدوية

سكة أسلم

سكة السميع

سكة منارة

باب خراسان وطاقاتها

سكة المؤذنين

سكة سماعة

سكة دارم

سكة صاعد

سكة إسرايل

سكة الزيادي

سكة القواريري

سكة غزوان

سكة الحكم بن يوسف

كان التفصيل السابق شاملاً للتصميم العام ومن المفيد أن نتلمس شروحاً لتفاصيل المنشآت وسنركز على التفاصيل الدقيقة للأسوار والخنادق موضع البحث ووظائفها العسكرية وبموجب التسلسل السابق وكما يلي:ـ

قصر باب الذهب - مركز المدورة - دار السلام

عرف عن مصممي المدن الإسلامية أنهم يبدءون التصميم بتثبيت المسجد الجامع في مركز المدينة ومنه تخرج الفعاليات الأخرى كدار الحكم وقصور الملوك ودواوين الدولة وسكن النّاس باتجاه الخارج وبعدة طرقات وسكك حسب الحاجة. وخرج العباسيون من تصميم مدنهم عن هذه القاعدة فجعلوا بداية مركز المدينة لقصر الحكم ثم يضاف إليه المسجد وبقية الفعاليات وكذا كانت دار السلام المدورة حيث وضع القصر (قصر باب الذهب) في مركز المدينة[1] وأنشأت أبنية الفعاليات الأساسية الأخرى حوله ومنها الفعالية الأساس في المدينة الإسلامية وهي المسجد الجامع والتي كانت في الكثير من المدن الإسلامية المنشأة بعد الإسلام هي أصلاً مركز الحكم ومقر القضاء والفتوى والفصل بين النّاس في منازعاتهم وكما كانت ومن الغريب أن التفاصيل الواردة إلينا من معظم المؤرخين عن قصر باب الذهب لم تكن وافية بالقدر المطلوب والمناسب مع مكانة هذا القصر التاريخية من حيث كونه سكناً لأهل دار الخلافة والخليفة نفسه وهو نفسه دار الحكم فيها ومقر إدارتها لهذه الدولة الحديثة الإنشاء الكبيرة مترامية الأطراف واسعة المساحة ومحل مقرات الإدارة والاقتصاد والقيادة السياسية والعسكرية لها إضافة إلى كونه أول منشأ بهذا الحجم لبني العباس بعد إنشاء دولتهم وسيبقى مخلداً لاسمهم وفيما تواتر عن المؤرخين من أقوال عن أن أبو جعفر أراده تحفة من تحف الدنيا في زمانها حيث كانت دولة بني العباس هي الأكبر والأعظم والأقوى في العالم المعروف يومها.

---

[1] - طاهر مظفر العميد – تخطيط المدينة العربية الإسلامية – الباب الثامن.

يذكر الخطيب البغدادي في مؤلفه تاريخ بغداد أن القصر كان مربع الشكل طول ضلعه أربعمائة ذراع[1] أي مائتا متر وبذا تكون مساحته أربعون ألف متر مربع أي ستة عشر دونماً من الأرض وهي مساحة كبيرة لقصر.

ويذكر الخطيب أن من ضمن ذلك بنى المنصور إيواناً طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً أي خمسة عشر متراً في عشرة أمتار مما تكون مساحته مائة وخمسون متراً مربعاً وهو ليس كبير لديوان كديوان الخليفة العباسي، وفي صدره مجلس مربع طول ضلعه عشرون ذراعاً أي عشرة أمتار وسقفه على شكل قبة وعليه مجلس مثله (إن ذلك يعني أن الإيوان الأسفل مسقف بطريقة مسطحة وليس على شكل قبة ولكنه بالتأكيد مبني بطريقة الأقواس وهي الطريقة الوحيدة الممكنة في ذلك الزمن لتسقيف مثل هذا البون الذي طوله عشرة أمتار).

وفوق هذا المجلس الأعلى القبة الخضراء وهو هيكل بنفس المساحة لحمل القبة الخضراء ويكون مجموع الارتفاعات ثمانين ذراعاً أي أربعين متراً وهو ارتفاع شاهق لمثل هذه المساحة مما يؤشر رغبة المنصور في جعله عالياً إلى درجة أنه يرى من كل أنحاء بغداد ولا عجب فإن الأبنية الأخرى هي أوطأ من هذا بكثير وقد تكون بناية المسجد ومأذنته هي الأبنية الوحيدة بما يقارب أو يناهز هذا الارتفاع، وعن القاضي أبو القاسم التنوخي قال: (سمعت جماعة من شيوخنا يذكرون أن القبة الخضراء كان على رأسها صنم على صورة فارس في يده رمح، فكان السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها، علم أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول عليه الوقت حتّى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً قد نجم من تلك

---

[1] - الخطيب البغدادي – 73/1.

الجهة أو كما قال)[1]، وأن هذه القبة عاشت من الزمان مائة ونيف وثمانون سنة حيث حدث إبراهيم بن مخلد القاضي قال: أنبأنا إسماعيل بن علي الخطيب قال: (سقط رأس القبة الخضراء خضراء أبي جعفر المنصور التي في قصره لمدينته يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وكان ليلتئذٍ مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد، وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومأثرة من مآثر بني العباس عظيمة، بنيت أول ملكهم وبقيت إلى هذا الوقت (إلى آخر أمر الواثق) فكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيف وثمانون سنة).

يذكر الخطيب البغدادي عن الربيع أنه قال: (قال لي المنصور: يا ربيع هل تعلم في بنائي هذا موقعاً إن أخذني فيه الحصار خرجت خارجاً منه على فرسخين؟ قال: قلت: لا! قال: بلى، قال: في بنائي هذا ما إن أخذني فيه الحصار خرجت خارجاً منه على فرسخين) وأن هذا الحديث عن خندق من قصر الذهب (تحت الأرض) إلى خارج المدينة يكمل الإجراءات الأمنية الحمايوية لمقر الحكم والتي كانت الهاجس الأكبر للمنصور، وخشيته الكبرى من حركات التمرد الداخلي أكبر من خشيته هجوماً خارجياً وسنورد الأخير في تفصيل خطط الدفاع عن المدورة دار السلام في موضع آخر.

المسجد الجامع وسط المدينة

يعتبر مسجد الخليفة المنصور الذي بناه جوار قصر الحكم ومقر الخلافة العباسية وملاصقاً له من أكبر المساجد الجامعة في العراق حيث بلغت مساحته مائتا ذراع في مائتا ذراع وقد بنيت جدرانه باللبن ومن المؤسف حقاً أن تفاصيل بناء هذا المنشأ المهم

[1] - لا أعتقد أن مقولة القاضي أبو القاسم التنوخي هذه تؤشر حقيقة معقولة فلم يكن الخليفة المنصور ولا مستشاريه ولا المسلمون في ذلك الزمان خرافيون إلى هذا الحد، إذ كيف يتحرك صنم لحاله وبأي قوة يغير اتجاهه إذا سلمنا جدلاً بأنه على نهج الجغرافيين في تحديد اتجاهات الريح أو به مغناطيس يحدد الاتجاهات الأربعة مما هو مألوف فوق الأبنية المرتفعة إلى يومنا هذا.

لم يولى الاهتمام المناسب من قبل المؤرخين العرب المسلمين فيما خلا بعض الإشارات البسيطة والعامة اعتباراً من الخطيب واليعقوبي وابن الفوطي وغيرهم.

خاصة وأنه أول مسجد جامع يبنى في منطقة بغداد وفيه حرم كبير للصلاة وميضأة ومرافق واسعة خارجه من الناحية الشمالية.

لقد بني هذا المسجد الواسع على عدة مراحل حيث بنى المنصور مرحلته الأولى وقد استخدم اللبن الفرشي بطول ذراع وعرض ذراع في بنائه كما استخدم الأعمدة الخشبية المؤلفة من قطعتين مترابطتين بالغربي وبربطات الحديد عدا ما هو عند المنارة وعددها خمساً أو ستاً كما يورد الخطيب فإنها من قطعة واحدة ملتفة ومدورة من خشب الأساطين. وليس في المسجد الجامع هذا من عيب سوى انحراف قبلته فقد قال محمد بن خلف ابن الأعرابي (تحتاج القبلة أن تنحرف إلى باب البصرة[1] قليلاً وأن قبلة الرصافة أصوب منها وتحتاج الانحراف قليلاً نحو باب البصرة).

وبقي المسجد على هذه العمارة حتّى زمن الرشيد حيث أمر بهدمه وإعادة بنائه بالآجر والجص وقد كان كذلك، وكتب اسمه عليه وكما أمر أن تثبت أسماء البنائين والنجارين وتواريخ البناء على جدران المسجد الخارجية قبالة باب خراسان. ويذكر إسماعيل بن علي الخطيب أن إعادة البناء هذه حدثت في العام اثنين وتسعين بعد المائة من الهجرة النبوية.

وكان موقع بناء المسجد مجاوراً لقصر الحكم الخاص بإقامة المنصور وإدارة الدولة وهو الصحن العتيق، وقد دام هذا البناء سنين طويلة وأدى تماماً الغرض من بنائه.

---

(1) - الخطيب البغدادي - 108/1.

لقد كان بناء المسجد موضع اهتمام العديد من الآثاريين الغربيين الذين حاولوا تصور مخططاته وتصاميمه أمثال العالم الألماني هرتسفيلر[1] والعالم البريطاني كريزويل[2] والمستشرق البريطاني لي سترانج[3] وكلها بحوث قيمة ولكنها لا تعطي تصميم المسجد وجهه الحقيقي فاغلب ما فيها استنتاجي حيث أن المصادر العربية الإسلامية كانت فقيرة فيه.

ويمكن أن تحدد بناء المسجد بمراحل ثلاث هي:

مرحلة بناء المنصور المواكبة لبناء المدورة.

وقد جرى ذلك في العام (145هـ-766م) وكان بناءه على هيئة مربعة طول ضلعها مائة متر وفيه محراب منحوت من مادة الكلس وكان يحتوي كما أسلفنا على ميضأة كبرى ومرافق خارجه وكذلك على مئذنة.

وقد ذكر البلاذري[4] إن بناء مسجد المنصور كانت صفته المقدمة خمس سواري ووصف في كل اسكوب منها ستة عشر عموداً من الخشب. كما وأن المنصور فتح بين المسجد العتيق وقصره سبعة عشر طاقاً[5] منها ثلاثة عشر إلى الصحن وأربعة إلى الأروقة. وكانت تحيط بصحن الصلاة مجنبتان على جانبيه ولكل منهما رواقان. والغريب في الأمر أن الخطيب البغدادي ذكر وجود منارة في المسجد ولكنه لم يذكر تفصيل مكان وجودها نسبة إلى المسجد ولا ارتفاعها.

---

(1) - هرتسفيلر – نزهة أثرية – الصفحات (26 إلى 138).

(2) - كريزويل – كتابة العمارة الإسلامية الأولى – الجزء الأول – الصفحة 31.

(3) - لي سترانج – بغداد في عهد الخلافة العباسية – الصفحات (39-41).

(4) - البلاذري – فتوح البلدان – الصفحات (342 و343).

(5) - الخطيب – 108/1.

وذكر أن للقبلة انحراف قليل وتحتاج الانحراف إلى باب البصرة كما ذكرنا وهو من الأمور غير المألوفة لما كان للمسلمين في صدر الإسلام من اهتمام بهذا الموضوع الأساس ولا أرى فيما ذكره ابن الأثير في الكامل[1] من أن سبب انحراف القبة هو أن المسجد بني بعد القصر وملاصقاً له ولم يدقق في موضوع القبلة عند بناء القصر مما جعل بناء المسجد كله منحرفاً قليلاً عن القبلة الصحيحة حيث أن المعالجة كانت غير مستحيلة في تعديل الجدار الأمامي الذي فيه القبلة والمحراب.

مرحلة التجديد في عهد الرشيد (192هـ)

وكان الرشيد بعد توليه الخلافة قد أمر بهدم المسجد وبسبب من كثرة الأضرار الحاصلة في بنيته الأساسية وإعادة بناءه بالآجر والجص ولم يذكر أحد من المؤرخين أو الباحثين أن الرشيد غيَّر في أبعاد المسجد الأصلية شيئاً ولا يشكله المربع ويذكر الخطيب البغدادي[2] أن الرشيد أمر بكتابة اسمه بعد إعادة بناء المسجد كما أمر بكتابة أسماء البنائين والنجارين في الجهة الشمالية على الجدار الخارجي.

وكذلك فقد أمر بصنع منبر خاص له بقي فيه لفترة طويلة وعليه اسم الرشيد هو الآخر إلى أن نقل إلى جامع براثا في عهد المتقي لله.

مرحلة الزيادة في عهد المعتمد (279هـ)

وقد قام الخليفة المعتمد بعد عودة الخلافة من سامراء بتوسيع المسجد توسعة استوجبتها الزيادة في عدد سكان المدينة وما أضيف إليها من سكن في بغداد الغربية والشرقية وكما أن عدد الخاصة والجند والموظفين قد تضاعف هو الآخر بسبب كبر حجم الدولة وإقبال النّاس على السكن في بغداد الموسعة خاصة وأن النّاس قد اعتادوا

---

[1] - ابن الأثير – الكامل في التاريخ.

[2] - الخطيب – 108/1.

في عهد المعتمد على مسجد سامراء الذي كانت مساحته تبلغ أربعة أضعاف مساحة مسجد المنصور في المدورة تقريباً وهو فسيح لا يشعرون فيه بأي ضيق.

ويشير كروزويل أن الإضافة إلى المسجد شملت دار القطّان والتي يرجع مصدرها إلى الخطيب الذي يقول فيها[1]: (وكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتّى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان) والغرض الرئيسي الذي أنشأه المنصور من أجله هو صلاة الجماعة الجامعة في المناسبات الإسلامية وبحضور الخلفاء وبشكل مركزي فيه من عام (145هـ) حتّى العام (727هـ) وهي بحدود ستة قرون ويذكره (ابن بطوطة) في زيارته لبغداد خلال رحلته الشهيرة كما يذكره (ابن جبير) هو الآخر[2] ومما نصه (أما الجانب الغربي فقد عمه الخراب. ثم الكرخ وهي مدينة مسورة، ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان). ويذكر الدكتور أحمد سوسة في كتابه (فيضانات بغداد في التاريخ)[3] ما نصه (وهكذا كانت الحال حين أقام المنصور مدينته فقد أنشأها في الجانب الغربي لنهر دجلة حيث تقع أراضي هذا الجانب في مستوى عالٍ بالقياس إلى مستوى أراضي الجانب الشرقي، وقد استفاد من الأسوار المحيطة بالمدينة للوقاية من خطر فيضان دجلة من الشرق والفرات من الغرب). ونورد هذا لما له من علاقة بانهيار أجزاء من المسجد الجامع والقصر وسور المدورة في فيضان عام (330هـ-942م) إلى أن الأضرار كانت محدودة ويذكر مؤلفا (دليل خارطة بغداد المفصل)[4] ما نصه (وقد غرق الجامع سنة (653هـ) والظاهر أنه سلم من الخراب في أثناء حصار المغول لبغداد سنة (656هـ-1258م) فقد

---

(1) - الخطيب – 108/1.

(2) - ابن جبير – الرحلة – الصفحات (225 و226).

(3) - د. أحمد سوسة – فيضانات بغداد في التاريخ – 1963 – الصفحة 227.

(4) - د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد المفصل – 1958 – الصفحة 59.

كان لا يزال قائماً حين زار ابن بطوطة بغداد في سنة (727هـ-1327م) على أن معالمه اختفت بعد ذلك ولم يبق له أثر في هذا العصر).

وقد تعرض هذا المعلم المهم في المدورة إلى أضرار كثيرة وبسبب من الحوادث عدا الفيضانات ومنها الحريق الذي وقع في سوق النجارين عام (303هـ) بباب الشام حيث احترقت السوق بأكملها وسقطت شرارات من الحريق دفعها الهواء إلى منارة الجامع فاحترقت[1]. ومن أبرز مرافق المسجد هذا محرابه الشهير والذي هو عبارة عن قطعة عظيمة من الرخام تعتبر آية من آيات الفن في نحتها وقد نقلت إلى جامع الخاصكي في بغداد ثم إلى القصر العباسي بسبب محاولات الغربيين لشرائها من الأتراك[2].

مجموعة قصور أبناء المنصور / الدائرة الثانية

وهي مجموعة القصور المخصصة لأبناء المنصور تحيط بالمركز ومن كل جوانبه حيث قصد المنصور (قصر باب الذهب) ومسجده الجامع الكبير.

لم ترد في المصادر والمراجع تفاصيل هذه القصور ولا هيأتها وكل ما وصلنا عنها هي أنها بنيت على شكل دائرة حول دائرة المركز لسكن أبناءه ولاشك في أنها لم تكن قصوراً كبيرة جداً بمستوى قصر المنصور الذي ورد في الأخبار أن قبته الخضراء كانت ترى من كل أنحاء المدينة المدورة، وهذا يعني أنها كانت قصوراً اعتيادية وهذا طبيعي حيث أن المنصور لم يكن يسمح حتّى لأبنائه ببناء منشأ أكبر ولا أعلى ولا حتّى يضاهي قصره ذو القبة الخضراء.

---

[1] - نفس المصدر – نفس الصفحة.
[2] - نفس المصدر – الصفحة 61.

وكما أن الأخبار لم تورد تفاصيل عن تصاميم هذه القصور فهي لم تورد شيئاً عن عددها وكل ما ورد عنها هو أنها تشغل الدائرة المحصورة بين القصر والجامع وبين دائرة دواوين الدولة.

مجموعة دائرة الإدارات العامة ودواوين الدولة والحكم

فيما يلي قصور أبناء المنصور خطط الخليفة ومهندسوه لإنشاء مجموعة من الأبنية لسد حاجة دوائر الدولة ودواوين الحكم فيها وبحيث تفصل بين الدائرتين الأولى (الوسطى) والثانية لقصور أبناء المنصور وبين سكك المدينة وشوارعها وفعالياتها الأخرى وبكيفية لا يسمح بها لمن له مراجعة لأي من الدواوين من دخول مجموعات القصور إلاّ من مسالك محددة تستعمل عند مراجعات القصر أو عند أوقات المناسبات الدينية والصلوات الجامعة فقط.

وفي هذه الدائرة[1] منازل المقربين من خدم المنصور وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند ودواوين الحوائج أي التجهيزات وديوان النفقات وديوان الصدقات وهي كلها مؤسسات للخدمة العامة ولإدارة الدولة وهنا دليل آخر على دقة التنظيم والتخطيط وحضريته حيث قام مخططو المدينة بدراسة شاملة لكل الفعاليات المتوقعة فيها وأمنوا أفضل الحلول لهذه الفعاليات وعلاقاتها ببعضها وبما يخدم سكان المدينة ويحل مشاكلهم ويؤدي إلى انسيابه سلسلة في فعالياتهم وبنفس الوقت فهو يحقق للدولة وإداراتها سيطرة لا تداخل فيها ولا ارتباك ويحقق أيضاً أمن وسلامة المقرات الخلافية ومنطقة سكن الخليفة وأهل بيته.

[1] - المهندس شريف يوسف – تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور – 1982 – الصفحة 273.

دائرة سكك المدينة المدورة وأحيائها

وهي التي تشغل المساحة بين قصور أبناء المنصور ودواوين الحكم وبين السور الأعظم وقد جعل المنصور ومهندسيه المخططين للمدينة هذه الدائرة إقطاعاً لقادة الجيش وسكن بعض الخاصة ويمكن التأكيد على أن كل من تنسب سكنه في هذه الدائرة داخل الأسوار كان من المرتبطين بالخليفة المنصور ويقول ابن الفقيه في روايته عن المدورة ما نصه (عمل الشوارع على ما أراد وأقطعها القواد وأنزل فيها خاصته وأهل ثقته)[1].

ويورد اليعقوبي حول نفس الموضوع[2] (أقطع مواليه وقواده القطائع داخل المدينة، فدروب المدينة تنسب إليهم، وأخذهم بالبناء، وأقطع الآخرين على أبواب المدينة، وأقطع الجندء رياض المدينة، وأقطع أهل بيته الأطراف وأقطع ابنه المهدي وجماعة من أهل بيته ومواليه وقواده) ويقول أيضاً: (في كل سكة من هذه السكك جملة القواد الموثوق بهم في النزول معه، وجملة مواليه ومن يحتاج إليه في الأمر المهم وعلى كل سكة من طرفيها الأبواب الوثيقة، ولا تتصل سكة فيها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة.

توسع المدينة في مناطق الجوار

كما سبق لنا القول فإن المنصور ومهندسيه اعتمدوا مبدأ في تحديد مساحة المدينة بأقل ما يمكن يهدف ترسيخ وتقليل كلف إنشاءها وعمارتها وكذا لأسوارها ولحصونها مع الأخذ بنظر الاعتبار (وهذا أساسي جداً لمستقبل المدينة وحياتها) إمكانيات توسعها في مناطق الجوار وزادوا في دراساتهم توسعاً في الموضوع وشملوا الضفة الشرقية

---

[1] - د. أحمد صالح العلي – بغداد مدينة السلام – الجانب الغربي – 261/1.

[2] - اليعقوبي – تاريخ اليعقوبي – طبعة النجف – 109/3.

لنهر دجلة وفي حياة المنصور نفسه، حيث يذكر أن المهدي ابن المنصور لما عاد بجيشه من بلاد فارس لما يشأ الخليفة أن يعبر النهر إلى المدورة غرب بغداد فأمره بالبقاء في الجانب الشرقي حيث وردت بعض الدسائس عن كون المهدي يريد التمرد على أبيه.

يروى أن المهدي بنى له قصراً في الجانب الشرقي من بغداد على دجلة قرب محلة الأعظمية الحالية وبنى لقواده ورؤوس الجيش قصوراً قربه كما أسكن القسم الأكبر من الجيش هناك.

ويذكر المؤرخين نوعين من التوسع الجاري في دار السلام وما حولها:

الأول:

هو توسع داخل المدينة المدورة نفسها حيث يذكر الخطيب أن يعقوب بن سفيان قال: إن المنصور وسع المدينة في سنة (157هـ) (وسع طرق المدينة وأرباضها، ووضعها على مقدار أربعين ذراعاً، وأمر بهدم ما شاع من الدور عن ذلك القدر)[1].

ويروى كذلك عن محمد بن عرفة الأزدي أنه (أي المنصور) (وسع الطرق بمدينة السلام وجعلها على أربعين ذراعاً، وأمر بهدم ما شاع من الدور عن ذلك المقدار).

وفي كل الروايات لم يرد ذكر لتوسع في المدينة شمل السكك نفسها وإنما الوارد أنه شمل توسيع الطرق فقط مما يعني بالضرورة أن المدينة احتفظت بشكلها العام.

وأن التعديل تم بعد إخراج أهل السوق إلى خارج المدينة في منطقة الكرخ، وهو ما مكن من إجراء هذه التوسعة في دروب المدورة وطرقها. ولم ترد إلينا في المصادر تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع وعن من شملهم هذا الإخراج.

---

(1) - الخطيب – 79/1.

الثاني:

هو توسع خارج المدورة حيث كان للمنصور سبق نظر فيها كما أسلفنا فأقطع أصحابه وقواده إقطاعات مختلفة المواقع ولكنها في الغربية والشرقية على حد سواء وأعاد النظر فيها في مناسبات عدة وتوسع المنصور في الجانب الشرقي من دجلة كما مر علينا عند عودة ابنه محمد المهدي وجيشه من الري عام (151هـ) حيث نصحه قثم بن العباس على شق صفوف الجيش بإثارة القبلية لضمان سيطرته عليه ومنع التكتلات والفتن فأقره المنصور وعمل برأيه وكان ذلك أول توسع كبير للمدينة إلى جانبها الشرقي[1] ويؤشر ذلك أن جانب الرصافة في بغداد بدأ التوسع إليه من جهة الشمال وفي المنطقة المجاورة للشماسية حيث كانت هناك تجمعات سكنية صغيرة قرب الدير المعروف بدير الشماسية وقبالة الكاظمية الحالية حيث مقابر قريش ومرقدي الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد وكذلك مرقد الإمام أحمد بن حنبل الذي كان قريباً من دجلة والذي انهار بناءه وقبته بعد أحد الفيضانات أو بسبب تآكل حافات النهر.

ويقول الطبري: إن صالح صاحب المصلى قد ولاه المنصور قطائع في الجانب الشرقي قبالة بغداد القرية، ففعل كفعل أبي العباس الطوسي في التوزيع والتشييد في فضول القطائع في الجانب الغربي وله (بباب الجسر وسوق يحيى ومسجد خضير وفي الرصافة وطريق الزواريق على دجلة مواضع بناء مما استوهب في فضل الإقطاع على أهله)[2].

---

[1] - بنى المهدي ابن المنصور قصره في المنطقة المجاورة للمدورة دار السلام على الجانب الشرقي لنهر دجلة وتوسع فشمل بناء قصور لأعوانه وقواده وعلى امتداد ساحل النهر الشرقي وكان ذلك في المنطقة المجاورة (للمقبرة الملكية) الحالية في حي الأعظمية وقرب محلة (المخرم) ومقبرة (الخيزران) التاريخية وقد عدل النهر مجراه كثيراً في تلك المنطقة حيث أن آثاراً كثيرة كانت ترى على شكل طابوق فرشي وخزف وما إليها في الجزرة الواقعة وسط النهر (هي آخر هذه القصور) في تلك المنطقة وقد (شاهدتها شخصياً في الخمسينات من القرن السابق وتقع في المنطقة المقابلة لسيلو الحبوب في الكرخ.

[2] - الطبري – 367/3.

ومن هذا يبدو لنا جلياً بعد نظر المنصور في ما له شأن بالحاجة إلى توسع المدينة وعدم كفاية المساحة المنتخبة لبناء دار السلام لحاجات المدينة العاصمة مع عدم إمكان توسيع المساحة داخل الأسوار لما له من سلبيات ذكرناها سابقاً فكان هذا الحل القابل للتنفيذ قليل الكلفة والجهد محدود الوقت.

ومن التوسعات الكبيرة في الجانب الشرقي ما يدلل على أن هناك مقصداً حربياً للمنصور ولمن بعده حيث تتلقى هذه المناطق الصدمة الأولى وجعل تعرض المركز للهجوم من مخاطر الشرق وهو ما يؤمن مبدأ العمق في الدفاع والذي كان هاجس المنصور الأساسي في نقل وبناء مدينته المدورة.

إن الوارد سابقاً من حسابات أولية لتوسع العاصمة له مدلولات كبرى على الفكر الحضري المتقدم لأهل ذلك الزمان من أهل العراق أولاً وبما لا نشاهد نظيراً له في مدينة أخرى وهو فكر هندسي صرف وثانياً لأنّه يمثل جودة الاختيار للموقع حيث منطقة اقتراب النهرين وبما لها من جذور تاريخية في أصول حضارات هذا الإقليم العريق الموغلة في القدم وكما كانت اختيارات الكيشيين والحيثيين والإغريق والفرس الساسانيين كما أسلفنا.

الشواهد التاريخية المهمة
في الجانب الغربي من بغداد

إن الأهمية الكبرى لهذه الشواهد ومن وجهة النظر التاريخية هي أنها شواهد مازالت قائمة في المواقع الأصلية التي أقيمت فيها ما يحدد بوضوح تام مواقع التوسع ومدياتها للمدينة العاصمة وفي الجانب الغربي الذي أنشأت فيه المدورة دار السلام نشاهد المواقع التالية:

مشهد الإمام موسى بن جعفر (الكاظم)

وهو موقع دفن فيه الإمام موسى بن جعفر وحفيده الإمام محمد الجواد ومعروف أنهما من الأئمة الاثني عشر ولهما آثار علمية دينية مهمة وقد أنشأ على القبر مسجد ومزار كبير توسع على مدى عمره الطويل الذي بلغ ألفاً ومائة وخمسين عاماً إلى يومنا هذا.

وكانت المدينة موقعاً لمقبرة الشونيزي الصغير (تميزاً لها عن مقبرة الشونيزي الكبير وهي مقبرة الشيخ جنيد في جانب الكرخ من بغداد) ثم سميت بمقابر قريش حين دفن المنصور ابنه الأكبر (جعفر) عام (150هـ-767م)[1].

وكذلك مقبرة (باب حرب) وفيها قبر الإمام (أحمد بن حنبل) المتوفى عام (41هـ-855م) ولم يبق لمشهده أثر بسبب تهدمه بفعل الفيضان وفي هذه المقبرة دفن بشر الحافي وأبو بكر الخطيب وغيرهم كثر من أعلام المسلمين.

---

[1] - ومن أعلام من دفن في هذه المقبرة الست (زبيدة) زوجة الخليفة (هارون الرشيد) والمتوفية عام (216هـ-831م) وابنها الخليفة (الأمين) وكذلك فقد دفن فيها الأميران البويهيان (معز الدولة وجلال الدولة) ومن المشاهير ممن دفن فيها أيضاً قاضي القضاة (أبي يوسف) وقبره ملاصق لقبر الإمام (الكاظم) وكثير من الأعلام.

وفي الشمال الشرقي من المشهد تقع مقبرة (باب التبن) وفي القطيعة الزبيدية تحديداً ومن المدفونين فيها (عبد اللـه بن أحمد بن حنبل) وبجوار هذه المقبرة كانت توجد منطقة تجمع سكاني تسمى بنفس الاسم (محلة باب التبن) حيث يقع ديران للنصارى قربها وهما (دير مارتا ودير القباب) ولوقوعهما قرب مجرى النهر فقد جرفهما التيار عند مواسم الفيضان لم يبق لهما أي أثر في الوقت الحاضر[1].

مقبرة الشيخ معروف الكرخي

وتقع هذه المقبرة في جانب الكرخ من بغداد شمال غربي مقبرة (باب حرب) المعروفة بمقبرة (الشهداء) والشيخ معروف هو من موالي الإمام علي بن موسى الرضا وروي أنه أي الشيخ معروف ولد مسيحياً وقيل مجوسياً وعاش زمن الرشيد وكان يناصره وقد اشتهر عنه أنه من المشايخ المشهورين بالزهد والورع ومن أسماء المقبرة الأخرى مقبرة (باب الدير) وهو دير كان جوارها يعرف بدير (الجاثليق) ويسمى أيضاً دير (كليليشوع) وقبر (يشوع) قائم إلى يومنا وقد دفن في هذا الدير الكثير من (الجثالقة) وهو من أهم الأديرة في بغداد.

وفي عام (459هـ-1067م) احترق مقام الشيخ معروف فأعاد الخليفة القائم بناءه وأعيد بناء القبر في زمن الخليفة (الناصر) عام (611هـ-1214م) وبنيت جواره منارة تعتبر من التحف البغدادية وهي الأخرى قائمة إلى يومنا الراهن وفي أحد ليوانات حوضها ثبت تاريخ إنشاءها في العام (612هـ)[2].

---

(1) - د. مصطفى جواد - د. أحمد سوسة - دليل خارطة بغداد - 1958 - الصفحات (102-104).

(2) - نفس المصدر - الصفحات (89-90).

مقبرة الشونيزي

وهي تربة الشيخ الجنيد البغدادي وهي مقبرة قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل زمن الشيخ جنيد وكانت تسمى مقبرة (الشونيزي) وتبدل اسمها وساد بعد دفن الشيخ فيها وهو من الزهاد المتصوفة الكبار اسمه (جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري) وقد اشتهرت هذه المقبرة بدفن العديد من المشايخ والزهاد فيها منهم (كثير الصوفي السري) ابن السري خال الجنيد المتوفى سنة (251هـ-865م)[1] وينسب اسم (الشونيزية) إلى طريقة الشيخ جنيد. وهي من المشاهد والمواقع المحافظة على مكانها إلى يومنا الحاضر.

مشهد المنطقة ومسجد براثا

وقد أنشئ هذا المشهد بالقرب من موضع قرية كانت تعرف باسم (قرية سونايا) وقرب الدير الشهير بنفس الاسم وهي تعرف أيضاً باسم (العتيقة) وذلك لقدمها المعروف وهي شهيرة بزراعة العنب الأسود ولما عمرت بغداد الغربية دخلت القرية في عمارتها وضمن مساحتها التي شملها التوسع إلى خارج أسوار المدورة دار السلام ويخلط بعض المؤرخين من العجم بين هذا المشهد ومسجد براثا الذي كان يقع غربه وقد زالت آثاره واندثرت[2].

المسناة البابلية عند نهر دجلة وغربه

وهي من المواقع الثابتة لبغداد الغربية حيث من الثابت أنها كانت قائمة في العصر العباسي لكونها بابلية كما أسلفنا وقرب قرية بغداد التاريخية حيث وجدت آثارها في نهاية العهد العثماني الأخير وجرت محاولات عديدة لهدمها إلاّ أنها صمدت حتّى أمام

---

[1] - محمد سعيد الكردي – الجنيد البغدادي – 1949م.

[2] - د. مصطفى جواد – د. أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – 1958 – الصفحة 91.

استخدام الديناميت في عهد الولاة العثمانيين عند العمل على إنشاء سكة حديد بغداد- برلين وهو أثر كبير متين البناء يمتد غرباً إلى منطقة شارع دمشق الحالي في بغداد حيث وجدت آثار بابلية كثيرة ولكنها مطمورة تحتاج إلى البحث والتنقيب ولم يشاهد منها اليوم سوى الجزء المحاذي لنهر دجلة والمجاور لجسر (باب المعظم) في جانبه الغربي.

إن الشواهد المذكورة آنفاً تحدد المساحة الحقيقية لمنطقة التوسع خارج المدورة والحاصلة في الجزء الغربي من بغداد الحالية حيث أن هذه المنشآت إنما هي اليوم كما كانت قبل أكثر من ألف وخمسمائة عام أو أنها رممت في مواقعها وبمساحاتها الأصلية في العصور اللاحقة لإنشائها ولترميم ما تعرض منها للدمار أما بسبب الحروب أو الفيضانات أو الهدم بسبب انتفاء الحاجة وفي كل الأحوال فهي تحدد ومما لا يقبل الشك مساحة الجانب الغربي من بغداد.

الشواهد التاريخية المهمة في الجانب الشرقي من بغداد

لا يمكن النظر في المساحات الحقيقية ومواقع الفعاليات المختلفة في الجانب الشرقي من مدينة بغداد بعد أن عبر إليها العمران من الجانب الغربي وفي أوقات وعهود الإنشاء الأولى والذي عرف باسم جانب الرصافة وقيل فيه الكثير من المديح شعراً ونثراً والذي أصبح فيما بعد أيام العصور الوسيطة والمتأخرة من العهد العباسي الجزء الأهم من العاصمة والذي نقلت إليه كل فعاليات السكن والحكم والإدارة والاقتصاد في الدولة العباسية والذي أحيط هو الآخر بأسوار وخنادق وتحصينات وكما بدأت النشأة الأولى للعاصمة في المدورة لما عرف عن تلك العهود من غزوات الأقوام الطامعة كالبويهيين والسلاجقة والعسكر وقادة الجيش من الأعاجم حيث كانت نشأة أغلب خلفاء بني العباس بعد الرشيد من أصول أعجمية من الأمهات اما فارسية أو تركية أو أرمينية

من جواري الخلافة والتي أصبحت السمة المميزة لهذا الملك وبما أفقد البيت العباسي أصالته وانتمائه العربي من نسل قريش إلى أجيال هجينة فرطت بأساسيات الملك ونقاوته وبما أدى إلى مثل هذه التسلطات والنفوذ من داخل البيت وبما لا يمكن إصلاحه والسيطرة عليه.

ولنعد إلى شواهد بغداد الشرقية التي حافظت على مواقعها وهي:

المدرسة النظامية

وهي المدرسة التي أنشأت في عهد السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) وموقعها بالقرب من محلة الحضائر القديمة في نهاية سوق (الثلاثاء) وفي موقع سوق (الخفافين) الحالي وتسميتها منسوبة إلى (نظام الملك) وابنه (ملكشاه) وقد بناها الأول في العام (457هـ-1065م) بهدف تدريس العلوم الإسلامية على الفقه الشافعي وقد جددت عمارة المدرسة في العام (504هـ-1110م) وظلت قائمة إلى حين ذكرها في رحلة ابن جبير عام (580هـ-1184م) حيث زارها وذكرها في رحلته إلى بغداد ووصفها بأنها أفخم مدارس بغداد الـ(نيف والثلاثين) في ذلك العهد[1].

المدرسة المستنصرية

وهي مدرسة جامعة أنشأت في أواخر العهد العباسي وقبل انهيار الدولة بربع قرن وتسميتها نسبة إلى بانيها الخليفة المستنصر بالله في العام (631هـ-1233م) ولهذا المنشأ أهمية خاصة بين منشآت بغداد الشرقية حيث ما يزل جزئها الأعظم قائماً إلى يومنا الحاضر وقد وصفها ابن بطوطة في رحلته بأنها تقع من نهاية سوق الثلاثاء وهو شمالها في محل الأسواق الحالية قرب جسر الشهداء وقد بنيت بهدف تدريس علوم الدين والشريعة الإسلامية وقد اشتهرت هذه المدرسة بسعة بنائها ومجال عمارتها

---

[1] - د. مصطفى جواد – مجلة سومر – 1952م – الصفحات (317 إلى 342).

ومكتبتها الشهيرة القيمة والنادرة وفي مختلف العلوم المعروفة يومها وكان لها أربعة أواوين لتدريس المذاهب الأربعة حيث كان لكل منها إيوان فيه أستاذ وله اثنان وستون طالباً وكان فيها ساعة شهيرة لمعرفة أوقات الصلاة والدرس وفيها مستشفى (مورستان خاص للطلاب وفيها حمام لهم. وكان المستنصر شديد الولع بهذه المدرسة يوليها اهتمامه الخاص ويزورها ويتفقد صفوفها وقد نجت المدرسة من التخريب خلال الاحتلال المغولي لبغداد وعلى عكس ما يرد في بعض الأخبار من مبالغات حيث زارها ابن بطوطة كما أسلفنا في العام (727هـ-1327م) ومحمد الفارسي بعد زيارة ابن بطوطة وسماها(أم المدارس) وقد ورد ذكرها أيضاً وفي عدة مرات لدى وصف حوادث فيضانات بغداد وغرقها في العهد العباسي المتأخر مما يدل دلالة مهمة على أن هذه المدرسة كانت من أهم العمائر الثقافية المعول عليها في ذلك العصر وبعده.

ويجاورها جامع (الآصفية) الشهير وهو الآخر من الشواهد المهمة في الجانب الشرقي من بغداد وكان يعتبر (دار القرآن) للمدرسة المستنصرية وهو وعمارته من آيات الفن المعماري.

وقد ورد ذكر هذه المدرسة في بحوث عديدة ولمن أراد الاستزادة فعليه مراجعة[1] وغيرها من المصادر الكثيرة.

---

[1] - كوركيس عواد – سومر – 1945 – الصفحات (76 إلى 140).
مصطفى جواد – سومر – 1958 – الصفحات (27 إلى 75).
ناجي معروف – المدرسة المستنصرية – 1935.
ناجي معروف – علماء المستنصرية – 1959.
حسين أمين – المدرسة المستنصرية – 1960.
كوركيس عواد عبد الحميد العلوجي – جمهرة المراجع البغدادية.

جامع الإمام أبي حنيفة النعمان ومقبرة الخيزران

وهي عمارة لها أهميتها الخاصة لكونها من المباني القليلة الباقية في بغداد منذ عهد الخليفة المنصور باني المدورة وموسعها إلى مناطق الجوار. والمسجد تحيطه محلة (الأعظمية) نسبة إلى الإمام الأعظم وفي المسجد قبره ولا يزال إلى يومنا في موضعه الذي دفن فيه وتقع جنوبه (مقبرة الخلفاء) التي دفن فيها أغلب الخلفاء العباسيين المتأخرين وبجوار المسجد مقبرة (الخيزران) التي دفنت فيها الخيزران زوج المهدي وجوار محلة أبي حنيفة نشأت محلة (سوق يحيى) والملاصقة لها.

وكذا في شمالها حيث بنيت محلتا (الحضيرية) و(الشماسية). ويوجد قرب الأخيره وعلى الطريق المؤدي إلى (سامراء) شمالاً قصور (خالد البرمكي) الشهيرة وبالقرب من موقع (باب الشماسية).

جامع الخلفاء

وهو الآخر من المعالم المهمة والشهيرة لمدينة بغداد الشرقية حيث أن منارته المعروفة باسم منارة (سوق الغزل) ما تزال قائمة إلى يومنا في موقعها الأصلي.

وقد بني هذا الجامع خلال حكم الخليفة (على المكتفي بالله) بين الأعوام (289 إلى 295هـ) (902 إلى 908م) وكان الغرض منه إقامة الصلاة الجامعة في المناسبات الدينية والأعياد وكان موقعه قرب القصر الحسيني[1] ومن ناحية الشرق وهو ما عرف بباب (الحلية الصغيرة) (تمييزاً عن باب الحلية في سور بغداد).

---

[1] - هو قصر ينسب إلى الوزير (الحسن بن سهل) فسمي الحسيني وكان قد أنشأ من قبل (جعفر البرمكي) كقصر نزهة وصيد بعيد عن أعين النّاس والخلافة ومؤسساتها وكان اسمه وقت إنشائه (الجعفري) ثم تحول إلى (المأموني) بعد أن أقام فيه المأمون وسميت محلة الجوار (المأمونية) حين انتقل إليه الخليفة المأمون ويقول ياقوت (ثم انتقل القصر إلى المأمون فكان من أحب المواضع إليه وأشهاها لديه واقتطع محلة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل

ويصف تاج الدين ابن الساعي المؤرخ القصر فيقول فيه: (ذكر بعضهم أن هذا القصر صار إلى المأمون وكان من أكمل القصور وأبهاها، وأحب المواقع إليه وأشهاها، لإطلاله على دجلة وكماله في النظر، واشتماله على الروض والشجر، واكتسائه بالنور المشرق النائر، والزهر الموثق الزاهر، فنزل بساحته، وحل به حتّى راحته، وجدد على رياضة ذيوله، وطارد في ميدان سروره خيوله، ملتذاً بسكناه معتداً بهواه، وصار منزل صيده وقنصه، ومحل نزهة ومزحه، واقتطع محله من البرية فعمل ميداناً لركض الغلمان واللعب بالكرة والصولجان). وقريباً منه قصر الثريا.

والمسجد الجامع هو أحد ثلاثة مساجد كبيرة كانت في بغداد والمسجدان الآخران هما جامع المنصور، ذو القبة الخضراء وجامع الرصافة. وكان هو الجامع الرسمي للخلافة العباسية في قرونها الأخيرة حيث كان الخليفة شخصياً يؤدي صلواته فيه وفيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنائز الكبار والعلماء والفقهاء وفيه كانت الدروس والمناظرات الفقهية كما كانت مظاهر الحياة التجارية ولأهل بغداد وكبرائها تعقد في باحته[1]. وقد عرف المسجد باسم (جامع القصر) ثم سمي (جامع الخليفة) ثم (جامع الخلفاء) الذي يعرف به إلى يومنا الحاضر وقد رمم في السنوات الأخيرة ومنارته ويقع على شارع الجمهورية في منطقة سوق الغزل، وكان تشييد منارته في العام (678هـ-1279م) وكان الوالي سليمان باشا قد شيد مسجداً جامعاً بالقرب منه إلى الغرب وكان يعرف بجامع سوق الغزل إلاّ أنه هدم في العام (1957م) لوقوعه على مسار شارع الجمهورية وقد جاء ذكره من قبل[2] السيد محمد شكري الآلوسي. وقد أنشئ

واللعب وبالصوالجة وحير لجميع الوحوش ((والحير على وزن الدير هو حديقة للحيوانات)) وفتح له باباً شرقياً إلى جانب البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى قريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه سميت بالمأمونية وهي الآن الشارع الأعظم فيما بين عقدي المصطنع والزرادين وكان قد أسكن فيه الفضل والحسن ابن سهل ثم توجه والياً بخراسان وأقام بها وفي صحبته الفضل والحسن) والرواية في معجم البلدان لياقوت الحموي في مادة التاريخ.

[1] - يعقوب كوركيس – مباحث عراقية – الصفحات (132 إلى 150).

[2] - محمود شكري الآلوسي – تاريخ مساجد بغداد وآثارها.

المسجد في عهد الخليفة المهدي عام (159هـ) كما نقل الدليل العراقي طبعته (1936م) وهي رواية مشكوك بصحتها لأن العمران لم يكن قد حل تلك الأنحاء في زمان المهدي وهو الذي أنشأ مسجد الرصافة جنوب مقبرة الخيزران.

سور المستعين

وهو الآخر من العمائر البغدادية الشهيرة والتي اندثرت آثارها رغم أن المؤرخين القدماء والباحثين الجدد قد حددوا مساره التقريبي إلاّ أن أبحاثاً آثارية ضرورية جداً لتأييد أو نفي هذه التوصيفات للمسار لم تقم بها أية جهة لحد الآن.

تبدأ الرواية عند تأزم الأمور بين الخليفة المستعين بالله[1] وقادة جيشه من الأتراك ممن تعودوا السيطرة على الخلافة والخليفة بنفوذهم المعروف في سامراء بعد نقل العاصمة إليها أيام تولي محمد المعتصم بالله ابن الرشيد هارون في العام (218هـ) وهو سابع الخلفاء العباسيين والذي حكم في بغداد بين الأعوام (221-227هـ/836-842م) وذلك بسبب من تقريبه للعنصر التركي وإبعاده العرب والفرس عن الحكم وكانت والدته جارية تركية للرشيد وكان المستعين ذو نخوة عربية أراد إعادة الهيبة والسطوة إلى الخلافة فعارضه قادة جيشه من الأتراك الذين تعودوا النفوذ والسيطرة والتجاوز ونشبت صراعات لا مجال للتفصيل فيها في هذا البحث أدت إلى قراره بالفرار إلى بغداد بعد ان شعر أو وصلته الأخبار بأن القسم الأكبر من جيشه وهو الموالي للقادة المتمردين قد قرر اللحاق به لإعادته أو لإنهاء خلافته فشرع بتحصين المدينة (بغداد

---

(1) - الخليفة العباسي المستعين بالله هو أحمد المستعين بالله ابن محمد ابن المعتصم بالله وهو الخليفة الثاني عشر بين خلفاء بني العباس عموماً والخامس منهم بعد انتقال الخلافة إلى سامراء في فترتها الأولى واتخاذها عاصمة للملك العباسي، ودام حكمه في سامراء ثلاث سنوات في الأعوام (248-251هـ/862-865م) حيث انتقل إلى بغداد بعد تجاوز قادته الأتراك على الخلافة مما اضطره للهرب إلى بغداد حيث حكم بها لمدة سنة واحدة فقط في العام (251-252هـ/865-866م) حيث قتل في معركة فاصلة مع جيش قواده من مطارديه الأتراك.

الشرقية) حيث اتخذها محلاً لإقامته وأعوانه من جيشه الذي جاء معه من سامراء والذي بدأ بتعزيزه بالمتطوعة من أهل بغداد وحيث باشر بإحاطة الجانب الشرقي من المدينة بسور سمي باسمه (سور المستعين) ولا تفصيل لنا فيه هذا حيث سأتناوله في الكتاب الثاني من هذا البحث.

سور بغداد الكبير وأبوابه الشهيرة

وهو الآخر من المعالم والمشيدات القليلة الباقية ببعض أجزاءها إلى يومنا الحاضر حيث مازال جزء منه قرب جامع الأزبك شمال الرصافة وبينه وبين القاعة المعروفة بقاعة الملك فيصل مع أجزاء واضحة من تحصيناته العسكرية وكذلك فهناك (الباب الوسطاني) المعروف باسم (باب الظفرية الواقع قرب تربة الشيخ (عمر السهروردي) والذي يدلل بما لا يقبل الشك عن مسارات السور ووضع تحصيناته الحربية موضوع بحثنا وحدود المدينة في جزئها الشرقي (جانب الرصافة). وهو سور هائل كبير لا مجال للتفصيل في مواصفاته هنا حيث سنورد له تفصيلاً فيما بعد ولكن من الضروري هنا الإشارة إلى أنه من المعالم والشواهد التاريخية المهمة لشرقي بغداد وأنه سور حصين كان له الأثر البارز في حماية المدينة من الأعداء الخارجيين الغزاة والداخليين المتمردين ومن مخاطر الطبيعة كالفيضانات وأضرارها المدمرة.

وقد كان لهذا السور دور كبير في الدفاع عن المدينة في الحروب حيث اضطر (هولاكو) إلى تغيير خططه عدة مرات وإجراء عمليات مناورة واسعة بالعبور إلى الجانب الغربي ومهاجمة بغداد من كرخها ضعيف الأسوار كما برزت أهميته في ما بعد ظهور البارود ووجود المدفع والبندقية وكما في معارك (نادرشاه) و(عباس الصفوي) و(مراد الرابع) وليست هذه الأهمية في المناعة فحسب وإنما في تحديد اتجاهات الهجمات على محاور معينة تؤدي إلى أهداف معينة من مناطق تحشد معينة وعلى كل هذه

المحاور نشاهد اليوم عمائر على أبعاد معينة من المدينة لما يسمى بالخانات والتي تعتبر مراكز متقدمة لجمع المعلومات وإيصالها إلى المركز في أوقات سابقة بهدف فسح الوقت الكافي لاتخاذ الإجراءات الدفاعية وحشد القوى وتهيئتها.

منها (خان بني سعد) على المحور القادم من الشرق حيث بلاد فارس.

و(خان المشاهدة) على المحور القادم من الشمال حيث منطقة الجبل.

و(خان ضاري) على المحور القادم من الغرب حيث الأنبار وبلاد الشام.

و(خان المحمودية) على المحور الجنوبي القادم من منطقة الكوفة والبصرة أن التوزيع الجغرافي لهذه العمائر وهي وإن كانت منشآت خدمية للمسافرين ولإقامتهم وإدامة وسائط نقلهم من خيول وغيرها إلاّ أن القصص والروايات المنقولة إلينا من ذلك الزمان تؤكد استخدامها العسكري وبهدف جمع المعلومات وبشكل أساسي وإيصالها إلى المركز حيث نرى أن العيون والأرصاد فيها كانت توصل المعلومات إلى المراكز عن حركة قوات (المغول) وتفاصيل أعدادها وتسليحها وأساليب استخدامها أولاً بأول إلى (الداويدار) و(الداويدار الكبير)[1].

وأعود إلى التوسع الحاصل في خارج أسوار دار السلام المدورة بعد أن لاحظنا تخطيطاً للتوسع حدث مسبقاً عند إنشاء المدورة (ولا تقول بأنه مسبق إلى درجة التصميم المفصل للأبنية وأماكنها ولكنه مبني على أساس وجود مساحات من الأرض حول المدينة وبكل اتجاهاتها تغطي الحاجة المستقبلية).

وبالشواهد التاريخية القائمة كلاً أو جزءاً استطعنا تحديد مساحات التوسع الحاصلة وبكل الاتجاهات بضمنها بغداد الشرقية. (راجع خرائط بغداد الملحقة) .

---

[1] - الداويدار – كلمة تركية تعني قائد الجيش والكبير هو قائده العام.

ولغرض تحري الدقة في موضوع التوسع للمدينة رأيت من المهم جداً التحدث عن مقرات الحكم وأماكن وجودها ومواصفاتها وهي غالباً ما كانت تمثل القيادة العسكرية إضافة إلى القيادة السياسية والإدارية والاقتصادية وفي كل الأحوال فإن هذه المقرات (القصور) كانت الهدف الأساس في اتخاذ الإجراءات الحمايوية سواء منها الداخلية أو الخارجية وكانت هي المراكز المنيرة والتي كان على الدولة وقواتها المسلحة حمايتها وتحقيق أمنها وهو أحد الأسس المهمة في تحديد أماكن ومسارات وطبيعة الأسوار والخنادق والتحصينات.

قصور الخلافة / مقرات الحكم

المدورة - دار السلام

كما سبق لنا القول فإن أساس المدينة الإسلامية كان في بناء المسجد الجامع وسط المدينة ويترك مساحة مناسبة من الأرض حوله بهدف بناء مقر الحكم أو مقراته قربها ثم تخرج منه مجموعة الفعاليات وتنتهي اعتيادياً بالحصون والقلاع والأسوار والخنادق وهذا منطقي وطبيعي.

وفي المدورة لاحظنا كيف أن المسجد الجامع (مسجد المنصور) بني في مركزها والجوار منه بني قصر المنصور (قصر باب الذهب) الذي تحدثنا عنه وعن بعض تفاصيله ولكن الملاحظ هنا أن مهندسي ومخططي مدينة دار السلام خرجوا عن المألوف في تخطيط المدينة الإسلامية فجعلوا القصر في وسط المدينة وبنوا المسجد الجامع بالقرب منه وفي كل الأحوال فهو في دائرة المركز وذهبت القاعدة الجديدة عند بني العباس[1] مثلاً واقتدى به الخلفاء الآخرون منهم.

---

[1] - اليعقوبي – البلدان – الصفحة 230.

وكما أسلفنا فهو على هيئة مربعة وفي صدره إيوان من طبقتين وفوقه القبة الخضراء وكانت هذه القبة (تاج بغداد وعلم البلد ومأثره من مآثر بني العباس)[1] كما يصفها ابن الجوزي وعليها صنمها الذي سبق الإشارة إليه وللقصر نفق خاص يخرج إلى خارج الأسوار بمسافة فرسخين، والقصر هذا هو المقر الرسمي لحكم الخليفة المنصور إضافة لسكناه وأهل بيته وكذلك كان بعد وفاته لمن خلفه (المهدي) و(الهادي) إلاّ أن (هارون الرشيد) عند وصول الخلافة إليه فضل قصر الخلد لإشرافه على دجلة ولكن (الأمين) خليفته عاد إلى مقر الحكم في مقر جده وأضاف إليه ميداناً[2] حيث يروي الطبري أنه (لما أفضت الخلافة إلى محمد الأمين وهدأ النّاس ببغداد أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم فأمر ببناء ميدان هو قصر أبي جعفر في المدينة)، وظل القصر وقبته قائمين لعقود عدة إلى أن سقط رأس القبة يوم السابع من جمادى الآخرة سنة ثلاثمائة وتسعة وعشرين حيث حدث رعد وبرق عظيم وأمطرت الدنيا مطراً غزيراً[3] ويرى (لي سترانج) أنه ربما أصابت القبة صاعقة أشعلت فيها النيران[4] ولكن صاحب الحوادث الجامعة[5] يرى أن الفيضان الكبير الذي أغرق كل الجانب الغربي من دجلة وفيه دار السلام هو الذي أدى إلى تهدم دار الخلافة والمسجد الجامع وكان ذلك في العام (653هـ).

---

(1) - ابن الجوزي – مناقب بغداد – الصفحة 12.

(2) - الطبري – 551/6.

(3) - اليعقوبي – البلدان – 54/2.

الخطيب – تاريخ بغداد – 73/1 ياقوت الحموي – المعجم – 83/1.

(4) - لي سترانج – بغداد في عهد الخلافة العباسية – الصفحة 39.

(5) - ابن الفوطي – الحوادث الجامعة – الصفحة 303.

قصر الخلد

كان إنشاء قصر الخلد في العام (157هـ-774م) وعلى شاطئ نهر دجلة قرب باب خراسان وعلى مقربة من جسر القوارب الرئيسي الرابط لجانب الكرخ بجانب دجلة من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور وقبل الانتهاء تماماً من إتمام بناء المدورة وفي هذا من جديد مما يدل على فكر المنصور المسبق بتوسيع المدينة إلى الأطراف ويروى أن اختيار المكان من قبل المنصور كان بسبب ارتفاع البقعة المنشأ عليها لطيب هوائها ومحدودية البعوض فيها[1] ولكني لا أؤيد هذا الرأي تماماً حيث أن أهم ميزة لموقع قصر الخلد من وجهة نظر المنصور (الأمنية) أنه قرب باب خراسان حيث يقترب سور دار السلام من النهر ويترك رقعة ضيقة بينه وبين النهر وخاصة في وسطها ثم هناك الجسر الرابط وكلها ميزات مهمة لموقع القصر.

ويذكر اليعقوبي عن موقع القصر (والربع من باب خراسان إلى الجسر على دجلة وما بعد ذلك بأزائها الخلد فكان فيه الإسطبلات وموقع العرض وقصر يشرع على دجلة لم يزل أبو جعفر ينزله، وكان فيه المهدي أن ينتقل إلى قصره بالرصافة الذي بالجانب الشرقي، فإذا جاوز موقع الجسر، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر)[2] ويوجد دير جوار هذا القصر يعتقد أنه الدير المسمى (الدير العتيق) (وهو قائم إلى حاله إلى هذا الوقت نزله الجاثليق رئيس النصارى النسطورية)[3] وقد سمي القصر بهذا الاسم تشبهاً (بجنة الخلد) (وما يحويه من كل منظر رائق ومطلب فائق وعرض غريب ومراد عجيب، وكان موضعه وراء باب خراسان، وقد اندرس الآن فلا

---

(1) - جبرا إبراهيم جبرا وإحسان فتحي - بغداد بين الأمس واليوم - 1987 - الصفحة 59.
(2) - اليعقوبي - البلدان - الصفحة 242.
(3) - نفس المصدر - الصفحة 235.

عين له)[1]. ولم يفضل المهدي سكنه بل نزل في الجانب الشرقي حيث قصره بعد وفاة أبيه، ولما خلفه موسى الهادي أقام في القصر بعد عودته من جرجان، ثم انتقل بعد شهر إلى بستان أم جعفر في قصر عيسا باذ. ومن الجدير الإشارة إلى أن الأمين نزل هذا القصر بحياة أبيه الرشيد ثم اتخذه قصراً لحكمه بعد توليه الخلافة وكان الفضل بن يحيى البرمكي يساكنه هذا القصر، وكان القصر من أبرز معاقل الأمين وفيه حاصره طاهر بن الحسين وضربه بالمجانيق مما اضطر الأمين إلى الانتقال إلى قصر جده وسط المدينة المدورة[2] وقد أدى الصراع الدائر بين الأمين والمأمون إلى تهدم هذا القصر بعد ضربه بالمجانيق غير أن أطلاله بقت ماثلة حتّى عام (293هـ) حيث يذكره الطبري في حوادث تلك السنة.

وفي القصر هذا وأنشاؤه من قبل المنصور غير دلالة تحسب التوسع في المدينة فهو يدل بموقعه وطبيعة مساحته الكبيرة وتوسطه البساتين والحدائق على دلالات كون المدورة دار السلام هي قلعة حصينة ومقر حكم محمي من كل الجهات وليس فيه من مرافق للتنزه وحدائق وإنما هو سكن الاضطرار وإدارة الدولة والدفاع عنها من هذا الموقع عند الحرب وكذا فليس هناك أسواق كبيرة داخلها.

قصر المهدي - قصر الرصافة

وقد بنى المهدي هذا القصر أيام حياة أبيه المنصور بعد عودته إلى بغداد وجيشه من (الري) في جانب الرصافة قرب الجسر الواصل بمنطقة الكرخ وطريقه المؤدي إلى باب خراسان في دار السلام عام (143هـ-760م) ويورد بعض المؤرخين تاريخاً آخر لبدء البناء فيه هو العام (151هـ). ويروي البعض كما سبق لنا الذكر بأن المنصور لم يشأ

---

[1] - الخطيب - تاريخ بغداد - 75/1.
[2] - الطبري - 872/3.

عبور جيشه ابنه المهدي إلى غرب دجلة فطلب منه السكن شرقها وكان القصر محفوفاً بثكنات وقصور قواده وجنده وكانت هذه الثكنات لثلاثة أقسام في الجيش، قسمان لعرب اليمن ومصر والقسم الثالث للجند الخراساني.

وقد سميت المحلة الجديدة في البداية (محلة عسكر المهدي) ثم تغير اسمها إلى محلة (الرصافة) - وهي جنوب ضريح الإمام أبو حنيفة النعمان وشمل مساحات كبيرة أقطعها المهدي لقواده وخاصته، وتفصلها عن محلات بغداد الشرقية الأخرى (والتي كانت قرى بدأت بالنمو) مزارع وبساتين كثيرة وكان البارز منها في هذا التاريخ محلتان هما (الشماسية) و(المخرم) الأولى شمال شرق الرصافة والثانية جنوبها في منطقة (الأيلوازية) الحالية. وقد استخدمه (المهدي) لمقر الحكم وألاقامه في خلافته. وكذا فقد استخدمه المأمون للحكم والإدارة وترك قصره الأول لزوجته وأولاده وبقيت الحال كذلك إلى أن بنى قصره الجديد في بستان موسى قرب قصره القديم الذي تركه لأهله بداية أيام حكمه.

وكان التوسع الحاصل في مدينة بغداد العاصمة أيام الرشيد وبسبب أساس من الازدهار الاقتصادي المؤدي إلى الازدهار السكاني سبباً أساساً في توسيع جانب الرصافة بهذا الشكل الذي أدى فيما بعد وبعد انتشار القصور والمساجد فيه إلى انتقال العاصمة إليه بمقرات حكمها مما أوجب تحصينه وحمايته.

قصر القرار

ويقع هذا القصر جنوب قصر الخلد بالقرب من مصب الصراة وبنهر دجلة حسب رواية الطبري بينما يحدد اليعقوبي والخطيب موقعه إلى شمال قصر الخلد وفي كل الأحوال فقد كانت مجموعة القصور هذه متجاوزة تغطي ساحل دجلة الغربي وأمام المدورة وهو موجود في أيام المنصور الذي يبدو أنه كان صغيراً أيامه ونزله لغرض

الراحة والاستجمام ولكنه توسع على يد (زبيدة) زوج الرشيد وابنها (الأمين) أيام خلافته وهي سمته (قصر القرار)، ويذكر أنها بنت فيه مجلساً لم تر العرب مثله من قبل جمالاً حيث صورت صوراً على جدرانه وطلت السقف والجدران بالذهب وعلقت على أبوابه ستوراً معصفرة مذهبة.

وقد هدم أغلب أقسام القصر من قبل جماعة (طاهر بن الحسين) في الأعوام (197هـ-912م) ثم أحرقوا المتبقي منه عند دحرهم لجيش الأمين ولم تورد المصادر لهذا القصر ذكراً بعد أيام الأمين وتحول إلى بناء للسجن الجديد.

قصر عيسى

وهو قصر بناه عيسى بن علي بن عبد اللـه بن العباس عم الخليفة أبو جعفر المنصور تقع في الجانب الغربي من بغداد عند مصب نهر الفيل بدجلة من غربها وفي القطيعة المعروفة باسمه والمطلة على نهر دجلة ويروى أن القصر بني على آثار قصر ساساني قديم مبني من زمان سابور الثاني في القرن الرابع الميلادي[1].

ويعتقد المؤرخون أن موقع القصر هذا يقع في منطقة جامع (قمرية الحالي) وفي محلة الشيخ بشار بجانب الكرخ من بغداد الحالية.

وليس للقصر آثار تذكر في منطقته وهي الآن ((محلة سكنية ذات سوق كبيرة تسمى محلة قصر عيسى)) كما ذكر ياقوت الحموي المتوفى (626هـ-1229م) في معجمه.

---

[1] - وهذا يدلل على أن فعاليات الأكاسرة الفرس في السكن ومقرات الحكم لم تقتصر على (المدائن) و(طيسفون) فحسب بل امتدت وتعدتها إلى أجزاء بعيدة من موقع مركز حكمهم في جنوب بغداد حيث يبعد الموقع عن المدائن بمسافة كبيرة وبحدود الثلاثين كيلومتراً وهي مسافة بعيدة في قياسات ذلك الزمان وهو أحد الأسباب التي حدت بنا إلى القول بأن (بغداد) الكبرى تضم كل المساحة التي تضمنها اليوم من شمال (الكاظمية) الحالية شمالاً وحتى منطقة (الدورة) في جانب الكرخ ومن شمال (الأعظمية) حتّى نهاية (سلمان باك) جنوباً. وقد زادت هذه المساحة وتقلصت في العصور المختلفة وحسب قوة الدولة الحاكمة وزيادة فعالياتها.

قصر بغداد الشرقية

قصر السلام

بنى المهدي هذا القصر في جانب بغداد الشرقية في محلة تعرف باسم (عيسى باذ) في العام (164هـ-780م) والاسم للمحلة منسوب إلى عيسى بن المهدي كما جاء بتأريخ بغداد للخطيب البغدادي ويقع على النهر المعروف باسم نهر المهدي وهو قصر عظيم بلغت كلفته خمسون مليون درهم. والقصر مبني باللبن إلاّ أن أسسه بنيت بالطابوق والآجر ونزل بها المهدي فترة من الزمن وسك فيه النقود.

قصر الزندورد

وقد شيده الأمين بن الرشيد قرب الدير المعروف بهذا الاسم (دير الزندورد). وموضعه بالقرب من الحي المعروف باسم حي (العلوية) في المنطقة الجنوبية من مدينة بغداد وجنوب دير (كلواذا) المعروف في موقع (الباب الشرقي) شرق نهر دجلة.

والاسم يعود أصلاً إلى كلمة فارسية تعني (غصن الورد) أو (ذراع الورد) وكما سبق لنا القول فهناك مدينة إيرانية ساسانية قديمة قرب (واسط) تعرف بهذا الاسم اتخذها الفرس كمواقع متقدمة لدفاعاتهم تجاه العدو الروماني من الغرب وهي التي أخذ منها (الحجاج) بعض أبواب (واسط) والتي نقلها المنصور فيما بعد إلى دار السلام المدورة وقد مرّ ذكرها في موقع سابق.

وكان هناك نهر يروي هذه المنطقة ويعرف بنفس الاسم (نهر الزندورد) ثم عرفت المحلة التي أقيمت في هذه المنطقة بمحلة (باب الأزج). وهي محلة كبيرة يروي بعض المؤرخين أن فيها آلاف الطواحين المائية على نهر دجلة ونهرها.

وقد أقام الأمين جسرين عائمين على نهر دجلة تربط شرقيها وغربيها حيث قصره الآخر في الجانب الغربي من النهر.

ولم يتخذ الأمين هذا القصر مقراً رسمياً لخلافته وإنما كان أساساً لقضاء الراحة والابتعاد عن مشاكل الحكم حيث مقره الآخر عبر النهر.

وهذه المنطقة (جنوب دير كلواذا) كانت في ذلك الزمان منطقته مزارع وبساتين غنية بإنتاجها الزراعي وفعالياتها الاقتصادية والتجارية المشهودة بتاريخ المدينة ويلاحظ أن أغلب الخلفاء العباسيين وحتى عصور الدولة الأخيرة وبعد عودة الخلافة من سامراء كانوا يتخذون قصراً في الجانب الثاني من نهر دجلة بهدف الراحة كما أسلفنا أولاً ثم بهدف الأمن حيث تحاك المؤامرات وتعقد الاجتماعات الخاصة ثانياً وبنفس الوقت فهي ملجأ في الظروف القسرية الخاصة.

قصر المعتصم

وهو قصر بناه الخليفة العباسي (المعتصم بالله) ابن (هارون الرشيد) الأصغر والذي تولى الخلافة بين الأعوام (218-227هـ) (833-842م) قضى منها ثلاثة سنوات في بغداد وستة في سامراء. وقد بنى القصر في الجانب الشرقي من نهر دجلة وخلال السنة الأولى لحكم المعتصم مما يدلل على رغبة المعتصم السكن وإدارة الدولة من منشأ جديد يكون باسمه أولاً ويجنب ذكريات صراع الأخوة الشهير (الأمين والمأمون) وهم أخوية وهي من الحوادث النادرة في التاريخ حيث تكون السلطة أساس سلوك الإنسان ولو أن في هذا الصراع جوانب من النزاعات القومية حيث أم الأمين عربية وأم المأمون جارية فارسية وكانت ولذلك الوقت المشاعر الفارسية متأججة وبقوة لشعور الفرس بفقدان مراكزهم المهمة بعد أحداث (أبو مسلم الخراساني والبرامكة) في عهدي (المنصور والرشيد).

لقد كان هذا القصر هو الآخر من قصور الحكم المهمة في الخلافة العباسية ليس لسبب من فخامته وكبره فحسب بل بسبب كونه أول انتقال رسمي إلى الجانب الشرقي (الرصافة) من بغداد حيث كانت القصور السابقة دور نزهة وراحة.

وقد بالغ المؤرخون الأوائل في وصفه حيث قالوا (وكان في القصر إيوان منقوش بالفسيفساء، واتخذ المعتصم لقصره هذا بستاناً فيه أنواع الرياحين والغروس، وذكر بعضهم أن القصر كان لأخت المعتصم، ولكن المعتصم عمره، ولما فرغ منه جلس فيه جميع أهل بيته وأصحابه، وأمر أن يلبس النّاس المدعوون كلهم الديباج وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء، وكان في صدر الإيوان صورة عنقاء، وجلس على سرير مرصع بالجواهر وعلى رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة)[1].

القصر الحسني والتاج

وكان موقع تحت نهر (المعلى) وكان القصر أصلاً (للحسن بن سهل) ولهذا سمي بالقصر الحسني ولما توفي الحسن آل القصر إلى ابنته (يوران) ويذكر الخطيب أن (المعتضد بالله) طلب الدار من يوران[2] فاستمهلته فوافق وقامت بفرش الدار بعد أن عمرتها وملأتها بكل ما يليق بدار الخلافة. ثم يعود الخطيب إلى نفي هذه الأحداث حيث يذكر أن يوران) هذه قد توفيت سنة إحدى وسبعين ومائتين بينما تولى (المعتضد بالله) الخلافة سنة تسعة وسبعين ومائتين. (وقد يكون (المعتضد) قد أخذ الدار قبل ولايته).

وعلى كل حال فقد أضاف إليه مساحات مجاورة وعمل للمنطقة كلها سوراً جمعها به وحصنها.

(1) - شريف يوسف - تاريخ فن العمارة العراقية قديماً وحديثاً - 1983م - الصفحة 291.
(2) - الخطيب - تاريخ بغداد - 99/1.

وقام (المكتفي) وهو (علي المكتفي بالله ابن المعتضد) الذي ولي الخلافة عام (29هـ-902م) يعده ببناء قصر التاج على دجلة أيضاً (وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته، ووافى المقتدر بالله فزاد في ذلك، وأوفى مما أنشأه واستحدثه، وكان الميدان والثريا ميدان الوحوش متصلاً بالدار)[1]. ويذكر الخطيب تفاصيل كثيرة عن مظاهر الفخامة والأبهة التي كان عليها القصر خلال زيارة رسول الروم له ما لا يخص أهداف بحثنا هذا.

المهم هنا هو موضوع إحاطة القصور ودور الحكم بأسوار تعزلها عن دور العامة ومرافق الدولة وتزيد من تحصنها ومناعتها وهو فكر دفاعي مضاف.

ويعد ما كان هذا الفكر من تطور وتقدم وخاصة فيما يتعلق بطبيعة منشآته العسكرية والهندسية فقد كانت له مساوئه العامة في فكر الحكم الذي انعزل بل هو الذي عزل فيه نفسه عن عموم المسلمين من الخاصة والعامة مما أضعفه كثيراً وقلل من مكانته لدى جماهيره التي هي المادة الأساس في الحكم والإدارة والسياسة.

دار المملكة[2]

وتقع في المنطقة المحاذية لمحلة المخرم من الشمال وعلى ضفاف دجلة وقد تكون في موقع جسر الصرافية أو البلاط الملكي الواقع في منطقة الكسرة شمال المخرم وجنوب الأعظمية.

وقد كانت الأرض (لسبكتيكن) غلام معز الدولة.

ولما آلت الأمور إلى عضد الدولة نقض معظم أجزاء الدار وأبنيتها (ولم يستبقي إلاّ البيت الستيني الذي هو في وسط أروقة من وراءها أروقة في أطرافها قباب معقودة،

---

[1] - نفس المصدر – نفس الصفحة.

[2] - الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد – 105/1.

وتفتح أبوابه الغربية إلى دجلة وأبوابه الشرقية إلى صحن من خطه بستان ونخل وشجر، وكان عضد الدولة جعل الدار التي هذا البيت فيها دار العامة، والبيت يرسم جلوس الوزراء وما يتصل به من الأروقة والقباب مواضع الدواوين، والصحن مقاماً لديلم التوبة في ليالي الصيف).

ويسترسل الخطيب البغدادي في شروحه المستفيضة هذه لدار المملكة وهو ما يؤكد طبيعة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية في الفترة بين الأعوام (334-447هـ/946-1055م) بحيث أصبحت أمور الدولة تدار من دار المملكة وليس من القصر العباسي ولم يبق للخلفاء العباسيين ممن عرفوا بالضعف والوهن في هذه المرحلة إلاّ الاسم والدعاء في خطب المساجد الجامعة أيام الجمعة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو الفكر الدفاعي المنبعث من الحكم وطبيعته فقد انتهت في هذه الفترة فترة السيطرة البويهية والسيطرة السلجوقية بعدها فعالية القيادة العباسية في كل المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

ونعود إلى دار الدولة التي بأعلى المخرم فنقول ولما آلت الأمور إلى (طغرل بك الغزي) في بغداد بعد أن استولى عليها (عمر هذه الدار وجدد كثيراً – مما كان قد وه وتهدم منها – في سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة. فمكث كذلك إلى سنة ستة وخمسين وأربعمائة، ثم أحرقت وسلب أكثر آلاتها، ثم عمرت بعد وأعيد ما كان أخذ منها)[1] وما يرويه الخطيب أيضاً أن كلف هذا القصر كان باهضة جداً حيث بلغت كلف البستان والنهر إليه من نهر الخالص من قبل عضد الدولة خمسة آلاف ألف درهم ولعل المنفق على الدار كان مثله[2].

[1] - الخطيب – تاريخ بغداد – 106/1.

[2] - وما يرويه الخطيب في نفس الصفحة السابقة نقلاً عن القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي نقلاً عن أبيه (قد أنفق ((ويقصد عضد الدولة)) هذا حتّى صار كذا أكثر من ألفي ألف درهم صحاحاً، ثم فكر في أن يجعل

وعلى أي الأحوال فإن الحكم ودواوينه في هذه المرحلة كان في رصافة بغداد في جانبها الشرقي كلياً وهو ما يوجب تقوية الدفاعات والتحصينات في هذا الجانب ونقل القوة الرئيسية من الجيش إليه وهو أس مادة بحثنا هذا ومقصدنا ولم يكن اختيار الموقع اختياراً حراً دفاعياً بل كان مفروضاً بسبب واقع الحال وظروف الحكم والسياسة واعتباراً من زمان (المهدي) ولعل قرب دائرة أسوار دار السلام من جهة باب خراسان هو أحد الأسباب التي حدت إلى التفكير في إغناء الجانب الشرقي من دجلة وقد جاءت العهود التالية متجهة بهذا الاتجاه.

الجانب الشرقي المقابل لقرية بغداد ومنطقة الكرخ (والتي انتقل إليها العمران وقصور الخلافة والحكم تدريجياً وتوسعت كثيراً بحكم تأهيلها الجغرافي والإنتاجي الزراعي والسكاني والذي زاد من أهمية عوامله قربه من دار السلام المدورة حيث الفعاليات الأساسية لدولة بني العباس) هو الآخر تمتع بميزات كثيرة أغرت الكثير من الحكام على نقل فعالياتهم إليه ابتداءً من الرغبة لدى بعض ولاة العهد والأمراء والوزراء إلى السكن بعيداً عن أعين الخليفة وعسسه وجواسيسه وليس لغرض سياسي فحسب وإنما لأغراض اللهو والعبث والراحة وانتهاءً بالتملك وبناء القصور في مناطق قريبة لا مشقة في الوصول إليها بل على العكس من ذلك فهي القريبة البعيدة.

وقد كان الجانب الشرقي من بغداد مثالاً رائعاً لتأمين هذه المطاليب فهو كالغربي في جودة تربته وطيب هواءه وقربه من المركز تدور فيه أنهار فرعية كثر منها من

شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة، وعلم أن الدواليب لا تكفي، فأخرج المهندسين إلى الأنهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام ليستخرجوا منها أنهراً يسيح ماءه إلى داره فلم يجدوا ما أرادوه إلاّ في نهر الخالص فعلى الأرض بين البلد وبينه تعلية أمكن معها أن يجري الماء على قدر من غير أن يحدث فيه ضرر.. وعمل تلين عظيمين يساويان سطح الماء، ويرتفعان عن أرض الصحراء أذرعاً، وشق في وسطهما نهراً وجعل له (خورين من جانبيه، وداس الجميع بالفيلة دوساً كثيراً حتّى قوي واشتد وصلب وتلبد) إن هذا الوصف يعطي الصورة الكاملة عن طبيعة السيطرة البويهية وعن قوة عضد الدولة وكيانه كما أسلفنا بحيث ينفق كذا ويستخدم العمال والناس والدولة كذا.

يخرج من أعالي دجلة في منطقة بلد وجنوب سامراء كنهر الاسحاقي ومنها ما ينبغ من ديالى كنهر الخالص ونهر بين.

وديالى هو الآخر من الأنهار الموانع المهمة جداً في منطقة شرقي بغداد التي لا تماثل غربيها بالتوسط بين النهرين العظيمين إلاّ أن ديالى هذا الذي يسير بمسار مواز تقريباً لدجلة ما بين المنطقة المقابلة لسامراء وحتى مصبه في دجلة جنوب بغداد يؤمن حماية نسبية للمدينة من ناحية الشرق ولو أن تلك الفترة كانت فترة القوة بل القوة في أوجها انحسرت فيها عن المركز العاصمة وإقليم العراق عموماً بتهديدات الأعداء ومن كل الجهات ولهذا فإن الفكر العام في توسع العاصمة اتجه إلى شرقيها حيث السعة والمجالات الرحبة للتملك والتوسع فانتشر العمران في شمال الرصافة حيث المخرم والشماسية وجنوبها إلى دير كلواذا وجنوبه في الطريق الرابطة بين بغداد والمدائن.

كان الطريق الرئيسي الذي يربط بلاد فارس بالعاصمة يمر من منطقة قصر شيرين إلى جلولاء إلى بعقوبة فبغداد يدخل العاصمة من جانبها الشرقي في رصافتها وهو طريق له فيما عدا الأهمية العسكرية السوقية الكبرى جوانب أفضلية مهمة في مجال التجارة والنشاط الاقتصادي وهو الذي قضت منه الدولة العباسية فيما بعد نحبها حيث كان الطريق الأساس الذي سلكه المغول في غزوهم للعراق واحتلالهم بغداد أيام الخليفة العباسي الأخير (المستعصم بالله) وعلى يد القائد المغولي الشهير (هولاكو) في العام (1258م).

ولكن هذا الجانب المسمى بالرصافة والمنيع بأسواره كما سنرى في فصل لاحق أصبح هو الجزء الرئيسي من بغداد العاصمة منذ تلك الأيام وحتى العصر الحاضر حتّى انحسرت فعاليات الجانب الغربي من بغداد في كرخها وتهدمت أسواره وقل الاهتمام بتحصيناته وتهدمت المدورة دار السلام بحيث أصبح هذا الجزء نقطة ضعف في دفاعات بغداد يغري الغزاة على مهاجمة المدينة من خلاله.

الفصل السادس

- أسوار دار السلام المدورة -
- التصميم العام للأسوار
- الفكر الحمايوي الدفاعي للقيادة العباسية
- الوظائف العسكرية للأسوار
- أبواب دار السلام المدورة
- خطة الدفاع عن دار السلام المدوّرة

أسوار دار السلام المدورة

فكرة عامة

كما سبق التطرق إليه فإن إحاطة المدينة وخاصة المدينة العاصمة مثل دار السلام بالأسوار حيث قرر بني العباس بناء عاصمتهم، كان من الأمور الأساسية في تخطيط المدينة العاصمة السياسية والعسكرية والاقتصادية وحيث لا تكتمل المتطلبات الأساسية إلاّ بتأمين أقصى ما يمكن من الحماية ومن شرائط الدفاع والتحصين ووفق المعطيات الأساسية لقوى الصراع وتركيبة الجيوش وتسليحها في ذلك الزمن.

ولأن القرار للمنصور كان بأن تكون المدينة مدورة الشكل، فقد كانت الأسوار بالضرورة دائرية تحيط بها من كل جهاتها.

إن الأساس في هذا الفكر باتجاه الحماية من جميع الجهات كان بسبب انفتاح المناطق المحيطة بالمدينة وعدم وجود أفضليات لجانب على آخر أو لمحور معين دون غيره فكل المحاور والجهات متساوية المعطيات من فوائد ومساوئ.

والفكرة في دائرية المدينة كما سبق لم تكن فكرة وليدة ظروف المكان ومواصفات الموقع فحسب وبكل ما فيها من سيطرة للمركز على الأطراف وبشكل متساوي وإنما هي فكرة منقولة عن التراث الهندسي المعماري في المدن الآشورية في شمال وادي الرافدين حيث تفرض ظروف القمم هذه الدائرية. ومن ثم الفكر الهندسي المعماري لدى الدول العربية الصحراوية للأنباط في تدمر سوريا وحضر العراق حيث البيئة المفتوحة متساوية القيمة ومن جميع الاتجاهات مما يجعل الدائرية وسيلة للسيطرة قوية متساوية الظروف لمركز الدائرة وحيث تقع منشآت القيادة السياسية والإدارية

والعسكرية ويربطها بالأطراف طرق ومسالك متساوية الطول خاصة وأن دار السلام لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم للمدينة بقدر ما كانت قلعة حصينة لمقر الخلافة ومؤسسات الحكم فيها تتمكن من الدفاع أو قل تقدم أفضل التسهيلات للدفاع عن رأس الحكم ومؤسساته وتحيط بها مناطق واسعة مؤهلة لانتشار السكان وسكنهم وفعالياتهم الحياتية التقليدية من تجارة وصناعة وزراعة وأخرى مما يحتاجه السكان في مناطق سكناهم ومجتمعهم الحضري.

وعموماً فإنّه يمكن وصف هذه الأسوار بأنها دائرتان كبيرتان تحيطان بسكك المدينة على شكل سورين داخلي وخارجي يحيط بهما خندق مائي، وتفصل هذه الفعاليات (السورين والخندق) ساحات للقتال سماها المؤرخون (الفصائل) وللمنظومة الدفاعية هذه أربعة أبواب أمام الطرق الرئيسية الخارجة من المركز بالاتجاهات الأربع حيث أقيمت جسور على الخندق المائي وحيث أنشأت في كل من الأبواب ما سمي بالطاقات حيث أنشأت مداخل (غير مستقيمة) تجبر الداخل على الانحراف يساراً ويميناً وهي (مزورة) أي منحرفة وبالمناسبة فإن اسم (الزوراء) الذي يطلق على المدينة وكما يروى سببه هذا الازورار في المداخل كما سيرد مفصلاً.

ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى تلبية احتياجات أمنية وقت السلم لمراقبة الداخلين والوافدين جيداً وكذلك تلبية الاحتياجات الحربية وقت القتال بإجبار المهاجمين على تقليل سرعتهم وخاصة بالنسبة للخيالة وبهدف كسر زخم كتلة الهجوم الراكب أولاً ولتمكين الرماة على الأبراج وفوق الأسوار من رمي نيران فعالة مصوبة لا يمكن أن تكون فعالة في حالة الحركة السريعة للمهاجمين ولكنهم الراكبة وخاصة الخيالة منها والتي تعتبر بمقاييس ذلك العصر الكتلة الرئيسية للهجوم.

التصميم العام للأسوار

لقد صممت أسوار المدورة على ما تدل عليه هيئتها المنقولة إلينا في مراجع المؤرخين ومصادرهم على أساسين رئيسيين من أسس التعبئة والحرب وخاصة في حالات الحصار والدفاع هما:

الأول: الدفاع من جميع الجهات وعلى أسس القيمة العسكرية الدفاعية الحمايوية المتساوية من جميع الجهات لتساوي المعطيات التي بنيت عليها دائرية المدينة وتحصيناتها.

الثاني: مراعاة مواصفات الأسلحة ووسائل القتال المتيسرة في زمانها وأخذها بنظر الاعتبار عند تحديد الارتفاعات والأبعاد الأخرى وكذلك بالنسبة لأبراج الرمي ومساطب القتال ومزاغل الأسلحة والرصد مع ترك فسحات ومسافات كافية كما أسلفنا بين الأسوار وبينها وبين الخندق لفسح المجال الكافي لقيادة الدفاع للمناورة بقطعاتها وأسلحتها أولاً، ثم بهدف تمكينها من مشاغلة العدو المهاجم بقوة الهجوم المقابل وباتجاه إيقافه ثم حصره وتحديد حركته ثم تدميره وسحقه نهائياً.

إن ما فرضته أسس القتال السابقة على مصممي الأسوار من أبعاد في الارتفاعات والعرض بهدف تحقيق السيطرة الكاملة للأشخاص والأسلحة أدى إلى وجود كتل معمارية كبيرة وثقيلة الأوزان بالضرورة مما استوجب دقة عالية في تصاميم أسس هذه العمائر الكبيرة، عمقاً بهدف الوصول إلى الأرض الصلبة وعرضاً لتحقيق الاستقرار لهذه العمائر العالية من ناحية وبهدف توزيع الأثقال على مساحات تتناسب معها وتوزعها على مساحات تتناسب مع تحمل ترب منطقة الوسط لبلاد الرافدين وخاصة لما بين النهرين وفي منطقة اقترابهما حيث الترب خفيفة جداً ولا

يتحمل المتر المربع فيها أكثر من نصف طن من الحمولة يضاف إليها الوهن في التحمل الحاصل بسبب ارتفاع المياه الجوفية فيها لكونها بين النهرين ولوجود شبكة الأنهار الكبيرة فيها للري والبزل مما يؤدي إلى تسربات كبرى في المياه السطحية تحت طبقات الأسس وفي بيئة التربة المحيطة بها إضافة إلى ما يترتب عليها من زحوف في تربة هذه البيئة.

إن المنقول لنا والذي وصلنا من المعلومات عن تفاصيل وتصاميم هذه الأسوار وأبعادها وهيأة بنيانها وشكل طاقاتها وأبراجها وأبوابها عن طريق مؤرخينا القدامى أو أساتذتنا الجدد في بداية القرن السابق يفي بما يتطلبه الوصف الدقيق للتصميم ويعطينا الفكرة الواضحة عنه بقدر تعلق الموضوع بتخطيط الأسوار وطبيعة هندستها وتصاميمها العسكرية وبما يوضح الفكرة الكاملة عن طبيعة التهديدات المحتملة وبموجب خطط القيادة العسكرية العباسية في تصميم وإدارة الدفاع عن المدينة وطريقة إشغال تحصيناتها وإدامتها خلال الحرب.

تتألف أسوار دار السلام كما وضعها المنصور مع مستشاريه ومهندسيه ومعاونيه وقادته من دائرتان كبيرتان تحيطان بالمدينة وبيئتها الأساسية والسورين داخلي أعظم وخارجي أوطأ منه ارتفاعاً وخال من الأبراج.

السور الداخلي

ويطلق عليه تعبير السور الأعظم وهو السور القريب من أبنية المدينة وعمائرها وهو سور شاهق الارتفاع له أبواب أربعة ومجموعة كبيرة من الأبراج العالية ويذكر عنه اليعقوبي ما نصه[1] (وحول السور فصيل جليل عظيم، بين حائط السور

[1] - اليعقوبي – البلدان – الصفحة 239.

وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء، وللفصيل أبرجة عظام، وعليه الشرافات المدورة، وخارج الفصيل كما يدور مسناة).

إن الأرقام الواصلة إلينا حول أبعاد السور عن طريق مؤرخي العصر العباسي بعمومهم هي أرقام تقريبية لا يمكن اعتمادها بدقة ولم تحقق بآلة قياس على أرض الواقع كما أن اختلاف المقاييس وآلات الذرع بين مختلف العصور والدهور هي الأخرى تعتبر عاملاً آخر يؤدي إلى عدم الدقة وكذلك عدم تسجيل المعلومات في وقتها حيث نقلت بين العديد من الأشخاص ضمن العديد من الأجيال وكما يقول الأستاذ الدكتور صالح العلي[1] فإن فقدان المعلومات أو اقتضابها وحسب (أمزجة الكتاب) في اختيار ما يذكرون أو يحذفون. وأضيف إلى رأي الأستاذ الجليل إن عدم التخصص هو العامل الأساس في عدم الدقة هذا ويظهر ذلك لنا بوضوح حين يؤرخ لنا مهندس في هذا المجال وكيف سيكون تحقيق الأرقام وتدقيقها وعلى أي حال فالمهم عندي هنا هو تدقيق هذه الأرقام ومطابقتها مع المتطلبات العسكرية لأسلحة ذلك العصر موضوع بحثنا ولا يعني هذا تقليلاً من شأن هذه الأرقام وبكل ما له علاقة بالتصميم الهندسي.

وقد جاءت الأرقام هذه عند مؤرخينا بالذراع[2] ولسهولة الحساب وتقريب الأرقام بما لا يتعارض مع الأهداف ولا يؤثر على قياسات ذلك الزمن في مثل هذه المنشآت والعمائر الكبيرة (أسوار دار السلام) فسنعتبر الذراع يساوي خمسون سنتمتراً وكما فعل بعض مؤرخينا ولأن التحقيق الدقيق يكاد يكون مستحيلاً لزوال الآثار كلية ولا أدري كيف توصل الأستاذ كريزويل إلى هذا الرقم الدقيق ولعله وجد لبنة في موقع ما وقاسها ومع كل ما شاهدناه في الموقع المفترض أصلاً من زوال للأثر وعدم تمكن الآثار

---

(1) - د. صالح العلي - بغداد دار السلام - الجانب الغربي - الصفحة 296.

(2) - الذراع كما ورد في تاريخ العمارة العراقية قديماً وحديثاً للأستاذ شريف يوسف وكما نقله عن الأستاذ كريزويل في تقدير له حول الموضوع.

العامة ومؤرخي القرن السابق وآثارييه ورغم الجهود الكبيرة المبذولة في التنقيبات من العثور على أي أثر لا للسور ولا لأي من العمائر الأخرى الخاصة بهذه المدينة.

يغلب الظن بأن الرأي القائل بأن قطر المدينة المدورة هو بحدود (ثلاثة آلاف ومائة وخمسون متراً) المحولة من قياس الأذرع وكما ورد لدى بعض المؤرخين هو الأرجح من بين الأرقام المختلفة الواردة حول الموضوع لدى مختلف المؤرخين وفي كل محيط المدينة (عشرة آلاف وثلاثمائة وخمسة وتسعون متراً) ولنقل وبهدف التقريب ولسهولة الحساب أنه بحدود (العشرة كيلومترات)[1] وسنعود فيما بعد لمقارنته مع أرقام أخرى وردت لدى البعض بسبب عدم الدقة المشار إليها وبدائية آلات القياس في تلك العصور السحيقة مما أوجد تلك الاختلافات في الأرقام حيث يرى المتتبع لتلك الروايات المختلفة أن (إسحاق الأزدي) في كتابه (مختصر مناقب بغداد) نقل عن (رباح) البناء وهو من أبرز البنائين الذين اشتركوا في بناء سور المدينة المدورة أن المسافة بين الباب والباب من أبواب المدينة ميل[2].

وقد نقل الأزدي عن رباح أيضاً أنه قال: (إن في كل صف من صفوف البناء مائة ألف واثنتان وتسعون لبنة)[3]. وأن هذه الأرقام تجعلنا في حيرة فتناقضها كبير وغير

---

(1) - نقله المهندس شريف يوسف في مؤلفه المشار إليه سابقاً وفي (الصفحة 275) عن رواية لليعقوبي المؤرخ.
ولقد قارنت هذا الرقم بالتجوال في المنطقة المفترضة للمدورة دار السلام بين (دير سونايا) (موقع جامع براثا الحالي الواقع في غرب منطقة العطيفية) وبين (مقابر قريش) (الكاظمية الحالية شمال دار السلام) فوجدت أنه أقرب إلى المعقول جغرافياً وبقياسات الموقع وستكون مساحة المدينة بهذه الحالة بحدود (عشرة كيلومترات) ولكن العالم (لي سترانج) يرى أن المساحة بحدود (سبعة ونصف كيلومتر مربع) هي الأقرب بمقارنته مع مختلف الفعاليات داخل المدينة ووفق المخطط المتفق عليه لها حيث الدوائر الأربع للقصر ومقر الحكم في المركز وحولها دائرة الدواوين قصور الأبناء وحولها السكك وحولها الأسوار.

(2) - الميل يساوي أربعة آلاف ذراع سوداء أي حوالي ألفي متر، وعلى هذا الأساس فيكون محيط المدينة ثمانية كيلومترات وهي بين الخمسة والعشرة كيلومترات الواردة في مؤلف الأستاذ شريف يوسف (تاريخ فن العمارة العراقية).

(3) - إذا أخذنا معدل العرض للسور من بين هذه الأرقام التي أوردها الطبري (238.6) من أسفله خمسون ذراعاً أي خمسة وعشرون متراً وبقسمة الرقم سنجد أن طول السور والذي هو محيط المدينة سيكون (ألفان وواحد) متراً وهو رقم متناقض تماماً مع الأرقام السابقة وغير معقول إلاّ إذا لم يكن اللبن متلاصقاً

منسجم ولكن أستطيع التأكيد إلى أنها لا تؤثر على بحثنا هذا فلم تكن هناك أسلحة لهدم الأسوار في تلك الحقبة سوى المنجنيق وهو وقذائفه أضعف من التأثيرات الكبيرة على مثل هذه الأسوار. ولم تقتصر هذه الاختلافات على طول السور فحسب بل شملت أيضاً مواصفاته كذلك فقد نقل عن (محمد بن خلف المكنى وكيعاً) أنه ذكر هذه الأبعاد للطبري وابن الفقيه ولتشابه هذه الأرقام عندهما.

وعلى كل حال فمن المؤكد أن المدينة المدورة لم تكن من السعة التي تفرضها تسمية المدينة العاصمة الكبيرة بل كانت قلعة وقصراً ودار حكم وسكن للخاصة والجند من أقرب أتباع الدولة الجديدة وقد أخذت الأسوار والفصائل والخندق مما هو ضروري للدفاع عن المدينة ولإدارة المعركة باتجاه سهولة السيطرة أولاً والاقتصاد بالنفقات الكبيرة المطلوبة فيما لو توسعت المساحة مما لم يكن ضرورياً في هيكل القلعة ودفاعها حيث أن الخليفة المنصور اهتم كثيراً ومنذ البداية بإمكانات التوسع خارج القلعة ودرس خلال استطلاعاته مناطق الجوار بدقة ورأى الإمكانات الواسعة فيها لاستيعاب حاجات ومتطلبات العاصمة للدولة الإمبراطورية الأكبر في العالم يومها من الجوانب السكانية والاقتصادية والتجارية والزراعية والصناعية الحرفية.

ومهم هنا وبدرجة كبيرة التذكير بأن السور لم يكن سوراً واحداً بل هما سوران، خارجي يلي الخندق وهو سور واطئ بسيط وداخلي أعظم كما سماه المؤرخون وبينهما ما اصطلح عليه الفصيل والفصائل وكذا بين السور الخارجي والخندق حيث سمي باسم (الفصيل الخارجي) تمييزاً والفصائل هي ساحات وفسح مصممة كساحات للقتال حيث يتمكن المدافعون عن المدينة وأسوارها في حصر المهاجمين (في حالة نجاحهم في عبور الخندق) في بقعة محدودة مسيطر عليها بنيران المدافعين ومن فوق

في البناء حيث وجدنا أن بعض أساليب البناء تترك فراغات بين صفوف اللبن وتملأ هذه الفراغات بالطين أو التراب وهذا أسلوب لاحظت وجوده في بعض الأبنية التراثية العراقية القديمة.

الأسوار ومن على الأبراج حيث توقع أكبر الخسائر الممكنة بهم وحيث يتم كسر زخم الهجوم وقوته وإضعافه إلى الحد الذي تتمكن به قوة الهجوم المقابل الموجودة[1] داخل الأسوار من القضاء عليه وتدميره وفي هذا التخطيط ما يدلل على المستوى العالي لقيادة أبو جعفر المنصور وأهمية الحس الأمني الدفاعي لديه وهاجس هاشمية الكوفة وثورة الراوندية والنفوذ العلوي لأهل الكوفة وتأثيره على الجند العباسي.

تعتبر تصاميم الأسوار والمنشآت الدفاعية في المدورة دار السلام مع كل تفاصيل منشآت وعمائر المدينة القلعة من الطرز المعمارية الفريدة في عصرها في فن العمارة والتخطيط والتصميم والزخرفة والفن إضافة إلى الطراز الفريد في إعطاء دفاعات المدينة عمقاً على شكل قدمات متتالية مما يحقق أفضل تطبيق لمبدأ (العمق) في الدفاع وهو من المبادئ الأساسية. ومع كل ما للعامل العسكري من تأثير على تصاميم هذه الأسوار فقد ظل موضوع أهمية جمالية المدينة وفنونها المتميزة والبارزة والطرز المعمارية الراقية واضحاً بتأثيره على هذه التصاميم لدى مصمميها ومخططيها ورغم كل ضغوط الهاجس الأمني عليهم.

واضح تماماً أن هؤلاء المهندسين كانوا ممن سبق لهم دراسات وتجارب وقراءات تاريخية عن إنشاء المدن في العصور السابقة لعصرهم كما يؤكد الدكتور أحمد فكري[2] حيث تورد رواية الخطيب البغدادي من أن الخليفة المنصور استدعى اثنين ممن اشتهر بقدرتهم وخبرتهم الهندسية، وهما (الحجاج بن أرطأة) و(أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي) إضافة إلى بقية أهل الخبرة والمعرفة وأوجزهم عما يدور في ذهنه من صورة للمدينة العاصمة وبما يليق بملك بني العباس الكبير وناقشهم وناقشوه إلى أن

---

[1] - إن فكرة الفصيل وفسحة القتال هذه بهدف خوض قتال مسيطر عليه في أرض مرغوبة هي فكرة متقدمة في مبادئ إدارة دفاع ناجح في أدبيات التعبئة الحديثة وبما يسمى (سوق العدو إلى أرض القتل المنتخبة سلفاً).

[2] - الدكتور أحمد فكري – المدخل – الصفحات (33 إلى 35).

توصلوا إلى هذا التصميم النموذج المتقدم في عصره والذي اعتبره كل الدارسين والمؤرخين نموذجاً فريداً في عصره ولمئات السنين اللاحقة بعده حيث لم يظهر نموذجاً آخر يمثل ذلك البهاء وتلك الروعة التي ذهبت مثلاً في مشارق الأرض ومغاربها.

ولنعد إلى وصف أسوار دار السلام حيث ذكر أن السور الذي يلي الخندق سمي (السور الخارجي) كان أقل ارتفاعاً من (السور الداخلي) المسمى (السور الأعظم) وهذا الفارق في الارتفاع طبيعي جداً ويهدف إلى إتاحة فرص الإشراف الكامل للرصد والسيطرة الكاملة للأسلحة الموجودة على السور الداخلي وأبراجه اعتباراً من المناطق أمام الخندق وحتى الفصائل بين الأسوار وأمامها[1] وهذا طبيعي ولازم.

حيث أن إدارة معركة المدافعين من على السورين تستوجب فرقاً في الارتفاع بين السورين أما أن يكون السور الخارجي أقل سمكاً فهذا غير وارد إلاّ بسبب من كونه غير مرتفع والداخلي عريض من أسفله بسبب ارتفاعه وهي قاعدة هندسية يستوجبها

---

[1] - لا أشاطر الأستاذ الدكتور طاهر مظفر العميد فيما نقله عن اليعقوبي المؤرخ في تاريخه (فتوح البلدان، ص239) والمذكورة ملاحظاته في كتابه القيم (تخطيط المدن العربية الإسلامية) من أن السور الخارجي كان أقل سمكاً من السور الداخلي الأعظم خاصة وأن السور لم يكن قائماً أيام اليعقوبي وذلك لأسباب عسكرية بحتة تتعلق بوظائف الأسوار الدفاعية الأساسية والتي سترد بتفصيل أكثر في مكان لاحق ولكن وبإيجاز فهما وظيفتان:
الأولى: هي استباق الرمي من على الأبراج والأسوار على السواء عندما يكون المهاجم قبل الخندق المائي ومن أبعد المديات وبهدف إيقاع أكبر الخسائر الممكنة وإنهاك الخصم وإضعاف معنوياته.
الثانية: وهي حماية السور الداخلي الذي يشكل أهم حلقات الدفاع من رمي مجانيق العدو المهاجم ودباباته مما يوجب أن يكون السور أكثر عرضاً وهو إملاء ترابي على شكل سدة كما وصفه المؤرخون إضافة إلى الحماية من أخطار الفيضانات السنوية المشهورة في منطقة وسط الوادي.
وتحقق هذه الفروق في الارتفاعات بين السورين كذلك محارك مستقيمة غير محجوبة للنظر ولمسارات قذائف المدافعين المركزة على السور الداخلي وأبراجه وتحقق كذلك سيطرة كاملة للقيادات العسكرية الموجودة على شرفات السور الداخلي على المعركة وبهدف إدارة الدفاع بشكل قادر ومتسلسل حتّى القضاء على الخصم.

التصميم لتأمين الاستقرار لهذا المنشأ المرتفع ولحمايته من التداعي ولتوزيع ثقله الكبير على مساحة محسوبة.

وكما يلاحظ القارئ الكريم في تحليل مواصفات السورين من وجهة نظر المتطلبات الحربية القتالية وهي الأهداف الأساسية في بنائها وبناء المنشآت الدفاعية الأخرى.

يروي الطبري أن الخليفة أبو جعفر أمر أن يجعل عرض أسفل السور خمسين ذراعاً[1] وأعتقد أن هذا الأمر جاء بعد أخذ آراء المختصين وكما قلنا فهي قضية هندسية بحتة.

أما اليعقوبي فيزيد عليه ويقول: (إن المنصور جعل سورها باللبن العظام ((أي الكبيرة)) وجعل عرض أساس السور تسعين ذراعاً بالسوداء... وحول السور فصيل عظيم جليل، بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء وللفصيل أبرجة عظام، وعليه الشرافات المدورة وخارج السور كما يدور مسناة)[2] ولا أرى مبرراً لتسمية اليعقوبي للسور الخارجي (بحائط الفصيل) سوى لكونه أوطأ من السور العظيم (الداخلي) حيث أن لهذا السور دور مهم في حماية السور الداخلي من قذائف المنجنيق والدبابة باخشابها الثقيلة ولما له من دور في تأمين العمق للدفاع وحصر المهاجمين في مساحات ضيقة تحدد حركتهم عند الأبواب والفتحات فيه مما يركز النيران عليهم وأعتقد أنه في الغالب لم يكن لليعقوبي أو لمن روى له دراية في تحليل أسباب وجود سور خارجي ولذا قلل من شأنه وسماه حائط الفصيل، فالجهد المبذول في إنشاءه، وكلفته (عدا الأسباب في شروحنا السابقة) لا تبرر وصفه بعدم الأهمية،

---

[1] - الطبري – 279/3.

[2] - اليعقوبي – البلدان – 239.

إن الفرق بين الخمسين ذراعاً والتسعين الواردة في المرجعين أعلاه في عرض أسفل السور وأساسه قد يكون شبه طبيعي حيث يجب أن يكون الأساس أعرض من قاعدة السور وهي قاعدة هندسية ولو أن عشرون ذراعاً من كل جانب هي كبيرة جداً.

ويستطرد اليعقوبي فيقول: (وحول السور فصيل جليل عظيم، بين حائط السور ((السور الخارجي)) وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء، وللفصيل أبرجه عظام، وعليه الشرفات المدورة ((أنها ليست مدورة كما يتبادر إلى الذهن من نص اليعقوبي بل هي أنصاف دوائر تخرج عن أصل البناء وتهدف إضافة إلى التقوية الإنشائية والقواعد المعمارية لهكذا سور مرتفع وطويل إلى تمكين الرامي والراصد من الرمي والرصد ليس إلى الأمام فحسب بل إلى الجانبين أيضاً وبمحاذاة جدار السور لغرض رمي نار جانبية مؤثرة جداً على المهاجمين إن وصلوا داخل الفصيل وعدم ترك مساحات ميتة حسب التعبير العسكري لا تغطيها النيران وخارج الفصيل كما يدور مسناة))[(1)] وهدفها منع التآكل في المنشأ إن صعد إليه الماء وارتطم بأسفله.

أما ابن الفقيه فيقول إنه بعد الخندق السور الذي خلف الفصيل وعرضه من أسفله ثمانية عشر ذراعاً، وعرض أعلاه ستة أذرع وجعل على ذراع مما يلي الخندق الشرافات، فصار الباقي خمسة أذرع يمشي عليها الناس[2] وهو يقصد الجند بالتأكيد.(وهذا وصف لابن الفقيه يزيد من أهمية السور الخارجي حيث يؤشر وجود شرفات للرمي من فوقه يبدأ دورها في بداية الهجوم عبر الخندق ثم تنسحب إلى السور الأعظم في حالة اختراق السور الخارجي وهي معلومة لها أهميتها الكبرى في تحقيق مبدأ العمق).

وقد علق الأستاذ الدكتور صالح العلي بأن هذا الوصف يدل على ضعف هذا السور الذي يبلغ عرض أعلاه ستة أذرع بما فيها الشرافات[3] ولا أرى في تقليل الأستاذ من شأن السور ووصفه بالضعف من مبرر فهي تدرج الاستخدام ليس الا. كما أن الموازنة

[(1)] - اليعقوبي – البلدان – الصفحة 239.

[(2)] - ابن الفقيه – الصفحة 35.

[(3)] - د. صالح العلي – بغداد مدينة السلام الجانب الغربي – الصفحة 299.

الجارية دوماً بين المتطلبات والمعايير العسكرية وبين الاعتبارات والقواعد الهندسية تفرض دوماً على أحدها التضييق بسبب من عدم إمكان تجاوز الأخرى بسبب الأهمية وكذا بالنسبة للكلف والإنفاق الاعتبارات المالية والتي أرى أن المنصور ومستشاريه من كل التخصصات قد نجحوا في الموازنة بينها بشكل ملحوظ دون الإخلال بوظائفها العسكرية أساس إنشائها. يذكر محمد بن خلف (وكيع) فيما نقله عنه الخطيب أن ما بين السورين فصيل عرضه ستون ذراعاً[1] مائة ذراع بالسوداء[2] ولا أرى في هذا التباين من أهمية تذكر حيث أنه ساحة للحرب تتأثر أبعادها بطريقة القائد في إدارة الحرب إضافة إلى عدم الدقة في القياس أو في نقل الرواية لأناس غير متخصصين ولو أن وكيعاً هو بناء والأقرب إلى الأمر وهم أيضاً لم يكونوا من المتخصصين في أمور الحرب ويذكرون الرواية على علاتها مقروءة أو مسموعة وجهد إمكانهم وفي أحيان أخرى على الأمزجة فالأمر ليس من تخصصهم ولا يستطيعون تقدير وتقييم رأي المقاتل بكفاءة وكفاية هذه الأبعاد وبهدف تحقيق الأغراض المرجوة منها والتي أنشأت أصلاً لتحقيقها.

ويذكر الدكتور طاهر العميد في مقالة له في سلسلة (حضارة العراق)[3] ما نصه (والذي يبدو أن وظيفة هذا السور (ويقصد الخارجي) لم تكن دفاعية محضة إذ أن أساليب الدفاع عن المدينة المدورة لا تعتمد عليه بالدرجة الأولى إذ الثابت أن السور الداخلي (الأعظم) هو المعول عليه) ولا أتفق مع أستاذي الدكتور في هذا حيث أن كون السور الداخلي يمثل الهيكل العمودي للدفاع وبالضرورة فإن هناك حوله يجب أن تكون منشآت مساعدة كالسور الخارجي والخندق والفصائل والأبواب المزوّرة ومن

---

(1) - الخطيب البغدادي – 35/1.

(2) - ابن الفقيه – البلدان – 239.

(3) - د. طاهر العميد – حضارة العراق – الجزء التاسع – العمارة العسكرية – المبحث الأول – 1985 – الصفحة 194.

المعروف في موضوع إدارة المعركة الدفاعية للعسكريين بأنه ليس هناك ما يعول عليه وما لا يعول وإنما هناك مراحل وأسبقيات لكل منها أهميته وهي صفحات تتكامل مع بعضها البعض لتشكل الهيكل الكامل لإطار الدفاع وإهمال أي منها أو التقليل من أهميته قد يؤدي إلى كارثة عسكرية لنتائج المعركة.

والمعروف في سلاح المهندسين أن ما يسمى بالموانع هو مجازي فقط فهذه الفعاليات لا تمنع وإنما تعرقل ولكل منها دوره الخاص ضمن المعركة الدفاعية ويوقع نسبة من الخسائر المحسوبة في العدو المهاجم كما أنه يؤثر في إضعاف معنوياته بشكل كبير ويتكامل وظائف هذه المعرقلات بتحقيق الغرض من الدفاع في صد المهاجم ودحره على الموانع أو خلفها إن اخترقها وهذا وارد تماماً.

إن هذه المراحل في العملية الدفاعية تجري وفق خطة دقيقة وبمراحل مخطط لها وإن سارت أمور إدارتها بالشكل المخطط له وحققت أغراضها المرجوة فإنها ستمهد لمرحلة أخرى هي مرحلة استثمار الفوز.

ويشير الدكتور طاهر في نفس الصفحة إلى نقطة أخرى في هذا السور وهي وجود أو عدم وجود دعامات أو مساند فيه ويستند في ذلك إلى المؤرخ (هرتسفيلد) فيقول: (ويظن هرتسفيلد وجود بعض الدعامات أو المساند المدورة التي تدعم السور مثل منشآت سامراء العباسية غير أنه ليس لدينا من النصوص التاريخية ما يؤيد أو ينفي وجود الأبراج أو الدعامات إذ أن المصادر العربية كما أسلفنا لم تشر إليها كما أشارت إلى وجودها في السور الداخلي ومع ذلك فنحن نميل إلى تأييد رأي (هرتسفيلد) بوجود الدعامات والمساند) انتهى نص رأي الدكتور طاهر، وأقول أنا بأن هذه المساند والدعامات ذات وظائف هندسية أكثر منها عسكرية لإسناد السور ولا أعتقد بأن ارتفاعه الواطئ يستوجب الإسناد وعلى كل حال فلا تأثير لها على العامل العسكري

وإن كانت في السور الأعظم مستخدمة كمواضع رمي للنار الجانبية كما أسلفنا وذلك لأن الخطة مبنية أساساً على استخدام السور الداخلي بهذه الكيفية وهو المعول عليه وكما هو رأي الدكتور طاهر.

وكان للسور أربعة أبواب مسماة بأسماء محاور المدن المؤدية إليها (البصرة/الكوفة/خراسان/الشام).

أما السور الأعظم فقد كان أعلى وأضخم وأكثر مناعة ومزود بالأبراج وعددها ما بين باب وباب ثمانية وعشرون برجاً عدا ما بين باب الكوفة وباب البصرة فقد كان عددها تسعة وعشرين برجاً ولا أرى سبباً عسكرياً أو هندسياً لهذا الفرق وأعتقد أنه كان لأسباب تتعلق بطريقة التنفيذ والقياسات.

ولم يصلنا شيئاً عن شكل هذه الأبراج بالضبط إلاّ أن (الأستاذ كريزويل) يقول بأنها نصف دائرية استنتاجاً من شكل أسيجة قصور وجوامع سامراء ويقول (الدكتور طاهر العميد) بأنها كانت على شكل حدوة الحصان أسوة بما عرف عن مدينة الرقة المنشأة على الطراز المعماري لمدينة دار السلام والفارق بين الحالين محدود جداً ولا أثر له على الاعتبارات العسكرية بحال من الأحوال. وفيما يخص أبعاد هذا السور الأعظم فقد ذكر اليعقوبي أن أساس السور كان تسعين ذراعاً مع الشرفات بينما قال الخطيب البغدادي بأن عرضه من الأسفل عشرين ذراعاً وارتفاعه خمسة وثلاثين ذراعاً وأن سمك الأبراج كان خمسة أذرع فيما فوق السور وكذا ورد عن ابن الجوزي بنفس هذه الأرقام.

وفيما يتعلق بشكل المداخل والأبواب فقد نقل عنها أنها كانت لا تتيح للداخل المرور المستقيم وأنها أي المداخل كانت مزوّرة إلى اليسار ويقول الخطيب إن المدينة سميت بالزوراء كما أسلفنا لازورار مداخلها، وقد كان هذا الموضوع عامل مناقشة بين

الآثاريين لتعليل سببه وقد نسبه البعض إلى تصاميم بيزنطية في مدن شمال أفريقية التي لا ينسجم تاريخ إنشاءها مع هذا الادعاء لبنائها بعد مدينة دار السلام بمائة عام.

ولا أرى له سبباً واضحاً إلاّ في تمكين الداخل إلى المدينة من رؤية مسافة كبيرة منها أثناء دخوله ولسبب أمني يتعلق بطريقة مراقبة الداخلين وتفتيشهم وكذا السبب حربي في عدم تمكين الفرسان من الدخول بسرعتهم واضطرارهم إلى الدوران في مسافة محدودة مما يجبرهم على التقليل من سرعتهم عند الدخول من هذه الأبواب.

من كل ما تقدم عن وصف أسوار دار السلام ومداخلها والذي سنأتي على وصفه بدقة في مكان لاحق حيث سنصف الأبواب والعقود والفصائل لتوضيح وظائفها المعمارية الهندسية والعسكرية وسنرى أن المدينة كانت قلعة حصينة بكل ما ساد وقتها من مفاهيم عسكرية وهندسية وأنها كانت تمثل ضرورة لازمة تبرر صرف الجهد والوقت والمال المنفق وبهدف حماية مقر حكم الدولة الكبيرة الإمبراطورية وإعطائها الهيبة اللازمة لردع أعدائها في الداخل وكما لأعدائها في الخارج وبما يليق بمهابة الخلافة لهذه الدولة واسعة الأرجاء والتي امتدت حدودها من بحر الظلمات غرباً حتّى حدود الصين شرقاً.

المنقول عن الاستطلاع الشهير الوارد ذكره آنفاً في فصل سابق أنه كان يستهدف إيجاد موقع ملائم لإنشاء مدينة عاصمة. ومعروف أن إنشاء المدينة وخاصة الكبرى منها بمستوى العاصمة يستغرق وقتاً طويلاً لم يكن لفرد طموح وصلت إليه السلطة والخلافة بوقت لم تكن فيه دولة بني العباس قد استقر لها الأمر بعد، أن ينتظر لمثل هذا الوقت الطويل كما أن ظروف الموارد المالية لم تكن تعطي الأسبقية لمثل هذا الهدف البعيد حيث كانت لديه أهداف أخرى مهمة كتجييش الجيوش وكسب ولاء الأمم في مثل هذه الدولة الواسعة وتنشيط الزراعة وبقية الموارد لضرورات بناء دولة قوية ذات موارد مجزية لتحقيق أهدافها.

ولكل هذا وذاك فقد كان قرار بناء القلعة العاصمة في بقعة حصينة بموقعها منيعة بمنشآتها تتصف المناطق المحيطة بها بإمكانية التوسع بدون التأثير على مناعة المركز قراراً حكيماً منسجماً مع المتطلبات المتناقضة.

الموقع

سبق في فصل سابق لنا مناقشه الموقع وعلمنا من هذه المناقشة أن الاختبار وقع على منطقة وسط بلاد ما بين النهرين في البقعة القريبة من قرية بغداد التاريخية وفي المنطقة التي يقترب فيها النهران من بعضها إلى أقرب مسافة وهي بقعة كما هو واضح من مواصفاتها التكوينية ذات تربة طيبة لا أملاح فيها غنية بمياهها المنسابة عبر مجموعة من الأنهر الصغيرة المتفرعة عن الفرات ودجلة وذات مناخ معتدل يساعد على أنواع الزراعة وتمر منها مجموعة من الطرق التجارية الدولية تربط المشرق بالمغرب عبر سواحل المتوسط الشرقية وبالشمال حيث طريق الحرير الشهير

وبالجنوب حيث موانئ الخليج المؤدية إلى بلاد الهند وبلدان الشرق الآسيوي وجزره الغنية بمختلف أنواع المنتوجات.

إن وجود مجموعة الأنهار الصغيرة بهذه الشبكة الواسعة تعطيها المناعة الطبيعية وبشكل كبير يتلاءم مع حاجات الدولة الدفاعية خاصة إذا عززت بالمنشآت الدفاعية المحصنة والمصممة بأشكال جيدة تتلاءم مع قدرات الأعداء المحتملين في مشرق الدولة ومغربها.

وهذا الاختيار بحد ذاته إضافة إلى ما أورده المؤرخون من أقوال وأفعال للمنصور وما ساقه له العارفين وأهل الخبرة من آراء عن مواصفات الموقع لدليل أكيد على تحسس هذا القائد للأمور ضمن فكر دفاعي حمايوي متوائم بشكل كبير مع الظروف التي مرت بها هذه القيادة ومنذ تشكيل الدولة ومع المتطلبات الأخرى للمدينة العاصمة ومقر الحكم والإدارة والسياسة والاقتصاد فيها.

ويتأكد لنا وجود هذا الحس وبشكل بارز عند دراسة تصاميم القلعة بأسوارها الداخلية الكبرى العظيمة المنيعة والخارجية الحامية لها مع فصائلها وأبوابها وخندقها المائي والجسور عليه وطريقة تصميمها وإنشاءها. إضافة إلى ما سبق ذكره من وجود (الخانات) على المحاور الرئيسية لإعطاء الإنذار المسبق والمعلومات المطلوبة .

ويؤشر ذلك وبكل وضوح أن المنصور وقادته ومستشاريه لم يتركوا شاردة ولا واردة إلاّ وأعطوها حقها في الدراسة والفحص والتمحيص والمناقشة وبهدف إدخال معطياتها ومتطلباتها في أسس التصميم والتخطيط الدفاعي لحصون المدينة ووفق خططهم العسكرية وطريقة إدارتهم للدفاع والموضوعة سلفاً.

سيطرة الفكر الدفاعي الحمايوي وخاصة المتأتي منه بسبب تهديدات مباشرة وقعت فعلاً وليست محتملة وحسب تقديرات طبيعية للأمن سواء كانت داخلية أم

خارجية تؤدي حتماً إلى عقد مختلفة لدى القيادات تؤدي بهم إلى أمور غير طبيعية في كل مناحي السلوك البشري ابتداءً من الاستخدام المفرط للقوة وانتهاءً بالعلاقات السياسية المتشنجة مع الدول الأخرى.

والقيادة العباسية التي نشأت أصلاً في ظل حركة سرية في خراسان بعيداً عن المراكز الاجتماعية والدينية للدولة الأموية وبالتعاون مع حركات مضادة ثم استلمت الحكم بثورة مسلحة حدث فيها الذي حدث من هذه الأمور المعروفة ونشوء حركات سياسية متعددة ذات اتجاهات مقبولة في المجتمع الإسلامي وغير مقبولة حيث ظهرت حركات خارجة عن الإسلام ولكن لها أنصارها ومريديها وخاصة بعد ثورة بني العباس ورفع سلطة الأمويين القوية عن أجزاء مهمة من الدولة وإغراء نجاح هذه الثورة لآخرين على سلوك نفس المنحى وهي تحديات في السعي للسيطرة على الحكم وحداثة القيادة العباسية في مواجهة كل تلك التحديات كل هذه الأمور أدت إلى نشوء فكر حمايوي دفاعي حساس جداً وفي بعض الأحيان مبالغ فيه لدى هذه القيادة الناشئة.

وعندما تعرض الخليفة شخصياً إلى الخطر المباشر خلال ثورة الراوندية يوم خرج بنفسه لمقاتلتها أو عند قضائه على أبو مسلم الخراساني ورهطه حيث كانت كبيرة أخرى عليه لم يحسب حسابها جيداً وكما يسميها المنصور نفسه (خطيات) زاد أمر هذه الحساسية من المخاطر المحدقة إلى درجة التأثير الكبير على الفكر العباسي وليس في أمور الأمن والحرب فقط وإنما انعكس على كل جوانب فكر هذه القيادة وبشكل ملحوظ.

وكان للعمارة والفن الإنشائي الهندسي نصيبه الكبير من هذا الهاجس حيث بدأ التأثير واضحاً ليس في بناء أسوار المدينة وأبراجها وقلاعها فحسب وإنما على كل أنماط العمارة العباسية وعلى سبيل المثال لذلك فإن تصميم المساجد الجامعة ابتداءً من

جامع المنصور ذو القبة الخضراء وحتى الجوامع الكبرى الأخرى المنشأة بعده في بغداد الشرقية والغربية أخذت تتجه إلى إنشاء مكان خاص لصلاة الخليفة فيه شيء من العزلة عن بقية النّاس وشيء من الحماية مما لم تكن تصاميم المساجد تعرفه قبل ذلك وفي كل بقاع الدولة الإسلامية وحواضرها.

كما تأثرت هندسة المنشآت الدفاعية بهذا الهاجس بشكل بالغ حيث أصبح الاستنفار الدائم جزءاً من متطلباتها الملحة مما يوجب وجود أماكن سكن ومع كل ما يتبعها من خدمات إدارية في هذه العمائر التأمين وجود الجند المستنفر دوماً ومع قياداتهم على الحصون نفسها مما لا تعرفه المدينة الإسلامية قبل ذلك بأسلوبها المعروف في الدعوة إلى النفير عند حدوث الخطر وبعقد الراية لتجمع المقاتلين وكما كان يحدث في أيام الإسلام الأولى.

إن هذا الهاجس شكل تطوراً خطيراً حتّى في الفكر السياسي المعروف عند المسلمين في بداية دولتهم خلال الخلافة الراشدة وطريقة انتقال السلطة من خليفة إلى آخر والتي كان للعباسيين في بداية دعوتهم رأي واضح بالاعتراض على نظام الإرث وولاية العهد المبتدعة من قبل الأمويين.

ومن أبرز مظاهر هذا التأثير هو عدم إمكانية إجراء التغيير السياسي وبسبب من الإجراءات المعقدة وفي كل المجالات والتي أنتجها هذا الهاجس بطرق سلمية طوعية ولا حتّى بتمردات صغيرة مما أضفى على البيت العباسي إمكانية البقاء في الحكم لفترة طويلة وأعطاه أمام النّاس من عموم المسلمين قدسية ومكانة غير موجودة في الفكر الإسلامي أصلاً.

معلوم للعسكريين أن للقتال صفحات أربع هن:

صفحة التقدم.

صفحة الهجوم.

صفحة الدفاع.

صفحة الانسحاب.

وتبدأ الفعاليات إن كنت مهاجماً بالتحشد في مناطق ملائمة لها خواصها ومواصفاتها ثم التقدم عبر محاور منتخبة تؤدي إلى أهداف مطلوبة تؤدي لتحقيق الهدف ثم الشروع بالهجوم واحتلال الهدف واستثمار الفوز في حالة لنجاح أو التمسك بالأرض والدفاع عليها في حالة النجاح النسبي أو الانسحاب في حالة الفشل.

ولكل من هذه المراحل والصفحات خواصه وشروطه المعروفة لدى العسكريين ولا مجال هنا للتفصيل فيها خارج موضوع بحثنا إلاّ أننا أردنا أن نضع القارئ الكريم في صورة الموقف عندما نتحدث عن الدفاع عن المدينة ونصف أسوارها وخنادقها وبواباتها الواقعة على محاور التقدم إلى المدينة من حولها والأهم من كل ذلك هو أن نبرز في بحثنا مواصفات وتصاميم هذه الأسوار بما يرشدنا ويدلنا على تقدم الفكر العسكري لدى القيادة العباسية وكيف تمكنت هذه القيادة الواعية من إنشاء الدولة وترسيخ أقدامها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وحماية ذلك على مدى خمسة قرون وكيف انهار كل ذلك عندما جاءت قيادات غير واعية وغير قادرة وأهملت هذه الأمور مما أدى إلى هلاكها ومع كل هذا الإهمال بقت اعتبارات أساسية تأثرت بوجود المنشآت

الدفاعية حول بغداد وكما سنرى في معارك الأسوار اللاحقة وخاصة في عهد الخليفة العباسي الأخير (المستعصم بالله) وخلال معركة احتلال بغداد من قبل المغول بقيادة (هولاكو خان) وماهية الاعتبارات التي أخذها المهاجم بنظر الاعتبار عند قراره احتلال عاصمة الملك العباسي ومدى تأثر هذه القرارات والخطط بقوة ومتانة دفاعات وتحصينات بغداد وأسوارها وبعد استطلاعات طويلة مفصلة دامت حوالي العقدين من زمان تواجدهم على أرض الوادي وبما أدى مباشرة إلى إعادة النظر بالخطط وعلى كل المستويات السوقية أو التعبوية.

وأريد هنا وتحقيقاً لأهداف مؤلف البحث أن أركز على أهمية هذه الأسوار حول المدن وانسجام وجودها وتطابق مواصفاتها مع المفاهيم العسكرية السائدة في ذلك الزمن.

من المعروف أن للدفاع وفق المفاهيم العسكرية حالتان هما:

حالة الدفاع المستكن.

وحالة الدفاع السيار.

والنوع الثاني خارج موضوع البحث خاصة وأنه في تلك الأزمان كان محدوداً جداً لمحدودية وسائل الحركة السريعة واقتصارها على الخيل ذات المدى والقدرة المحدودتين في جيوش تلك الحقبة التاريخية والمعتمدة بشكل كامل على حيوانات النقل وخيول الهجوم ولا تنسجم هذه الوسائل مع فكر الدفاع السيار إلاّ بحدود ضئيلة جداً.

وهذا الأسلوب لا ينسجم مع طبيعة الدفاع عن المدن والتي هي أصلاً أهداف ثابتة معلومة في مواقعها وفي تفاصيل دفاعاتها وتحصيناتها مما يبرز أهمية الزيادة في التحصين بالمتانة والانسجام مع ما تقدمه للمقاتلين من تسهيلات بتأمين الموقع

المحصن المساعد على استخدام السلاح وعليه فقد كان الدفاع عن بغداد دفاعاً مستكناً يكون فيه المدافع مضطراً لانتظار إجراء المهاجم وينحصر تخطيطه في ردود فعل ليس إلا، هذا عدا ما يمكن أن يقوم به المدافع عند وجود المعلومات الدقيقة بالخروج وقبول المعركة خارج الأسوار وعن طريق استخدام القوة الضاربة والاشتباك في مناطق منتخبة وبما تقدم له الأرض من تسهيلات ولعدوه من صعوبات مع ملاحظة احتمالات تخطيط المهاجم لجر المدافعين إلى خارج أسوارهم وتحصيناتهم وقبول المعركة في أرض مناسبة وظروف مواتية له وهذا ما حدث بالضبط في معركة هولاكو بالإحاطة على الجانب الغربي حيث الأسوار الضعيفة أصلاً والدفاعات المحدودة والاشتباك مع القوات العباسية في (معركة دجيل) وسيرد ذكرها تفصيلاً فيما بعد وفي الكتاب الثاني من هذا البحث.

الخطة التي اعتمدتها القيادة العباسية في الدفاع عن دار السلام المدورة تستند على ما يبدو من سلوك هذه القيادة في تنظيم دفاعاتها على خطين متوازيين فرضتهما طبيعة التهديدات المحتملة في بداية عصر إنشاء الدولة العباسية والمتمثلة أساساً في حركات التمرد الداخلي وهما:

قبول المعركة على محاور التقدم خارج العاصمة.

قبول المعركة على أسوار المدينة العاصمة.

وعندما نتحدث عن محاور التقدم إلى دار السلام فإن كل هذه المحاور إما تبدأ من أو تمر على مجموعة من المدن والحواضر وأخطر هذه المحاور كان المحور الجنوبي حيث الكوفة والبصرة وواسط وكلها مراكز حضرية كبيرة تكثر فيها المدارس وأهل الفكر والسياسة حيث التربة الخصبة لحركات المعارضة للحكم العباسي خاصة وأن هذا الحكم نشأ أول عهده على الخلاف العلوي العباسي المتركز أصلاً في الكوفة ومناطق

جنوب العراق[1] وكان هذا المحور يمر في أراضي سهلة ولكنها عامرة بالمزارع ومغطاة بشبكة من قنوات الري والبزل التي تحدد حركة الجيوش الكبيرة وتساعد القوات الصغيرة على الاختباء، وهناك عامل آخر مساعد في هذه المناطق ذات الكثافة السكانية العالية ألا وهو ولاء هؤلاء السكان ومقدار المعلومات الممكن تقديمها إلى أي من أطراف النزاع وحجم الدعم المادي الإداري اللوجستي لهذا الطرف أو ذاك من قبل سكان المدن والقرى على المحور.

إذن فخطة الدفاع المستكن التي اتبعتها القيادة العباسية اعتمدت أساساً على مراقبة المحاور والاحتفاظ بقوة الدفاع الرئيسية على أسوار القلعة (المدورة) مع وجود قوة هجوم مقابل فعالة ذات قابلية حركة عالية وقدرة قتالية كبرى داخل الأسوار أيضاً بهدف الانقضاض على المهاجم بعد صده وإيقافه وحصره وإيقاع أكبر الخسائر الممكنة بقواته على الأسوار أو ضمن الفصائل ومن ثم تدميره واستثمار الفوز بالخروج لمهاجمة معاقله وتدمير ما يتبقى له من قوة وأنصار.

ركزت فيما سبق على المحور الجنوبي وينطبق ما سقته عنه على المحور الغربي المبتدئ من باب الكوفة المؤدي إلى مدينة الكوفة أو إلى الأنبار ثم إلى محور الإخيضر -بادية الحجاز ولكنه يمتاز عن الجنوبي بوجود نهر الفرات مما يفرض على المتقدم على هذا المحور إجراء عملية عبور كبرى وإنشاء معابر مختلفة فيما بعد لإدامة عمليات الإسناد الإداري عبره وحيث يشكل قطع هذه المعابر خطراً كبيراً خاصة إذا طال أمد المعركة ولم يتمكن من حسمها فور عبوره وهنا تتداخل الخطة مع اعتباراتها الأساسية بين قتالات المحور وقتال القلعة على أسوارها وقبلها وبعدها وعبر بواباتها المهيأة أصلاً للمناورة والمسيطر عليها سيطرة تامة خاصة وأنها ترتبط

---

[1] - د. طاهر مظفر العميد - حضارة العراق - الجزء التاسع - الباعث العسكري لبناء المدن / 1985 - الصفحة 185.

ارتباطاً مباشراً عن طريق دروب السكك الرابطة بين الأبواب ومركز المدينة حيث مقر القيادة وعبر فصائل القتال الأول والثاني والمقر هنا هو دائرة المركز حيث مقر الخليفة وهيئات الحكم الأساسية في الدولة ومقر إدارتها العسكرية وقيادتها[1].

أما ما يخص البابان الآخران - باب خراسان وباب الشام - فكان وضعهما مختلفاً ولكن بدرجة محدودة وكما يلي:

باب الشام

والذي كان يمر عبره الخارج والداخل إلى المحور الغربي المؤدي إلى الأنبار حيث ينقسم إلى محورين أحدهما يسير بمحاذاة نهر الفرات ويتجه إلى الشمال الغربي فمنطقة الرقة وحلب وأنطاكية والآخر يمر عبر الصحراء الغربية باتجاه منطقة دمشق والمدن الفلسطينية ولم تكن هذه المحاور تشكل تهديداً كبيراً لحكم بني العباس بعد القضاء المبرم على دولة بني أمية في الشام وملاحقة كافة الموالي الأمويين حتّى مصر وبلاد المغرب وأفريقية[2] وفرار المتبقي منهم إلى بلاد الأندلس بعد إنشاء إمارة عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ومن ثم تأسيس دولة الأمويين في الأندلس واستقرارهم فيها وهي بعيدة كل البعد عن تهديد دولة بني العباس في العراق تهديداً جدياً لا بسبب البعد الجغرافي فحسب بل بسبب عدم قدرة هذا الكيان الجديد على تجميع وتحشيد مثل هذه القوة لغزو المشرق العباسي أولاً ولانشغالهم بما هو طبيعي من مشاكل الدولة الناشئة الحديثة ثانياً ومثلهم في ذلك مثل بني العباس في العراق إضافة إلى أن أي تحرك من هذا القبيل ستصل أخباره إلى العراق بأوقات مبكرة مما يمكن المدافع من التهيؤ وتجنب المباغتة وفوق كل هذا وذاك بينهم وبين المدافع نهر الفرات المانع الكبير.

---

(1) - إن هذا الأسلوب في ترتيب دفاع المدينة يؤمن قيمة متساوية للمحاور.

(2) - كان العرب يطلقون اسم أفريقية على تونس الحالية.

باب خراسان

معروف أن منطقة خراسان التي يؤدي إليها محور هذا الباب هي المنطقة التي نشأت فيها الدعوة العباسية ومنها انطلقت إلى الكوفة حيث تأسست الدولة العباسية وللعباسيين فيها من المؤيدين والموالي الكثير رغم وجود العلويين فيها وخاصة بعد القضاء على أبو مسلم الخراساني ونفوذه فيها حيث لم يبق بعده فيها ما يهدد الدولة الناشئة تهديداً جدياً.

وتبقى مسألة مهمة وأساسية في الفكر العسكري لشرح الوظائف العسكرية للأسوار وإجلاء الغبار عما يتعلق بها من الفكر العسكري العباسي ألا وهي قضية المناورة الممكنة من الأبواب الأخرى عند اقتحام عدو لبابٍ منها وهي الحكمة من تعدد الأبواب وتنوع المداخل إضافة إلى الفوائد التقليدية الأخرى المعروفة وهذا الوضع للأبواب الأربعة المتقابلة الاتجاهات يمكن من أجراء مناورة مرنة في حالة السيطرة على أحد هذه الأبواب بعد عبور الخندق بالخروج بالقوة الضاربة من أبواب أخرى لغرض مهاجمة مؤخرات القوة الهاجمة ويلاحظ أن التصميم هذا يحقق هذا الغرض تماماً، ولا توجد احتمالات مقبولة لمهاجمة الأبواب الأربعة بوقت واحد حيث أن المعلوم في الفكر العسكري أن المهاجم قد يهجم بعدة اتجاهات لصرف أنظار المدافعين وتشتيت جهودهم لكنه بالتأكيد يركز على أحد المحاور أو يستغل النجاح في أحد المحاور لتطوير هجومه منه كما أن هذه التكتيكات هي من قدرات الجيوش الكبيرة وفي كل الأحوال فإن المناورة مبدأ أساسي من مبادئ الحرب التسعة الأساسية يجب مراعاته عند تصميم أية منشآت دفاعية وعدم ترك المدافعين محصورين في زوايا حرجة وبدون قدرة على المناورة مما يحرمهم من الكثير من الفرص النادرة لكسب المعركة.

أبواب دار السلام المدورة

لا يمكن بحال من الأحوال عند إجراء مثل هذا البحث المتركز أصلاً في أمور الحماية والدفاع وبعد خوضنا في موضوع دفاعات المدينة الإنشائية (الأسوار) والمحفورة (الخندق)، إغفال أو إهمال موضوع مداخل المدينة وأبوابها وطرائق اختراق السور بعد عبور الخندق.

عدد الأبواب ومحاورها

كان عدد أبواب دار السلام أربعة كل منها يمثل اتجاهاً لمحور تجاري أو عسكري تربط المدينة بالمدن الأخرى أو بمناطق التحشد خارج المدينة وهذه المحاور تمثل قيمة كبرى لفائدة الأغراض المنشأة من أجلها فهي من الناحية التجارية والاقتصادية تمثل رئة المدينة التي تتنفس منها ومنهل تجارتها واقتصادها الذي هو روح الدولة وروح سكان المدينة، منها كانت ترد البضائع والغلال من المشرق والمغرب والجنوب والشمال وكذا وباتجاه معاكس تخرج منتجاتها المصنعة وغير المصنعة حيث اعتاد النّاس على خزن مواد الإعاشة في مخازن غلال خاصة.

وبقدر ما لهذه المداخل من أهمية تجارية فهي تشتمل على أهمية عسكرية وأمنية مماثلة فسكان المدينة يحتاجون بشكل ملحوظ بل وبارز في أهميته إلى الأمن وتجنب مخاطر المحيط البشرية (داخلية وخارجية) والبيئة من مهاجمة الكواسر للمناطق السكنية[1] ولا ننسى أخطار الفيضانات في هذا الجزء المنخفض من وسط بلاد وادي الرافدين حيث يهدد النهران العظيمان دجلة والفرات هذا الجزء سنوياً بمخاطر امتلاء أحواض الأنهار وإغراق مياههما للمساحات الشاسعة من الأراضي حول المدن بل

---

[1] - كانت بلاد وادي الرافدين في ذلك الزمن مغطاة بالبساتين والزروع حيث سميت بأرض السواد وهذا مبعث تواجد ومعيشة أنواع الحيوانات المفترسة فيها.

وتدمير هذه المدن أحياناً والقضاء على مظاهر وفعاليات الحياة فيها، ولذا فقد كانت من بعض أهداف إنشاء هذه الأسوار وإقامة البوابات لها وبحيث يمكن إغلاقها أو طمر المداخل بالتراب. والأبواب الأربعة لأسوار دار السلام التي قرر عليها المنصور ومستشاريه هي:

باب خراسان

وتقع في الجهة الشمالية الشرقية وسميت أيضاً (باب الإقبال) لإقبال الدولة العباسية من خلالها من منطقة خراسان شمال شرق إيران الحالية وحيث نشأت حركة الدعوة العباسية وترعرعت كما سبق الإشارة ومنها انطلقت إلى العراق وهي تقابل على الجهة الشرقية نهر دجلة طريق (خراسان - كرمنشاه - قصر شيرين - خانقين - جلولاء - بعقوبة - منطقة وسط وادي الرافدين). ويعتبر هذا المحور من أهم المحاور الأساسية في بلاد وادي الرافدين حيث كانت منطقة المشرق في العالم منطقة نشأت فيها الحضارات القديمة ففيها نشأت حضارات الفرس والعيلاميين والكيشيين وحضارات بلاد الهند والحضارات الأفغانية والصينية وتمر عبر هذه الأقاليم حيث الكثافات السكانية العالية طرق تجارية مهمة في ذلك الزمن كما سبق في وصف طرق التجارة الرئيسية (الشمالي والأوسط والجنوبي) وترتبط شمالاً بطريق الحرير وجنوباً بالخليج وطرقه البحرية وهو مهم جداً من الناحية العسكرية فقد سلكه كل غزاة المشرق والمغرب.

باب الشام

ويقع هذا الباب من الجهة الشمالية الغربية للمدينة وله من الأهمية التجارية والاقتصادية ما يوازي ما لباب خراسان فهو ليس طريقاً تجارياً فحسب بل هو المنفذ الرئيسي لحركة المنتجات من منطقة الأنبار الزراعية الغنية التي كانت تعتبر وقتها

سلة الغذاء الرئيسية للبلاد وسكانها وكذا كانت بداية العصر العباسي وإضافة لذلك فهي تؤدي إلى المدن الكثيرة الغنية الواقعة على شواطئ دجلة الغربية ومناطق الإسحاقي والدجيل الزراعية الغنية ومناطق سامراء وبلد وتكريت والموصل وأراضي جزيرتها الزراعية باتجاه الفرات.

باب البصرة

وتقع هذه الباب في الجهة الجنوبية الشرقية من المدورة دار السلام ولها من المكانة التجارية الكبرى منذ أيام الفرس الساسانيين حيث كانت هذه الجهة محوراً رئيسياً للتجارة مع المشرق والهند عن طريق الميناء الرئيسي (الأبلة)[1] والتي كانت ميناءاً رئيسياً كبيراً رابطاً بالطرق البحرية المختلفة باتجاه الشرق حيث تجارة الخشب والتوابل ومواد أولية كثيرة أخرى كالجوت والقنب وهي ضرورية للصناعات المحلية إضافة إلى ارتباط هذا المحور بطرق الجنوب الغربي وبمدن جزيرة العرب المهمة حيث موطن الإسلام وموضع مدنه المقدسة في مكة والمدينة مما يعطي هذا المحور أهمية خاصة وكذا لباب البصرة المؤدي إليه.

باب الكوفة

وتقع من الجهة الجنوبية الغربية للمدينة وترتبط بالمحور الرئيسي المؤدي إلى مدينة الكوفة (مركز الدعوة العباسية الأول في أرض العراق ومركز تأييد الحركة العلوية) وإلى الصحراء وجزيرة العرب حيث (جذور القوم العرقية والدينية) ويمر منها طريق الحج البري المعروف والذي اكتسب أهميته من سلوك قوافل الحجيج وطلاب العلم في مراكز الكوفة أو المدينة سواء منها العراقية أو الفارسية أو من بلدان الشرق الإسلامي الأخرى في بلاد الأفغان والهند والصين.

---

[1] - لقد كانت الأبلة منفذ الساسانيين الأوحد إلى بلاد الشرق بحراً.

وكان لقيام حركات التمرد لمحمد وأخيه إبراهيم في اليمن أصلاً وانتقالها إلى المدينة المنورة ثم إلى الكوفة أيام أبو جعفر وسبق ذلك (عبر هذا المحور) أيام الحكم الأموي الكثير من حركات التمرد الأخرى واندفاعها إلى الشمال حيث أقاليم العراق والشام ولذا فقد أخذت هذه الباب ومحورها أهمية كبرى واجبة التحسس والتحسب لدى مصممي ومخططي أسوار دار السلام والقيادة العسكرية العباسية للمنصور.

لم تكن هذه الأبواب مجرد مداخل للمدينة تغلق وتفتح لمرور السابلة والقوافل عند الحاجة وإنما كانت بمثابة نقطة عزل وتدقيق وتفتيش وإيواء واكتبال وتفريغ للبشر ودوابهم الضرورية في قوافلهم كما سنرى لاحقاً عند بحث تصاميمها، إنها كانت أبواب عظيمة لمدينة عظيمة تليق بجلال وعلو قيمة دولة بني العباس في عاصمة ملكهم وهي تلبي حاجات المدينة الأساسية بمختلف فعالياتها كما تلبي حاجات الدولة في التجارة والاقتصاد كما في الحماية وفي حاجات وحدات القتال المخصصة بشكل دائم لحمايتها.

إن الداخل من أي من أبواب المدينة الأربعة عليه أولاً عبور الخندق المائي المحيط بالأسوار ومن المعبر الكائن قبالة الباب وأغلب المراجع تشير إلى أن هذه المعابر خشبية وليست حجرية وذلك لتمكين المدافعين من تدميرها بالحرق عند الحاجة وعلى العكس من القناطر الحجرية التي يصعب تخريبها بوقت محدود وخاصة في عصور ما قبل اكتشاف البارود. وأكيد فإن المخطط العسكري توخى حصر المهاجمين في بقع محدودة عند عدم إمكانية تخريب القناطر بغية إمطار كتلهم بوابل المقذوفات وعتاد المجانيق وحتى في حالة التدمير وقيام المهاجم بنصب معابر جديدة، وعمليات التجسير هذه وخاصة بالحرب تحتاج كما هو معلوم إلى أكداس من المواد وجهود المئات من الرجال والكثير من الوقت وتحت ظل عمليات مخطط لها تجنبه تاثيرات أسلحة مقاتليها على الأسوار ضمن منظومة دفاعية كفوءة تؤمن عمقاً كافياً لإنجاح إدارة

المعركة الدفاعية وإيقاع أفدح الخسائر بالمهاجمين مادياً ومعنوياً وتعرضهم لفترات طويلة لنيران المدافعين على الأسوار حيث تكون الجيوش بأوهن حالتها عند وجودها على سطح الماء وقبل تأمينها للضفة القريبة وهذه الأوقات ولاشك تتيح للمدافعين إجراء الهجمات المقابلة والقضاء على الخصم.

إن مداخل المدورة دار السلام تؤمن تماماً هذه المبادئ وسندخل في عمق الفصائل والطاقات داخل الأبواب لنرى كم إن الفكر العسكري العباسي كان ناضجاً عند قيام الخليفة المنصور وقواده ومهندسيه للتخطيط لهذه الدفاعات التي جعلت هذه المدينة الصغيرة قلعة حصينة لمقر حكم بني العباس في دولتهم الناشئة والتي شهدت فعلاً أعلى قمم السيطرة وعلى مستوى عالمي في أيام الرشيد والأمين والمأمون. مع تأمين إمكانية مناسبة للتوسع ولكل الاتجاهات خارج الأسوار.

تؤدي القنطرة فوق الخندق في كل باب إلى غرفة مستطيلة الشكل مساحتها عشرة في خمسة عشر متراً وذات سقف مقوس الشكل وهذه الغرفة وفي كل الأبواب تبرز إلى خارج السور باتجاه الخندق وبعد مرور الداخل من هذه الغرفة يخرج يساراً إلى باحة مكشوفة لها بابان جانبيان يؤديان إلى الفصيل الأول المؤدي إلى المداخل الرئيسية للمدينة وفي مقدمة هذه الباحة نشاهد المدخل الرئيسي للمدينة ولهذا المدخل باب حديدي منزلق متين الصنع يؤدي إلى دهليز مسقف بقبو مقوس أبعاده ستة في ستة أمتار وارتفاعه بحدود أحد عشر متراً وفي نهايته من الجهتين سلالم توصل إلى المجلس الذي يقع فوق الدهليز[1] وإن هذه القاعة ذات أبعاد ستة في ستة أمتار مسقفة بقبة دائرية مستندة على أربعة محاريب وترتفع عن أرضية القاعة باثني عشر متراً وخمسة وعشرين متراً عن الأرض تحتها (تحت الرحبة) وهناك اتصال لهذه القاعة

---

(1) - المهندس شريف يوسف – تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور – 1982.

بأعلى السور عن طريق سلَّم خاص ومهم القول بأن المؤرخين أوردوا خبر خصوصية هذه القاعات لاستخدام الخليفة نفسه في حالات الحرب. حيث الفتحات المكشوفة على المدخل وإلى الأعلى حيث المسار فوق السور إلى الأبراج التي سبق لنا ذكرها وذكر مواصفاتها ووظائفها ويؤدي الدهليز السفلي إلى ساحة مكشوفة لها بابان جانبيان يؤديان إلى غرفتين جانبيتين بسقوف مقوسة تؤدي الغرفتان إلى الفصيل الثاني أما الاتجاه الرئيسي للباب فيؤدي إلى الساحة المكشوفة حيث الطاقات الكبيرة والتي وصفت بأنها عبارة عن ثلاثة وخمسين عقداً مقوساً وتحيط بهذه الطاقات غرف الجنود والحرس ومن الجانبين حيث توجد أربعة وخمسين غرفة في كل جانب ويوجد في الغرفة الأولى من جهة اليسار سطح منحدر مائل يؤدي إلى سطح الأسوار لسرعة تنقل الجند وصعودهم إليها في وقت الهجوم المعادي بدل السلالم التقليدية التي تتطلب وقتاً أطول للصعود، ويؤدي الدهليز الرئيسي للطاقات الكبرى إلى باب آخر يؤدي بدوره إلى ساحتان معقودتان مقوستا السقف تؤديان إلى الفصيل الثالث وعلى المحور الرئيسي المتجه إلى الداخل والمؤدي إلى الدائرة الوسطى المحاطة بسور آخر مزود بفتحات مستطيلة الشكل مسقفة بعقود محمولة على محاريب كل منها تأخذ شكل الطاقية وتعرف هذه المنشآت بالطاقات الصغرى.(وان هذا التفصيل يرينا بالتاكيد مدى اهتمام القيادة بعسكرها ومهندسيها بادق التفاصيل لمعالجة كل الثغرات المحتملة).

وجدير بالذكر أن المسافات والفسح بين الطاقات الكبرى للأبواب الرئيسية الأربع وبين المركز تقع أحياء سكن الخاصة والموالي والجند والقادة وكل من يتطلب وجوده داخل القلعة وتتراوح شوارعها وأزقتها بين ثمانية عشر إلى اثني عشر زقاقاً تحيط به الدور ويؤدي إلى مركز المدينة كما أسلفنا (الدائرة الوسطى حيث القصر) وإضافة إلى

كل ما سبق من التحصين فإن لكل زقاق بابه الخاص الذي يغلق ويفتح وحسب الحاجة.

لقد كان للأساتذة المهندس شريف يوسف والدكتوران مصطفى جواد وأحمد سوسة الفضل الأكبر في إيضاح هذه التفاصيل إضافة إلى مجموعة من المستشرقين الإنكليز والألمان (ولو أن تفاصيل المقاصد العسكرية لم توضح من قبلهم) ضمن بحثنا هذا في مثل هذا الموضوع الهدف وثبتت التفاصيل من قبلهم بعد دراساتهم الدقيقة لما أورده المؤرخين المسلمين الأوائل وتوصلوا لاستنتاج هيئاتها وعززوها بالرسوم وحسب تصوراتهم حيث لم يبق أي أثر لأسوار دار السلام ولا لعمائرها الأخرى **ولقد قمت بمراجعة مواصفات الأبواب في الكثير من المدن القديمة ومدن القرون الوسطى حتّى الأوربية منها فلم أجد أكثر من حصانة المدينة المدورة دار السلام عاصمة الملك العباسي في عهد نشوء الدولة ولا أكثر انسجاماً مع الإدارة الحسنة لتعبئة الدفاع وفق معطيات ومواصفات أسلحة وقدرات جيوش تلك العصور.**

إن هذه الأسوار والخنادق بوظيفتها الدفاعية مزودة بهذه الأبواب المعقدة متعددة الأغراض فهي ليست دفاعية فحسب وإنما تشكل نقاط تدقيق أمني دقيق فيمكن حجز القوافل الداخلة وأفرادها وحيواناتها في هذه المنشآت لحين تدقيق وتحقيق هويات أفرادها.

ولا عجب فحقاً كان للهاجس الأمني الذي ولد مع ولادة دولة بني العباس وترعرع في هاشمية الأنبار وهاشمية الكوفة الدور الأكبر ليس في اختيار موقع محمي محصن منيع فقط وإنما بإنشاء منشآت دفاعية حمايويه فيها من الدقة والحس الدفاعي والأمني، الأمر المطلوب جداً في تلك المرحلة.

إن التركيز على مداخل المدينة وأبواب الأسوار وتصاميمها في هذا الموقع من البحث نابع عن أهميتها العسكرية وتأثير تصاميمها على إدارة الدفاع عن المدينة وبما يفيد في بيان طبيعة الخطة وطريقة تفكير القيادة العباسية. حيث نجد أن تصاميم الأبواب على مداخل المدينة تؤمن وفي مراحل عدة إيقافاً حازماً لزخم الهجوم المعادي مع كل ما يترتب على هذا الإيقاف من تكدس في قطعات المهاجم أمام الأبواب وتعرضها للنيران القريبة والمصوبة كما أسلفنا والأهم من كل ذلك هو ليس التأثير البالغ على معنويات المهاجم فحسب وبسبب من خسائره وإنما في تعقيدات الأمور الإدارية حيث ستكون معضلة إخلاء القتلى والجرحى ومعالجتهم أو سحبهم إلى خارج منطقة القتال أمام الخنادق على الأقل من الأمور الصعبة للغاية والمعرقلة لسير خطط الهجوم ولقدرة قيادة المهاجم على السيطرة على وحداتها في هذه المواقع الضيقة.

وعلى العكس فسيكون المدافع مسيطراً على قطعاته وعلى نيرانها وعلى أمورها الإدارية المرتبة والمنظمة بشكل جيد وسلفاً داخل الأسوار مما سيزيد من قدرته على إدارة دفاعه بشكل منظم وبخسائر محدودة بسبب مناعة التحصينات والتستر بها ومن معنويات وحداته القتالية التي ستكون عالية بالضرورة.

إن من المهم جداً مراجعة الفكر المعماري السائد والمتعلق بتصاميم الأبواب في أسوار المدن وطرزها المعمارية السائدة باتجاه التوصل إلى الفكر المعماري الهندسي والعسكري الدفاعي الذي ساق مصممي أسوار المدورة وأبوابها إلى هذه الاتجاهات.

وقد نقل إلينا عن طريق الخطيب[1] ما مفاده أن لكل مدخل من مداخل دار السلام في السور الخارجي دهليز طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ويختلف

[1] - الخطيب – تاريخ بغداد – 74/1.

اليعقوبي عنه وفي مؤلفه البلدان[1] تثبيت الأبعاد حيث يروي ما نصه: إن المنصور (جعل لأبواب المدينة أربعة دهاليز عظاماً أزجاً كلها طول كل دهليز ثمانون ذراعاً كلها معقود بالآجر والجص فإذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزاً على السور الأعظم)[2] ولا أريد الخوض فيما نقله وناقشه بعض المؤرخين من أن تصاميم هذه المداخل والأبواب وصلت إلى مهندسي المدورة عن طريق تصاميم المدن البيزنطية وقلاعها بينما يرد البعض الآخر منهم على الرأي ويفنده مثبتاً تواريخ إنشاء هذه المدن الذي جاء بعد إنشاء دار السلام بقرن من الزمان[3] ومع ذلك فليس القصد هنا أن هذه الأفكار المبدعة معمارياً وعسكرياً هي من بنات أفكار المنصور وعبقريته أو من أفكار أصحابه ومشاوريه ومهندسيه وعبقرياتهم حيث أن الفكر وقضاياه، أي فكر وبأي موضوع أو اختصاص هو بالتأكيد فكر متأثر بتجارب وأبحاث وخبرات الآخرين والمبدع في ذلك الزمان وفي أي زمان هو من يتمكن من استخلاص (الزبدة) من كل هذه الأفكار والتجارب، ويبدو لي أن التجربة العباسية وفي كل مجالات العلوم والفنون هي تجربة عراقية أساساً حيث من الواضح تأثرها بالآشوريات وبتجارب المنطقة أكثر من غيرها وقد تكون الحضارة البيزنطية هي التي أخذت من أسس هذه الحضارة وكما أعطتها في أمور أخرى وهذا طبيعي جداً ولا غبار عليه ولكننا نريد الوصول إلى أقرب ما نكون عن الحقيقة والوصول إليها كاملاً يكاد يكون من الأمور المحالة.

---

(1) - اليعقوبي – البلدان – الصفحة 229.

(2) - إن هذا الوصف لليعقوبي يتعارض مع الرأي الذي سبق نقله عن كون السور الخارجي ليس سوراً حيث يوضح هذا التفصيل لمداخله وبشكل واضح أنه كان سوراً معتمداً ومهماً ويكمل دفاعات السور الأعظم وكما هو رأينا.

(3) - د. أحمد فكري – المدخل – الصفحة 34.

ومن النماذج الأخرى المعروفة في التاريخ عن مثل هذه التصاميم أو ما شابهها التي يروي عنها المؤرخ البريطاني كروزويل والذي كان مهتماً بالوقوف على مصادرها التاريخية في الفكر الإنساني فبذكر عدة نماذج مشابهة من حيث المبدأ من تاريخ مصر القديم في حصن (كوم الأحمر) الذي يقع على الجانب الغربي من نهر النيل والذي أشار إليه المقريزي[1] حيث أورد ما نصه (وهو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقازيق ليصل أيضاً من الكوم الأحمر إلى باب مصر) وهو يتألف من مدخلين جانبين متعاكسين وأبعاد كل منهما خمسة في أربعة أمتار وهو مازال قائماً إلى يومنا هذا، ويشير أيضاً إلى نموذج ثاني في مصر في موقع (شوفة الزبيب) وهو حصن جدرانه قائمة الزوايا وهو أكثر قدماً من (كوم الأحمر)، والأكثر أهمية لنا هو ما وردنا عن الحضارة الآشورية العراقية في شمال الوادي وفي البابلية جنوبه في موقع (ستجرلي) وفي موقع (خورسباد) حيث الأبواب السبعة التي بناها سرجون وفي باب عشتار في بابل وبنفس الأسلوب وفي عصر نبوخذنصر بستة قرون قبل الميلاد، والظاهرة هي ظاهرة معمارية عسكرية متقدمة حيث لم ألاحظ في حصون الولايات الرومانية والإغريقية ومدنها غير الأبواب المستقيمة المداخل وكذلك في مدن اليمن والشمال الأفريقي وبلاد فارس.

يمكن إجمال المداخل وتصاميمها ما ورد عن أغلب المؤرخين القدامى والمحققين الجدد كما يلي واعتباراً من الخارج إلى الداخل:

بعد عبور الداخل إلى المدينة على أي من جسور الخندق المائي المواجهة للأبواب الأربعة سابقة الذكر يصل بعد مروره من الفصيل بين الخندق والسور الخارجي إلى قاعة مستطيلة الشكل أبعادها عشرة في خمسة عشر متراً مسقفة بسقف مقوس وهي

[1] - المقريزي – الخطط – 149/2.

بارزة عن السور الخارجي ومن ثم يخرج إلى رحبة مكشوفة إلى يسار القاعة ولهذه الرحبة بابان جانبيان يؤديان إلى الفصيل بين السورين ومنه إلى أبواب السور الأعظم (الداخلي) والذي يحيط بكل باب منها برجان كبيران فيها مجرى لباب خارجي حديدي يرفع إلى الأعلى منزلقاً في هذين المجريين ويؤدي الباب الخارجي هذا إلى دهليز أبعاده ستة في ستة أمتار وهو مسقف على ارتفاع أحد عشر ونصف متراً بسقف مقوس وله من جهتي اليمين واليسار سلمان يوصلان إلى القاعة فوق السقف المقوس وهي عبارة عن قاعة أخرى مربعة الشكل بنفس الأبعاد وعليها قبة ارتفاعها اثني عشر متراً عن الأرض وهي خاصة بالخليفة لمراقبة الوضع وإدارة شؤون القتال عند الحاجة وهي تشرف تماماً بالرؤيا إلى ما بعد الخندق.

أما القاعة السفلى فتؤدي إلى رحبة مكشوفة كما أسلفنا ثم إلى الطاقات الكبرى وهي أربعة وخمسون قاعة في كل من الجانبين مخصصة لسكن الجنود وحرس الأسوار وضباطهم وقادتهم. وفي الغرفة الأولى من جهة اليسار سطح مائل يؤدي مباشرة إلى أعلى السور الأعظم والمسارات فوقه وأبراجه، ويستخدم لأغراض السرعة في التنقل عند الطوارئ والحاجة إلى وجود الجند والقادة في مواقع القتال أعلى السور.

إن دهليز الطاقات الكبرى ينتهي عند باب آخر يؤدي على قاعة مربعة أخرى على جانبيها غرفتان صغيرتان بسقوف مقوسة يؤديان إلى الفصيل الثالث ثم سكك المدينة ودروبها وعند وصوله الدائرة الوسطى المحاطة هي الأخرى بسور دائري كما سبق وبهذا السور فتحات مستطيلة مسقفة بعقود محمولة على محاريب أربعة تعطيها هيبة وجمالية نادرة وتعرف لدى المؤرخين بالطاقات ومقرات القيادة الرئيسية والمسجد الجامع حيث الفعاليات المركزية للدولة وهذه التصاميم ولاشك تعطي هذه المقرات هيبة خاصة تتناسب مع هيبة الخلافة وتولد آثاراً نفسية للزائر أو المراقب وتعتبر من الأمور المهمة في كسب احترام وخوف العامة من قدرات هذه القيادة وتوصل روايات وأخبار مهمة ومؤثرة الى مجمل الشعب وعلى قوى المعارضة المختلفة داخلياً

وخارجياً وخاصة لدى الوافدين من زوار المسجد والقصر من رعية الدولة العباسية الذين يفدون خلال المناسبات الدينية أو وفود الدول المجاورة وغيرها ممن توفدهم دولهم بمهام دبلوماسية أو سياسية أو عسكرية أو تجارية إلى مقر الدولة في دار السلام حيث الخليفة.

إن الفارق الكبير الذي يمر به الداخل إلى المدينة بين ما حولها من أراضي زراعية مفتوحة قليلة العمران والبنيان والعمائر وبين ما يشاهده عند دخوله إليها بعد عبور جسور الخندق المائي المحيط بالأسوار وتدرج ارتفاعات الأسوار بين سورها الخارجي الواطئ نسبياً وسورها الداخلي الأعظم العالي ذو الأبراج المسيطرة يزداد رهبة وبسبب من تصاميم هذه المداخل بطاقاتها العظمى والصغرى وبازورار مداخلها وبمظاهر جندها التي لا تخلو منها أي من مرافق المحيط له من التأثير النفسي الشيء الكثير على أي زائر من مواطني الدولة أو من الوافدين إليها من خارجها ولأي سبب كان وهذا ما أرادته القيادة العباسية وعلى رأسها المنصور وما استهدفته عند إعداد التصاميم.

وليس من شك في أن القصص الأسطورية التي شاعت تلك الأيام وتداولها النّاس إلى يومنا هذا عن هذه المدينة وأهلها وقوادها مثل (ألف ليلة وليلة) و(علي بابا والأربعين حرامي) والشخصيات الأسطورية في هذه القصص وغيرها هي نتاج هذا التأثير النفسي لهذه العمائر التي لم يكن لها نظير ولا شبيه في عالم ذلك الزمان.

وقد تكاملت الهيبة والروعة بين هذه المنشآت وبين دور العلم والثقافة داخل المدينة وكم العلماء والباحثين الهائل في كل جوانب العلوم والفنون المعروفة يومها وخاصة عن تنامي حركة الترجمات في معاهد الدولة من اللغات الأجنبية الفارسية والإغريقية والبيزنطية إلى اللغة العربية وفي هذا كله تكامل مع التأثير النفسي لهذه العمائر العظيمة وخاصة عند مداخل المدينة وطاقاتها وأبوابها وأسوارها وأبراجها.

أنهار منطقة بغداد

لقد سبق لنا القول بأن المنصور اختار موقع مدينته في موقع (مزرعة المباركة) بين نهري دجلة والفرات حيث تكثر الأنهار الفرعية المتفرعة عن نهر الفرات من ضفته الشرقية وتسير باتجاه الجنوب الشرقي لتروي منطقة ما بين النهرين وقسم منها يصب في نهر دجلة والقسم الآخر يتلاشى في المنطقة بعد أن يستنفذ ماءه في هذه المزارع ويسقيها مما جعل المنطقة خضراء مليئة بالبساتين وبنفس الوقت فهي مليئة بالموانع التي تعيق حركة الجيوش الكبيرة وتمكن المدافعين من الحصول على فرص كبيرة في تنظيم دفاعاتهم وتمكينهم من صد المهاجمين ودحرهم قبل وصولهم إلى منطقة الأنطقة الدفاعية المحصنة حول الأهداف الرئيسية ومنها الخنادق والأسوار حول المدورة دار السلام الحصن الرئيسي المركزي في الدولة ويمكن توصيف هذه المنطقة وهي المحصورة بين النهرين العظيمين دجلة والفرات من الشرق والغرب والمحصورة بين منطقة المدائن وسلوقية جنوباً ومنطقة نهر دجيل شمالاً والتي هي أصلاً منطقة سهلة خالية من العوارض الطبيعية العالية فهي منطقة مكشوفة مفتوحة ولكن النهرين العظيمين من الشرق والغرب وشبكة الأنهار المتجهة عموماً بين النهرين ومن حافات الفرات الغربية باتجاه الجنوب الشرقي والتي تصب أحياناً في دجلة وتقطع المسافة بينهما كاملةً تجعل المنطقة بأكملها منطقة عوارض طبيعية محفورة ومملوءة بالمياه فهي من جانب تروي الأرض وتسقي زروعها وتنتج غلالاً كثيرة ومن جانب آخر فهي تشكل هذه الموانع الدائمة والضرورية كما أسلفنا لإعاقة حركة الجيوش الكبيرة ومن نماذج جدوى هذه الأنهار أن المغول وكما سيأتي في الجزء الثاني من هذا البحث استغرقوا عشرين سنة كاملة في استطلاع هذه المناطق عن

طريق الوكلاء والجواسيس والتجار وبدلوا خططهم عدة مرات بسبب مناعة هذه الحواجز وكان لحسن تدبيرهم وتكتيكاتهم الفضل الأكبر في نصرهم ودخولهم بغداد بعد دحر الجيش العباسي في معركة دجيل غرب دجلة وباستفادتهم من هذا النهر في إغمار منطقة القتال بالمياه مما أدى إلى هلاك الغالبية العظمى من الجيش العباسي الثقيل الحركة فيها.

وتركيزي هنا على توصيف طبيعة ومسارات هذه الأنهار نابع من أهميتها العظمى في تنظيم الخطط العسكرية وإدارتها وبنفس الوقت فهي مهمة لتوضيح الطبيعة العالية لمستوى المياه الجوفية المؤثر كثيراً في أسس الأبنية والعمائر وخاصة الطينية منها كعمائر دار السلام المدورة.

وأكبر الأنهار المتفرعة عن الفرات من ضفته الشرقية هو نهر (رفيل) وحدد المؤرخون موقع تفرعه عند قنطرة (دمحا) ولم يذكروا شيئاً عن تحديد دقيق لموقع هذه القنطرة سوى بالإشارة إلى أنها جنوب مدينة (الأنبار) وتقع الأنبار في الضفة اليسرى للفرات في منطقة الصقلاوية الحالية[1] ويسير النهر - وهو نهر كبير تسير فيه السفن - باتجاه الجنوب الشرقي حتّى يصل مدينة (المحول) وهي قرية صغيرة في موقع قريب من سد سمي بالمحول لتحويله المياه إلى فرعين للنقل أو أنه سمي كذلك لكون البضائع تحول عنده من السفن القادمة من النهر الكبير إلى سفن أصغر منها في الفروع[2] والمحول بلدة صغيرة أنشأت قرب موقع السد حيث نمت الفعاليات التجارية ليس في بيع وشراء المواد المختلفة فحسب بل بخزنها في مخازن خاصة لكل من المواد الواردة والصادرة من إنتاج المواقع والقرى القريبة، وجدير بالإشارة أن اسم المدينة (المحول الكبير) جاء لتمييزها عن مدن التحويل الأخرى فهي مرفأ رئيسي لتجارة

---

[1] - أبو الفداء - تقويم البلدان - الصفحة 52.

[2] - الحموي ياقوت - معجم البلدان - 432/4.

المنطقة[1] وقد بدلت تسمية النهر هذا من (الرفيل) إلى نهر (عيسى) نسبة إلى (عيسى بن علي بن عبد اللـه بن العباس) عم الخليفة المنصور والذي كان موضع احترام وتقدير كبيرين عند الأخير فهو الذي أخذ له البيعة عندما كان غائباً في الحج وتوفي أخيه (السفاح). ويتفرع النهر عند المحول إلى فرعين هما نهر (عيسى الأعظم) ونهر (الصراة)[2] ويسير الأول باتجاه الجنوب الشرقي حيث يصب في نهر دجلة جنوب منطقة الدورة الحالية وبالقرب من آثار سلوقية، أما الآخر فيجري نحو الشرق ويصب في دجلة جنوب موقع قصر عيسى بن علي[3] ولقد اختلف المؤرخون في تحديد دقيق لمسار النهر رغم أن بعض آثاره مازالت قائمة إلى يومنا هذا مما يعرف عند أهل بغداد بنهر (الداودي) أو نهر (العيساوي) كما أن تاريخ إنشاء هذا النهر غير واضحة في المنقول من المراجع ولكن المهم في بحثنا هنا هو أنه يعيق حركة التقدم من الجنوب باتجاه دار السلام مع فرعه (الصراة) وفروعه الصغيرة الأخرى وفي كل محاور الطرق بين دجلة والفرات لكونه يتفرع عن الفرات ويصب في دجلة ومساره عموماً وبقدر تعلق الأمر ببحثنا هذا وتأثيره من الناحية العسكرية فهو يفصل بين (طسوج قطربل) الذي يقع غرب النهر وبين (طسوج بادوريا) الذي يقع شرق هذا النهر وإلى الجهتين تتفرع أنهار صغيرة كثيرة لا تمثل غالباً أي قيمة عسكرية وتجسيرها بمواد أولية ومحلية من الأمور اليسيرة لأي فعالية عسكرية متوسطة أو كبيرة، وغالباً كما أسلفنا من الموارد المحلية وبدون الحاجة إلى استصحاب تجهيزات خاصة.

والنهر الآخر الكبير هو نهر (كرخايا) وهو يتفرع أيضاً من (الرفيل) في موقع أسفل (المحول) بمسافة ليست طويلة[4] ويخترق هذا الفرع طسوج (بادوريا) وهو كما

---

[1] - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – الصفحة 73.

[2] - نفس المصدر والصفحة.

[3] - الخطيب – تاريخ بغداد – 111/1.

[4] - الحموي ياقوت – معجم البلدان – 252/4.

يظهر بجلاء يمر بين (الرفيل والصراة) ويدخل بغداد الغربية من باب قبيصة متجهاً إلى قنطرة اليهود فقنطرة درب الحجارة فقنطرة اليمارستان وبابه محول وتتفرع منه عندها مجموعة من الأنهار الإروائية الصغيرة[1] ويقول مؤلفا (دليل خارطة بغداد)[2]: إن له أربعة فروع إلى الجانب الأيسر هي (الرزين) و(البزازين) و(الدجاج) و(القلائين) وفرع واحد إلى الجانب الأيمن يصب في منتهاه بنهر (عيسى) ويسمى بنهر (الكلاب).

ومن الجدير بالذكر هنا ولتبيان واضح عن الأهمية العسكرية لهذه الأنهار الكائنة جنوب دار السلام هو أن فرعاً آخر يتفرع من الصراة يسمى (الخندق الطاهري) وينحرف باتجاه الشمال ماراً مقابل باب الشام ويصب في دجلة ومروره هذا بالقرب من الأسوار والخندق المحيط يؤشر أهميته العسكرية[3] وعليه قناطر معقودة بالآجر.

وهناك فروع كثيرة لا مجال للتفصيل فيها هنا فهي فروع إروائية ولا تشكل قيمة عسكرية ملحوظة كما قلنا سابقاً وعليها الكثير من القناطر المخصصة للعبور على الطرق الواصلة من الجنوب إلى المدينة أو الرابطة بين القرى والأرباض وأغلبها قناطر خشبية بسيطة يمكن إحراقها عند أي تعرض قادم من الجنوب.

هذا كله في الجزء الجنوبي من المدورة دار السلام أما الجزء الشمالي منها فهو الآخر تمر منه العديد من الأنهار ومنها كبيرة ذات أهمية للحركات العسكرية ومن أهم هذه الأنهار نهر (دجيل) الذي يتفرع من الضفة الغربية لنهر دجلة في موقع قريب من سامراء يسمى (القادسية)[4] وفي موقع قريب من قرية (الاصطبلات) الحالية والتي

---

(1) - الخطيب – تاريخ بغداد – 112/1.

(2) - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – الصفحة 79.

(3) - نفس المصدر – الصفحة 77.

(4) - هي غير ناحية القادسية في منطقة الفرات الأوسط حيث جرت معركة القادسية الشهيرة ويبدو أن الاسم قديم جداً ورد في غير موقع في أرض العراق.

هي موقع معسكر المعتصم وإسطبلات قبيله وجنده عند شروعه ببناء سامراء ويتجه نحو الجنوب حيث يتفرع إلى فرعين ويتجهان نحو الجنوب وتتفرع منهما فروع إروائية كثيرة تسقي (طسوج قطربل) ومنطقة (الحربية) ومن أهم هذه الفروع الفرع المسمى بنهر (بطاطيا) وله فروع تسير قرب الخندق وتغذيه بالماء.

إن هذه الشبكة الكائنة شمال المدورة هي الأخرى ذات أهمية كبرى في إعاقة حركة الجيوش المتقدمة من الشمال نحو دار السلام وهي تغطي (طسوج قطربل) واسع المساحة عموماً[1] و[2] وتعطيه أهمية خاصة.

والطرق النازلة من الشمال لها أهميتها العسكرية هي الأخرى لكونها تتصل ببلاد الروم العدو التقليدي أيام دولة بني العباس ولها منافذ إلى الشرق الفارسي حيث استخدمها فعلاً كما سيرد في الجزء الأخر من الكتاب الغازي المغولي (هولاكو) والذي قضى على الدولة العباسية فيما بعد عندما أرسل أرتالاً من جيشه المعسكر في منطقة (جلولاء) عبرت إلى الضفة الغربية من دجلة في منطقة بلد الحالية ووصلت طلائعها إلى بغداد الغربية مما اضطر الجيش العباسي الذي كان متواجداً في منطقة بعقوبة لملاقاة الجيش المغولي إلى الاستئذان من الخليفة المستعصم والعودة إلى بغداد والعبور إلى الغربية من جسورها حيث قام المغول بحركة ذكية حين انسحبوا إلى الشمال متظاهرين بالهزيمة إلى أن أوصلوا الحركات إلى (نهر دجيل) حيث غمروا المنطقة بالماء من النهر نفسه وأغرقوا الخيالة العباسية كما سيرد ذكره تفصيلاً في موضعه ولقد كانت هذه الواقعة نموذجاً حياً على تفاعل الخطط مع التحصينات مع التدريب الجيد وبالاستنارة بالمعلومات الدقيقة ومهما قيل في كتب التاريخ عن المغول فمن

---

[1] - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة – دليل خارطة بغداد – الصفحة 99.

[2] - د. أحمد سوسة – فيضانات بغداد – الصفحة 215.

وجهة النظر العسكرية كانت معركة دجيل السابقة لاحتلال بغداد معركة نموذجية وكما سنرى في الكتاب الثاني من هذا البحث.

جدير بالبحث هنا الإشارة إلى طبوغرافية الأرض غربي الفرات وشرقي دجلة في منطقة الوسط حيث يضطر المتقدم من الغرب أو من الشرق إلى المرور منهما قبل وصوله الفرات وعبوره أو دجلة من المشرق وطالما نحن بصدد الموانع المؤثرة على مسار الحرب وخططها وإدارتها وبقدر ماله علاقة بالبحث. فالمنطقة غرب الفرات في القاطع الأوسط من بلاد وادي الرافدين تتميز بوجود مجموعة من البحيرات والقنوات التي تنبع من الفرات من ضفته الغربية ومما سبق لنا ذكره عند الحديث عن هاشمية الأنبار حيث تصب مياهه عبر قناة في بحيرة الحبانية ومنها إلى بحيرة الرزازة جنوبها وغرب منطقة كربلاء ثم بحر النجف وهي ولاشك موانع تحدد حركة الجيوش الكبيرة وتحصرها في خوانق محدودة يسهل الدفاع عنها.

أما في شرق دجلة فكانت المنطقة تقسم إلى طسوجين الشمالي منهما هو طسوج نهر (بوق) والجنوبي هو طسوج (كلواذا) وكانت منطقة الرصافة شرق دجلة تروى من جملة جداول تنحدر من نهر النهروان[1] والنهروان نهر يتفرع من دجلة في ضفته الشرقية في منطقة جنوب سامراء ويسير باتجاه الجنوب الشرقي حيث يقطع نهر ديالى في منطقة الخالص شرق بغداد ثم يتجه نحو الجنوب الغربي ليصب في دجلة ثانية في منطقة العزيزية ومن هذا النهر تبدأ الموانع شرق نهر دجلة حيث تتفرع منه أنهار كثيرة تتجه نحو منطقة بغداد لتروي طسوج نهر بوق[2] وأهم فروعه هو نهر الخالص الذي تتفرع منه أغلب أنهار الإرواء الشرقية المتجهة نحو الغرب حيث شرق بغداد، ويتفرع هذا النهر من الجانب الأيمن للنهروان في منطقة قرب مدينة

---

(1) - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة - دليل خارطة بغداد - الصفحة 109.

(2) - نفس المصدر ونفس الصفحة.

بعقوبة ويصب في دجلة بعد سيره باتجاه الغرب في منطقة تقع شمال بغداد قرب قرية البردان، وفرع آخر للنهروان سمي فيما بعد بنهر الفضل وهو الآخر يسير باتجاه الغرب ليصب في دجلة قرب الشماسية شمال بغداد، وكذلك نهر الوزيرية الذي ينتهي في دجلة أسفل الراشدية الحالية.

جدير بالملاحظة أن المصادر لم تورد تاريخاً لإنشاء وحفر هذه الأنهار بدقة في حين أنها ذكرت بتفصيل أكثر حوادث إدامتها وتطويرها في العهود العباسية المختلفة ولكن الثابت أنها في أحسن الأحوال كانت موجودة أيام الساسانيين حيث ورد ذكرها في مواضع عديدة، أي قبل بناء دار السلام المدورة وهي بذلك تكون موانع في شرقي دجلة تجاه الجيوش المتقدمة من المشرق وأخذت بنظر الاعتبار عند اختيار الموضع لعاصمة ملك بني العباس.

والمهم هنا وبقدر تعلق الموضوع بموضوع بحثنا هو أن المناطق الواقعة شرق دجلة وغرب الفرات في منطقة وسط بلاد وادي الرافدين التي كانت محط أنظار أبو العباس السفاح ومحل اختيار أبو جعفر المنصور بعده هي مناطق تحوي الكثير من الموانع التي سبق دراستها من قبل القيادة العباسية منذ أيام الخليفة الأول أبو العباس وثم أيام المنصور عندما قرر تغيير عاصمة ملكه وقام باستطلاعه الشهير مصاحباً هاجسه الأمني بعد أيامه في هاشمية الكوفة والتي كانت أيام صعوبات كبرى خلال حوادث ثورة الراوندية وثورة محمد وأخيه إبراهيم وحركات البرامكة قبلها.

خطة الدفاع عن دار السلام المدورة

لا يمكن الحديث عن خطة دفاع لا توجد لدينا أي وثيقة تاريخية تحدثنا عنها مباشرة فأساتذتنا من المؤرخين القدامى والجدد لم يكونوا متخصصين في الأمور العسكرية ولم تكن هذه الأمور بتفاصيلها المهنية البحتة والمستندة إلى العلوم العسكرية من اهتماماتهم ولا أقول من قدراتهم أصلاً ويعتب في ذلك على المؤرخين العسكريين ذوي الخبرة إن جاز التعبير. **ولكن بالرجوع إلى سير الأحداث وبالاستناد إلى العوامل التالية:**

- طريقة تصميم الأسوار.
- طريقة تصميم الأبواب وعددها واتجاهاتها.
- طريقة تصميم الخندق الحولي والجسور عليه. طريقة سير الأحداث في مراحل لاحقة لمعارك جرت فعلاً على هذه الأسوار وطريقة تصرف القيادة العباسية.

كل هذه العوامل هدتنا إلى فكرة لا بأس بها عن الخطة الدفاعية العباسية للدفاع عن المدينة المدورة دار السلام وعاصمة الملك ولا اقول فكرة دقيقة جداً.

لا أستطيع القول بأن الخليفة أبو جعفر المنصور قد أجرى تقدير موقف عسكري بالشكل والمنهجية القائمة في عصرنا الحاضر حيث تستند هذه التقادير على مناقشة عوامل / الأرض / وقوات الطرفين / الطقس / المعنويات / الشؤون الإدارية / إضافة إلى العوامل الثانوية الأخرى وخرج بعد تثبيت الأفضليات والمساوئ باستنتاجات للمسالك الممكنة وأجرى المفاضلات وتوصل إلى أفضل المسالك. ولكنه وبأي حال من

الأحوال قد أجرى بالتأكيد مناقشات مستفيضة مع قادة جيشه بأقرب ما يكون بتقدير الموقف العسكري وبمنهجية مقاربة خاصة وإن ما عرف به أبو جعفر من حصافة الفكر والاستنارة بآراء الآخرين وخاصة أهل الخبرة منهم في أي من الأمور المتخصصة وكان هذا مسلكه في كل الأمور كما ينقل لنا المؤرخون أو كما تدل عليه قراراته الحكيمة والحصيفة في مجالات العسكرية والسياسة والاقتصاد وإدارة أمور الحكم الأخرى.

ومن خلال هذه الدراسة يتبين لي أن الخطة الدفاعية عن دار السلام كانت تستند إلى:

عنصر الاستطلاع وجمع المعلومات

وهو عنصر وفّر له تصميم المدينة وأبوابها والمحاور المؤدية إليها أفضل ما يمكن من التسهيلات وقد كان العسس والعيون يغطون المحاور المختلفة ومدنها وقراها كما كانت أبراج السور الأعظم المخصصة للرصد تؤمن الرؤيا الواضحة في حالات الطقس الجيد خاصة ومن مسافات بين الخمسة إلى العشرة كيلومترات في الربوع السهلة المكشوفة حول المدينة وعبر طرق التقرب.

وإذا علمنا أن حركة جيوش ذلك الزمان تتمكن من الحركة بسرعة لا تزيد عن خمسة إلى سبعة كيلومترات في الساعة فسنصل إلى أن الأخبار ستصل إلى القيادة في مركز المدينة بوقت لا يزيد عن الساعة وهو وقت ملائم لإنذار من على الأسوار وقبل وصول القوة المهاجمة إلى جسور الخندق على أي من المحاور الرئيسية الأربعة. وإذا عدنا إلى أسلوب توزيع القوة المدافعة على الأسوار وفي قاعاتها حيث أسلحتها وقياداتها لوجدنا أن الوقت كافٍ جداً بين وصول المعلومات واتخاذ الإجراءات اللازمة لصد الهجوم خاصة وأن الخطط موضوعة سلفاً وممارس عليها ولا أشك إطلاقاً بأنه إن لم

تكن هناك غفلة وإهمال فإن هذا العامل سيكون حاسماً في تمكين قيادات قوات الأسوار والقوة الضاربة ورأس القيادة في إدارة معركتها الدفاعية وبكفاءة عالية سواء أمام الخندق أو في الفصائل أو على الأبواب مع ملاحظة القدرة على المناورة المشار إليها آنفاً بالخروج من الأبواب الأخرى لضرب المؤخرات أو بالسماح للمهاجم باقتحام أي من المداخل بهدف قبول المعركة معه في الساحات والفصائل ومن ثم حصره وتدميره.

ولذا فيمكن القول بأن فكر القيادة العباسية في التخطيط لرد الهجمات عن مقر الحكم كان يستند بشكل كبير على عنصر الحصول على المعلومات المبكرة بهدف المبادرة بالرد بوقت مبكر في مراكز التمرد أو مناطق التحشد للهجوم، وفيما عدا معطيات تصميم الدفاعات فإن سلوك المنصور في قضيتي أبو مسلم الخراساني وثورة الراوندية يدل على هذا الفكر أيضاً وبما يشبه الضربات الاستباقية في مفاهيم العصر.

الدفاع من جميع الجهات

وهذا هو الآخر تدل عليه تصاميم المدورة وأبوابها الأربعة بقدر ما تشير إليه عوامل شكل الأرض المفتوحة لوسط العراق بل وتفرضه فرضاً والمهم أن فكر القيادة العباسية كان واعياً تماماً لهذا العامل حيث أنه أعطى المحاور الأربعة قيمة متساوية في المعالجات الدفاعية وهذا مستحسن تماماً حيث التقارير قد ترشح محوراً تهديد آني في وقته ولكن تبقى المحاور الأخرى مستهدفة باحتمالات متباينة وهكذا فستكون كل المحاور ضمن إطار المعالجات المحسوبة سلفاً.

العمق في التحصين والموانع المتعاقبة

من الواضح جداً ومن خلال وجود السورين والخندق المائي والفصائل بينها أن أمر تأمين العمق في دفاعات وحصون دار السلام كان أساسياً في فكر المخطط العباسي وبهدف امتصاص زخم أي هجوم محتمل بالتدريج على هذه الحصون المتسلسلة وبهذه الأعماق مما يؤمن إيقاف الهجوم وصده ثم حصره وتدميره سواء على الخندق أو على السور الأول أو السور الأعظم أو على الفصائل بينها وهي قضية ذات قيمة كبيرة وأهمية عظمى في تأمين خطة دفاعية ناجحة تحمي الهدف أولاً وهو العاصمة القلعة والقيادة منها وكذلك فهي تؤدي إلى التدمير الكامل والشامل للهجوم المعادي ثانياً.

إن اتباع هذا المبدأ في تأمين العمق في الدفاعات يدلل على رقي ونضوج تجارب الفكر العسكري عند القيادة العباسية واستناد هذه القيادة إلى خطة رصينة للدفاع كان لها مردوداتها في حماية العاصمة المدينة لمئات السنين.

المناورة

المناورة مبدأ أساس يدل على فكر مرن غير جامد ومن يحرم نفسه من المناورة يؤدي بوضعه إلى مواقف حرجة لا يتمكن فيها من الحركة وهو وضع سيئ جداً في الحرب والمناورة والقدرة عليها هي أحد المبادئ الأساسية للحرب وقد اتبعته القيادة العباسية كما هو واضح من التصميم متعدد الأبواب والمنافذ والمخارج ومن اتجاهات ومحاور متعددة وهو من الأمور المرغوبة بل والمطلوبة في الحرب وبدرجة كبيرة جداً.

فبدل أن تحدد قدرات القيادة المدافعة عن المدينة في حالة تمكن عدوها من خرق كل الدفاعات بعبور الخندق المائي والقتال على الفصيل الأول بينه وبين السور الخارجي ثم النفوذ من أحد الأبواب ومنافذ السور الخارجي إلى الفصيل بينه وبين السور الأعظم وثم النفوذ من أحد الأبواب إلى داخل المدينة وبعد أن يتكبد المهاجم

خسائر كبيرة جداً في كل من تلك المراحل وهي حالة نادرة لا يتمكن المهاجم منها إلاّ بقوة كبيرة جداً عزومة في قتالها المتوالي هذا وفي هذه الحالة فإن القيادة العباسية ستستخدم الاحتياطات المحلية الموجودة على الأسوار في هذه القتالات بينما تبقى القوة الضاربة الرئيسية داخل المدينة بأحسن حالاتها وتتمكن القيادة في هذه الحالة من الخروج بها من باب آخر ومن مهاجمة القوة المعادية بضرب مؤخراتها أولاً وقطع طرق مواصلاتها وإمدادها ثم الصولة عليها من الخلف للفضاء عليها وفي هذا استخدام جيد لمبدأ المناورة كما وفيه الكثير من المرونة ومع كل ما يرافق مثل هذه العمليات من تأثير بالغ على معنويات مقاتلي المهاجم عند معرفتهم بوجود المدافعين خلفهم وهو تأثير مهلك مميت يؤثر على أقوى المعنويات.

من الواضح للدارس المتخصص أن الخطة الدفاعية للقيادة العسكرية العباسية بنيت على القواعد الأربعة سالفة الذكر وهو مؤشر واضح على النضوج وخاصة في مثل ذلك الزمان البعيد.

ولكن متتبع حركة الثقافة والحضارة عند مختلف الشعوب يرى أنها لم تتوقف يوماً عن التنقل بين الأمم المختلفة ومنها أمة المسلمين في العصور العباسية حيث استفادت من تجارب الشعوب الأخرى والحضارات السابقة فالخطة وبشكل واضح جلي تؤشر بصمات القيادات الآشورية العسكرية في شمال وادي الرافدين ونهاوند الفرس وأسوار الحضر المزدوجة والمدورة مما خلفته حضارة الدويلات العربية الصحراوية للأنباط في الأردن وسوريا.

ولن يفوتني الإشارة هنا إلى أن أغلب السكان العراقيين العرب هم من أصول يمانية وذلك من هجرات أهل اليمن بعد انهيار سد مأرب ومعروف ما للقيادات العسكرية

اليمانية من خبرة في التحصين وبناء القلاع في مناطقه الجبلية الوعرة مما سبق الإشارة إليه في فصول سابقة.

(المخطط رقم (20) يوضح الخطة).

وبعد هذا الشرح لأصول وقواعد خطة الدفاع عن دار السلام أرى لزاماً عليَّ التطرق إلى تفصيل في تكتيكات هذه الخطة وبقدر تعلق الأمر بتصميم ومواصفات الأسوار التي سبق الإشارة إليها في مواصفات الأسوار فأقول مما يتعلق بمراحل القتال المشار إليها أن السورين (الخارجي الحمايوي والداخلي الأعظم) وأبراجهما والخندق والأبواب بنيت مواصفاتها على الأسس التالية:-

أولاً. استباق الرمي على المهاجمين من أبعد مدى مؤثر وقبل وصولهم الخندق بهدف إرباكهم وإيقاع أكبر الخسائر بهم وإضعاف معنوياتهم وذلك باستخدام السورين معاً بدون التأثير لكون الخارجي أمام مقاتلي الداخلي ويتحقق ذلك بفارق الارتفاع بينهما والمشار إليه سابقاً.

ثانياً. حماية السور الأعظم والأكثر أهمية من الرمي المباشر لمجانيق المهاجم ودراعاته التي يستخدمها لهدم الأسوار والمنشآت المحصنة إضافة إلى الحماية من المخاطر الاخرى.

الخاتمة:

إن البواعث الرئيسية لهذا البحث كانت عند تحديد عنوان رسالتي للدكتوراه تنطلق من ملاحظتين أساسيتين شكلتا لي هاجساً منذ سنوات عديدة عند ولوجي باب التاريخ هذا وبعد جهود مظنية من التفتيش المستمر في مكتبات عربية عديدة في العراق وخارجه في أقطار الوطن العربي وجدت أنه رغم التاريخ الكبير والثر لهذه الأمة ودولها وأقطارها في مراحل التاريخ المختلفة يوم اعتمدت على ذاتها في أرض الرافدين لسومر وأكد وبابل وآشور أو في أرض مصر الفراعنة أو في جنوب جزيرة العرب عندما قامت دول اليمن في مأرب ومعين وسبأ أو في قرطاج حين هاجر إليها عرب عمان وجنوب الجزيرة.وكذا يوم أخذت الأمة من الحضارات القريبة في بلاد فارس والإغريق والرومان وحين نشأت دول المناذرة في بلاد وادي الرافدين والغساسنة في أرض الشام وقبلهما دولة المدن الصحراوية الصحراوية حيث قامت حضارة الأنباط في البتراء الأردنية وتدمر الشام وحضر العراق، وحتى في فترات الاحتلال المختلفة حيث غابت الكيانات السياسية ولكن الكيانات العلمية والتقنية والأدبية لم تغب بل على العكس كانت هذه الفعاليات عند أمة العرب متممة لجهود هذه الحضارات ومغنية لها بكل غالي ونفيس في مختلف فعاليات العلوم والفنون والآداب والعقائد الدينية والسماوية وإن هاتين الملاحظتين الأساسيتين لهذا البحث كانتا **وكما لاحظنا من متن البحث هما :**

أولاً: الإهمال الكبير في دراسات العصر لامور التاريخ الخاص بالفترات المذكورة وفعالياتها من قبل أهلها من المؤرخين والآثاريين عدا بعض الحالات التي لا تسمن ولا تغني من جوع والأبرز في هذا المجال هو الإهمال الآثاري ألهم إلا في مصر حيث نلاحظ بعض الاهتمام وفي العراق أوائل القرن الماضي ، وهو جهد ولا شك ملفت للنظر ولكنه لا يتناسب مع الحجم الآثاري الكبير

والواسع تحت تراب هذه الأرض العربية مع اهتمام واسع من قبل الاوربيين بهذا المجال بدأ بدافع التفتيش عن ثروات المنطقة وكنوزها المدفونة تبنته المؤسسة الاستشراقية وتحرر بعض هؤلاء الأثاريين من أطماع هذه الجهات بدوافع مهنية وعلمية بحتة بحيث كانت لهم أفضل التحريات والمكتشفات مما أزاح غبار السنين عن بعض هذه الآثار ولو أن أفكارهم ومعتقداتهم أثرت بشكل واضح على تلك البحوث كما انهم لم يستطيعوا انجاز البحوث بشكل متصل ومتكامل بسبب من أحداث المنطقة وتقلباتها السياسية وجهل انسانها في تلك الحقب التاريخية. وجدير بالذكر هنا أن كنوز الشرق وموارده الضخمة كانت المحرك الأكبر لهذه المؤسسات باتجاه الشرق الأوسط خاصة والشرق عموماً، ومن الانصاف كما أسلفنا الإشارة إلى أن بعض المستشرقين قادتهم مهنيتهم ونزاهتهم إلى التركيز على مهنية البحوث وعدم الإنصياع إلى أهداف المؤسسة الاستشراقية والمؤسسات السياسية الاستعمارية وسلوكها الاقتصادي في التسابق لنهب ثروات الشرق مستغلة جهل وتخلف أجياله في أمة العرب والأمم الإسلامية الأخرى على حد سواء .

ثانياً: شبه غياب للبحوث المتخصصة بسبب أساس من كون أغلب الباحثين هم من باحثي التاريخ العام الذين تتحدد معلوماتهم واتجاهات بحوثهم على الأمور العامة وبخاصة السياسية منها ووفقاً لثقافتهم وأن مالوا إلى العلوم المتخصصة فبحدود إمكانياتهم وبحدود المصادر والمراجع المتاحة التي كانت هي الاخرى جهوداً لمؤرخين في التاريخ العام وقد تركز اهتمامي حول هذه النقطة في ملاحظتين رأيتهما خلال زياراتي للمرافق الأثارية في العراق حيث لاحظت بحكم تخصصي أن هذه العمائر بنيت وفق علوم وتقنيات مهنية سابقة أدت إلى انتاج تصاميم معمارية غاية في الدقـة في العلوم الهندسية

والعسكرية حيثُ عاشت هذه العمائر لأكثر من ألف سنة وتحملت كل الظروف الجوية والمناخية ومداخلات الحروب وتدخل الإنسان وكان كل ذلك بارزاً لي على الأقل في وسط بلاد وادي الرافدين كما أسلفنا خلال البحث حيث الطبيعة الطينية للمواد الإنشائية وحيثُ المستوى العالي للمياه الجوفية وأخطار الفيضانات السنوية ، اضافة إلى تعاقب الغزاة وهجماتهم البربرية من الشرق والغرب.

وقد كانت التصاميم للمرافق العسكرية خاصة موافقة لأحدث قواعد التعبية الصغرى كما أسلفنا تفصيلاً مما يدلل على مهارات مهنية عالية لمن قام بالتخطيط والتصميم من القادة والمهندسين والفنيين .

وخلافاً للملاحظتين الأساسيتين آنفتي الذكر فقد آثار البحث لدي عدة نقاط أراها جديرة بالاهتمام والإشارة مما يوجب إجراء بحوث أخرى بعناوين سأحاول إيجازها في هذه الخاتمة لعل الوقت والعمر يتيحا لي فرصة إجراءهما أو يتولاها غيري من الباحثين لما لها من ضرورة قصوى لترابط حلقات التاريخ الذي يعطي الأمة صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه الحاضر ولكي يوجه الفكر المتخصص بصورة خاصة إلى اتجاهات مجدية فعلاً يبنى عليها فكر ناضج **وهذه الأمور التي أثارها البحث هي :-**

أولاً: مدى تقدم ورقي تخطيط المدن عند العرب وبناء ذلك على أسس متقدمة من الفكر المعماري والحضاري نسبة إلى زمانه بخلاف ما يدعيه البعض من تخلفهم وميلهم إلى التخريب بدلاً من الإعمار والبناء ، وكما ورد ليس في آراء بعض المستشرقين فحسب . بل في بعض المؤلفات العربية مثل اراء ابن خلدون في المقدمة. وأبراز أن للعرب أنماطهم الخاصة في مجال تخطيط المدن عدا ما

أخذوه عن الآخرين ولكن بأنماط خاصة ومتميزة تختلف تماماً بفكرها المعماري وفلسفتها التخطيطية عن كل ما كان سائداً في الحضارات الرومانية والإغريقية.

ثانياً: تفاعل الفكر العباسي في مجال تخطيط المدن بالفكر العربي السابق له وخاصة بفكر دول اليمن وجنوب الجزيرة العربية وبفكر الدولة العربية الصحراوية النبطية التي لها في بلاد وادي الرافدين آثار بارزة في مدينة الحضر جنوب الموصل وكذلك في الأردن وسوريا (البتراء وتدمر) وإضافة إلى مجال تخطيط المدن في الأسس الهندسية والمعمارية والعسكرية الدفاعية مما يوجب دراسات مفصلة لأسس وقواعد الحضارة النبطية وتأثرها بحضارات اليونان والرومان وإبداعها وأبحاثها هي وكذا بالنسبة لتأثيرها على الحضارة العربية الإسلامية.

ثالثاً: إجراء دراسات مفصلة عن تاريخ مدينة بغداد الحقيقي وبناتها رجوعاً إلى العهود الكيشية والبابلية والأغريقية والساسانية وغيرها مما يجلي الغبار عن أهمية هذه المدينة التاريخية والحضارية لأمم سبق لها سكن بلاد وادي الرافدين والمتأتية أصلاً من أهمية هذه البلاد التاريخية والجغرافية في وسط أقاليم العالم القديم المعروف سابقاً وللقيمة الحضارية المتأتية من حضارات الوادي القديمة.

لقد شهدت أرض الوادي حضارات عديدة متوالية مثلت أوائل الفكر الإنساني في العالم المعروف وقتها وهي الحضارات السومرية / الأكدية / البابلية/ الآشورية / الحضرية النبطية.

كما أن الواضح تماماً هو حجم التفاعل الكبير بين حضارات الوادي وحضارات الأقوام المجاورة وهي الفارسية / الهندية/ الصينية / الإغريقية / الرومانية / العربية القديمة.

وبقدر ما كان البحث مضنياً في التحري والتجوال والزيارات الميدانية والقراءات الموسعة فقد كان جميلاً طريفاً مفيداً غنياً لكاتبه (وأأمل أن يكون كذلك لقراءه) بقدر لا يقدر وكم من المعلومات المفيدة والجديدة لا يمكن إغفاله وبعدة اتجاهات ما يستوجب إجراء بحوث أخرى أوسع وأكثر تخصصاً في عدة اتجاهات أهمها / طبيعة الحضارة النبطية (حضارة الدول العربية الصحراوية في تدمر والبتراء وحضر العراق).

والتي كان لها الفضل الكبير على الفكر العباسي في مجالات الهندسة والعسكرية الدفاعية وتخطيط المدن وعلى الحضارة الإسلامية عموماً حيث وجدت شواهدها في الشمال الإفريقي وفي أماكن التوسع الإسلامي الأخرى كما في المدن الأندلسية التي أجرى عليها الفاتحون المسلمون تعديلات وتحويرات أساسية وخاصة في أساليب الدفاع والتحصينات لحماية هذه المدن والحواضر .

ومنها طرق الاستفادة من دروس التاريخ حيث يلاحظ بوضوح التطابق والتماثل بين مسار حملة خالد بن الوليد لفتح العراق ومن توجيه الخليفة أبو بكر الصديق وبين محور دخول الفرات الأمريكية إلى العراق بعد ألف وأربعمائة عام من حملة خالد وكما اسلفت في متن البحث فاني وجدت الكلية العسكرية الأمريكية (الويست بوينت) إلى يومنا الحاضر تدرس أربعة معارك رئيسية عربية إسلامية هي اليرموك والقادسية وبلاط الشهداء ونهاوند مع تركيز واضح لمؤلف كتاب التاريخ هذا في الويست بوينت على الدروس المستنبطة من كل معركة ليس في مجال

العسكرية وخططها وأدبياتها فحسب وإنما في مجال استراتيجيات منطقة الشرق الأوسط وعلاقة ثرواتها بالأمن القومي الأمريكي ومن المفاهيم التي ثبتها مكنمارا ، وهي أمور لافتة للنظر تبرز مقدار استفادة الأمم الحية من أحداث التاريخ والسياسة حيث هناك تشابه كبيراً اخر بين التجاء المعارضة العراقية وارتمائها في أحضان الأمريكان في الحرب الأخيرة على العراق في العام 2003 وبين استعداء الخليفة الناصر لدين اللـه (اخليفة العباس الرابع قبل الأخير) لجنكيز خان على الدولة الخوارزمشاهية في أواسط آسيا والتي كانت تهدد الدولة العباسية وقد قامت فعلاً بعده محاولات فاشلة لغزوها غير مقدرين لأبعاد التدخل الأجنبي ومخاطره المستقبلية وخاصة مع دول كبيرة ذات إمكانيات مادية عالية جدا وتكنولوجيا متفوقة وهي إضافة لذلك فهي ذات مصالح كبرى استراتيجية وسياسية واقتصادية بالشكل الواضح والقائم حالياً بعد احتلال العراق وهدم قواعد دولته واستباحة إمكاناته.

ولقد كان واضحاً خلال البحث تأثر فكر البناة في بلاد وادي الرافدين حتى انشاء الدولة العباسية مدى تأثرهم الكبير بالفكر السابق للأمم التي انشأت حضاراتها في أرض الوادي وهي كثيرة بدأت بالحضارات القديمة جداً كالحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية والحضرية النبطية كما تأثرت وبقدر كبيراً بالحضارات المجاورة والتي اعقبت الحضارات القديمة ومنها الحضارات الفارسية والهندية والصينية والإغريقية والرومانية والعربية القديمة التي نشأت في دول اليمن وجنوب شبه جزيرة العرب .

كما كان للإسلام كدين حث على طلب العلم والاستفادة من دروس التاريخ بل وجعله واجباً شرعياً الفضل الكبير في البحث والعلم ودراسة ثقافات وحضارات الآخرين إضافة إلى طبيعة الإسلام الاممية التي جعلت مواطنيه لا يتحددون بقومية واحدة مما جمع لديهم كم هائل من المعلومات والخبرات كما هو الحال في كل الحضارات

الأممية الأمبراطورية التي جمعت ثقافات وكفاءات كل الأمم المنظوية تحت لوائها وغير المنظوية .

وقد تضمن البحث إيضاحاً جلياً لقدرة القيادة العباسية في مستوياتها المختلفة على الاستفادة من بحوث الآخرين وتجاربهم خاصة في المجالات الهندسية والمعمارية والعسكرية الدفاعية موضوع البحث، وإضافة الكثير من الجديد إليها.

وكذلك فقد أوضح البحث عدم دقـة بعض الباحثين والمؤرخين والمستشرقين الذين قالوا كثيراً من شأن هذه الأمة وقدراتها ومنهم باحثين عرب وصفوا بانها أمة تخريب وبداوة وبدائية حيث أثبت البحث شأنه شأن الكثير من البحوث والمؤلفات التي أظهرت بالدليل المادي الملموس والقائم إلى يومنا الحاضر أنها وكأي أمة ناهضة واتتها الضروف أمة بناء و أعمار وثقافة وحضارة متميزة في زمانها بين أمم الأرض المعروفة يومها، أخذت وأعطت من وإلى الحضارات الأخرى وكما كان ديدن الحضارات في مختلف مراحل التاريخ البشري الإنساني.

لقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور علماً عالياً في القدرة والعلم والتجربة حين خطط لبناء دار السلام المدورة وصممها ونفذ بناءها، ولم يضاهيه في هذا المجال سوى الخليفة المعتصم باني سامراء (سر من رأى) مع كل الفوارق بين الحالتين من ناحيـة مميزات المدينة الدفاعية والهندسية وفارق الزمان واستمرار الدولة وترسخ أركانها في زمان المعتصم وما يقابله في حداثة الدولة العباسية أيام المنصور وكثرة الأخطار المحيطة بها وقوة الأعداء وتذبذب الأقاليم في الولاء لبني العباس .

كما وأنه كان علماً في سبق النظر وبعده عندما خطط لتوسيع المدينة مستقبلاً فيما لم يستطيع تنفيذه منذ البدء لمحدودية الموارد والوقت وكثرة المخاطر.

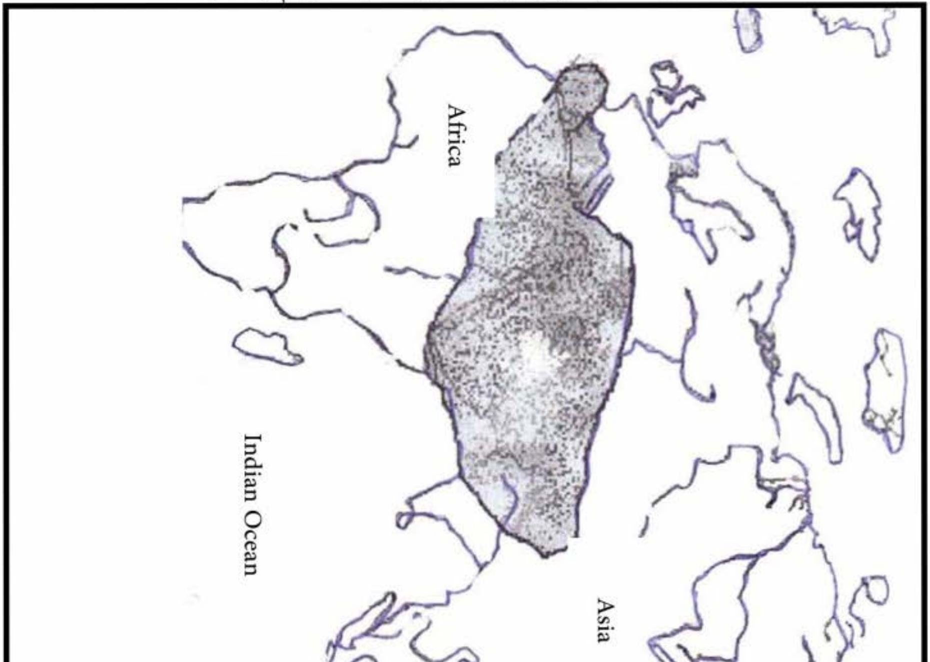
إن التخطيط لإنشاء المدينة وتلبيـة حاجاتها الأساسية وتأمين سلامتها ودقة تصميمها على الأسس والمطالب وجعلها منارة عالمية تتناسب مع حجم وأهمية وعظمة هذه الدولة ولقرون عدة كان مثاراً للإعجاب بحق .

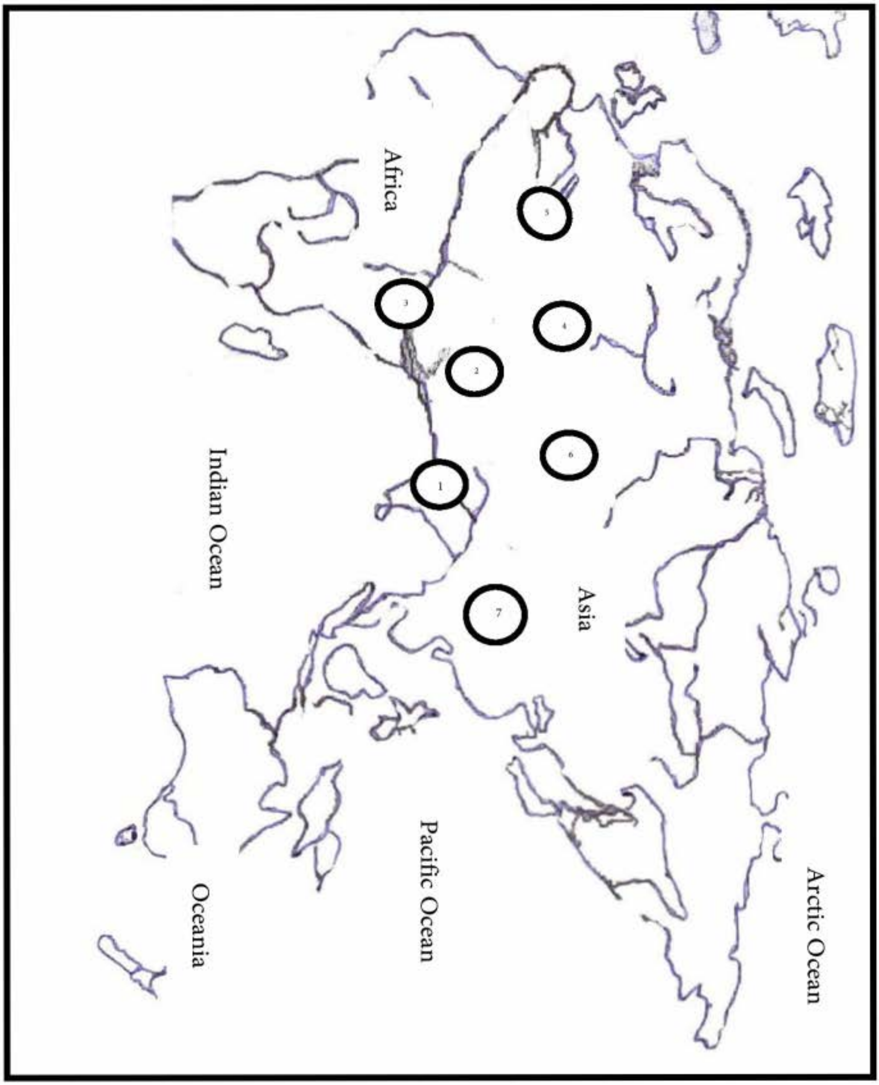
وأخيراً، فليس لي سوى الانحناء احتراماً وإجلالاً لهؤلاء العظام اللذين خدموا شعبهم وأمتهم ودينهم .

وإلى الجزء الثاني بحثاً في توسع المدينـة وانتقالها إلى الجانب الشرقي وحروبها وحتى نهايـة العصر العثماني حيث هدمت أسوارها وتدمرت لأسباب مختلفة أغلب معالمها، وآمل أن يكون البحث مفيداً للأجيال نافعاً للباحثين مصححاً لبعض الأخطاء السالفة.. و اللـه من وراء القصد .



حدود الدولة العباسية بداية تكوينها خارطة رقم (23)





خارطة رقم (24)

العالم القديم قبل اكتشاف الأمريكتين واستراليا

أقاليم الأرض السبعة حسب التصنيف قدامى الجغرافيين

1- إقليم الهند 2- إقليم الحجاز 3- إقليم مصر

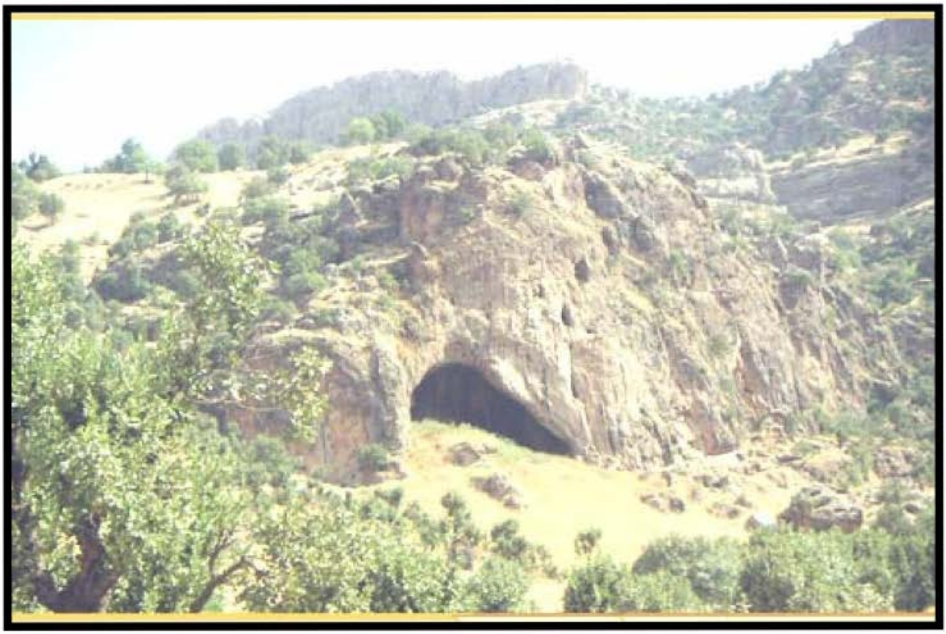
4- إقليم بابل 5- إقليم الروم 6- إقليم الترك

7- إقليم الصين



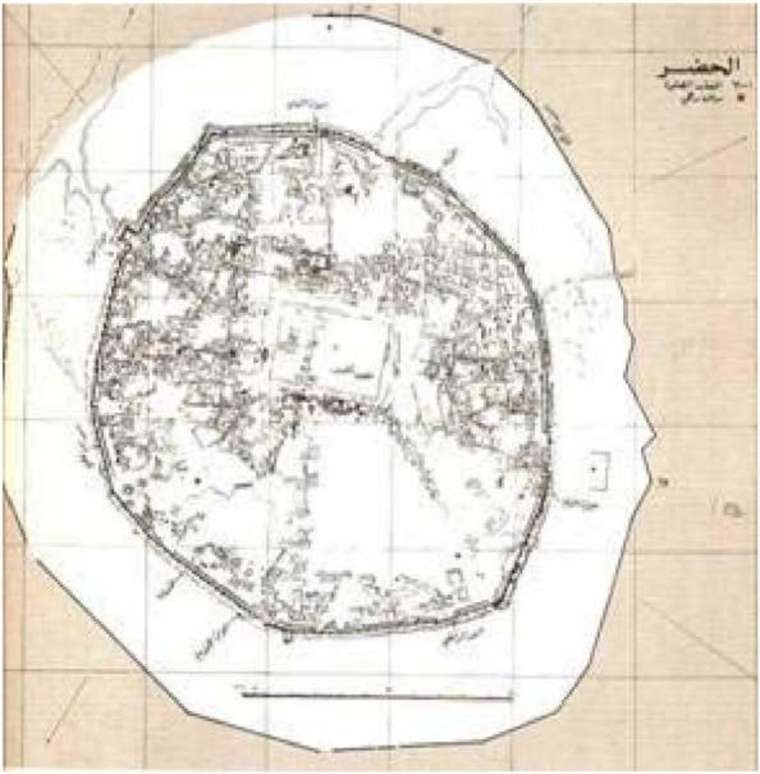
الشكل رقم (1)

فتحة كهف شانيدر من الداخل



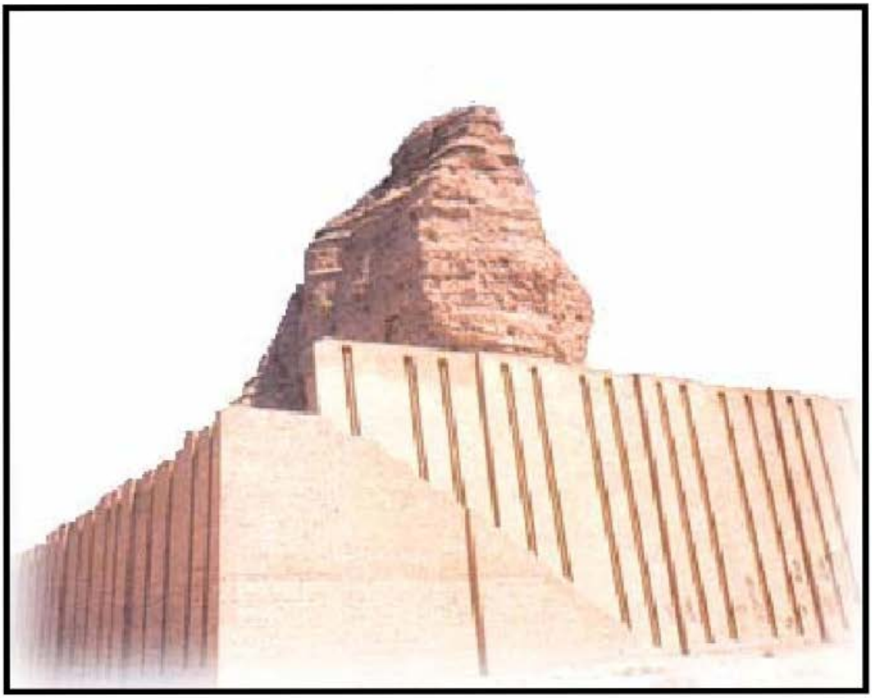
الشكل رقم (2)

كهف شانيدر الواقع في الجناح الجنوبي من جبال برادوست ومن جبال راوندوز



الشكل رقم (3)

خارطة تبين الأسوار المدورة التي تحيط بمدينة الحضر



الشكل رقم (4)

زقورة دور (كوريكانزو)



الشكل رقم (5)

(معبد مرن) في مدينة الحضر



الشكل رقم (6)

واجهة إيوان كسرى قبل سقوط الجناح الأيمن من واجهة القصر

وكان انهيار هذا الجناح في 15 نيسان 1888 عند فيضان نهر دجلة



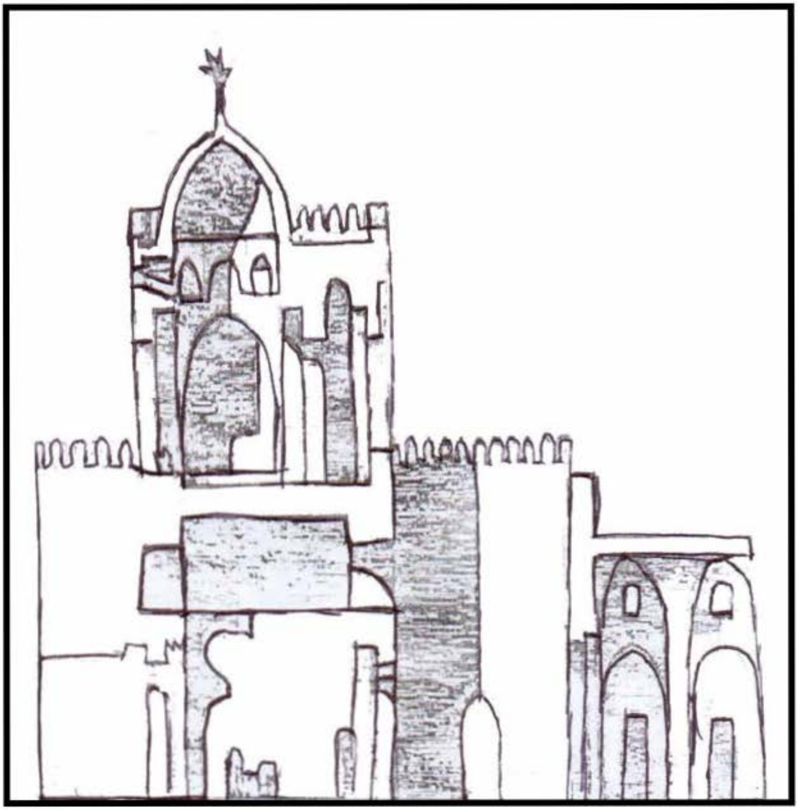
الشكل رقم (7)

باب تركال



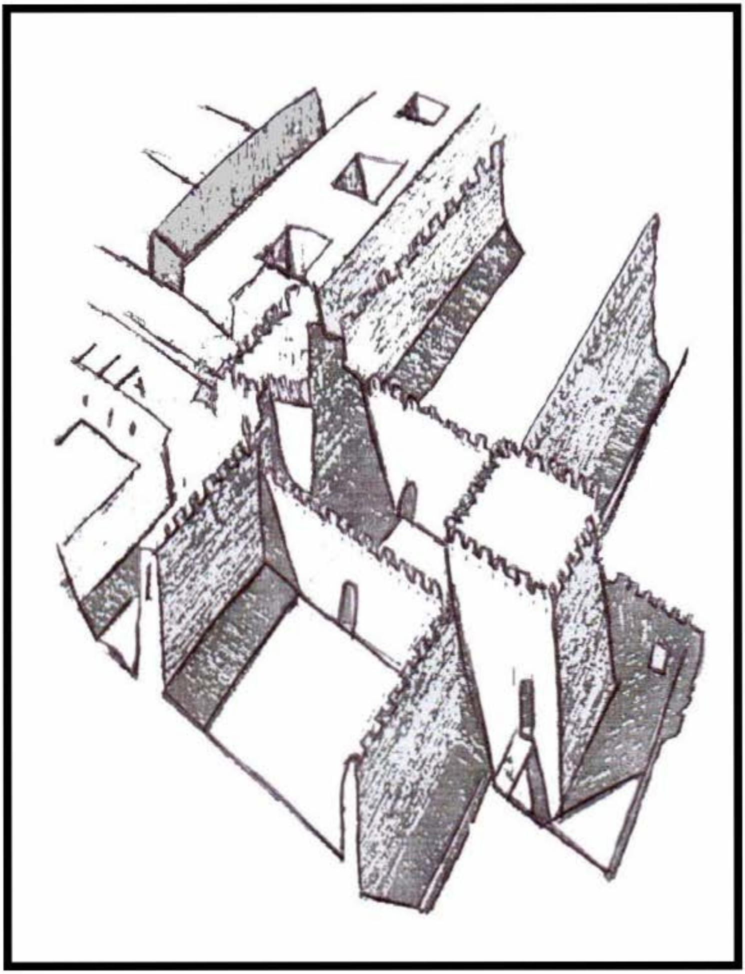
الشكل رقم (8)
محراب من الرخام الأبيض قطعة واحدة عثر عليه في جامع الخاصكي في بغداد
يعتقد أنه جلب من جامع المنصور ذو القبة الخضراء

وقد حاولت جهات غريبة عديدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شراءه من الأتراك



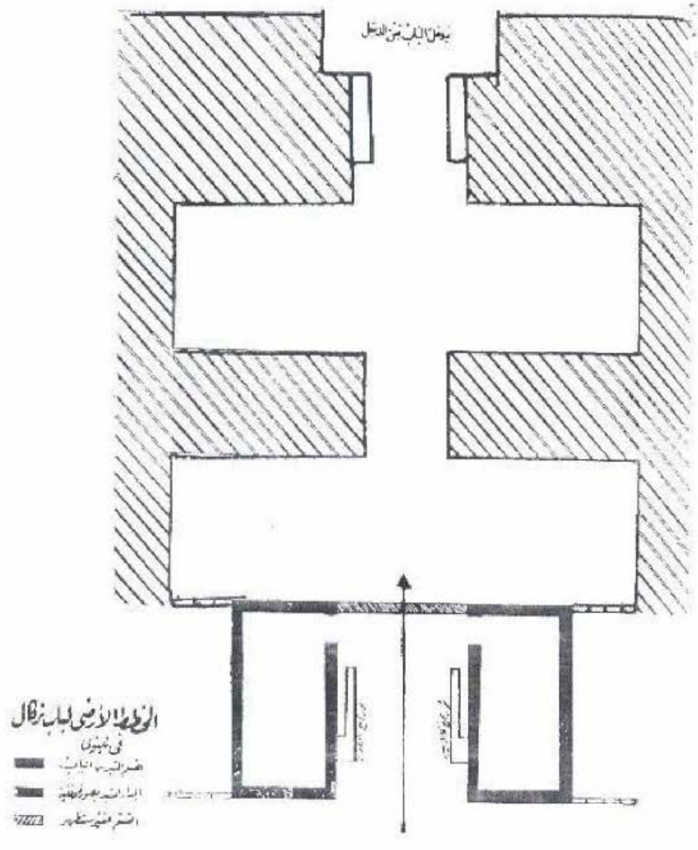
الشكل رقم (9)

مقطع مدخل السور للمدورة دار السلام



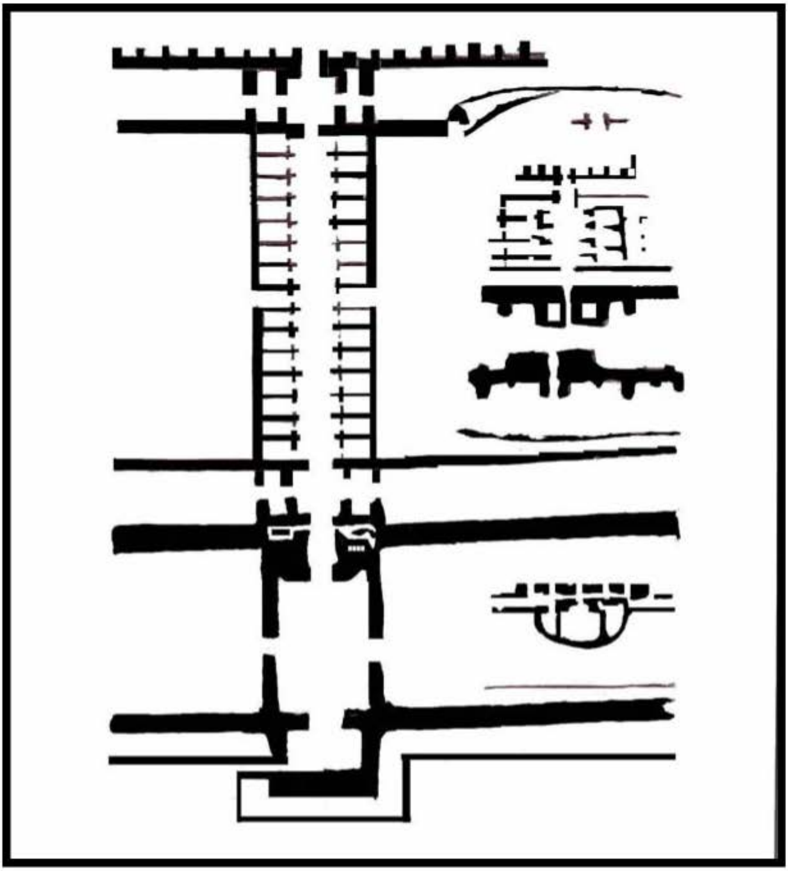
الشكل رقم (10)

رسم تصويري لمدخل أسوار المدورة دار السلام



الشكل رقم (11)

مخطط باب تركال في القسم الجنوبي من سور مدينة (نينوي)

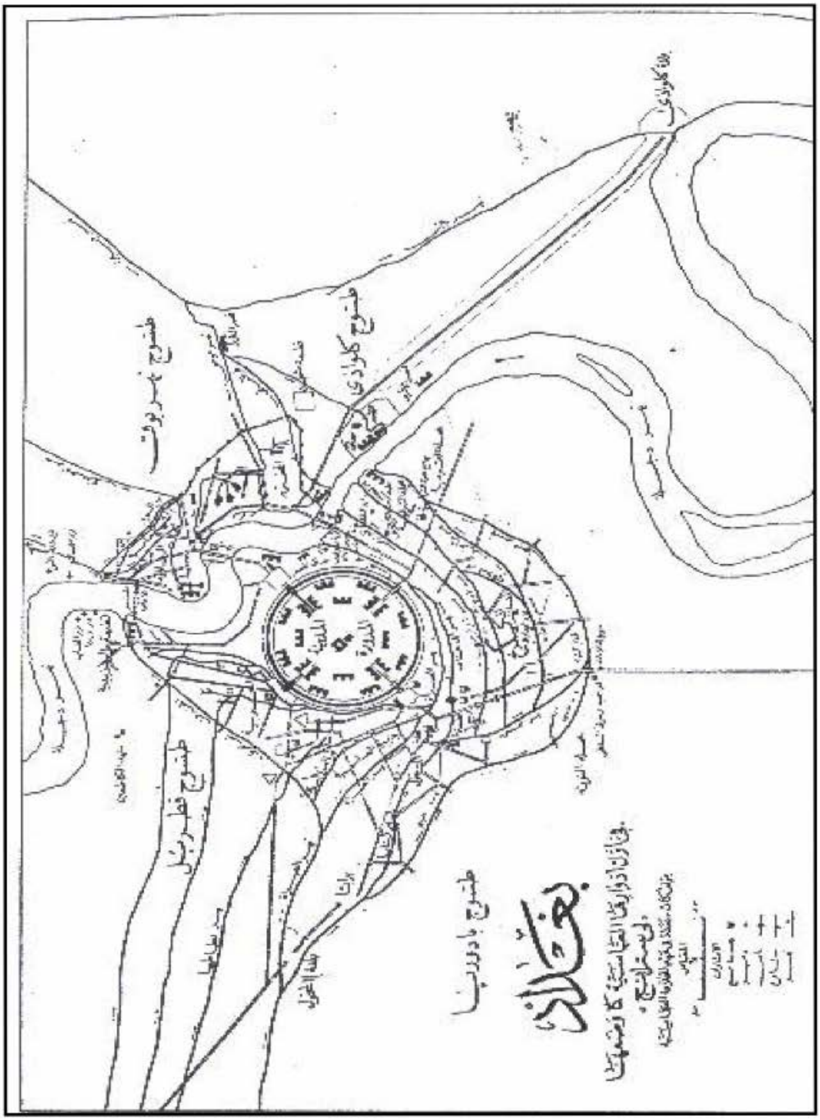


الشكل رقم (12)

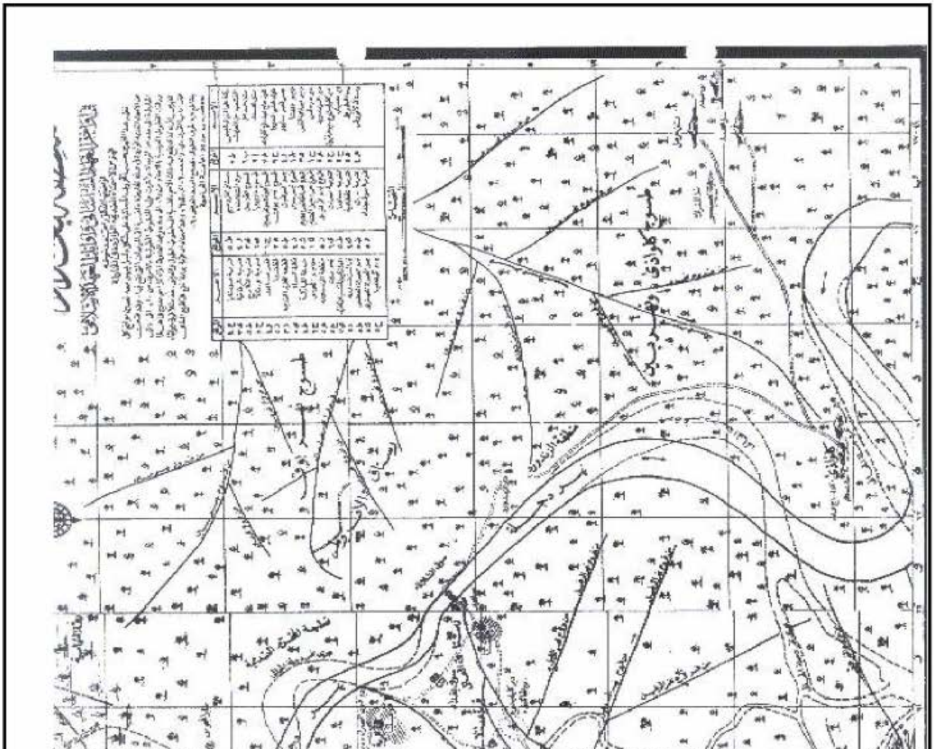
مخطط لأحد أبواب المدورة دار السلام


بغداد
كما صنعها ساره وهرتسفلد
في أوائل القرن العشرين
المقياس
الاشارات

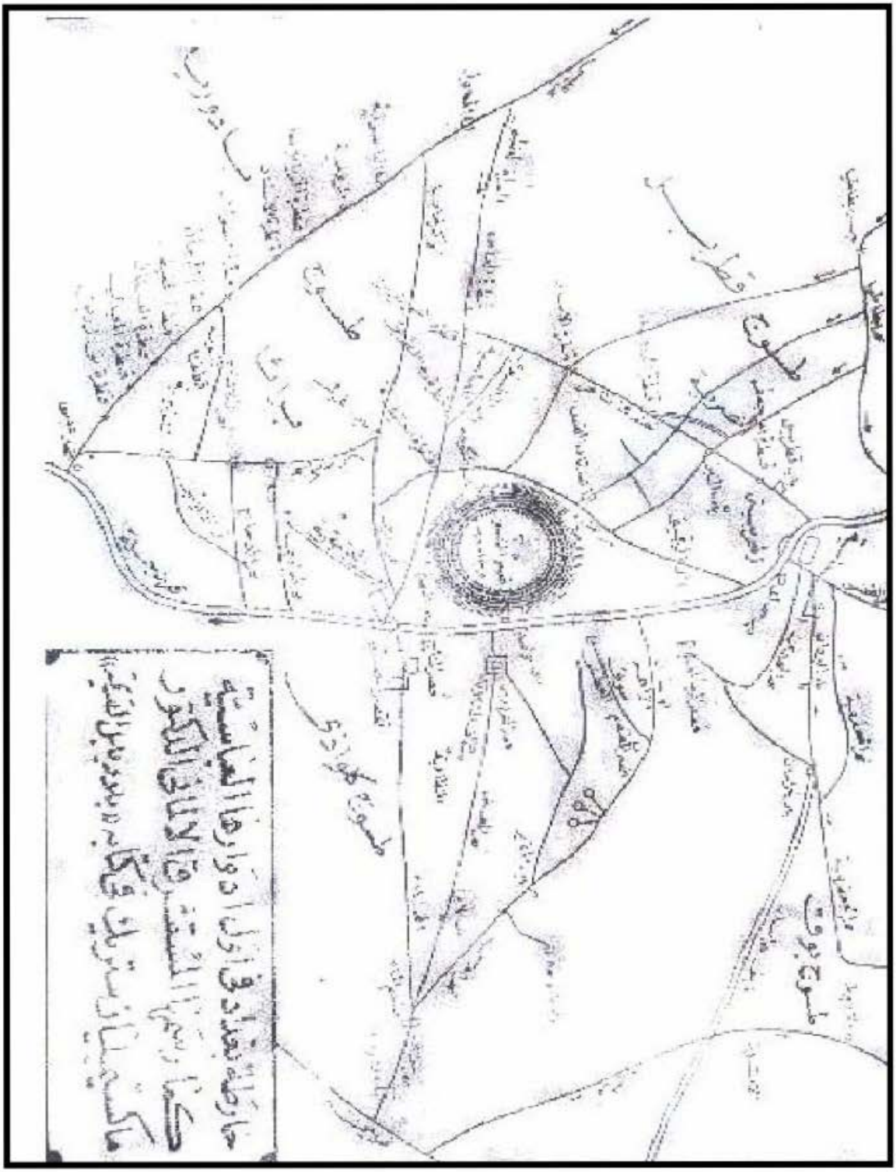
شكل رقم (13)



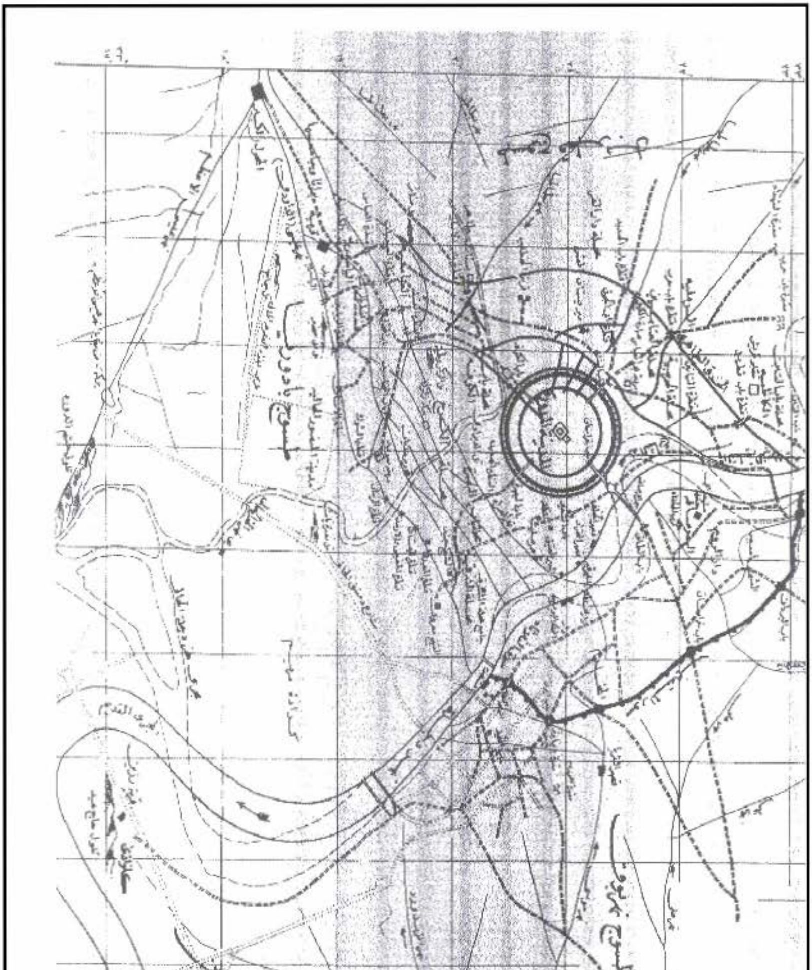
شكل رقم (14)



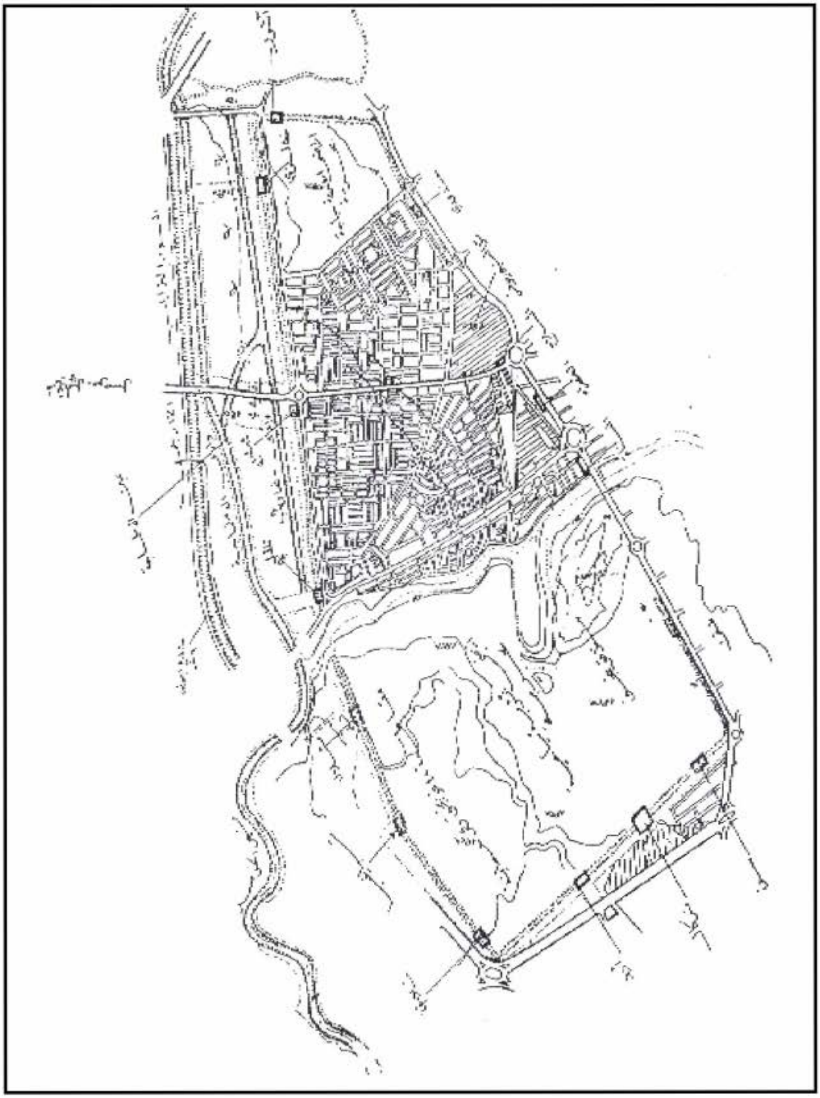
شكل رقم (15)



شكل رقم (16)

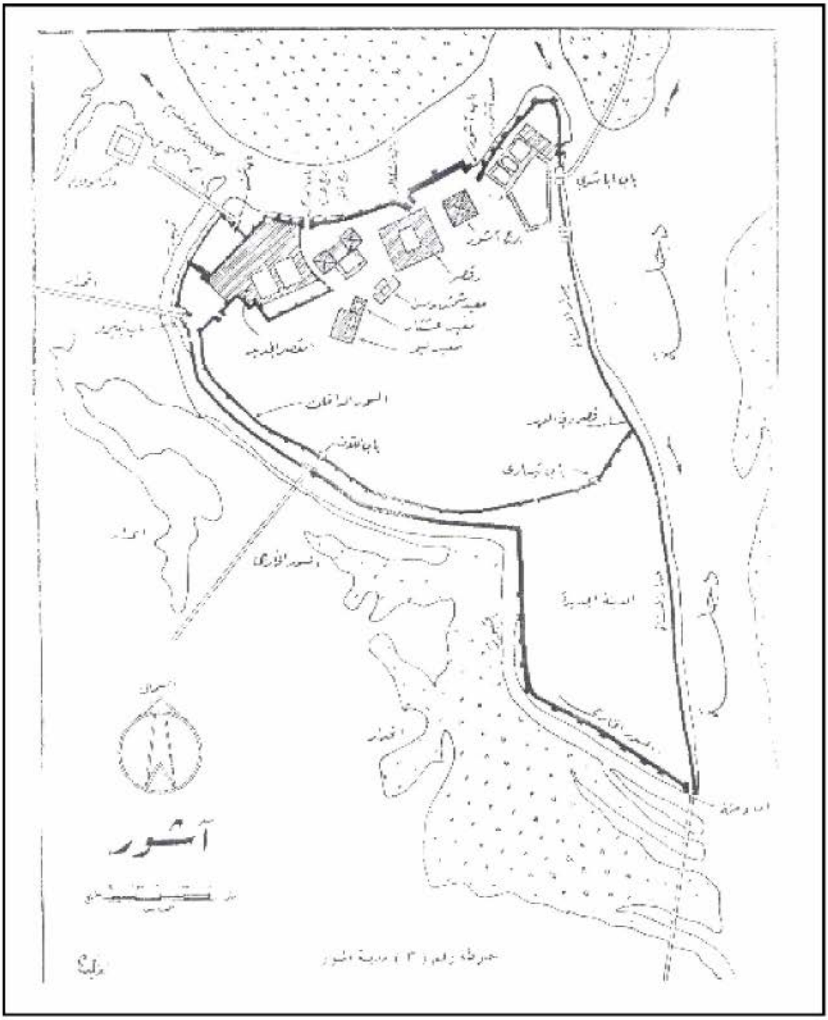


شكل رقم (17)



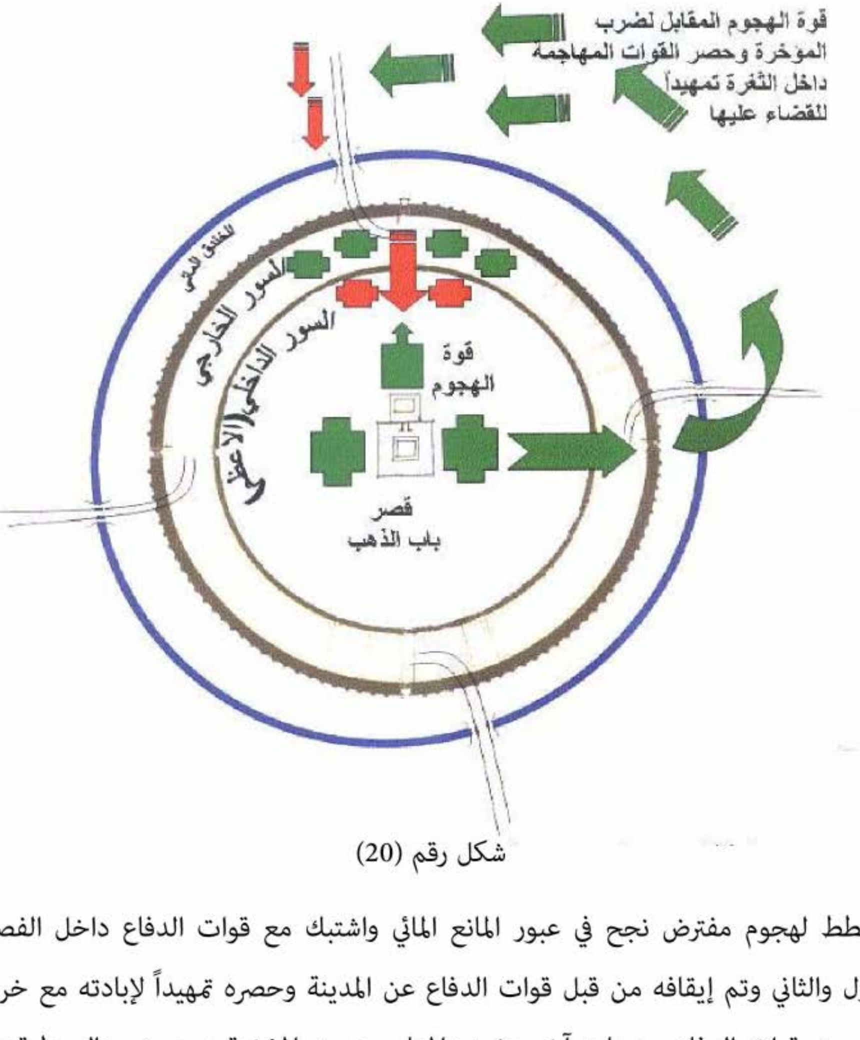
الشكل رقم (18)

خارطة نينوى وقد احتل القسم الوسطي منها شوارع وأبنية حديثة



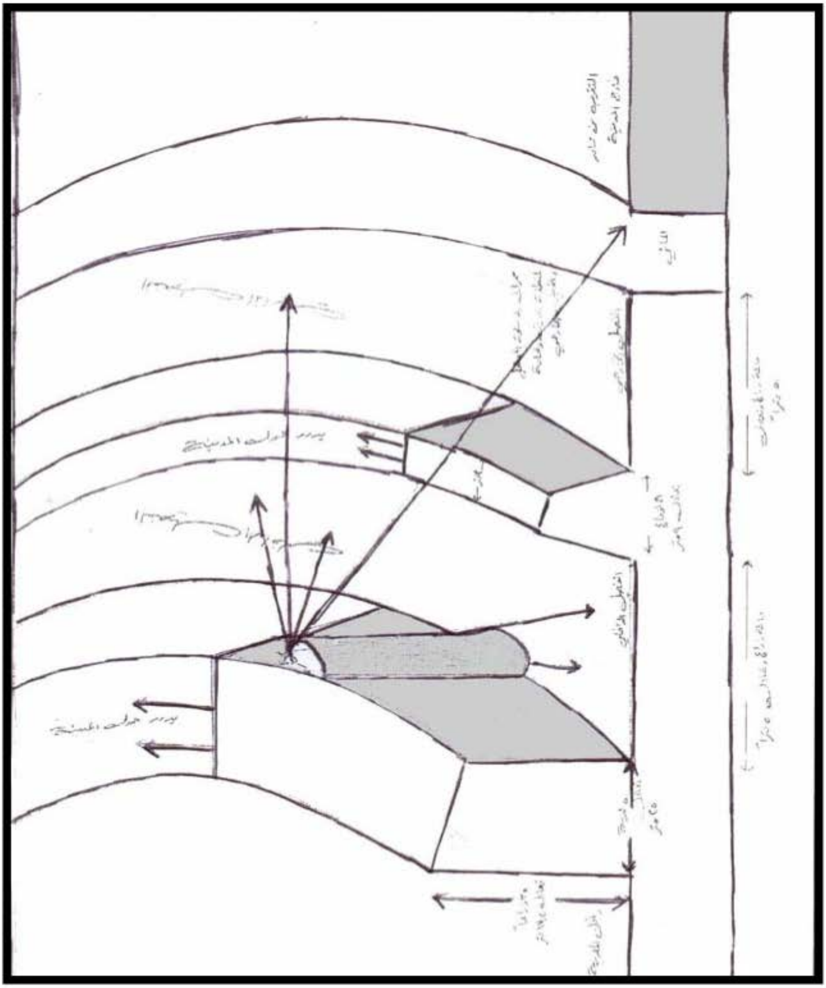
الشكل رقم (19)

خارطة مدينة آشور

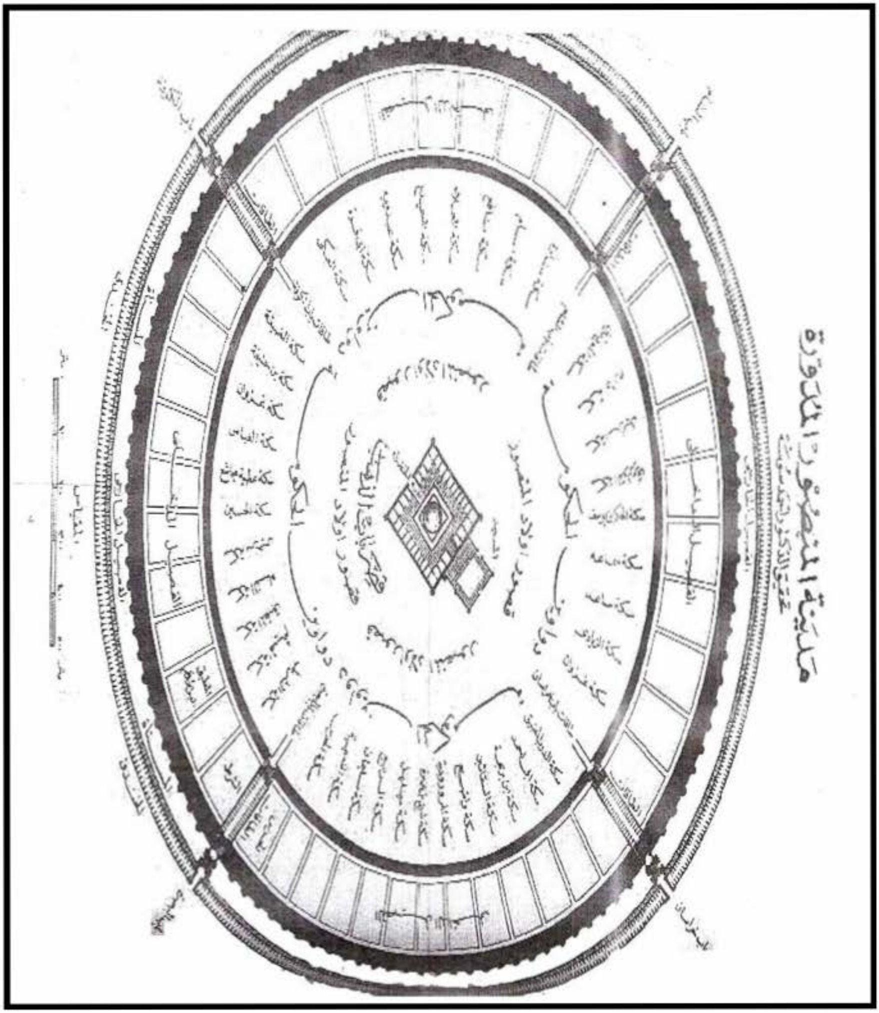


شكل رقم (20)

مخطط لهجوم مفترض نجح في عبور المانع المائي واشتبك مع قوات الدفاع داخل الفصيل الأول والثاني وتم إيقافه من قبل قوات الدفاع عن المدينة وحصره تمهيداً لإبادته مع خروج جزء من قوات الدفاع من باب آخر وضرب المهاجمين من المؤخرة وحصرهم والسيطرة على طرق إمدادهم.



شكل رقم (21)



شكل رقم (22)

ملحق بالكتاب الأول

إيضاح مهم جداً

قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أن المقصود من تبيان وجود العواصم التي بنيت على أرض بغداد أو جوارها من كيشيه إلى إغريقية إلى ساسانية أن المدينة هي غير عربية أصلاً.

إن المقصود هو بيان الحقيقة التاريخية وحسب أهداف البحث (ولإيضاح أصل نشأة المدينة وتطوراتها التاريخية وأهمية الموقع في وسط إقليم العراق وفي منطقة اقتراب النهرين العظيمين إلى أُقرب مسافة بينهما وهي بحدود المائة كيلو متر وفي منطقة رسوبية التكوين وبأفضل المواصفات الزراعية والإنتاجية وكما هو مفصل بشكل واضح في المتن وليس أكثر.

أرى من الضروري لإيضاح الموضوع وجلاء ذهن القارئ الكريم الإشارة إلى أن سكان الوادي (وادي الرافدين) هم أصلاً أبناء سام بن نوح فقد اتجه سام بن نوح وأبناءه إلى الجنوب بعد الطوفان الشهير وسكنوا في منطقة شمال وادي الرافدين أولاً (وهي المنطقة القريبة من جبل الجودي الذي يقع جنوب تركيا كما ذهب أغلب الباحثين) كما يذكر (ليواينتهايم) في مؤلفه الموسوم (بلاد ما بين النهرين) نقلاً عن روايات التوراة (العهد القديم) ومن الكثير من الإثاريين الذين حققوا مكان الطوفان حيث تكاثرت ذريته على مدى القرون واضطرها محدودية الموارد إلى أن تنزل جنوباً باتجاه السهل وفي منطقة سامراء، **ثم انقسمت إلى قسمين رئيسين:**

الأول: سكن المدن التي بنوها وطوروها وهم السومريين والأكديين من سكان المنطقة التاريخية جنوب الوادي ثم البابليين الكلدان فيما بعد O-RA-CO (وهم بالتأكيد أجداد العرب) والجزريين الآخرين من آراميين وأنباط وأما العرب فلم يعرفوا بهذا الاسم ألا بعد قرون عديدة وهم سكنة جنوب الجزيرة وبلاد العراق وبلاد الشام ومنهم أقوام رحلت إلى أفريقيا وغيرها من مناطق الجوار وكان ذلك في وقت متأخر من طوفان نوح.

وقسم آخر: اتخذ البداوة منهجاً تحياته ومنهم قبائل مازالت إلى يومنا الحاضر بدوية ومن أبناءهم جاء الآراميون والكنعانيون والأقوام الأخرى في شبه الجزيرة والآراميون هم أجداد الخليل إبراهيم أبو الأنبياء ومنهم من سكن (تروحة الجندل) شمال شبه جزيرة العرب حيث سكنت بعضها المنطقة ورحل بعضها الآخر مع عشيرة إبراهيم إلى منطقة جنوب العراق وسكنوا في أور حيث ولد خليل الـلـه كما ثبت من خلال الحفريات ومن الرقم الطيني الذي عثر عليه في أور والمحفوظ في المتحف العراقي وكما يفصل الأستاذ (يوسف رزق الـلـه غنيمه) ثاني وزير مالية عراقي في حكومة المرحوم الملك فيصل والأستاذ يوسف باحث معروف له الكثير من المؤلفات ومنها كتابة الموسوم (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) الذي نشره عام (1924م).

ثم رحلت العشيرة إلى الشمال وكان جد إبراهيم وأباه على قيد الحياة وإلى منطقة (النمرود) قرب مدينة الموصل (نينوي) حيث حدثت الواقعة المذكورة في القرآن الكريم في تكسير الأصنام من قبل الفتى إبراهيم وقيام القوم من محاولة إحراقه والتي

قال فيها تعالى: ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾ ثم قررت العشيرة بقيادة أبو إبراهيم (آزر) الرحيل إلى الغرب وسكنت في وادي حوران وهناك ولد إسحق (إسرائيل).

وبحدود هذه التواريخ لم يعرف قوم باسم (العبريين) إذ ظهر الاسم بعد ذلك لعبورهم بلاد الكلدان ونهر الفرات من شرقه إلى غربه في منطقة (نهر دعه) وهو الاسم التاريخي لمدينة حديثه الحالية والواقعة على نهر الفرات في محافظة الأنبار وكان ذلك كما يذكر الآثاريون والمؤرخين قبل نزول الرسالة اليهودية على سيدنا موسى بحوالي ثمانمائة سنة حيث عرف المؤمنون بالرسالة باسم (اليهود) من بني إسرائيل وكان ذلك في أرض مصر التي رحل إليها البدو من العبريين في العهد الفرعوني وقضية ولادة نبي الـلـه موسى عليه السلام والمذكورة في القرآن الكريم معلومة وكان كل ذلك بعد ترك العبريين لبلاد وادي الرافدين وبلاد الشام واتجاههم غرباً إلى مصر عبر فلسطين وسيناء، ولا أريد الخوض في تفاصيل الرحلة خارج موضوع البحث وعلى من يريد الاستزاء فهنالك الكثير من المصادر ومنها المصدرين انفي الذكر (وناقل الكفر ليس بكافر) حيث يعترض على هذا التفصيل بعض الباحثين.

وبعد ظهور الدولة البابلية التي أسسها الكلدان البابليين وعاصمتها مدينة بابل قرب مدينة الحلة الحالية على نهر الفرات وعلى بعد مائة كيلو متر جنوب مدينة بغداد الحالية بني البابليون ميناءً على نهر دجلة في منطقة بغداد لنقل البضائع من الجنوب في ميناء الإيلة على شط العرب (حيث لم تكن البصرة قد وجدت بعد) إلى الشمال وعبر نهر دجلة الذي كان ملاحياً وتجنبوا الفرات لعدم ملائمة مواصفاته

وكان إنشاءه أساساً لمدينة بغداد سواء سميت بهذا الاسم أم لا في البداية وتقع في موقع الكريمات الحالية في كرخ بغداد والدليل على ذلك:

فقد وجدت آثار بابلية على شكل مسناة على الجانب الغربي من النهر (ولا زالت أجزاء منها قائمة إلى يومنا الحاضر) عند الحفر لإنشاء الدكة الساحلية الغربية لجسر باب المعظم من قبل شركة يابانية مما استدعى تدخل مديرية الآثار العامة في الثمانينيات من القرن الماضي.

وهناك الكثير من الأخبار عن هذه المنشآت وعلى امتداد الساحل وحتى منطقة الصالحية ولو أن جزء منها قد تم نفسه بالديناميت من قبل أحد ولاة بغداد الأتراك في نهايات العهد العثماني بدعوى أنها تعيق الملاحة النهرية.

كما وجدت آثار بابلية أخرى على بعد حوالي خمسة كيلومترات عن النهر وفي منطقة معرض بغداد الدولي وكان يعتقد أنها أحد قصور البرامكة وبعد تحقيق الموضوع بالتقنيات الأثرية تبين أنها ترتبط في ناحية الشرق بالمسناة كما وجدت الرسوم والمنحوتات البابلية على طابوق هذه المنشآت وهي من عصر الملك سرجون الثامي كما يروي الدكتوران أحمد سوسه ومصطفى جواد في مؤلفهما الشهير (دليل خارطة بغداد).

وفي وسط هذه المسناة تقع قرية بغداد التي تشير إليها المصادر عند حركة الخليفة المنصور كما تشير الجولة الاستطلاعية وسؤاله (الدهقان بغداد) عن مواصفات المنطقة وطبيعتها مما يثبت أنها كانت موجودة بناءاً واسماً قبل إنشاء المنصور لمدينته المدورة دار السلام وسكناه فيها.

إن كل ما سلف يؤكد عروبة المدينة منذ العصر البابلي ولكن المصادر المتيسرة لم تحدد وقت إنشاءها وتفاصيل إنشاء الميناء.

من الجدير بالذكر هنا أن الثابت انثروبولوجياً أن أقوام الجزيرة وجنوبها قد انحدرت من الشمال بعد الطوفان.

ثم جاءت هجرات معاكسة من الجنوب بعد انهيار سد مأرب في اليمن حيث هاجرت القبائل شمالاً ولما كانت مجتمعاتها زراعية المهنة والسلوك فلم تتمكن من التأقلم مع أجواء وبيئة البادية الصحراوية وصعدت شمالاً إلى العراق وبلاد الشام وفلسطين حيث نرى اليوم نفس أسماء القبائل والعشائر في هذه البلدان متكرر في العراق وسوريا وفلسطين.

ثم جاءت الهجرة الأخرى الكبيرة عند الفتح الإسلامي تعزيزاً لوجود العرب المناذرة في العراق وأكبر دلالة على ذلك هوة وقوع معركة (ذي قار) بين العرب والفرس قبل الفتح الإسلامي والتي انتصر فيها العرب بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني والتي قال فيها رسول الله (ﷺ) عند وصول أخبارها (اليوم انتصف العرب من الفرس وبي انتصفوا) وكذا فقد عرفت قبائل العراق العربية قبل الفتح بصلتها بعرب اليمن وما حادثة الفتى التغلبي المسيحي الذي قتل (المزربان) القائد الفارسي وما قاله من شعر شهير خير دليل على ذلك وحتى مسيحيو شمال العراق من غير الأثوريين من الكلدان والسريان فهم عرب صعدوا شمالاً عند وصول القائد خالد بن الوليد إلى الحيرة ثم حركته غرباً لنجده رتل (العياض بن غنم) الذي حاصروه في منطقة الدومة لعدة أشهر.

لقد كان لقرار الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب بعدم تمليك الفاتحين أرضاً في العراق حرصاً على عدم توقف زخم الفتوح باتجاه الشرق أثره الكبير في دخول أكثر أهل العراق في الإسلام بعد طرد الفرس منها وبقيت الأرض لمالكيها ولما جاء الحكم الأموي وخاصة في فترة ولاية (الحجاج بن يوسف الثقفي) والذي أخذ يملك الأرض لأنصاره ومؤيديه من القادة والأصحاب بعد السيطرة عليها من مالكيها وبدون بدل أو عوض كما يروي المؤرخين.

وكذلك حصل خلال فترة الحكم العباسي الأولي حيث سيطروا على الأرض وملكوها للأمراء والأنصار وقد كانت أرض بغداد المدورة دار السلام استثناء من ذلك حيث أمر أبو جعفر المنصور بتعويض أصحابها عيناً أو نقداً كما يروي المؤرخين.

وبما سلف فقد سمى بعض المؤرخين أرض العراق بأنها أرض الملوك وهي مغتصبة حتى أن بعض الأئمة بالغ وقال أن الصلاة لا تجوز فيها.

أما لمن يسأل عن وجود هذه العواصم الأعجمية بالقرب من المدينة قيل لهم بأن ملوك هذه الأمم عند قيامهم باختلال العراق وجدوا ما لهذه المنطقة من ميزات مذكورة تفصيلاً في نصوص البحث حافزاً على السكن فيها وبناء عواصم لهم ولكن بمواد إنشائية بغدادية وبسواعد عراقية عربية وبخبرات الكوادر المهنية المحلية، وفي بعض الحالات من المناطق المجاورة وكما فعل الخليفة المنصور عند بناء المدورة كقلعة حكم وسكن للجيش ورجال الدولة مع الأخذ بنظر الاعتبار حاجات واحتمالات التوسع في الجوار منها وكما حدث فعلاً فيما بعد.

أرجو أن لا أكون قد أطلت في هذا التنويه الذي وجدته ضرورياً للقارئ الكريم ولا يساء الفهم من السرد التاريخي المجرد وخاصة بعد أن ظهرت أصوات نشاز بعد

الاحتلال الأمريكي للعراق تشكك في عروبة أهل العراق من داخله ومن خارجه **لسببين**:

أولهما: حقد هذه العناصر على هذه الدرة العربية بسبب من مزاياها المعروفة في المال والمواد الأولية والمياه وذكاء وتفوق أهله علمياً وعمقه حضارياً ولخسة وحقد هذه العناصر.

ثانيهما: ركوب البعض من العرب موجة الحقد الصهيوني التي استهدفت هذا الشعب وناصرها الصهاينة الجدد والشواذ من العرب.

أرجو أن يكون الإيضاح وافياً وأن سبب سرد المجرد في هذا البحث نابعاً من ضرورة حيادية المؤرخ ونزاهته ولكون علم التاريخ علم نقد وتحقيق وليس علم رواية وقصة.

و الـلـه من وراء القصد

المؤلف

خلفاء بني العباس يتسلسل ولايتهم وتواريخ حكمهم ملحق (   )

التسلسل	موقع العاصمة	اسم الخليفة ونسبه القريب	أهم الحوادث في عهده	عدد سنوات حكمه	طريقة وفاته ونهاية حكمه	هجرية		ميلادية	
						من	إلى	من	إلى
1)	هاشمية الأنباء	أبو العباس السفاح	إعادة الخلافة من دمشق إلى بغداد بعد نجاح ثورة بني العباس في خراسان	11 عام	توفي حريقاً بالجدري	132	145	751	762
2)	المروان دار السلام	أبو جعفر المنصور	تخطيط وبناء المدورة دار السلام في كرخ بغداد وثورة الراوندية والقضاء على أبي مسلم الخرساني	13 عام		145	158	762	775
3)		محمد المهدي بن المنصور	تأسيس الرصافة وتأسيس قصرها وجامعها	10 أعوام		158	169	775	785
4)		موسى الهادي بن المهدي		عام واحد		169	170	785	؟؟؟؟
5)		هارون الرشيد بن المهدي	إنجاز بناء الرصافة جنوب الأعظمية، وبناء قصر البركي في الرصافة والقرار في الكرخ وفيضان دجلة وإعادة بناء جامع المنصور	23 عام		170	193	786	809
6)		محمد الأمين بن الرشيد	إنشاء قصر المزندورد	4 أعوام	قتل من قبل أخيه المأمون	193	198	809	813
7)		عبدالـله المأمون بن الرشيد	حصار بغداد من قبل المأمون وسيطرته على الخلافة وفيضاتي دجلة بقطع سور بغداد	20 عام		198	218	813	833
8)		محمد المعتصم بن الرشيد	إنشاء قصر المعتصم في الجانب الشرقي، ثم انتقاله بالخلافة إلى سامراء وبناءها.	9 أعوام		218	227	833	842
9)	سامراء	هارون الواثق بالله ابن المعتصم		5 أعوام		227	232	842	847
10)		جعفر المتوكل على الـلـه ابن المعتصم		14 عام		232	247	847	861

11)		محمد المنتصر بالله ابن المتوكل		عام واحد		247	248	861	862
12)		أحمد المستعين بالله ابن محمد ابن المعتصم	محاولة العودة إلى بغداد وإنشاء سور المستعين في الجانبيين الشرقي والغربي	4 أعوام		247	252	862	866
13)		الزبير المعتز بالله ابن المتوكل		3 أعوام		252	255	866	869
14)		محمد المهتدي بالله ابن الواثق		عام واحد		255	256	869	870
15)		أحمد المعتمد على اللـه ابن المتوكل		22 عام		256	279	870	892
16)	عودة الخلافة على بغداد الشرقية	أحمد المنتصر بالله ابن الموفق		10 أعوام		279	289	892	902
17)		على المكتفي بالله ابن المنتصر		6 أعوام		289	295	902	908
18)		جعفر المقتدر بالله ابن المعتصم			خلعه جند	295	295	908	908
19)		عبداللـه ابن المنتصر		1 يوم	ملك يوما واحداً وقتله المعتز	296	296	908	908
20)		جعفر المقتدر (ثانية)		21 عام		296	317	908	929
21)		محمد القاهر بالله ابن المعتصم		2 يوم	ملك يرضي فقط	317	317	929	929
22)		المقتدر (ثانية)		3 أعوام		317	320	929	932
23)		القاهر (ثانية)		عامان	خلع وسلمت يمناه	320	322	932	934
24)		محمد الراضي بالله ابن المقتدر		6 أعوام		322	329	934	940
25)		إبراهيم المتقي بالله ابن المقتدر		4 أعوام	خلع وسلمت يمناه	329	333	940	944

26)		عبدالـلـه المستكفي بالله ابن المكتفي		عامان	خلع	333	334	944	946
27)		الفضل المطيع لله ابن المقتدر		8 أعوام		334	363	946	974
28)		عبدالكريم الطائع لله ابن المطيع	استيلاء البويهيين على الحكم	17 عام		363	381	974	991
29)		أحمد القادر بالله		40 عام		381	422	991	1031
30)		عبدالـلـه القائم بأمر الـلـه ابن القادر		44 عام		422	467	1031	1075
31)		عبدالـلـه المقتدى بأمر الـلـه حفيد القائم	استيلاء السلاجقة على الحكم	19 عام		467	487	1075	1094
32)		أحمد المستظهر بالله ابن المقتدى		24 عام		487	512	1094	1118
33)		الفضل المسترشد بالله ابن المستنظر		17 عام		512	529	1118	1135
34)		منصور الراشد ابن المسترشد		عام واحد		529	530	1135	1136
35)	بغداد في الدور العباسي الأخير	محمد المقتفي لدين الـلـه ابن ؟؟؟؟	حصار بغداد الرابع 534 هجري	24 عاماً		530	555	1136	1160
36)		يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي		10 أعوام		555	566	1160	1170
37)		الحسن المتسضيء بأمر الـلـه ابن المستنجد		10 أعوام		566	575	1170	1180
38)		أحمد الناصر لدين الـلـه ابن المستضيء		45 عاماً		575	622	1180	1225
39)		محمد الظاهر بأمر الـلـه ابن الناصر		عام واحد		622	623	1225	1226
40)		منصور المستنصر بالله ابن الظاهر		ستة أعوام		623	640	1226	1242
41)		عبدالـلـه المعتصم بالله ابن المستنصر		16 عاماً	قتله هولاكو	640	656	1242	1258

انتهاء الخلافة العباسية في العراق والعالم على يد المغول

الأمراء البويهيون وتواريخ حكمهم في بغداد

1)		معز الدولة ابن بويه		21 عاماً		334	356	946	967
2)		عز الدين بختيار ابن معز الدولة		11 عاماً		356	367	967	978
3)		عضد الدولة ابن ركن الدولة		4 سنوات		367	373	978	982
4)		صمصام الدولة ابن عضد الدولة		5 سنوات		373	377	982	987
5)		شرف الدولة ابن عضد الدولة		سنتان		377	379	987	989
6)		بهاء الدولة ابن عضد الدولة		23 عاماً		379	403	989	1012
7)		سلطان الدولة ابن بهاء الدولة		8 اعوام		403	411	1012	1020
8)		مشرف الدولة ابن بهاء الدولة		5 أعوام		411	416	1020	1035
9)		جلال الدولة ابن بهاء الدولة		18 عاماً		416	435	1025	1043
10)		أبو كاليجار ابن سلطان الدولة		5 أعوام		435	440	1043	1048
11)		أبو نصر (الملك ؟؟؟؟؟؟)		7 أعوام		440	447	1048	1055

الأمراء السلاجقة وتواريخ حكمهم في بغداد

1)		طغرك بك ابن محمد ابن ميكائيل ابن سلجوق		8 أعوام		447	455	1055	1063
2)		الب أرسلان محمد خضري ابن ميكائيل		9 أعوام		455	465	1063	1072

3)		ملك شاه الأول ابن ألب إرسلان		20 عاماً		465	485	1072	1092
4)		محمود ابن ملك شاه		عامان		485	487	1092	1094
5)		بركيارق ابن ملك شاه		10 أعوام		487	498	1094	1104
6)		ملك شاه الثاني ابن بركيارق		عام واحد		498	498	1104	1104
7)		محمد ابن ملك شاه		3 أعوام		498	511	1104	1117
8)		محمود ابن محمد ابن ملك شاه		14 عاماً		511	525	1117	1131
9)		داود محمود ابن محمد		عام واحد		525	526	1131	1132
10)		طغرلة الثاني ابن محمد ملك شاه		عام واحد		536	527	1132	1133
11)		مسعود ابن محمد ابن ملك شاه		19 عاماً		527	547	1133	1152

الملحق (   )

المراجع والمصادر
العراقية الحديثة والعربية

1. حروب الفجر الإسلام - سلسلة الثقافة العسكرية - نهاوند - فتح فارس - الطبعة الأولى - تموز 1985 - تاريخ حرب اللواء الركن شاكر محمود رامز - هو ضابط معروف في الجيش العراقي بسعة ثقافته وباهتماماته الخاصة بالبحث والكتابة وله مؤلفات عديدة في مجال الحروب العربية الإسلامية أبان فترة الفتوح الأولى. عمل في مختلف وحدات الجيش وحتى وصل منصب آمر لواء.

2. تخطيط المدن العربية الإسلامية

الدكتور طاهر مظفر الحميد ـــ وهو جغرافي عراقي بارز له العديد من المقالات والمحاضرات في مجال تخطيط المدن وهو من أوائل من ابرز التطور الكبير في الفكر الهندسي التخطيطي عند العرب قبل الإسلام وبعده مما دحض النظريات القائلة ببدائية الفكر العربي التخطيطي وخاصة لدى (ابن خلدون) في المقدمة عمل أستاذ مساعداً ثم أستاذ في جامعة بغداد لسنوات طويلة .

3. منطقة واسط- دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية -ـ مجلة سومر(العدد 26).

الدكتور صالح احمد العلي - وهو مؤرخ عراقي شهير عمل أستاذاً مساعداً وأستاذا للتاريخ في كلية الآداب جامعة بغداد وله تحريات ومؤلفات ودراسات عديدة في التاريخ العربي الإسلامي وعمل عضواً في المجمع العلمي العراقي .

ومن أبرز وأوسع مؤلفاته في التاريخ مدينة بغداد السلام - الجانب العربي - وبغداد مدينة السلام الجانب الشرقي وهما مؤلفين هامين عن التاريخ لمدينة بغداد ومرافقها الإدارية والخدمية ومدارسها وخاناتها ومساجدها.

4. واسط في العصر الأموي :

الدكتور عبد القادر المعاطيدي : وهو مؤرخ عراقي متخصص في التاريخ العباسي عمل أستاذا في كلية الآداب - جامعة بغداد وشغل منصب رئيس قسم التاريخ فيها وله العديد من الدراسات والأبحاث والمؤلفات .

5. تاريخ العمارة العراقية : دار الرشيد - 1983

المهندس شريف يوسف: وهو مهندس بارز مهتم بالعمارة العراقية المشرقية الملائمة للأجواء الحارة في الشرق الأوسط وله اهتمامات تاريخية متميزة.

6. المدن الإسلامية

الدكتور ناجي معروف: مؤرخ عراقي ومثقف برز في مجال التدريس في جامعة بغداد لسنوات طويلة، له اهتمامات أدبية كثيرة نشرت في المجلات الأدبية – رأس كلية الآداب بجامعة بغداد عندما أصبح عميداً - ويعتبر مرجعاً في عمارة المدن العربية.

7. تخطيط الكوفة

الدكتور كاظم الجنابي : وهو مؤرخ وأستاذ عراقي درس لسنوات في كلية الآداب - جامعة بغداد له اهتمامات خاصة بالعمارة لعربية الإسلامية وخاصة في مجال تخطيط المدن التي حصرت بعد الفتح الإسلامي.

8. جغرافية لعراق الطبيعة :

الدكتور جاسم محمد الخلف: وهو أستاذ جغرافي مشهور درس في جامعة بغداد والمستنصرية - قسم الجغرافية لسنوات عديدة وله مؤلفات وبحوث حول الوضع

الجغرافي لمنطقة العراق والشرق الأوسط عموما (قسم الجغرافيا) في جامعة بغداد لسنوات.

9. دليل خارطة بغداد - وهم مرجع مهم في الخرائط الخاصة ببغداد

الدكتوران مصطفى جواد واحمد سوسة.

الدكتور مصطفى جواد – وهو لغوي شعير ويعتبر من أهم وأشهر اللغويين العراقيين في أواسط القرن الماضي وله دراسات مهمة ومشتركة مع أساتذة آخرين عن المدن العراقية منذ العصر العباسي كان مقدما لبرنامج لغوي شهير في التلفزيون العراقي باسم (قل ولا تقل) أبرز فيه الأخطاء الشائعة في مفردات اللغة العربية وله اهتمامات تاريخية بارزة عن التاريخ العراقي العباسي وما قبله وما بعده.

الدكتور احمد سوسة وهو أستاذ عراقي شهير كان مهندسا في الري اشترك مع (وليم ويلكوكس) المهندس البريطاني الذي رافق حملة الجنرال مود ونظم مشاريع الري في العراق وغيرها، وتخصص الدكتور أحمد في هندسة الري وله بصمات مهمة في مشاريع الري الحديثة ومؤلفات خاصة عن سامراء في العصر العباسي وهو الآخر من المهتمين بالتاريخ العباسي.

كان يهودي الديانة واعتنق الإسلام في بداية القرن الماضي وله مؤلف ظريف عن الموضوع بعنوان (في طريقي إلى الإسلام).

10- المدن الإسلامية :

الدكتور محمد عبد الستار عثمان: وهو أستاذ متخصص في العمارة الإسلامية العربية، درس في جامعة الكويت لسنوات عديدة ويعتبر مؤله هذا من المصادر

المهمة عن تاريخ المدينة العربية القديمة في الوطن العربي وخاصة مدن اليمن والعراق وبلاد الشام ومدن المغرب العربي الإسلامي.

والمؤلف أبرز بشكل رئيسي طريقة اختيار مواقع المدن وكيفية تخطيطها وتصميمها وتوزيع المرافق الخدمية الرئيسية فيها.

11- حضارة العراق - الجزء الخامس ضمن مجموعة حضارة العراق التي أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية بالتعاون مع مجموعة كبيره من الباحثين العراقيين والمؤرخين وأساتذة الجامعات العراقية.

الدكتور خالص الأشعب: وهو أستاذ جغرافي معروف عمل محاضراً بجامعة بغداد والمستنصرية وعمل رئيس قسم الجغرافية في كلية الآداب وله دراسة ضمن زمرة متخصصة في تخطيط المدن.

12. مبادئ الحرب - دراسة مقارنة عن مديرية مبادرة عن مديرية التطوير القتالي في وزارة الدفاع العراقية -صادرة عام 1985 .

اللواء الركن حارث لطفي الوقي، ضابط عراقي متخصص في الدفاع الجوي ومن المشتغلين بالبحوث في دائرة التدريب وكلية الأركان العراقية وله إصدارات عديدة في المجالات العسكرية العراقية.

13. مبادئ الحرب في العصر الحديث: دراسة صادرة عن مديرية التطوير القتالي في وزارة الدفاع العراقية وكلية الأركان العراقية.

العقيد الركن حازم عبد الرزاق شهاب، ضابط عراقي مثقف معروف بكتاباته في المجلات العسكرية وكلية الأركان العراقية.

14. تنظيمات الجيش في الدولة العباسية - دراسة ملحق بالمجلة العسكرية صادرة عام 1989م .

الدكتور خالد جاسم الجنابي: وهو أحد أساتذة التاريخ العربي الإسلامي العباسي عمل أستاذاً في جامعة بغداد - كلية الآداب وكذلك في الجامعة المستنصرية - له دراسات تاريخية عديدة عن العصر العباسي وخاصة في جانب الجيش والجندية العباسية .

15. الجندية في الدولة العباسية: وهي دراسة خاصة ضمن رسالة مقدمة إلى كلية الأركان ضمن دراسة الماجستير .

الرئيس الركن الثابت نعمان (رتبة ولقب في الجيش العراقي حلت محلها رتبة النقيب) وثابت نعمان ضابط معروف في الجيش العراقي، اشترك في العديد من الفعاليات إن الثلاثينات والأربعينات في القرن الماضي وسجن وأحيل على التقاعد بعد سيطرة الانكليز الثانية على العراق بعد ثورة مايس عام 1941 م المعروفة بثورة العقداء الأربعة التي أتت بحكومة رشيد عالي الكيلاني المعروفة بحكومة الدفاع الوطني.

16. اليمن ماضيها وحاضرها، دراسة آثارية فريدة أجريت من قبل عربي مصري متخصص وهي من الدراسات لنادرة والشاملة حيث تعج المكتبة اليمنية بالدراسات الآثارية الجارية من قبل آثاريين أوربيين وأمريكان وتندر فيها الدراسات العربية.

الدكتور احمد فخري: وهو أستاذ أثاري مصري حاضر في الجامعات المصرية وشغل مناصب عديدة في إدارة الآثار العامة المصرية وعمل مديرا لها سنوات، ذهب إلى اليمن في بعثة أثرية نادرة لأغلب مدن اليمن القديمة مثل مأرب وصرواح ومدينة

بلقيس، وجمع في الدراسة معلومات مهمة عن اليمن القديمة ونشر في الكتاب مصورات لمحفورات حجرية وله المدخل.

17. هذه هي اليمن، دراسة قيمة عن المدن التاريخية فيما قبل الإسلام واختيار مرافقها وتخطيطها وأساليب الدفاع عنها وأبرز الجوانب الايجابية في الفكر اليمني الدفاعي نمط ما بعد السواحل المعرضة دوما لهجمات الغزاة من حملات عسكرية وهجمات قراصنة.

الدكتور عبدالـلـه الشور.

18- الحضر مدينة الشمس، دراسة نادرة عن مدينة الحضر النبطية العراقية وهي من المدن الحضرية العربية الصحراوية لأنباط العراق.

فؤاد سفر - محمد علي مصطفى، وهما باحثان عراقيان شاركا في بعثات أثرية لمديرية الآثار العراقية لمدن أثرية في شمال العراق وكتبا عنها.

19- التحصينات الدفاعية في مدينة الحضر، وهي مصدر مهم لدراستي لاهتمامه بالأمور الدفاعية أولا ولعلاقة تحصينات مدينة الحضر بتحصينات المدورة - دار السلام بسورين كبير وصغير وخندق مائي وعن موضوع التصميم الدائري للمدينة .

واثق الصالحي: وهو من المؤرخين العراقيين ذوي الاهتمام الخاص بمدينة الحضر.

20. الحضر وهو مؤلف يبرز تصاميم المدينة وتواريخها وتفاصيل مرافقها وخاصة الدينية مها - ماجد الشحري.

21 . فيضانات بغداد، وهو مؤلف نادر يجمع التاريخ بالمهنية الخاصة بتنظيم الري العباسي.

الدكتور احمد سوسة، سبق التعريف به.

22- المجلد البغدادي، وهو بحث يثبت تاريخ العسكر العراقي العباسي ويسميه البغدادي لبروز المدينة في هذه التواريخ.

محمد سعيد الكردي، باحث عراقي له اهتمامات خاصة بتنظيم الجند وتسليحه وتجهيزه وأساليب قتاله.

23- مجلة سومر، 1952م، مقالة وأخرى في 1958م.

الدكتور مصطفى جواد، سبق التعريف به.

24- مجلة سومر - 1945م، مقالة.

كوركيس عواد، أثاري ومؤرخ عراقي بارز له الكثير من الكتب والأبحاث وبخاصة عن بغداد العباسية، عمل أستاذاً لسنوات عديدة في كلية الآداب، جامعة بغداد والمستنصرية.

25- المدرسة المستنصرية 1935م علماء المستنصرية 1960 مؤلفان يبرزان الدور المهم للمرافق العلمية في مدينة بغداد العباسية.

الدكتور ناجي معروف، سبق تعريفه.

26- المدرسة المستنصرية، 1960م.

الدكتور حسين أمين، وهو مؤرخ عراقي شهير له الكثير من الكتب والأبحاث وبخاصة عن بغداد العباسية عمل أستاذاً لسنوات عديدة في كلية الآداب، جامعة

بغداد والمستنصرية وحاضر عن هذه المواضيع في مناسبات عديدة، شغل منصب رئيس اتحاد المؤرخين العراقيين ورئيس اتحاد المؤرخين العرب لسنوات عديدة وهو أستاذي المشرف على رسالتي إلى الدكتوراه.

27- هجرة الرابع البغدادية:

كوركيس عواد - عبد الحميد العلوجي، باحثان عراقيان معروفان لهما آثار عديدة في موضوع تاريخ بغداد - وهما بغداديان يعتزان ببغدايتهما ولهما الكثير من المقالات.

28- مباحث عراقية، سلسلة مقالات عن مختلف الشؤون العراقية، يعقوب كوركيس: باحث عراقي شهير وأثاري ومؤرخ معروف.

29- تاريخ مسابقة بغداد وآثارها:

محمود شكري الألوسي: باحث ومؤرخ وأديب عراقي له آثار متعددة في المجالات العلمية والأدبية.

30- بغداد بين الأمس واليوم، مؤلف أصدرته أمانة بغداد وجمع معلوماته اثنين من المهندسين الهاوين للتاريخ يتناول وضع المدينة منذ بناء أبو جعفر لمدينته المدورة وحتى الثمانينات من القرن الماضي، جبرا إبراهيم وإحسان فتحي.

المراجع والمصادر العربية القديمة

1) القرآن الكريم.

2) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد - دار صادر، بيروت، وهو أبو عبدالـلـه ابن زكريا بن محمد القزويني الذي ينتهي نسبه إلى عالم المدينة المنورة أنس بن مالك، ولد على الأرجح عام 650هـ بقزوين وتوفي عام (682هـ) وهو ينتمي إلى القرن السابع الهجري.

3) الطبري: تاريخ الطبري:

وهو الإمام محمد بن جرير الطبري صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ توفي ابن جرير، يوم الاثنين وقت صلاة الظهر طلب ماء ليجدد وضوءه فقيل له يؤخر الظهر ليجمع بينها بالعصر قام وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها وأتم الصلاة وأتقنها وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر بن كامل وقبل خروج روحه قيل له: يا أبا جعفر أنت الحجة بيننا وبين الـلـه فيما تدين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا بينة لنا نرجو آية السلامة في معادنا، فقال للذي أدين الـلـه به وأوصيكم بما مثبت في كتبي فاعملوا به، وعليه وكلامنا هذا معناه وأكثر من التشهد وذكر الـلـه ومسح يده على وجهه وأغمض بعده بيده وبسطها وقد فارقت روحه الحياة وجه النهار.

4) البلاذري: فتوح البلدان:

هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري مؤرخ فارسي مسلم عاش معظم حياته في بغداد وانتقل بين سوريا والعراق وعمل في البلاط العباسي، ومن أشهر مؤلفاته (فتوح البلدان) و(أنساب الأشراف).

5) الخطيب البغدادي:

تاريخ بغداد وهو أحمد بن ثابت بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (24 جمادي الثاني 392هـ- 1 ديسمبر 1034م - 1069، مؤرخ عباسي مشهور.

6) ابن خلدون:

المقدمة دار القلم، بيروت، 1978م طبعة حديثة وهو عبدالرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير ورائد علم الاجتماع الحديث الذي ترك تراثاً ما زال تأثيره ممتد حتى اليوم الحاضر في شمال إفريقيا وكانت أسرة بن خلدون التي تنحدر من أصول عربية كما ذكر في كتاباته أسرة ذات في أشبيلية في الأندلس وهاجر بن خلدون ثانية إلى تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين.

7) الشابشتي:

الديارات، وهو مؤلف أجمل فيه وصف الأديرة في جزيرة العرب ومصر وبلاد الشام والعراق ونقل عنه ياقوت الحموي وهو أبو الحسن علي بن أبي أحمد (أو محمد) مؤرخ وجغرافي مصري توفي في العام (988م) نشأ في القاهرة وهو من أصل ديلمي عمل أميناً لمكتبة الخليفة الفاطمي (العزيز) ومؤرخاً لبلاطه.

8) المسعودي:

مروج الذهب، هو علي بن الحسين بن علي المسعودي وكنيته أبو الحسن ولقب (قطب الدين) وهو من ذرية عبد الله بن مسعود وهو عالم فلك وجغرافيا، ولد في بغداد وتعلم بها، وكان كثير الأسفار وقد زار بلاد فارس والهند وسيلان وبحر قزوين والسودان وجنوب شبه جزيرة العرب وبلاد الشام وانتهى به المطاف في أسفاره إلى فسطاط مصر، حيث توفي فيها.

9) الدينوري:

الأخبار الطوال وهو أبو حنيفة أحمد بن داوود الملقب بشيخ علماء النبات، ألف كتاب النبات الذي رتب فيه النباتات على حروف المعجم واهتم بكل ما قيل فيها نثراً وشعراً حتى أواخر القرن الثالث الهجري، كان منهجه في تأليف كتابه يعتمد على وصف مئات من النباتات التي رآها بنفسه، أو سمع عنها من الأعراب الثقات وأضاف الدينوري إلى ما نقل عن زياسقور يذوس العالم الإغريقي الذي اشتهر بمعرفته بالنباتات الطبية إضافات أساسية، وأصبح بذلك عمدة الأطباء العشابين، ونقلت عنه أكبر كتب الصيادلة كمفردات الأدوية لابن البيطار.

10) أبو العفراء:

تقويم البلدان وهو أبو الفداء الملك العالم الأديب، الشاعر، المحنك، الشجاع المجاهد، الذي استطاع بحنكته وصبره ودرايته وشجاعته أن ينتزع الفريسة من فم الأسد، فقد رأينا كيف استطاع أن يستعيد ملك حماة وأن يعيد المملكة الأيوبية إليها بعد أن بعدت منها، أثنى عشر سنة وأن يخرج عنها عاملها (استدمر) مرغماً وقد توفي المظفر الأول يوم الجمعة 19 رمضان سنة (187هـ) أثناء حصار (ملاذ كرد) في شرق الأناضول.

11) الذهبي:

سير الأعلام والنبلاء، وهو محمد بن أحمد بن عثمان (قايماز) الذهبي ولد في مدينة دمشق في (ربيع الآخر 673هـ- أكتوبر، 1274م) نشأ في أسرة كريمة تركمانية الأصل يعمل عائلها في صناعة الذهب، برع فيها وتميز حتى عرف بالذهبي وكان رجلاً صالحاً محباً للعلم، فعني بتربية ولده وتنشئته على حب العلم وكان الكثير من أفراد عائلته لهم انشغال بالعلم فشب الوليد يتنفس عبق العلم في كل ركن من

أركان بيته، فعمته ست الأصل بنت عثمان لها رواية في الحديث، وخاله علي بن سنجر وزوج خالته من أهل الحديث.

12) ابن القيه:

هو إبراهيم بن نصر، ولد في حماة عام (572هـ) وتوفي عام (637هـ) وله شعر جميل:

ضاقت علي ثلاثة رزقي وصدري واحتمالي

وعدمت حتى ثلاثة جلدي وصبري واحتيالي

له الكثير من الكتابات في التاريخ.

13) ابن الأثير:

الكامل في التاريخ، هو عز الدين أبي الحسن علي الشيباني (555هـ-630هـ) المعروف بابن الاثير الجزري، مؤرخ عربي إسلامي كبير، عاصر دولة صلاح الدين الأيوبي، ورصد أحداثها ويعد كتابه الكامل في التاريخ مرجعاً لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي.

14) المقدسي:

أحسن التقاسيم، وهو أبو محمد عاصم بن محمد بن طاهر البرقاوي، فالمقدسي شهرته العتيبي نسبة إلى قرية برقامر من أعمال نابلس ولد فيها عام (1378م) وله آثار تاريخية كثيرة.

15) ابن جبير:

الرحلة، وهو أبو الحسن بن أحمد بن جبر الكناني الأندلسي ولد في بلنسية وتلقى علومه الأولية عن أبيه دروس القرآن الكريم وعلوم الدين حتى عد من كبار وفقهاء عصره وكان أدبياً وشاعراً مجيداً كريم الأخلاق، اهتم بالرحلات فرحل من الأندلس إلى المشرق ثلاث مرات وألف كتابه المعروف باسم (رحلة ابن جبير)

الذي وصف فيه مشاهداته في رحلاته تلك وكذلك رحلاته إلى إيطاليا من عجائب الدنيا وغرائب المشاهير وتحدث عن الأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاق للبلدان التي زارها وعلى هذا الكتاب قامت شهرته الأدبية، استقر أواخر أيامه في مصر وتوفي في الإسكندرية، ترجم كتابه إلى عدة لغات كما طبع عدة مرات.

16) ابن الجوزي:

مناقب بغداد - وهو أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القريشي اليمني البكري، ولد في بغداد سنة (510هـ-1116م) توفي في الثاني عشر من رمضان سنة (592هـ) في بغداد وهو من المؤرخين الثقات.

17) ابن القوطي:

هو عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني المروزي الأصل الشيباني البغدادي أبو الفضل كمال الدين وهو عدا كونه مؤرخاً شهيراً فهو يعد من الفلاسفة، من نسل معن بن زائدة مولده بدرب القواس شرق بغداد يوم (17 محرم عام 645هـ) ووفاته في بغداد عام (733هـ) من أشهر مؤلفاته التاريخية (الحوادث الجامعة).

18) القريزي:

الخطط عرف بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة فقد كان أجداده من بعلبك وحضر والده إلى القاهرة وولي بها بعض الوظائف، ولد المقريزي حسبما يذكر هو هن نفسه بعد سنة (760هـ) وابن حجر يقول أن مولده كان سنة (766هـ) أما وفاته فهي محل اتقاقه حيث توفي في مصر (عصر الخميس 16 رمضان 5845) ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بحوش الصوحية اليبرسية.

19) ياقوت الحموي، المعجم.

المراجع والمصادر الأجنبية:

1) ليوابنهايم، بلاد ما بين النهرين (1981م) مترجم إلى العربية.

2) جاكوين، مجلة العراقة، مقالة، العدد (1960/21م).

3) جي.ام.ليز واين.إيلي.فالكون، التاريخ الجغرافي بسهول البحر الأبيض المتوسط، المجلة الجغرافية، 1952م.

4) لي ستراينج، بغداد في عهد الخلافة العباسية.

5) أرنولد توينبي بت، الرحلة إلى أفغانستان (1960م).

6) هرتقبيلد، نزهة أثرية.

7) كروزويل، العمارة الإسلامية الأولى.





المؤلف في سطور

- مواليد عام ١٩٣٦ .
- دخل الجيش العراقي في العام ١٩٥٤ م ومنح رتبة ملازم في العام ١٩٥٧م.
- دخل صنف الهندسة العسكرية والتحق بمدرسة الصنف وتخرج منها في العام ١٩٥٨ م .
- دخل كلية الأركان العراقية عام ١٩٦٤ م وتخرج منها في العام ١٩٦٦ م .
- خدم في ألوية المشاة والمشاة الآلي والمشاة الجبلي بصفته ضابط ركن ، ثم آمرا لفوج مشاة آلي ثم جبلي .
- درس في هذه الفترة في الدراسات المسائية لكلية اللغات ثم كلية الإدارة والاقتصاد .
- عين آمرا لمدرسة صنف الهندسة العسكرية في العام ١٩٧٥ م ثم مديرا للصنف في الأعوام من ١٩٧٨م و حتى العام ١٩٨٥ م ، ثم نقل إلى منصب مدير الأشغال حتى العام ١٩٨٧ م ، حيث خرج من الجيش .
- له العديد من الأبحاث في مجال الصنف وحرب المياه والاغمار والتحصينات والجسور العسكرية .

عنوان المؤلف : الأردن - عمآن - 06 5680446 - 079 6769321

دار دجلة
ناشرون وموزعون

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٤٧٥٥٠ خلوي: ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٥٢٦٥٧٦٧
ص.ب ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ - الأردن
بغداد - شارع السعدون - عمارة فاطمة
تلفاكس: ٠٠٩٦٤ ١ ٨١٧٠٧٩٢ خلوي: ٠٠٩٦٤ ٧ ٧٠٥٨٥٥٦٠٣
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com

9789957712020